مؤلفات

عبد الله الطوخي

المجلد الثالث

الروايات

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

- فجر الزمن القادم
- امرأة فوق الثلج
- محاكمة فأر
- العودة للحياة

• فجر الزمن القادم

«في مأساة أولاد العمّ»

- ١ -

حدث الدوى

الهول الأعظم ..

اكتسحته جميع المشاعر فى برهة خاطفة كالبرق تجمعت فى شكل سحابة غطت على وعيه وهو يسقط منبطحا ببطنه على الأرض سادا أذنيه باصبعيه كما تعلم .. وغريب جدا أن يتجسـد حب الحياة فى المحافظة على الأذنين وعلى السمع ، لكن القنبلة التى انفجرت ومن قوة انفجارها كانت تضاريس الأرض تتغير ، وأحس انه يغوص فى الرمال أو الرمال هى التى تغوص به .. وود لو يتشبث بسطح الأرض ، بذرات الرمال ، حتى لا يستمر فى الانحدار أو الغوص ، غير أن الانفجار الثانى حدث مسبوقا بصفير قنبلة ، أو صاروخ لا يدرى ، فشدد من ضغط اصـبعيه على طبلة أذنيه يحميهما ويحمى وعيه من انفجار مؤكد .. وعادت الأرض تترنح .. ترتفع وتنخفض وتتساقط وتتماسك وتتفتت .. ومع تناثر الشظايا

باشعاعاتها النارية دارت به دوامة رملية كانت تكمل لحن الشيطان فدفن عينيه فى الرمال يحمى بصره أيضا ·· ثم بعد لحظة غاب فيها عن الوجود ، أحس أن كل شيء توقف ·· الانفجارات والدوى وصفير الدوامة ، والأرض من تحته أو من فوقه سكنت ··

خفف قليلا من ضغط يديه على أذنيه وانفاسه تلهث : هل انتهت الغارة حقا ؟ هل مازلت أعيش ؟ وأحس بأنفاسه تروح وتجيء · هل مازلت أملك أطرافى ·· وسمعى ·· وبصرى ؟ كانت الدنيا ظلاما · واذ رفع يديه قليلا احس بحركته متهافتة ، لكن ·· هاهما اليدان موجودتان على أية حال ، والذراعان ايضا · وساقاى ؟ واتجه بوعيه الى ساقيه وقدميه ·· وأصابع القدمين ·· مازال يحتفظ بأطرافه سليمة · وبطنى ؟! ربما بطنى مشقوقة ، وأمعائى خرجت · وتحسس بطنه · ها هى ملابسى مازلت أرتديها ·· لا اثر فيها للزوجة دماء ·· و ·· وعيناى ؟ (ورمش) : لا أحس فيهما بألم · ولكن من يدرى ، ان فقد البصر لا يقترن بالضرورة بالآلام · يعرف ضباطا وجنودا فقدوا بصرهم بفعل الصدمة العصبية ، وليس برصاصة أو بضربة شظية ·· كيف أتأكد أنى لم أفقد البصر ؟ هذا الظلام المتراكم الكثيف ·· أين أنا ·· بل أين كنت أنا قبل أن ··

ولم يكتمل سؤاله ، فقد سمع الصفير يولول من جديد ، وتراءت له القنبلة مسددة عليه هو بالذات هذه المرة ، تنتقم من استمراره فى الوجود ، فانبطح دافنا كل وجهه فى الرمل سادا أذنيه من جديد ، ومع ارتطامة وجهه بالرمل انفجرت القنبلة ومادت الأرض ، واحس انه يعاود الانحدار والغوص ·· ثم ·· لم يشعر باى شيء ·· لم يشعر حتى بأنه كف عن الانحدار والغوص ·

فقد الوعى ··

--*

كانت سيمفونية الرعب قد انتهت ، حين بدأ يعود الى وعيه بالتدريج · واستيقظ وعيه أول ما استيقظ على صوت أنين · صوت انسان يتأوه · فرحة هائلة اكتسحته ، أنه يسمع صوت انسان ·· ثمة انسان في الحياة ، حتى لو كان يتألم ·· التأكيد بأنه موجود أيضا في الحياة · وأنه أيضا ـ وهذا هو المهم ، أنه ليس وحيدا في هذا العالم المرعب · وشرع أذنيه ·· يتسمع الأنين ·· كلحن رائع جميل ·· « أجل · ليس مهما أن نتألم · المهم أن نكون على قيد الحياة ·· وأرى وجهك مرة أخرى ، مرة واحدة وأخيرة يا «نور» ·· بوجهك المستدير ، وشعرك المفروق من الوسط ·· ثم تميلين بشفتيك على شفتي وأمتص رحيق الحياة ·

واذ كان على وشك امتصاص الرحيق ، أفاق منتفضا على صرخة ألم شديدة · ومن فرط قربها أحس أنها تكاد تخرق طبلة أذنه · وأدرك على الفور أنه جريح آخر ، داهمته الغارة الاسرائيلية كما دهمته ، وأنه طريح الرمل بجواره · فاهتز بالحنين وبالشجن وبالمشاركة · وقال وهو يجاهد : « أين أنت ؟ » وراح يقلب عينيه في الظلام · جاءته الاجابة صرخة ألم جديدة ، فهم بالنهوض ليسعف صاحبها ، لكنه وجد نفسه يتأوه والحركة تطلق في أنحاء جسده صواريخ من الألم ، فلاذ بالسكون وبوضعه الأول الذى كانت الآلام معه هادئة · عاد طريحا بظهره على الرمال · كف الجريح عن الصراخ ، أو تعب من الصراخ ، ولم يعد يصدر عنه غير الأنين ·· قال له وهو يجاهد الألم :

ـ أنا آسف ··· أنا موجوع مثلك ··

وتوقع ردا · غير أنه لم يسمع غير الأنين ·

ـ واضح أننا قريبان من بعضنا ·· ها أنا ·· أمد لك ذراعي ·· على آخره ·· أمده على الأرض · مد لى أنت أيضا ذراعك ·

واذ راح يتحسس بكفه على الأرض باحثا عن أى أثر لزميله ، مقاوما الآلام التى امتاج بها كل جسمه وقد انقلب على بطنه وبدأ يزحف فى اتجاه الأنين ، وذراعاه أمامه : وأحس بصدمة كهربائية سعيدة حين وجد يده تعثر على يد أخرى ، فتشبث بها وهو يصيح صيحة نصر مقرونة بالألم ·

ـ وجـــدتك ··

وأمسك بالكف يريد أن يسلم عليه · لكن اليد كانت خالية من أية قدرة على الحركة · وكان المجهود الذى بذله فى الزحف على الرمل قد أهاج فى جسمه كل الآلام ، فعاد يتأوه · وتاق الى وضعه الأول ، فانقلب على ظهـــره كما كان · أبقى كفه على كف زميله الجريح ·· « هذه الحركة تؤلمنى · لكنها أيضا تعطينى السعادة · أن تمنحنى يد انسان فى هذا الظلام ·· فى هذا الجو المرعب » ·

ـ أين نحن الآن ياصديقى ؟ حاول ·· أرجوك ·· أن ترد على ·· بكلمة أو كلمتين ·· لا أريد كلاما كثيراً ·· أعرف أنك أيضا مصاب · ولكن أية اصابات لا أعرف ·· ولا أريد أن أعرف · المهم أننا مازلنا نعيش ·· ياصديقى ·· وسنعيش ·· ستعيش ·· و ·

وسكت لحظة · تنبه الى أن صاحبه كف عن الأنين · ها هو الاحساس بالمشاركة بدأ يلعب دورا فى تخفيف الألم · وضغط بيده على الكف ، ينتظر أى رد فعل ·· نبضة أو خفقة · لكن سكونا مروعا واجهه مع الظلام · وخشى أن تكون اليد التى فى يده الآن يد انسان ميت · انسان مات فكف عن التألم والأنين ، وأنه الآن بجوار جثة هامدة · وبقوة الرفض المفزوع من شبح الموت ، أن يجد نفسه مع ميت فى الظلام ، انبطح مرة أخرى على بطنه ، وراح يتحسس فى ذلك الراقد بجواره على الرمل ·

ـ قل لى أى كلمة · تحرك أى حركة · أطمئن الى انك مازلت حيا ·· أين صدرك ·· يسار صدرك ·· أين قلبك ·· أسمع دقاته ·

ورغم الآلام ·· بجهد هائل ، وضع اذنه على موضع القلب وصاح :

ـ قلبك حديد · قلت لك انك ستعيش · ستعيش ياصديقى ·· ها أنا استمع لدقات قلبك مرة أخـــرى ·· هاهى ·· يا للمعجزة ياصاحبى ·· معجزة القلب ·· تك ·· تك ·· تك ·· انه صوت الله· يقول لنا : ان كان الموت من حولنا ، فالحياة مازالت فى داخلنا · هل تحس بدقات قلبك ؟ اسمعها معى ·· ليس هناك فى الدنيا صوت أجمل من صوت القلب ·· وهو يدق ··

فى تلك اللحظة ، فوجىء باليد تتلمس رأسه ثم تستريح عليها · زغرد قلبه بالفرح ·

ـ بدأت تعود الى نفسك ياصديقى · قل لى ما اسمك ، وكتيبتك التى عبرت معها ·

لكنه لم يسمع غير همهمات وكلمات مضغومة ·· مختلطة ·

ـ عظيم على أية حال · كما عدت أنا الى وعيى بالتدريج ، ستعود أنت أيضا الى وعيك بالتدريج ··

« ولكن هل حقا أنا عدت الى وعيى ؟ أين كنت بالضبط لحظة الغارة ؟ وأين أنا الآن ؟ » ·· وسرت فى جسده قشعريرة · ارتسم امامه المنظر بالكامل ، ليس منظرا واحدا ، بل فيلما ·· شـــيئا كالخرافة · لا · ليس خرافة ، بل حقيقة · وصاح باليد التى تحتضن رأسه ·

ـ لقد عبرنا ياصديقى · عبرنا ·· وهاجمناهم فى مكامنهم ،

متلحفنا العار · مستسخناه · كنت أمشى فى قريتى مطرق الرأس خجولا · سنعود الى بلادنا مرفوعى الرأس · كنا لحظة الغارة نطهر مخابئهم ·· نحن الآن فى أحد حصونهم ·

فى تلك اللحظة سقطت حزمة جديدة من الضوء على وعينيه ، وتذكر بالضبط أين هو الآن ، فانتابته رجفة : لقد دخل حصن العدو مهاجما ولم يخرج منه · وداهمه الشعور بأنه فى مصيدة ، هو وزميله ··

ولكن ··

وبرق فى ذهنه خاطر جعل يده تبتعد عن اليد المستريحة على رأسه · فمن يدرى ·· قد يكون هذا الجريح جنديا أو ضابطا اسرائيليا !

واندفعت الى رأسه دفقة دماء حارة ·· وأسرعت دقات قلبه ·· أجل « والحرب مازالت مستمرة · والحرب خدع ·· ومفاجآت » ·

وصرخ بغضب : قل لى من أنت · يجب أن تقول لى من أنت · أو ·· قل أية كلمة ·· انطق بأى شىء · من كلماتك ·· من لهجتك سأعرف من أنت ·

وجاءه الجواب · كلمتان أو ثلاثة · ورغم ضعف الصوت وخفوته ، الا أنه انتفض من رقدته · خيل اليه أن قنبلة أو صاروخا جديدا فى الطريق اليه :

انه اسرائيلى !

وغريزيا تحسست يداه ملابسه بحثا عن سلاح · وساعده الظلام على ذلك ، لكنه أدرك أنه أعزل · وفكر بسرعة « هاهى الفرصة أمامى سانحة · هاهى رقبته فى متناول يدى · بضغطة واحدة حاسمة

أجهز عليه . واكون قتلت يهوديا .. كم قتلوا منا » . وتتابعت أنفاسيه وهو طريح الرمل بجوار عدوه المفاجيء .. « نعم .. لا يصح أن أفوت هذه الفرصة . فهو الآن عاجز . لو كان هو فى مكانى لمزقني بالرصاص ، أو احرقنى بالنابالم .. قصص حرب ٦٧ .. الانسحاب .. والعار .. هاهى الفرصة المؤكدة لمسح العار .. والدنيا ظلام . وأحس بأصابعه تتحرك منه مقتربة من الراس ، هابطة الى الرقبة - لحظة واحدة وينتهى منه . غير أن يديه تراجعتا ، وداهمه شعور غريب . انتابته رغبة فى أن يرى هذا الذى سيقتله : ما شكله ، وما سنه . طويل أم قصير . نحيف أم سمين . « حين أعود الى قريتى وأحكي لهم عن ذلك اليهودى الذى قتلته ، أهو ضابط أم جندى ، رجل كبير متزوج وله أولاد ، أم شاب أعزب مثلى وله حبيبة أو خطيبة . ماذا سأقول عنه ؟ (وكان أنين الجريح قد عاد) ثم ماذا سأقول أيضا : قتلت رجلا في الظلام وهو ملقى على الأرض عاجزا يلفظ أنفاسه . أي بطولة في ذلك ؟ حتى قوانين الحرب الدولية تمنع هذا » . غير أن أصابعه عادت تدق عليه وهي قرب الرقبة . « وهل النابالم وقنابل دمدم .. قنابلهم .. تتمشي مع قوانين الحرب الدولية .. وشراكهم الخداعية ، ومدارس الأطفال التي هدموها . وبيوت الفلاحين .. وتراءت له احدى القرى مهدمة ..

- ووتر .. ووتر ..

قالها الجريح بالانجليزية . بصوت مجهد ، يطلب ماء ليشرب . قال له بصوت صارم :

- لو ووتر (وواصل بالانجليزية) لا شـــىء هنا .. غير الظلام .. والموت ..

- سأموت من .. العطش ..

- وأنا ايضا أموت .. من العطش . هل أنت يهودى ؟

– نعم ، وأنت ؟ مصرى .. أليس كذلك ؟

قال متحديا – مصرى ومسلم . أنتم السبب فيما نحن فيه الآن .

– نحن السبب .. كيف ؟ (وازدادت كلماته تقطعا) أين أنا . أين أنت ياسارة ؟

– من سارة هذه . حبيبتك أم زوجتك .. أم أمك ؟

ولم يأته غير هذيان . وبدا له الموقف محددا وواضحا بالتمام . هو عدوه .. لاشك فى هذا ، لكنه عدو عاجز .. يتعذب .. ونذالة منه أن يضيف الى هذا العذاب عذابا آخر . أليس من الجائز أن يكون هذا هو أيضا مصيره : الموت عطشا .. وجوعا .. وبردا فى الصحراء . فخارج منطقة الظلام أو القبر الذى يرقد فيه لا يدرى أى شىء .. كيف تدور المعركة الآن ؟ وهل صيحات النصر الوحشية مازالت تخترق أمواج الرمال والحصون حتى يدخلوا اسرائيل ؟ أم أن ما حدث لى ، حدث للآخرين وتوقف الزحف العظيم .. تتكرر الهزيمة .. انتحر .. وصرخ : أقتلك .. أقتلك ..

وأحس فجأة باعياء شديد . وبجفاف فى حلقه ، فراح يبلع ريقه ، يريد أن يبلل حلقه المتخشب .

– أنا أيضا .. عطشان ..

– يوجد .. هنا .. ماء ..

انتفض : ماذا تقول ؟ يوجد هنا .. ماء ؟ أين .. هذا الماء ؟

– الماء .. الماء .. فى الـ .. فى الـ ..

وعاد المصرى يستصرخه .. يستعجله ..

ـ فى الماذا ؟ قل لى بربك ·· أين هذا الماء · قطرة واحدة من الماء ··

ـ فى الـ ·· فى الـ (وخفت الصوت وأصبح هذيانا) فى البئر ·· بئر سبع ·· بئر زمزم ·

ـ أنت تخرف (وبأسى ساخر) كيف ظننت للحظة ، أن الحياة ستعود على يديك ·· أيها اليهودى !

وحطت عليه موجة من اليأس سرعان ما استسلم واسترا لها · وأحس بجسمه ممددا بطوله على الأرض · وتناثرت أمامه بقع ضوئية واشعاعات رسمت له صورا فى الظلام ·· وتراءى له أنه يزف ، على جسر الترعة ، وهى تسير بجواره ، « نور » ، لابسة ثوب الزفاف والطرحة التل البيضاء ، ويتجهان الى مقابر القرية ، فى قلب الحقول الخضراء ·· فى القبر يستطيعان أن يخلقا معا عالما جميلا ··

ـ سوف أذهب ·· الى الجنة ·· أما أنت ·· فقلبى معك ·· ستذهبون الى النار ·· كلكم ستذهبون الى النار ·

ـ كلنا · نحن وأنتم فى النار · فى الجحيم ·· الجحيم هو ما نحن الآن فيه ·

فوجىء به يتكلم بوعى ، وبدا له للحظة أنه كان يدعى العجز وأن حكاية العطش والهذيان خدعة · وتنبه الى أنه هو نفسه نسى للحظات عطشه · قال متحفزا :

ـ بل هناك جحيم أفظع · أنت يهودى ولا تؤمن بالآخرة ·· ستذهبون الى النار ، أما نحن ·· فشهداء ·· شهداء الأرض التى اغتصبتموها بالسلاح · هانحن حطمنا لكم خط بارليف · الأسطورة حطمناها ·

ـ ستعود الأسطورة من جديد ٠٠

ـ ماذا تعنى ؟

قالها وقد أحس أن هذا الاسرائيلى يتحداه ٠٠ باللاوعى يتحداه وأنه رغم عجزه وتهافته لم يسلم ٠ وأن المعركة مستمرة ، واذن لابد أن يعود الى تنفيذ الفكرة ٠ يخنقه وينتهى منه ٠ ينتهى من خطره المقبل ٠٠ « فلو قام هذا الطريح وعادت اليه قوته فأول شىء سيفعله هو قتلى ٠ وربما قطــع رأسى ، ويأخذها معه دليلا حيا على بطولته ٠ لقد سمعته بأذنى ٠ انه يصر على الأسطورة » ٠ وأحس بأفاعى الحقد تبخ فى عروقه سموم الكراهية ، وامتدت يداه تتحسسان طريقهما الى الرقبة ٠ فى تلك اللحظة شق الصمت دوى مدافع ، فتجمدت يداه ٠٠ وفوجىء بالاسرائيلى يقول مغمغما :

ـ انها مدافعنا ٠٠

قال المصرى بحدة ـ بل مدافعنـــا (وســمع هدير دبابات) ودباباتنا ٠

قال الاسرائيلى : قد تكون فعلا دباباتكم ٠٠ الدبابات التى استولينا عليها فى ٦٧ ٠

قال المصرى : تريد أن تذكرنى بهزيمة ٦٧ ؟ ها قدم هزمتم فى ٧٣ ٠

قال الاسرائيلى : وســـنهزمكم من جديد ، ثم تهزموننا مرة أخرى ٠٠ وهكذا ٠٠ (وعاد يتأوه) انه قدر رهيب ٠٠ رهيب ٠٠ الى متى سيظل هذا العطش ٠٠ قطرة ماء ٠٠ الماء هناك ٠٠ فى الـ ٠٠ فى الـ ٠٠

وعادت ألفاظه تتقطع وأنفاسه تتحشرج ٠ كانت مجرد التماعات

وعى سرعان ما خبت وعاد الى الهذيان ٠٠ ووجد المصرى نفسه يبلع ريقه ، أو يبحث عن ريق ليبلعه ٠٠ وانتابه دوار ٠٠

وسقطت فجأة قنبلة قريبة ، ومادت الارض وترنحت تترنح معها ٠٠

وفى هذه المرة كان سقوطه فى الغيبوبة أسرع ، وفى ظلام الظلام ذهب ٠٠

وذهب الجريح الآخر معه ، فى نفس رحلة الظلام ٠

وحين طلع أول ضوء من أضواء النهار البعيد ، كان واحدا من أغرب مشاهد بنى الانسان على هذه الأرض : مصرى مسلم ، ويهودى اسرائيلى ، راقدان على الأرض ، ومتعانقان ٠ كان الرعب المشترك ، والرغبة فى الحياة ، قد مزجا بينهما فى عناق ٠

- ٢ -

حين عادت أولى اشـــعاعات الوعى ، عادت هذه المرة الى الاسرائيلى فى صورة هممهات ·· وصور ·· ومرئيات ·· تروح وتجىء ·· أهو حام ؟ يقول بعض علماء النفس أن الانسان حين يغيب عن وعيه ويسقط فى الغيبوبة ، فان قدرته على الحلم أيضـا تغيب وتمحى ·· عودة الأحـــلام هى دليل عودة الوعى ·· كان يســـتشعر وجوده · سواء كان حلما أم حقيقة ، فهو شىء جميل وناعم ووادع ، ان تكونى فى حضنى ·· بين ذراعى ياسارة ·· أنت الآن معى على السرير ·· سريرنا ·· مستغرقة ياحبيبتى فى نوم عميق ··

وأغراه ملمس الكتلة الانسانية بين ذراعيه (جسم المصرى الجريح) أن يسترسل فى الحلم ·· نامى ياحبيبتى ، واشبعى نوما · فأنت تتعبين كثيرا بالنهار ، مع أطفالك الذين تدرســـين لهم فى المدرسة ·· آه ما أجمل وجهك وأنت نائمة · طفلة صغيرة وأنت

نائمة ، ولو أنى اشتاق أن تستيقظى ونضىء النور وأرى لمعة عينيك يا أنثاى الفاتنة ·· وأعانقك ·· أعانقك بكل قوتى ··

وأراد أن يحس بنشوة القوة فى ذراعيه ، لكن ذراعيه خانتاه · ومع هذا مضى يتحسس الجسد الذى فى صدره بأصابعه ، لكنه أحس فجأة بخشونة الملمس · هذه الملابس ليست ملابسها ، واستيقظت اشاعات جديدة فى وعيه ، فارتجف ··

من هذا الذى يحتضنه ؟ وسطعت أمامه الحقيقة ، أن من تخيلها زوجته هو عدوه المصرى الذى كان يتحدث معه قبل تلك الغارة اللعينة · يحتضن عدوه وليست حبيبته ·

واحس بنفور · وبشكشكات فى جســـمه فابتعد عنه وراح يتسمع : ترى هل مات وهو بين ذراعيه ، أم يقتله وينتهى منه ، هذا الوحش المتخلف ·· (وتدافعت انفاسه) نعم ·· وحوش متخلفة ·· كانوا يأكلون فيمن يمسكونهم منا بأسنانهم ·· كانوا يشربون من دمهم ويصـــيحون : الله أكبر ·· الله اكبر · ماذا تعنى هذه الصرخة الوحشية التى تزين لهم القتل وشرب دماء اليهود (وكز على أسنانه) ونحن أيضا يجب ان نكون وحوشا ، ونتعلم شـــرب الدماء · نعم شرب الدماء وليس الماء ·· ولو أنى ·· ولو أنى عطشان ·· الى قطرة ماء ·· قطرة واحدة تعطينى القوة لقتله ·· أو أتيقن من موته . ثم ·· ثم ازحف خارجا فى الظلام ، متتبعا النجم الى بلادى · ·أصل احد حصوننا التى لم تسقط بعد ، أو يلتقطنى أحد الكيبوتزات ·· حارسة الحدود المقدسة · يجب ان تكون هذه هى خطتى » وعاوده العطش وبامعائه تتقلص · ومضى يتأوه « فلأبحث عن ماء ·· هذا الحصن الذى تهدم كانت فيه الحياة كاملة ·· الماء والطعام ·· وكان يوجد « ميز » به مطبخ به صنبور

ماء ·· وأسرة للنوم ·· ومنضدة للطعام ·· لو اصطدم بزجاجة ماء · لم لا ؟ الحياة مجموعة مصادفات · مثل صدفة العثور على واحة فى الصحراء · هذا الظلام متى ينتهى · اكل هذا ليل واحد أم انقضى علينا فى هذا المكان أيام وليالى طويلة · وربما باب الحصن انسد وأغلق · «تحول الحصن الى قبر » · وسطعت ذاكرته بالضوء ·· ورأى نفسه مع أفراد كتيبته فى الحصـــن · ثم المفاجأة ·· (صرخات الوحوش) · « ماذا حدث لايزاك وموسى وجوزيف وآبا ·· وقائدهم جاكوب ؟ مامصيرهم ؟

وجاءه الصوت ·· صوت المصرى ·· بالانجليزية :

ـ ماء ·· أريد ·· ماء

ورغم أن الصوت كان مفرغا كأنه صادر من أعماق بئر ، الا انه أجفل لسماعه · ومع هذا ، فقد تنبه وكأنما يكتشف ذلك لأول مرة ، أن هذا المصرى الجريح يتكلم الانجليزية ·· وفرح لذلك فى أعماقه ·· أن هناك لغة مشتركة بينهما ·· يمكنها التفاهم بها · وقال له : أنت تعرف الانجليزية · واضح أنك متعلم !

ـ ماء ·· نقطة ماء ·

وأوشك ان يقول له : أنا الآخر أموت من العطش · لكنه أحجم « لن أجعله يطلع على ضعفى · فمهما كان بيننا من لغة مشتركة يمكن أن نتحدث بها ، الا أن بحورا من الدماء تفصل بيننا ·· ومن ستعود اليه القوة أولا سيفعلها فى الآخر » ورأى أن التنبؤ بنتيجة الصراع غائمة · فها هو يتأرجح بين اليقظة والغيبوبة · ولكن · ما هذا ؟ انه يرى شيئا ·· لونا ·· أم هو يحلم كما كان يحلم منذ قليل ، مع « سارة » على السرير ؟! لكن اللون كان يتأكد بالتدريج ، ويأخذ لون الفيروز ، وعاوده لون عينيها ·· لكنه صمم على الابقاء

على وعيه لكى يتأكد من ان هذا الذى يراه حقيقة ، وأنها أضواء الفجر تطلع على الصحراء وتتسرب الى الحصن ، وأذن فباب الحصن لم يغلق بالانهيارات ٠٠ هناك ثمة فتحة على الحياة ٠٠ الطريق الى اسرائيل ٠٠ الوطن الذى ضمنى من الشتات ٠٠ ولكن من أين القدرة؟ فلأبحث عن ماء ٠٠ وسيساعدنى ضوء الفجر ٠٠ وراح يشدد من بصره بقدر ما يستطيع ليميز أرجاء المكان ٠٠ وتراءت له كتل جهمة من حوله ومن فوقه ٠ كأنه كهف قوم بدائيين منذ آلاف السنين ٠٠ واختلطت عليه الرؤى ٠٠ أهو يحلم ، أم أن تشكيل الكرة الأرضية قد تغير وعاوده دوى الانفجارات ٠٠ وعاد الصوت ٠٠ أو النواح :

ـ ماء ٠٠ ماء ٠٠

وتوجه ببصره اليه ٠ ولأول مرة يرى هيكل المصرى الطريح مجسما على أضواء الفجر ٠٠ ممددا ٠٠ عريض المنكبين ، متوسط القامة لكن ملامح الوجه مازالت غائمة ، وان بدا أن له شاربا أسود ثقيلا ٠٠ واستطاع أن يميز كتلة الوجه بالرأس ملقاة على الرمل بشعر منفوش كأشواك القنفد ، معطية معنى محددا : انتظار الموت

غمغم فى نفسه ٠ الأفضل أن أتركه هو الذى يموت ٠ لن أقتله فأنا انسان متحضر ٠٠ نحن قوم متحضرون ٠ المهم أن أعود الى بلادى ٠٠ طائرة هليوكوبيتر ترانى وتلتقطنى ٠ قطرة ماء تعيننى على الحركة ، فى المطبخ صنبور ماء ٠٠ فلأبدأ البحث عن الماء ٠ أين باب المطبخ ؟ فى أى اتجاه أزحف ؟

وبدأ الزحف ٠ وساعدته أضواء النهار التى راحـت تتوالى على اســـتكشاف المكان ٠ لكن الجدران من حوله كانت مسدودة بالانهيارات ٠ وأصبحت مهمته البحث عن الموضع الذى يمكن أن يكون الباب لينقب فيه ويفتحه ٠ فجأة صاح بالبشرى ٠

ـ هو ذا ·· باب المطبخ · سدته الانهيارات ·· هيا نزيحها ·· ونفتحه ··

وتنبه ـ مع عجزه ـ انه يطلب العون من عدوه · وانه وحده لن يستطيع فعل شيء · وسيموت من العطش ·· لابد من أن يتعاونا اذا أرادا الابقاء على حياتهما · وليكن بينهما بعد ذلك ما يكون ·· وتمنى لو أن خصمه هذا هو شمشون الذى هدم بقوته المعبد ليزيل بساعديه العظيمين هذا الركام ·· كان لديه احساس راسخ أنه يوجد فى هذا المكان ماء ·· فلا تزال صورة الثلاجة وزجاجات الماء الباردة فيها حاضرة فى خياله ترسل اليه اشعاعات مغناطيسية ·

ـ أنت ·· اصح ·· وقم دعنى نزيل هذا الركام ·· الماء وراء هذا الركام ··

ـ تقول ماء ؟ أين هذا الماء ؟

ـ فى المطبخ ·· قلت لك ·· ·

ـ فى المطبخ · أم ·· فى بئر سبع ·· أم ·· فى بئر ·· زمزم ؟

ـ أرجوك ·· كف عن الهذيان ··

ـ كنت تقول لى هذا ··

ـ أنا ؟ كنت لابد أهذى · هذا الهذيان سينتهى بالموت ·· والماء بجوارنا على بعد أمتار · قم وساعدنى · تعال ·· سنعاون بعضنا على النهوض ، ثم ·· نقف ونزيل هذا الركام ·· هات يدك ·

قال المصرى بلهجة آسفة : وفيم تنفع يد انسان يموت ·

قال الاسرائيلى متحمسا : لا ·· يجب أن نقاوم الموت · لابد

أن نقـــاوم الموت ·· يجب ان نعيش ·· نعم يجب أن نعيش ·· ها ·· هى ·· يدى ·· هات يدك ··

وبجهد هائل مد يده · وحين التقت اليدان ، بانت الحقيقة المؤكدة ، أنهما عاجزان تماما ، ومسكينان ، فازدادت يد كل منهما تمسكا باليد الأخرى ، تطلب منها القوة ، كأنما تقسمان على أن يقاوما الموت معا ويحلمان بشربة ماء تحفظ عليهما نبض الحياة ·

وهمدت حركة الاثنين ·· ولف المكان صمت ثقيل ·· أثقل من الظلام المحيط ·· وأحس كل منهما بشىء غريب ومثير يحدث كان الألم الجسمانى بدأ يخف ، بل الاحساس بالجسم كله كان يذوب ·· ويتلاشى ·· ويداخلهما احساس روحى غريب ·· بثمة نشـوة

وقال المصرى : أنا الآن أطير ··

قال الاسرائيلى : أنا أيضا أطير ·· الى هناك ·

ـ الى أين ؟

ـ الى تل أبيب ·· وأنت ·· الى أين كنت تطير ؟

ـ سنورس · فيوم ·· مرورا بالقاهرة ، والهرم الكبير ·

واختلج صوت الاسرائيلى بشوق :

ـ اذن فأنت كنت ·· ترى الهرم ·· كثيرا ·· هرم ·· خوفو الأكبر ·

ـ من كثرة ما مررت عليه ، لم أكن أتنبه اليه وأنا أمر من تحته ··أما الآن ·· آه لو نظرة من قمته المسنونة ·· الضـــاربة فى الفضاء ·

قال الاسرائيلى وهو يرى نفسه طائرا فوق الاهرامات التى طالما رآها فى الصور ..

– الاهرام .. أعجب عجائب الدنيا السبع .. كانت احدى أمنياتى أن أراها .. لكنكم تمنعوننا من ذلك . رغم أن الأهرامات تعتبر من التراث البشرى ، اكثر منها تراثا مصريا .

ضحك المصرى ، ساخرا . ولم تكن ضـــحكته بالطبع ذات صوت ، انما كان كل ما يصدر عنه أو عن الاســـرائيلى أهازيج داخلية . ممارسة كاملة للحياة وهما طريحا الأرض بتصـــاوير الخيال .

– حتى الأهرام ، تريدون أن تحرموننا منها ؟

– كيف ؟ ليس قصدى .

– بل قصدك . قرأت أن هناك من يريد أن يثبت أن الأهرامات ليست صناعة مصرية .. لماذا ؟ لأنه عمل عبقرى .. والشـــعب المصرى ليس عبقريا ، واذن فلابد أن جنسا أو قوما آخرين هم الذين بنوه . معادلة رياضية !

– انا أيضا قرأت شيئا مثل هذا ..

– أرأيت ؟ المعادلة المزيفة . بارادوكس .

– بارادوكس ؟ ماذا تعنى ببارادوكس هذه ؟

– أن تلبس الكذبة ثوب الحقيقة ، مســـتعينا بقاعدة علمية (وباصرار) بل نحن الذين بنينا الأهرام .. فى احدى مراحـــل الازدهار والمجد بنيناها . التاريخ قمم وانحدارات . نحن كنا فى منحدر ، والآن نعاود الصعود .

قال الاسرائيلى :

– واضح انك مثقف ·· ما هى درجة تعليمك ؟

– أنا ·· خريج كلية الزراعة ·· تخصص ·· كيميا أراضى

– كيميا أراضى ؟ (قال الاسرائيلى بدهشة) هذا تخصص راقى ·· أنت تفهم اذن فى تعمير الصحارى (وابتسم) فلماذا لم تعمروا سيناء ؟

– كيف نعمرها ·· وانتم تحتلونها ؟

– لم نحتلها الا منذ ست سنوات · منذ يونيو ٦٧ · فأين كنتم قبل ذلك ؟

– ألا تعلم اين كنا ؟ كنا نحارب الانجليز – ١٠٠ ألف جندى انجليزى كانوا على طول القناة ·· يحولون بيننا وبين سيناء ·· (ثم بغيظ وحزن أنه غير قادر على أن يصرخ فيه) من أنت حتى تحاسبنى على تعمير سيناء أو عدم تعميرها · أنتم لابد أن تخرجوا منها ، ثم بعد ذلك نحن أحرار فى أرضنا !

قال الاسرائيلى وهو يطير فوق ساحات الصحراء اللامتناهية ويراها خضراء : لا ·· فى هذا العصر ليس هناك أحد حرا فى أن يترك قطعة من الأرض بورا بينما الملايين يموتون من الجوع · الاثبات الحقيقى انك جدير بهذه الصحراء أن تزرعها وتشيع فيها الخضرة وهذا مافعلناه : الكيبوتزات ·· الخضراء ·

قال المصرى ساخرا بغيظ : تقصد المستعمرات التى تخفونها تحت اسم المستوطنات · أليس كذلك ؟

– نحن لا نخفى مجد اسرائيل !

– المجد القائم على الاغتصاب ·· نعم أنتم لصوص ··

مغتصبون ·· نحن أحرار فى أرضنا ·· وسنطردكم منها · سنطردكم ونحن قادرون ·· نحن المصريون قادرون ·

وعاودته الأهازيج ·· أصوات وصور ·· وهم يقذفون بأنفسهم الى قوارب المطاط التى طالما تدرب عليها فى نهر النيل ، ثم وهو مع المجموعة يندفعون مجدفين فى القنال ، ويصعدون خط بارليف ويصرخون صرخات الحرب الوحشية ، ويهجمون على الحصن تلو الحصن ·· ثم ·· وعاوده صفير القنابل ودوى الانفجارات ·· « لو مت الآن فسأموت سعيداً · نحن رددنا الضربة ·· نحن مسحنا العار » ··

- الحقيقة · أنتم المصريون شجعان · لأول مرة نتواجه فى معركة · صدقنى · يمكن أن تكونوا أنتم الذين بنيتم الهرم الأكبر ·

فاجأته الكلمات ·· هزته بعمق · هذا الاعتراف من العدو · ووجد نفسه ينظر اليه بحب شديد · كان يحس بالصدق العميق فى لهجته : « أم انه يخدعنى · يثير غرورى لكى أفقد حذرى ؟ »

وواصل الاسرائيلى مهمهما : كنا نظن أنكم جيش من الفلاحين الأميين ، انهكتهم البلهارسيا والبلاجرا ·· يبدو انكم أعدتم تكوين جيشكم على نمط حديث ·

قال المصرى بزفرة : لعلمك ، مازلت أعانى من آثار البلهارسيا فى دمى · ومع ذلك فعلناها ·· نعم ، نحن الذين بنينا الهرم الأكبر هذه هى الكلمة الوحيدة الصادقة التى قلتها ·

قال الاسرائيلى وهو يزفر : أنا صادق فى كل ما أقول · حتى لو اختلفت معى فى بعضه · أنا صادق ·· وأنت صادق ·

وتعجب المصرى ·· غريب أمر هذا العدو الراقد بجواره ممددا على الأرض · وكان ضوء النهار قد كشف كل الأسرار وكل

الملامح · وتاقت نفسه وهو راقد على ظهره أن يتقلب على جنبه ويرى تفاصيل ملامحه · ويرى وجهه ·· هل يتفق مع صوته الأجش ؟ وتحدى نفسه أن يقدر على هذه الحركة · ومع الأوجاع التى تقلبت مع حركته ، عدل من وضعه ونظر فى وجه زميله · وفوجىء بالوجه · كان اقرب للبنت أو للصبى منه الى الرجل المقاتل ·· بوجهه الأبيض وشعره الكستنائى الناعم وتقاسيمه الدقيقة ·· وكان مغمض العينين فى رحلة طيرانه · وللحظة خاطفة ، احس أنه ليس مجدا أن ينتصر عليه ، فمثل هذا الوجه الرقيق الجميل مخلوق للحياة وليس للحرب ولا للموت · « وهو يعترف ببطولاتنا » ·· وجاشت نفسه برغبة فى أن يعانقه · لكنه أجفل : « انه رجل ·· وليس أنثى » ·

وسأله : لم تقل لى ·· ما اسمك ؟

ـ اسمى ؟

ـ نعم ·· افتح عينيك وكلمنى ·· انى أحس بدبيب القـــوة تعاودنى ، وستعاودك أنت ايضا ، أنظر لى كما أنظر لك ·

ورمش الاسرائيلى بعينيه ، وراح يجرب رؤية الأشياء · واذ فتح عينيه بالكامل رأى أمامه أول ما رأى شاربا كثيفا أسود يتوسط وجها أسمر بارز العظام · ورأسا كبيرا كثيف الشعر ·· خشنه ·· وعلى الفم ابتسامة تشجيع · هل يصدق هذه الابتسامة ؟!

ـ لم تقل لى ما اسمك . أنا اسمى ·· ربيع ·

ـ ربيع ؟ انه قريب من اسم ابى · اسمى ايليا رابين (وراح الاسرائيلى يردد الاسمين (رابيع ·· ورابين ·· هذا يثبت الحقيقة · السلالة واحدة ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ وجدنا الأكبر واحد ·· ابراهيم ·· هل تختلف معى فى هذا ·· ياربيع ؟

ـ لا ·· أنت صادق ايضا ·· فى هذه النقطة ·· يا ايليا ·· واسماعيل واسحق ويعقوب أجدادنا الأقربون · ولكن ما الذى تريد أن تصل اليه ؟

قال الاسرائيلى بحسرة :

ـ ومع هذا فقد أصبحنا الأعداء الأخوة ، أو الأخوة الأعداء ·· متى ·· تنتهى هذه العداوة ·· وكيف ؟

فى تلك اللحظة جاءت الاجابة قاطعة عليهم كل تصـــــاوير وأهازيج العطش · فقد أحسا فى تلك اللحظة بخلخلة رهيبة فى هواء المخبأ ، وأن تشكيل الأرض سيختل من جديد · كان سرب طائرات منخفض يمرق بأسرع من الصوت ، وأسرع كلاهما بحركة غريزية يسد أذنيه ·· الموت فى الداخل والخارج · وتمنى الاسرائيلى لو أن الخلخلة تسقط هذه الانهيارات التى تسد مدخل « الميز » الذى يوجد به الماء · وأحس بقوة مفاجئة تطرأ على جسمه · وقال المصرى وهو ينهض :

ـ محال أن نموت من العطش والماء بجوارنا · صدقنى ياربيع ·· الماء على بعد أمتار ، بل خطوات · ليس علينا الا أن نزيل هذا الركام وينفتح لنا باب الحياة ·· تصبح فى ايدينا زجاجات الماء · قم وانهض ··

وفوجىء بالمصرى ينهض بل وبحركة أسرع ·· وتلبست الاثنين طاقة توهج غريبة · ذلك التوهج الذى يبدد الظلام فتتكشف الحقائق وتضىء الحياة · وجاهدا لصلب قامتيهما ، ومضيا يترنحان فى

مشيتهما · متساندين ، حتى اقتربا من الكومة ·· وتمثلت لهما الصعوبة فى كتلتين حجريتين ، فمضيا يزيحان من حولهما أكوام الرمال وهما يلهثان ، وسعار العطش يزداد ·

وقال المصرى بحماس : هاقد نقلت حفنة ·

— وأنا أيضـــا نقلت حفنة · ســـيسهل بعد ذلك ازاحـة الحجرين ·

واذ رأيا أنهما قادران على العمل ، دبت فيهما قوة غريبة ·· من أين تجىء القوة الى الجسد المتهافت العطشان والذى يعانى من التحاريق ؟ أهى حلاوة الروح وتوهجها الأخير الخاطف قبل الانطفاء ؟ وتلبستهما طاقة روحية غريبة أعادت للجسد بعض قوته ، وراحا بشكل مستميت يزيلان أكوام الانهيارات ويزحزحان أيضـــا فى الحجرين ، وصاح الاسرائيلى ·· بانتصار ·

ـ هو ذا ·· المطبخ ·· كما قلت لك ·

واندفع نحو الحجرة التى تراءت على صورة فجوة معتمة ·· وفى اندفاعته تعثر وسقط بوجهه على الركام · ومع هذا لم يعبأ أو حتى يتألم · قام ونهض من جديد · يترنح ويتقدم نحو صنبور الماء ·· سيمسك به وبزجاجة الماء بكلتى يديه ويظل يشرب ويشرب حتى يرتوى ، وينفجر من الارتواء !

أما المصـــرى فقد رأى نفسه وهو يعبر الانهيارات الباقية يجرى فوق جسر النيل وماء النهر يجرى أمام عينيه أغمارا ويرمى بنفسه فيه ·· يشرب بفمه ·· بكل بفمه ·· ويعب ويعب ويستحم أيضا · ·وتضاعفت قواهما ، وبديا وكأنهما فى سباق ، فقد تراءت لكليهما فكرة واحدة لمعت فى ذهنيهما فى صمت ودون جدل أو نقاش

٠٠ ربما الماء الموجود كمية قليلة ، ومن سيسبق فهو الذى سيشربها ٠٠ ويعيش !

وتاق كل منهما ان يصل قبل الآخر فاستماتا فى الاندفاع ٠

• قال المصرى : العتمة هنا ثقيلة ٠٠

قال الاســـــــرائيلى : انا أعرف جيدا المكان ٠ أعرف ملكان الثلاجة ٠

قال المصرى : لم يعد شىء باقيا على حاله ٠ كل شىء انقلب ٠ العالم تغير ٠

قال الاسرائيلى : ارجوك ٠ قل لى كلاما يشجعنى ٠

قال المصرى : انا لا اقصد تيئيسك ٠ أنا اقول الواقع ، كى نعرف كيف نواجه ٠٠ مواجهة موضوعية ٠ ؟

ـ فلنكف عن الكلام ٠٠ لاداعى لتبديد الطاقة بالكلام ٠ نبحث هنا ٠٠ فى المواجهة ٠ آه ٠٠ «هذا هو الصنبور» واندفع عليه وفتحه ٠٠ صرخ بحزن : الماء مقطوع ٠ أين الثلاجة ؟ (وصاح بشهقة فرح) هاهى ٠٠ لكنها واقعة على ظهرها ٠ أين بابها ؟ قد نجد بقايا مــاء ٠٠

واندفع المصرى هو الآخر على جسم الثلاجة ، يبحث بنظراته الذاهبة عن بابها ويسمع الاسرائيلى يهمس لنفســـه بفرح : هاهو الباب ٠ حمدا لله أنها وقعت على ظهرها ٠

وفكر : لماذا قالها همسا ؟ يريد ان يصل هو أولا الى الماء وينفرد به ٠ قال مسجلا اشتراكه فى الكفاح :

ــ هل أساعدك فى فتح الباب ؟

كان الاسرائيلى قد جذب باب الثلاجة فانفتح على الفور ·· ونظر بلهفة الى جوفها · وسرعان ما صاح : زجاجة ماء ·· واندفع بيديه عليها ··

صاح المصرى بنشوة : حقا ؟ اذن هاتها · (واستدرك) لا · بل اشرب أنت أولا ، ثم أعطنى أشرب · لا تشرب دفعة واحدة ·· نشرب على دفعات ·· بالتبادل ·· هذا أفيد صحيا للمعدة ·· احترس من صدمة الماء ··

ووجد نفسه باللاوعى يندفع بكلتى يديه على الزجاجة وهى فى يد زميله ، يريد فقط أن يتحسس ملمسها وبرودتها · يود لو يلعقها بلسانه فقد تصيبه قطرة ماء على سطحها ·· وقال راجيا ومنبها :

ـ لا تنسنى ياصديقى · لا تنس نفسك وتشربها كلها ·

وفوجىء بزميله يقدم له الزجاجة ويقول :

ـ خذها ·· كلها ··

وقبض عليها بكل كفيه ، وما ان هم بوضعها على فمه ، حتى وجد نفسه يصرخ فى يأس عظيم :

ـ انهـــا فــارغة · أعطيتنيها لأنها فارغة · تريد أن تحطم أعصابى ·

- ٣ -

ــ أنا أحطم أعصابك ؟ (قالها الاسرائيلى معاتبا) أنا اشركك معى فى الفجيعة ، كما كنت سأشركك معى فى الارتواء ·· هاتها ·

ومد يده ليأخذ الزجاجة الفارغة ،لكن المصرى استمسك بها ·· مستشعرا بعمق برودة ملمسها · واخرج لســــانه وراح يلعق سطحها ·· لو تتحول هذه الدرجة البسيطة من البرودة الى قطرات ماء ! غير أنه أحس بلسانه المتخشب يصطدم بصـــــلابة الزجاج ، وأوشك من اليأس والغيظ ان يهوى بالزجاجة الى الأرض ويحطمها ، لكنه قاوم نفسه · هذه الزجاجة الفارغة قد تنفع فى شىء · (وفكر فى نفسه) وليس معى سلاح (ولمعت الفكرة المضادة) وقد يستعملها هى سلاحا ضدى ·· يحطم بها رأسى · سأخفيها · ووضعها على الأرض فى هدوء ·

قال الاسرائيلى · فلنواصل البحث · يجب الا نيأس · قد تكون زجاجة مركونة فى أحد الأركان · وان لم نجد هنا فقد نجد فى حجرة

الحياة العامة · انها قريبة من هنا ، لا يفصلنا عنها غير سرداب صغير · كنا نأكل فيها ·· وقد نجد بها طعاما وماء ·

وراح الشبحان المتهافتان يتجولان هنا وهناك بحثا عن التماعة قطرة ماء ·· وكانا يترنحان ويصطدمان بالأشياء ويســـقطان ثم ينهضان ، وصاح الاسرائيلى ·· بنشوة انتصار ·

ـ لقمة خبز ··

اندفع عليه المصرى : اين هى · أرنيها ·

ـ هاهى · تعال ، نقتسمها ·

لكن اللقمة كانت جافة ، كأنما قدت من صـــخر · وفشـــل الاسرائيلى أولا ثم المصرى فى كسرها ·

وقال المصرى : خدها · اقضم منها · ثم اعطنيها ·

قال الاسرائيلى : هى معك · اقضم أنت أولا : أنا لست جائعا · أنا فقط عطشان ··

واستطاع المصرى بجهد هائل ان يكسر بأســـنانه جزءا من الكسرة ، وراح يمضغ فيها · لكنه أحس بالفتات يكاد يسد حلقه ·· فتجشأه على الأرض ، وقال فيما يشبه النواح ·

ـ لم أعد قادرا على البلع · حتى اللعاب جف ·

قال الاسرائيلى : ليس اللعاب وحده الذى جف · الحياة كلها جفت · بصرى أيضا جف · أنا لا أرى شيئا · حتى سارة ، لم أعد أرى ملامحها جيدا · هل جربت مرة ·· أن تستدعى صورة حبيبتك وأنت بعيد عنها ، لكن خيالك لا يسعفك ؟ أو ربما هى الآن غاضبة على · لم أكن أكلمها بلطف فى الأيام الأخيرة ·

قال المصرى مبتسما بمرارة : تصور أن هذا نفس ما كان يحدث لى مع نور ٠٠ كنت دائما عصبيا معها ٠٠ غير انك محظوظ أكثر منى يا ايليا ، فقد تزوجت حبيبتك وعاشرتها واستمتعت معها أياما وليالى ٠ أما أنا فلم أعرف من الحب غير الحرمان ٠٠ والشوق ٠٠ ست سنوات ٠ ست سنوات منذ أن تخرجت ٠٠ سنة ٦٧ ، وأنا ملقى فى الرمل ٠٠ على ضفة القنال ٠٠ انتظر هذا اليوم ٠

ـ اليوم المشئوم ٠

ـ من وجهة نظرك بالطبع ٠٠ لكنه بالنسبة لى يوم النصر ٠٠

ـ المعركة مازالت دائرة ٠٠ لم يتحدد بعد ٠٠ النصر النهائى ٠

قال المصرى ٠٠ متشبثا : مهما حدث ٠ فقد عبرنا القنال ٠٠٠ وخط الموت الذى كنتم تسمونه خط بارليف ٠

ـ وما المعجزة فى هذا ؟

ـ الم تكونوا تصفونه بانه الخط الذى لا يقهر ٠٠ ها نحن الآن على الضفة الشرقية ٠

ـ قد تسمعون بعد قليل ، أننا احتللنا الضفة الغربية ٠ ضربة بضربة ٠ أعرف كيف تفكر قيادتنا ٠٠

قال المصرى بغيظ ، حزينا لأنه عاجز عن أن يمسكه من رقبته ويخنقه ٠

ـ اذن فانتم لا تريدون لهذه الحرب أن تنتهى ٠

ـ لن نقبل انتهاءها ونحن مهزومون ٠

ـ ونحن أيضا ٠ لن نرفع الراية البيضاء ونحن مهزومون ٠٠ أبدا ٠٠ أبدا ٠٠

ـ اذن فهى الحرب الأبدية · الفناء للأجيال وراء الأجيال ·· منا ومنكم (ثم بسخرية مرة) وليعش موردوا السلاح : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ·

قال المصرى متحفظا : علاقتنا بالاتحاد السوفيتى ليست مثل علاقتكم بالأمريكان ·نحن ند للاتحاد السوفيتى · بدليل أننا رحلنا خبراءهم العسكريين ، ودخلنا المعركة وحدنا ·

قال الاسرائيلى بلهجة تنبى بالاشمئزاز : لم ترحلوهم بل طردتموهم · يالوفاء المصريين !

أحس المصرى بالاهانة : لا ·· لوسمحت ·· اننا لا ننسى الجميل ، ونعرف جيدا الوفاء · فهم الذين جاءونا بالصينية فى وفاة عبد الناصر ، البطل العظيم ، وهم الذين بنوا معنا السد العالى الذى أضاء قرانا المظلمة بنور الكهرباء ·· وهم الذين ساعدونا فى اقامة صناعة الحديد والصلب والدرفلة ، أم الصناعات جميعا ·· لكننا فى هذه الحرب ، كان يجب أن نكون وحدنا · أن يكون المصرى هو المحارب وهو المنتصر · مثلما كان هو المنسحب والمنهزم فى سيناء · ان السوفيت لم ينسحبوا معنا من سيناء فى حرب ٦٧ حتى يشاركوننا العبور والالتحام فى حرب ٧٣ · لقد وفرنا عليهم الدماء · وشكرا لخبراتهم ولأسلحتهم العظيمة · لكن الدماء التى تسيل فى هذه الحرب ، يجب أن تكون مصرية مائة فى المائة · انها مسألة نفسية · لابد أن يفهم السوفيت والعالم كله هذا · لسنا جاحدين للجميل، لكنه الموقف الوطنى والقومى · وعليكم أنتم أيضا أن تفعلوا مثل هذا ، أن تستغنوا عن ترسانة أمريكا ، وتواجهوا غضب تجار الأسلحة فيها ، فهل تقدرون ؟ ها هو امتحانكم الأكبر · ثم نتواجه ·· نحن وأنتم ·· ونرى ·· من فينا المتفوق ·· أنتم « شعب الله

المختار » كما تقول التوراة · ونحن « خير أمة أخرجت للناس » كما يقول القرآن ·

قال الاسرائيلى : أنتم مائة مليون · ونحن مليونان أو ثلاثة ستبتلعوننا ··

ـ لا ·· لن يمسكم أحد طالما التزمتم حجمكم وحدودكم ·· لكنها عقدة الخوف الأزلية المترسبة فيكم ·· عقد الاحساس بعدم الأمان ·· اننى واثق من أنك لا تشعر نحوى بالأمان · ولو أنك الآن قادر على قتلى واخماد صوتى لفعلتها (واكتسى صـــــوته بالغضب وبالتحفز) لكنى لن اسمح لك · فأنا واع ومتنبه لكل حركة منك · أنتم قوم لا يوثق بكم ·

قال الاسرائيلى : وأنتم متخلفون · فرغم أنك خريج جامعى كما تقول ·· وكيميا أراضى ، والمفروض أن تكون عقليتك علمية ، لكنهم لقنوك وربوك على هذا : اليهود قوم معقوفوا الأنوف ، ماكرون، باعوا المسيح لقاء دريهمات من الذهب ·· وهذا غير صـحيح ·· فالمسيح انبثق منا ، من حركة تمردنا ، غير أن بعضا منا للأسف انقلب عليه وساهم فى صلبه · وهذا هو صلب القضية ·

ـ أية قضية ؟

ـ ليس هناك جنس واحد أو قومية واحدة ، تمجدها كلها ، أو تشطب عليها كلها · فى داخل الجنس الواحد أو القومية الواحدة ، تجد الثائر والمتمرد ، وتجد أيضا من هو ضد الثورة وضد التمرد ·

ـ لم تقل لى · ما هو عملك ·· وظيفتك ؟

ـ أنا ·· مدرس تاريخ ، تخصص اثنولوجى ·

ردد المصرى الكلمة ·· مستوضحا معناها : اثنولوجى ·· اثنولوجى ··

قال الاسرائيلى شارحا له المعنى : علم اصول السلالات · علم أجناس الأمم ، وأصولها ·· ومميزاتها ، وأوجه تفرقها ·

قال المصرى : كان اذن من الواجب أن تكون عارفا بتاريخ اليهود جيدا ·· يا أستاذا ايليا ·· بنى قومك !

قال ايليا بغضب : مالهم بنى قومى ·· ماله تاريخ اليهود ·· ياسيد ربيع ؟ تاريخنا أمجاد ·· تاريخنا آلام ·· والعطش فى حياتنا قديم ·· لكننا صدمنا للمحن ·· من محنة خروجنا من مصر هربا من اضطهاد فرعون وتشردنا فى تيه سيناء أربعين عاما ، الى محنة تعذيب هتلر لنا فى كل أوروبا · وبين المحنتين ·· محن المذابح التى أجراها فينا ملوك أشور ، وبابل · وقواد الامبراطورية الرومانية · هل تعرف ما ذقناه من آلام على يد « بنوخذ نصر » ملك بابل ، وعلى يد يوليوس سيفيروس الرومانى ·· و ··

ــ قللى يا ايليا ·· لماذا التاريخ مغرم بتسـليط الغزوات عليكم ؟

قال الاسرائيلى ساخرا : أنت مضحك ياصديقى ·· فليس هناك شعب تسلطت عليه الغزوات والاضطهادات مثل شعبكم ، الشـعب المصرى ، بعد أن دالت دولة المجد الفرعونى ، دولة الأسرات الأولى · تاريخكم حتى اليوم مقاومة هجمات واضطهادات ·· انكم مضطهدون أكثر منا !

قال المصرى : لكن هناك فرق كبير ·· وحاسم ·· أنتم هربتم من الاضطهاد · أما نحن ·· فقد بقينا نقاوم على أرضنا ·

ــ المسألة نسبية · فانتم لم تبقوا كلكم ·· وارجع للتاريخ ،

ستجد موجات واسعة من المصـــريين هربت أمام الاضطهاد · اما الى بلاد أخرى ، واما الى الصحراء ·· والذين بقوا منكم على ضفة النهر هم القلة الصامدة ، مثل القلة التى بقيت منا وظلت على أرض فلسطين من يومها حتى الآن من خلال سـلالاتها ·· بقيت النواة المصرية عندكم ، وبقيت النواة الاسرائيلية عندنا (وتنهد) تاريخنا ياصديقى مشترك · نحن وأنتم ·· نحن أبناء منطقة واحدة ، وأبناء ألم واحد ·· وأمل واحد ··

وفكر المصرى ·· غريب هذا الاســرائيلى ·· هل دراســة التاريخ وتخصص الاثنولوجى خلقت عنده هذه الأفكار ·· أم كل هذا من قبيل الخداع ليجعلنى أطمئن اليه ·· وهم مشــهورون بالحرب النفسية ·· والحرب دائرة ·· هو نفسه كان يقول هذا منذ قليل ··

ـ لا يا أستاذ ايليا ·· نحن مختلفون ·· بدليل ما نحن فيه الآن ·· وان كنا أبناء ألم واحد . فذلك فى التاريخ القديم · نعم ، بل انى أذهب الى أبعد من هذا ·· ان معظم الذين اضـطهدوكم كانوا يضطهدوننا نحن أيضا ، مثل الفرس واليونان والرومان ·· غير أن المسألة اختلفت بعد ذلك ياعزيزى ·· تغير موقفكم للأسف !

قال الاسرائيلى : كيف ؟

ـ فبعد أن كنتم الضحايا والمكافحين ضد العذاب والاضطهاد والألم ، أصبحتم أنتم الذين تعذبون غيركم · اصــبحتم الفرعون الاسرائيلى الجديد أو هتلر الاسرائيلى الحديث الذى يخرج الناس عنوة من أرضهم وتشردونهم ·· أصبحتم مثلما تقول أغنية مشهورة عندنا « مين عذبك ·· بتخلصه منى » قالها أولا بالعربية ، ثم ترجمها له بالانجليزية · تثبتون ذواتكم الضائعة بقدرتكم على تعذيب غيركم

قال ايليا بغضب وحزن : لا ياربيع ·· ليست المسألة هكذا ··

ــ بل هل هى هكذا يا ايليا ·· أنت نفسك خير مثال لهذا التناقض ·

ــ أنا ·· كيف ؟

ــ المفروض فى عالم الانثروبولوجى أن ينظر الى الأمور ··

ولم يكمل ·· فقد عادت الانفجارات والارتجاجات مرة أخرى . ووجد كلاهما نفسه يمد يده الى الآخر متشبثا بها كحماية · ولأنهما لم يسدا آذانهما هذه المرة ، بل تداخلا فى جسدى بعضيهما وانبطحا على الأرض · فقد كان الدوى مضاعفا ورهيبا ·· الهول يعود ··

وصاح الاسرائيلى ·· نائحا : أين الأمان ·· فرعون عندكم · هتلر عندكم ··

قال المصرى :

ــ بل عندكم ·

ومع تتابع الدوى قال الاسرائيلى :

ــ عندكم ·· وعندنا ·· هاهو الموت فوقنا نحن الأثنين ·· نحن وأنتم نقتل · نحن وأنتم نقتل ·· بطائراتنا وطائراتكم نقتل ·

ومع ارتفاع الدوى وتتابع الانفجارات ، كان ربيـــع يمتلىء احساسا بالكراهية لهذه الأصوات ، سواء كانت هذه القنبلة اسرائيلية أو مصرية فهو الآن يكرهها ·· يكره أن يدق هذا الحصن الاسرائيلى الذى يتواجد فيه بقنابل أو صواريخ مصرية ·· الحرب عمياء ·· والموت لا جنسية له ·· وحردن كل منهما ألا يفقد عقله ، وامتصهما دوى الانفجارات التى راحت تقل وتتباعد · ثم انقطعت تماما ··

انتهت هجمة الطيران وساد السكون ·· سكون استتناما له ، وتمنيا لو ظل العالم هكذا ساكنا وصامتا للأبد ، وبدا لهما أن كل ما قيل بينهما كان حلما من الأحلام ·· أم ستبدأ الأحلام ؟

ـ هل تسمعنى يا ايليا ؟

ـ أسمعك ياربيع ·

ـ كانوا يخيفوننا من القبر · لماذا ؟ القبر خلاء فسيح واسع · كانوا يخيفوننا من الموت ·· الموت طيران عذب ·· وتحليق فوق مكان الأحبة · ·الأحبة من الناس ومن الأماكن والمبانى والشوارع والأشجار ·· الموت يدخلك فى عالم الذكريات ·· هل تعرف أين انا الآن يا ايليا ·· أنا الآن فوق بلدنا ·· أرفرف فوق وابور الطحين ·· أبى يعمل مديرا لوابور طحين صغير ·· فى سنورس ·· ما أجمل منظر الصبايا والنساء ·· وهن حاملات للقمح ·· آه ومنظر الدقيق وهو يخرج مندفعا من فوهة الماسورة ·· ونور تغرف لى من الشلال الأبيض بكفيها وتسقينى · أشرب من كفيك يانور ·· مثلما شربت من عينيك أول يوم رأيتك فيه أمام الوابور ·· لكنى لم أرتو منك أبدا يانور » ورأى نفسه يدخل بيت العائلة الصغير القديم ، وأمه الريفية بجلبابها وطرحتها السوداوين تملأ له من الزير كوزا من الماء البارد ويشرب ويشرب حتى اذا ما انتعش وانتفش خرج الى حوارى قريته ورأى البشر والبهائم والباعة والذباب ·· ثم برزت له نور فاختبأ بها بعيدا عن العيون وانهال عليها تقبيلا · واذ تركته خائفة من العيون ومن كلام الناس ، امتلأ بالضيق وطار الى القاهرة ودخل بيتا فى زقاق ، مع احدى نساء الليل « مع أنى أكره الحرام ·· لكنها هى المسئولة · نور هى المسئولة · كانت تطلب تأجيل ذلك الى ما بعد الزواج ·· قل لى يا ايليا · ·هل مارست الجنس مع زوجتك قبل أن تتزوجها ؟ »

ولم يأته جواب . فقد كان زميله الاسرائيلى فى رحلة طيران مماثلة .. ورأى نفسه طائرا بجناحين فوق فناء المدرسة . وطلبته وطالباته واقفين تحت ، يتطلعون اليه ويلوحـــون له بأذرعهم .. مهللين .. معجبين .. صائحين عليه ..

ـ ستعود .. ستعود .. العودة شعار حياتنا .

وقال لهم وهو يلوح بأحد جناحيه : ليس الآن .. ابنوا أنتم وطنكم . أما أنا ، فهائم . حركتى دخلت فى الفلك الأوسع . الطيران عبر أرجاء الكون .. النظر من أعلى .. ما أروعه .. ما أوسع المنظر .. أن نكون أبناء العالم (ثم بلهجة تحذير) وليس أبناء الجيتو . أجل يا أبنائى .. اسرائيل يجب أن تطهروا كيانها من جرثومة الجيتو .. هى مقتلنا .. تعلموا الانطلاق الى العالم بمحض رضاكم واختياركم . اقتلوا فى نفسكم الخوف من الشتات ، فالعالم لو رأيتموه من فوق ، ستجدونه كله جيتو صغير .

وأخذته نشوة الامتزاج بالكون ، تلك النشوة التى لم يحس بها من قبل أبدا طيلة حياته ، ورأى نفسه طائرا يرفرف من جديد ، وعبر البحر الأبيض . ومر على جزر اثينا ، فلوح بيده محييا : تحياتى يا أرض هوميروس وأرسطو .. يا أرض الفلسفة الأولى . وحين حلق فوق سهول يوغوسلافيا فكر ضاحكا : من كان يتصور ، أن الشيوعية ستدخل بلدا كان يحكمها الخليفة العثمانى ؟! وما أن لاحت له سلسلة جبال « زاكوبانا » على مشارف بولندة من الجنوب حتى صاح فدوى صوته فى الفضاء : بالحضن ياوطنى الأول .. يا أرض مولدى . منذ متى لم أرك . ورقص قلبه لمنظر القـــلاع والمبانى بطرز القرون الوسطى الى العصر الحديث .. آه .. ها أنت أخيرا « وارسو » يامدينة طفولتى .. بأسقف بيوتك القرميدية الحمراء ، وحدائقك الزاهية الواسعة .. آه .. وها أنت بأنهر

الفستولا » · ورأى خط النهر الذى يشـــق المدينة يلمع « يانهر الفستولا » · وتعجب كيف أنه طوال الست سنوات التى عاشها من طفولته لم يشرب مرة واحدة من هذا النهر ، ولم ير أحدا يشرب منه أبدا ·· وقال صائحا : سأكسر القاعدة · وسأشرب منه حتى أرتوى · لكنه ما ان أوشك على الهبوط حتى رأى مدافع رشاشـــة تصوب عليه ·· ورأى جنود الرايخ بخوذاتهم وصلبانهم المعقوفة وأحذيتهم الثقيلة يكتسحون الشوارع والبيوت · وأبوه وأمه يأخذانه من يده ويهرعون وسط أمواج الرعب الى الحدود · « وكان بـــدء الشتات · فهل يعد الشتات مرة أخرى ؟

ورأى طلبته واقفين لايزالوا فى انتظار عودته ·· يلوحـــون مرحبين « قلنا انك ستعود · لم يحن بعد أوان الخروج من الجيتو ، الجيتو هو عاصمنا · وطنك فى انتظارك · يجب أن تعود ·· العودة شعار حياتنا » ·· آه ·· كم اشتاق أن أعود ·· وأراك ياسارة ·· من يحملنى من هنا ويضعنى فى حضنك ·· حضنك هو وطنى الأول والأخير ياسارة ·· الحنان هو وطن الانسان · أنا أيضا معى صديق يحن الى حضن حبيبته · أريد أن أعرفك عليه ·· انه مصرى ·· مثقف ·· تخصص كيميا أراضى ·· دعينى أقول لك سرا · اننى لا أريده أن يموت ·· أريده أن يعيش ليعمر سيناء ·· أليس كذلك ياربيع ·· ستعيش لتعمر سيناء ·· لماذا لا تكلمنى · ·هل أنت طائر مثلى ؟! اياك أن تموت وتتركنى وحدى ·

قال المصرى : هل تشعر بالوحدة ؟ من قال أن الموت وحدة ·· بل من قال أن الموت موت ·· لا تكلمنى لبعض الوقت ·· لا تقطع على ··

وفوجىء الاثنان بحركة بالقرب منهما فانتفضا لها انتفاضـــة

اخرجتهما من البئر ·· انتفاضـــة فرح ممتزجة بالفـــزع ·· قال الاسرائيلى :

ـ هل تسمع ؟ يخيل لى أنى أسمع صوتا ··

ـ نعم ·· بالتأكيد هنا انسان ·· شخص ما ·

وركزا كل وجودهما فى سمعهما ·· تناهى اليهما صوت أنات· وأدرك الاثنان على الفور انه جريح وللحظة خاطفة أحسا بالفرح فقديكون أقل ألما ، وقد يكون معه ماء ، أو ثمة نجم يهدى للحياة ·· غير أن فكرة مرعبة سيطرت على الاثنين فى وقت واحد · وقال الاسرائيلى فى نفسه : قد يكون مصريا ·· عدوا ·· ويقتلنى انتقاما ·· وقال المصرى فى نفسه : قد يكون اسرائيليا ·· ويمزقنى حين يجدنى فى حضنه · وأنا أعزل ·

قال للاسرائيلى ·· هامسا متحفزا : انه عدو لواحد منا ·· بالتأكيد ··

قال الاسرائيلى : وهو صديق للآخر بالتأكيد ·· واذن ؟

ـ واذن ماذا ؟

قال الاسرائيلى : نحن اللذان نرجح الكفة · اثنان ضد واحد · أنت وأنا ضده ·· هذا لو اختار موقف العدوان · أما اذا اختـار السلام فنصبح ثلاثة معا ·· ماذا قلت ؟

ورغم أن المصرى وافق على الفور فى ســـره على المعاهدة المطروحة ، الا أنه لم يعلن موافقته · فماذا لو وجد نفسه يشتبك مع زميل له مصرى دفاعا عن اسرائيلى · واحد من جنود أعدائه اى مأساة واى عار ·· غير انه قال فى نفسه : وقد يكون هذا القادم اسرائيليا . فهل أصدق أن ايليا سيقف ضده دفاعا عن حياتى ؟ ودق تلبد بعـ الـ ـياد ·

ـ هل أنت صادق فى كلامك يا ايليا ؟

ـ ربيع · لماذا لا تثق فى ·· يجب أن تثق فى ·

ـ أنت تطلب المستحيل يا ايليا ·· المستحيل الصعب ·

ـ المســـتحيل الممكن ياربيع ·· أن نعيش ، أنا وأنت ، لو تعاهدنا ··

قال المصرى محذرا : لو صدق كلانا فى عهده ·

أكد الاسرائيلى : لو صدق كلانا فى عهده ·

كان الأنين يتناهى اليهما بين الحين والآخر · أنينا انسانيا لا يشى بلغة صاحبه أو جنسيته ·

همس المصرى : سأذهب وأرى ·

همس الاسرائيلى : سآتى معك ··

ـ بل ابق هنا ·· واحد يكفى ·· خذ هذا الركن المعتم ·· سأزحف بحيث لا يسمعنى ·

ـ وأنا أيضا أجيد الزحف ·· لا تخف ·· لن أحدث أى صوت ·· يجب أن نكون معا ··

وما كادا يبدءان الزحف ، حتى رأيا باب المطبخ مسدودا بهيكل انسانى ضخم ، عارى الرأس · وكان يتمايل ، ويترنح ·

وصاح فيه المصرى مباغتا : من أنت ؟ قل كلمة سر الليل ·

وجاءه على الفور الجواب كزغاريد من الجنة ·

ـ اذن فأنت مصرى ·· بالحضن ياصديقى ··

ونهض من انبطاحته فاردا ذراعيه المتهافتين ، واندفع كلاهما في حضن الآخر وراح يغمره بالقبلات ٠

قال الوافد الجديد ٠٠ متألما : حاسب على ٠ اننى ملىء بالجراح وأنزف ٠

أخلى ربيع يديه وقال :

ــ سلامتك ٠٠ اننى أيضا ٠٠ أموت من العطش ٠٠ أليس معك قطرة ماء ؟ قطرة واحدة أبل بها ريقى ٠٠

ــ معى ٠ زمزميتى فيها ماء ٠

فرحة غامرة اكتسحته : الحقنى أرجوك ٠ الحقنى بها ٠

ــ هاهى الزمزمية ٠ حول وسطى ٠ خذها واشرب ٠٠

وجاهد ربيع كى يتحكم فى أعصابه وهو يخلع الزمزمية ثم ينظر اليها بوله وعدم تصديق ٠٠ يؤكد لنفسه أنه لا يحلم ٠ ورفعها بيديه المرتعشتين الى فمه ٠

وقال له الوافد : اقتصد فى الشرب ٠ ليس لدى غيرها ٠

قال المصرى وقد أحس بكل ذرة فى جسمه تنتفض مطـالبة بالحياة : لا تخف ٠ لن أشرب ٠ سأمصمص ٠ الماء لا يشرب ٠ ولكنه يستطعم ٠ ووضع فمه حول فوهة الزمزمية ٠ وأمال رأسـه الى الخلف ، وراح يشرب قطرة قطرة ٠ ومع كل قطرة كان يحس بدفقة حياة ضوئية تنتشر فى أرجاء جسمه ووعيه ٠٠ ما أجمل ما يخلقه الله لنا فى هذه الحياة من نعم ٠ الماء ٠٠ ال ماء ٠٠

وانتفض على صوت يقول بالانجليزية ٠٠ نائحا مستغيثا :

ــ وأنا أيضا عطشان ٠٠ لا تنسنى ٠٠ ياربيع ٠٠

كان ايليا الاسرائيلى ··

ورد عليه بالانجليزية : لا · لن انساك بالطبع ·

هنا دوت فى أرجاء الحصن صرخة غضب رهيبة ·· فما كاد الوافد المصرى يكتشف وجوده ، حتى أخذته المفاجأة للحظة وشهق

ـ اسرائيلى ؟!

ثم انطلقت منه صرخة حقد هائلة : لا ·· لن يشـــرب ·· وسأقتله ·

وكالوحش بجسمه العملاق اندفع مترنحا على الاسرائيلى ·

ـ انا الذى سأشرب من دمه ·

- ٤ -

ووجد ربيع نفسه يقفز ويعترض طريقه : لا · لا تقتله ·

نظر اليه الوافد مستنكرا : تمنعنى من قتل يهودى ؟!

قال ربيع متوسلا : افهمنى أرجوك · أنه الآن ليس يهوديا · هو الآن ·· انسان ، يموت من العطش ·

زمجر ··

ــ لا أعطى الماء لعدوى ، ليقتلنى بعد ذلك ·

ــ لن يقتلك ··

وصرخ الوافد : بل سيقتلنى · انهم مجرمون · قتلوا الدسوقى والدويرى ورأفت وموريس وحودة الاسكندرانى · سأشرب من دمه ، ومن دمك أنت أيضا لو منعتنى · ياخيخة !

قال ربيع دافعا عن نفسه الاهانة : أنا لست خيخة ·

ـ ادن فأنت خائن ·· أو جاسوس ·· تعمل لحسابهم ·· ابتعد عن طريقى ·

وبقوة الغضب الأعمى اندفع بكل جسمه على الاسرائيلى · غير أن ربيع انحنى بسرعة واحتواه بذراعيه من أسـفل ليعرقل حركته · وفوجىء به يتأوه صارخا من الألم وتتراخى حركته ، فأخلى عنه ذراعيه ·· ووجده يترنح من تلقاء ذاته ، محانيا ألما شديدا

ـ تمنعنى من الانتقام ؟

ـ أفهمنى أرجوك يا ·· دعنا نتعارف ··

قال الوافد نائحا بحزن ··

ـ حتى الانتقام ·· لم أعد قادرا عليه ·· انه النزيف · من أول الليل وأنا أنزف ··

قال ربيع :

ـ أين النزيف ؟ قل لى ··

ـ فى كل مكان من جسمى · ومن عقلى · انها النهاية هذه المرة ·

واستند بجسمه على زميله المصرى الذى أحاطه بذراعيه ، لكنه أحس بزمزمية الماء تعوق من حركة يده ·

خذ منى الزمزمية يا ايليا كى أعرف أسنده ·

واختطفها ايليا كالمجنون وفى لحظة كان يضـعها على فمه ويشرب · أخذ جرعة واحدة وتوقف يحس بطعم الماء وبالحياة تدب فى عروقه · وكان انهيار « الوافد » المفاجىء قد ملأه بالارتيـاح وبالأمان · وجاء يشرب جرعة أخرى لكنه توقف على صوت ربيع ··

ــ لا تنس نفسك مع الماء وتعال ساعدنى ·· نمدده ٠

كانت لهجة ربيع الآمرة قد نبهته للموقف ، فقاوم نداء معدته لجرعة أخرى من الماء ، أسرع يسـد فوهة الزمزمية باحكام ، ثم وضعها على الأرض وأسرع يعاون زميله ليرقدانه برفق ·· هذا الذى كان يبدو منذ لحظة وحشا هائجا ، ثم فى غمضة عين انهـار وتهالك ٠

وقال الاسرائيلى وهو يتأمل الكيان الممدد الهامد الا من أنفاس تروح وتجىء بصعوبة ٠

ــ كان يريد منعى من الشرب خوفا من أن أقتله ٠ ها أنذا قد شربت ياعزيزى ، ورغم هذا لم أقتلك ٠ برغم انى استطيع الآن أن أقتلك ··

صرخ ربيع فى وجهه غاضبا ·· متحديا :

ــ لا ·· لا تستطيع أن تقتله ٠ هل سمعت ؟!

فوجىء الاسرائيلى برد الفعل هذا ، قال مقسرا : أنت لم تفهم قصدى ياربيع ٠ انا أريده أن يفهم ، رغم اننى استطيع أن أقتله ، فاننى لن ··

وتوقفت كلماته على يد ربيع وهى تمسكه من صدره وتهز فيه بغضب : قلت لك لا تستطيع ·· لا تستطيع ·· كلماتك هذه أمنعك عنها ٠ عيب ٠ أن تشعر انسانا عاجزا بالمذلة ·· أهذا بدلا من أن تقول له كلمة تشجيع ·· كلمة حب ·· انه هو الذى أنقذنا بالماء ، وعلينا أن ننقذه ·· فلنفك سترته ونتحسس جسمه ، علنا نعرف ما فيه ··

وراح الاثنان يفكان أزرار السترة الخارجية ، وفوجئا برقعة دم كبيرة ٠

صاح ربيع : هاهى الاصابة ٠

اكمل ايليا : بجوار القلب ٠ انه نزيف داخلى ٠٠ ويحتاج عملية سريعة ٠

كان ربيع قد وضع كفه فوق الجرح ، كأنما يريد أن يسده ، ورفع يده ليرى كمية الدماء التى علقت بها ، غير أنه فوجىء بالجريح يقول بصوت غائب :

ــ أبق يدك ٠٠ على صدرى ٠

فأعاد يده مسرعا فوق الجرح ٠ بحنان ٠٠ يربت عليه ٠

ــ اننى أفديك بدمى ياصديقى ٠ احتمل أرجوك فقد تنقشـــع الغمة سريعا ٠٠ من يدرى ٠ ونحن انتصرنا ياصديقى ٠٠ عبرنا القنال ٠٠ أنت عبرت القنال ، ولكن قل لى ٠٠ من أنت ٠٠ ما اسمك وما هى كتيبتك التى عبرت معها ؟ لا ٠ لاداعى لأن تقول شيئا عن الكتيبة فهذا سر ٠٠ يكفى اسمك ٠٠ قل لى ما اســـمك ومن أى بلد أنت ؟

ــ نقطة ماء ٠٠ بلل ٠٠ زورى ٠٠ بنقطة ماء ٠٠

وسأل ايليا : ماذا يقول ياربيع ؟

ــ سألته عن اســـمه فقال عطشـــان ٠٠ يريد ماء ٠٠ هات الزمزمية !

وفكر ايليا وهو يلتقط الزمزمية من على الأرض : « لم يعد

بها غير شـــربتين ، وقد يجهز عليهما ، ونعود الى ضـــياع العطش » ومع هذا ، فقد وجد نفسه يفتح الزمزمية وراح بحذر بالغ يميل بفوهتها على شفتيه ٠

وحذره ربيع : قطرة قطرة يا ايليا ٠

ـ لا تخف ٠ فانت وانا مازلنا عطاشى ٠٠ لكنه الآن أولى ٠ وهو قبل كل شيء ماؤه ٠ اشرب ياعزيزى ٠ افتح فمك ٠٠

قال ربيع : انه لا يفهم الانجليزية ٠٠ (وخاطب زميله المصرى) ها هو الماء على شفتيك ، افتحهما ٠ هات يا ايليا ٠ ساسقيه أنا ٠ خذ هذه القطرة ياصديقى ، أو الجرعة ان كنت تريد ٠٠ كل ما تبقى من الماء لك ٠ (ثم فى سره) رغم أن الباقى قليل ، وانا فى حاجة اليه ٠

بجهد متهافت ، راح الجريح يلعق قطرات الماء بلسانه ، من على شفتيه ٠ كانت أنفاسه تروح وتجىء ببطء ٠ واستطاع أن يحرك احدى يديه وقال : كفاية ٠ لا اريد اكثر من ذلك ٠ احتفظا بالباقى لكما ٠٠ أنتما أولى بالماء ٠٠ اما أنا ٠٠ فأموت ٠

اهتز المصرى بكلماته ، ونبرته الفاجعة ٠

ـ لا ٠٠ بل اشرب ياصديقى المصرى الكريم ٠ المصـــريون قوم كرماء ٠٠ يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ٠ اسمعت يا ايليا ، يقول لك احتفظ بالماء ٠٠ أنت وأنا أولى منه بالماء ٠٠ يجب أن ننقذه ٠ كيف ننقذه ٠ لم يعد قادرا حتى على الشرب ٠٠ قل لى ياصديقى ما اسمك ارجوك ٠٠ انا اسمى ربيع يوســف عبد الحكيم هلال ، سنورس ٠ فيوم ٠٠ وانت ما اسمك ؟

ـ أنا ٠٠ انا عبرت ٠٠ ورانت على شفتيه المبللتين بالماء ابتسامة ٠

اهتز ربيع : طبعا يا صــديقى أنت عبرت ٠ عبرت القنال ، واجتزت خط بارليف ٠ نحن حطمنا الأسطورة ٠ أنت حطمتها ٠

ـ قل له ذلك • (واتجه بنظراته الذاهبة الى الاسرائيلى)

واستدار ربيع الى ايليا : يقول لك أنه حطم اسطورة بارليف •

ـ أنا أعترف •• قل له انى أعترف ببطولته •

ـ يقول لك انك بطل •• واننا نحن الذين بنينا الأهرام ••

ـ اذهب وقل لها ••

ـ من هى ؟

ـ اذهب الى البلد وقل لهم هذا •

ـ أى بلد • قل لى بربك • قل لى بسرعة •

ـ دعنى اذهب اليها • عن اذنك •

وعاودته الابتسامة • ثم سكن جفناه •• وشفتاه •• وتجمدت الابتسامة • والنظرة ••

شهق ربيع شهقة فجيعة : لقد مات ••

وجاوب ايليا شهقته • عاد ربيع يصرخ وقد وجه صرخاته إلى ايليا : أنتم الذين قتلتموه •• أنتم قتلة •• قتلة ••

اطرق إيليا فى خجل •• كان حزينا وخجولا بالفعل • فان لم يكن هو شخصيا القاتل ، فان القتلة بالتأكيد من بنى وطنه • هم الذين أصابوا هذا الرجل • « أنا لا أعرف ماذا أقول لك ياربيع أنا حقيقى أحس بالذنب • رغم انى لم أمسه بسوء •• لكنها الحرب الحرب التى كنت اكرهها ، لكنى دخلتها • كان لابد أن ••

قال ربيع مقاطعا فى حزن غائر : تريد أن تبرر الجريمة •

قال ايليا غاضبا : ان كنت تعتبرني مجرما ، فأنت مجرم بالمثل ٠

رمقه ربيع بنظرة حادة : هل سنعقدها محكمة ، وبين أيدينا رجل ميت ٠ هيا ندفنه ، ثم نتناقش بعد ذلك !

ارتج الاسرائيلى لكلمة الدفن ٠ وتراءت له مع وحشة المكان صور اقشعر لها جسده ٠ وغمغم : ندفنه ؟

طبعا اكرام الميت دفنه وقد كان كريما معنا ٠

ـ أجل يجب أن ندفنه ٠ هل تسمح بقطرة ماء ابل بها ريقى ؟

ـ خذها (ومد له الزمزمية) ٠ أنا احتاج ايضا الى قطرة ٠ والباقى قليل ٠

قال له الاسرائيلى : اشرب أنت أولا ٠

ـ لا ٠٠ بل اشرب انت أولا ٠٠

ـ لا ٠٠ أنت أولا ٠٠

ـ بل أنت أولا ٠٠ أقسمت ٠

وتناول ايليا منه الزمزمية ، وفى حذر تلقى جزءا صغيرا من سرسوب ماء وابقى عليه فى فمه ، يريد أن يستبقيه أطول وقت قبل أن يبلعه ، وأعاد الزمزمية الى ربيع الذى أمسكها بين كفيه وراح يتلقى الماء على لسانه ٠٠ قطرة قطرة ٠٠ كان كلاهما يستطعم الماء بعمق ويتسمع دبيب الحياة وهى تنتشر وتشع كالسحر فى العروق وفى الشرايين ٠

وقال المصرى : ساصلى عليه أولا ٠ المسلمون يصلون على موتاهم قبل أن يودعونهم ٠ عن اذنك ٠

ـ تفضـــل ٠ .

قالها الاسرائيلي وقد احس أن المصرى المسلم يستبعده تلقائيا من الصــــلاة ، وللحظة استراح لهذا الموقف ، الا يصلى – هو اليهودى – على المسلم • فضلا عن أن له موقفه الفكرى الخاص من الصلاة •• (وتأمل الموضوع) لم يحدث هذا فى التاريخ ، أن صلى يهودى على مسلم ، أو مسلم صلى على يهودى •• لم يحدث أبدا •• ولكن (وبرقت فى ذهنه فكرة) ما الذى جعل ربيع يعتقد أن هذا الرجل الميت مسلم ؟ اننا لمنعرف حتى اسمه • أليس من الجائز أن يكون مسيحيا ؟

وقال مغامرا بالسؤال : ربيع : هل أنت متأكد من أنه مسلم ؟

توقف ربيع عن البدء فى الصلاة ، مصدوما بالسؤال • أجل كيف لم تخطر بباله هذه الفكرة • لماذا يعتقد كل واحد منا أن العالم على دينه ؟

– نقلب فى جيوبه ، فقد نجد ما نتعرف به على شخصيته ••

وراحا يقلبان فى جيوبه • وصاح الاسرائيلى : ها قد وجدت شيئا فىجيب جاكتته الداخلى • ورقة سميكة •

– ارنيها • فأنت لا تعرف العربية •

– انها صورة فوتوغرافية •

ومضى الاثنان ينظران فى الصورة • وجه امرأة شابة •• شعرها أسود طويل ومموج ومسترسل على كتفيها ، وطالعتهما بعينين واسعتين بشكل ملفت للنظر ، كأنما تبحث بهما فى كل الدنيا عن هذا الرجل الذى راح منها ومات فى الصحراء ••

قال ربيع : اذن فهذه هى التى كان يريدنى أن أذهب اليها لأقول لها أنه عبر (وتنهد) فلنقلب الصورة • قد يكون مكتوبا خلفها شيء نتعرف به عليه وما ان قلبهـــا حتى صــاح •• منتصرا :

ـ اسمه يوسف ·· دعنى اقرأ اهداءها اليه ·

وراح يقرأ الاهداء مترجما بالانجليزية : اليك يايوسف ·· بروحى وجسمى معك · ياحبيب العمر ·· والذى ما بعده عمر ·· حبيبتك الى الأبد « رجاء » ·

وحزت الكلمات فى نفسيهما : تراءت لكل منهما حبيبته ·· تتشابه كلمات المحبين فى كل بلاد العالم ، مهما اختلفت أديانهم وتتشابه أيضا سعاداتهم وأحزانهم ·· وموتهم أحيانا ايضا ·

وتذكر المصرى بداية الموقف فقال بحماس : أرأيت · اسمه يوسف ·· يعنى مسلم · (وهتف) اسمه على اسم أبى ·

قال الاسرائيلى بهدوء :لا ·· ليس شرطا ·· ليس بالضرورة · فيوسف يمكن ان يكون مسلما ، وقد يكون مسيحيا ·· وقد يكون أيضا يهوديا ·· بل ان هذا هو أصل الأصول فى اسم يوسف ·· القرآن عندكم يؤكد هذا !

ـ تقصد سيدنا يوسف ؟

ـ بالضبط · هو أول السلسال فى هذا الاسم ·

قال المصرى المسلم بشىء من الضيق حاول أن يخفيه · فلنبحث عن أوراق أخرى ، فقد تتضح لنا هويته أكثر ·

غير أن بحثهما راح عبثا ، وبقيت الصورة بالوجه الجميل ، بالشعر المموج المستلقى على الكتفين ، بكلمات الاهداء الآسية هى الضوء الوحيد على شخصية الميت · قال ربيع ، بلهجة قاطعة :

ـ احساسى أنه مسلم وسأصلى عليه (وبعد لحظة) ثم افترض انه مسيحى ، أو حتى يهودى ، هل حرام أن يصلى الانسان

على واحد ميت ، ويطلب له الرحمة · الكل فى هذه الأيام مطلوب لهم الرحمة ·

هز ايليا رأسه بحزن ومرارة : أجل · مطلوب لنا الرحمة جميعا الرحمة من هذا العذاب الذى نحن فيه ، يهود ومسيحيون ومسلمون هذه الصحراء يجب أن تكف عن أن تكون مقبرة لنا ·· الجيل بعد الجيل · أربعة حروب رهيبة ·· فى أقل من ثلاثين عاما ·· كم يحتوى بطن هذه الصحراء من هياكل وجماجم مسيحية ويهودية ومسلمة ·

قال ربيع مشيرا على رأس الجسد المسجى : وهذه جمجمة جديدة تضاف اليهم · جمجمعة رجل اسمه يوسف ·

قال الاسرائيلى : فلنصلى عليه ·

فوجىء ربيع بكلماته · هل يشترك ، هو المسلم ، مع يهودى فى صلاة ؟ ماذا لو رآه احد من أهل قريته وأشاع الخبر : كان ربيع يصلى مع يهودى اسرائيلى · جن · افقدته الحرب عقله (وفكر فى نفسه متنهدا) انهم لا يعرفون ·

وأحس ايليا بتردده للحظة فقال :

ــ الا تريدنى أن أصلى معك ؟ أنا لا أفرض عليك شيئا ياربيع ·

قال ربيع مسرعا :

ــ لا ·· لا ·· ولكن ·· هذه مشكلة · أنا مسلم ولى صلاتى · وأنت يهودى ولك صلاتك · فكيف نشترك فى صلاة واحدة ؟

قال ايليا · فليصل كل منا صلاته · أنا شخصيا لى صلاتي الخاصة · غير تلك الصلاة التي يصليها الآخرون

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هذا موضوع كبير يا ربيع • ولا اظنك تريد ارجاء صلاتك للدخول فى نقاش حول العقائد والأديان • فضلا عن انه ليس لدينا القوة للكلام •

تنهد ربيع •• كان بالفعل عازفا عن أى نقاش •

ـ عن اذنك •• سأبدأ صلاتى •

وفوجىء به ايليا ينحنى على الأرض ويلمس الرمـل بكفيه ثم يمر بهما على وجهه ثلاث مرات • كان ربيع يتيمم بديلا عن الوضوء بالماء • ثم رفع يديه مكبرا وانخرط فى صلاته • ومضى ايليا يرقبه • واستثارته جدا لحظات الركوع والسجود • وفكر مستعيداً دراساته الأنثروبولوجية : « هذه بقايا طقوس العبادات الوثنية القديمة • الصلاة احتياج انسانى ، وليست احتياج الهى • (وتنهد) ولهذا أنا لا أرفضها : أنا أيضا فى حاجة الى الصلاة • صلاة لا أهمس فيها أو أرتل ، بل أصرخ فى وجه تلك القوة المهيمنة : انقذينا •• انقذينا من هذا البؤس الذى نحن فيه •

وأغمض عينيه ثم فتحهما على الجثة وقال متمتما بخشوع : سلاما أيها الميت • يامن جئت الى الدنيا بلا ارادة ، وخرجت منها أيضا بلا ارادة • كلنا مثلك • فى البداية والنهاية • كم يتعذب الانسان على هذه الأرض • منذ أخرج من الجنة عقابا على أنه أكل من شجرة المعرفة • هل نحن جسر للانسانية السعيدة ؟ وكيف تكون سعيدة تلك التى تخرج من رحم العذاب •• أيتها الحيلة •• أيها الاله •• كفانا من الآلام ومن الرعب •• » ومضى فى تمتماته ، مقيما صلاته الخاصة • وهكذا استغرق الاثنان •• كل فى صلاته • ورأى كل منهما • نفسه ممددا مكان الميت وقد لا يجد من يصـــلى عليه • وسرت فى جسديهما قشعريرة ، ورغبة فى انهاء الصلاة

بسرعة . فقد بدا لكل منهما أنه يصلى على نفسه ويطلب لها الرحمة اكثر ما يطلبها للميت ومسح المصرى على وجهه بكفيه .. خاتما صلاته :

ـ فلندفنه ..

ـ أين ندفنه ؟

ـ فى الخندق الأمامى .

ـ فكرة سليمة . (ثم كأنما لنفسه) ونضع عليه شاهدا . ليدل عليه (وأحس بقشعريرة وبأنفاسه تتدافع) ولكن ياربيع ، هل تعتقد أن لدينا القدرة على حمله أو جره الى الخارج ودفنه ؟ انا ارى تأجيل هذه العملية بعض الوقت .

لقيت الفكرة هوى فى نفس ربيع ، فقد كان هو الآخر يحس بتهافته ، قال مؤيدا : وماذا نفعل فى هذا الوقت ؟

ـ نبحث عن الحجرة الرئيسية . لقد أعطتنا شربة الماء بعض القوة عن الحركة . فلنستغلها قبل أن تتبدد . آه لو نجدها ياربيع .. سنجد فيها كل شىء ! فيها منضدة الطعام .

تحرك الأمل فى نفس ربيع : أنا معك . فى أى اتجاه نتحرك ؟

واستدار الاسرائيلى مشـــيرا بذراعه : فى هذا الاتجاه .. سرادب صغير .. لا يزيد عن ثلاثة أمتار ، ينتهى بالحجرة . بابها أوتوماتيكى .. الزر الى اليمين . تعال ورائى (ثم نافيا عن نفسه وضع الأولوية) عرض السرداب لا يسع غير شخص واحد .

وتبعه ربيع . وبداله ايليا فى صورة دليل ذاهب به الى واحة ، بابها يفتح أتوماتيكيا .. ثم .. ثم يقفل ايضا اتوماتيكيا (وأجفل) رأى نفسه فى مصيدة . « أجل .. ما الضمان ؟ ومن الجائز ان يكون

فيها مجموعة من الاسرائيليين مختبئين وينتهى الأمر بقتلى ، أو على الأقل بأسرى · قد ينتهى الأمر بخدعة ! وملأه ضيق السرادب وظلامه بهذا الشعور ·· الشعور بالحذر ، ، لقد دخـلا مرة أخرى منطقة الظلام · هل يتركه ماضيا فى السـرداب ويعود الى منطقة الضوء ·· فى مدخل الحصن ؟ وتذكر الجثة التى تركاها · لن يعود ليجد نفسه وحيداً مع رجل ميت · وانتبه على صوت ايليا ·· صائحا بالبشرى :

ـ وجدته · وجدت الباب ·· أين الزر ·· هاهو ··

وسمع ربيع صوت أزيز · وفى نفس اللحظة واجهه فجأة ضوء ساطع غامر حتى انه رمش بعينيه يود لو يغمضهما · وسمع ايليا يصيح بالعبرية ان كان أحدا من زملائه الاسرائيليين موجودا ، فتحفز آخذا وضع الاستعداد لأن يعود خفية ويهرب ، وهمس فى أذن ايليا :

ـ لو وجدنا اناسا منكم ، فسأهرب دون أن يلحظ أحد (ثم مذكرا) لقد دافعت عنك ·

قال ايليا وهو يصيخ السمع :

ـ لم يرد أحد (ثم لنفسه) ترى ماذا حدث لهم ؟ (ثم لربيع) هيا ندخل ·

ما أن دخل ايليا من الباب وفى اثره ربيع، حتى وجدا نفسيهما يتسمران للحظة · بل ان ربيع فكر على الفور فى الارتداد والهرب · أما ايليا فقد وجد نفسه يصيح فى فرح ·· باسطا ذراعيه :

ـ ايزاك ·· ياصديقى ·· بالحضن ·

كان المنظر بالغ الاثارة : منضـدة وسط الحجرة ، مليئة

بالطعام ، وشاب أسرائيلي يجلس اليها ، ويداه ممدودتان على الطعام وينظر اليها ، بلا كلام ٠

اندفع ايليا عليه :

ـ ايزاك ٠٠ لماذا لا ترد علىّ ٠ هل أنت خائف أن نشاركك الطعام ؟

وارتعب ربيع من نظرة عينى هذا الرجل الجالس الى المائدة يأكل ٠ هل أغضبه دخوله فانسدت شهيته عن الأكل ، والآن يجمع غيظه وحقده ليهجم عليه ؟ وعاودته فكرة الفران ٠٠ يا للنظرات الرهيبة التى لا ترمش حتى ! ورأى ايليا ينظر فى عينى زميله ، ويصيح عليه معاتبا :

ـ لماذا لا تكلمنى يا ايزاك ٠ هل انت غاضب لأننى سأشاركك هذه السعادة ٠ اننى أموت من الجوع ٠ وهذا المصرى أيضا ٠ لقد انقذ حياتى ٠٠ المصريون فيهم أناس طيبون : كلمنى يا أيزاك ٠

وأمسك به من كتفيه ، غير أنه وجد نفسه ينتفض فى هلع ، وقد رأى ايزاك يوشك على السقوط من جلسته على الأرض بكل جسمه ودفعة واحدة ، فأسرع واحتضنه بكل ذراعيه وهو يصيح :

ـ لا ٠٠ مستحيل ٠٠ مستحيل ٠

واتسعت عينا ربيع بالرعب وبالذهول ٠ بينما ايليا يصرخ فى فجيعة :

ـ انه ميت ٠٠ ايزاك ميت ٠٠ مات وهو يأكل ٠٠ وهو جالس يأكل ٠٠ هذا مرعب ٠ الموت على الطعام ٠٠ مرعب ٠

ومضى يبكى وهو يحتضن زميله الاسرائيلي الميت ٠

- ٥ -

كان المنظر فوق طاقة ربيع العصبية · أن يرى انسانا يصعقه الموت وهو جالس يأكل طعامه · وادرك فجأة سر تلك الآلام والأوجاع الهائلة التى كان يحس بها فى جسمه رغم إنه لم يصب بجرح واحد ، ها هو يرى الصدمة العصبية تفاجأ الانسان وتقتله قتلا · ومسه بكاء ايليا المحرق على زميله · كان متيقنا من أنه يبكى على نفسه أيضا وعلى هزيمة بلده · وفكر فى نفسه : لو كل اسرائيل تأتى وترى المنظر ، لكى يعلموا كم تذيقهم الحرب · كم تكلفهم · (وتذكر يوسف الملقى الآن على الأرض) » وتكلفنا نحن أيضا · (غير انه هز راسه رافضا التشبيه) ، فيوسف مات شهيدا ·· أما ايزاك ·· »

ورفض أن يتهم الميت ·· وضاق بالموقف ·

ـ ايليا ·· لنكن عمليين ·· فالدموع لن تعيد الموتى ·

نظر اليه ايليا من خلال دموعه ·

ـ أجل يا ايليا • فلننقله من جلسته الرهيبه هذه ونريحه على هذا السرير • ان هذا أفيد له من البكاء •

ومسح اليا دموعه بأصابعه وعاد ينظر الى زميله الجالس الى مائدة الطعام ميتا • وزفر : آه لو كاميرا أو صورة وتنشر الصورة فى كل صحف العالم : هذا هو ما تفعله الحـــرب • الموت على الطعام !

قال ربيع : لكن بلادكم يا اليا ستأخذ هذه الصورة وتنشرها كنوع من استدرار الدموع • « هذا هو ما يفعله العرب الوحوش بنا » ويبررون لهجمة أخرى ، ويعود الموت يا ايليا •• على الطعام •• وعلى الرمال •• (وأشار فى اتجاه جثة المصرى) وقد ننضم نحن الآخران اليهما ، ونصبح أربعة فى الصورة ••

ـ لا ياربيع •• يجب أن نعيش • هيا نحمله الى السرير •• أنت من ناحية وأنا من ناحية • الأفضل أن نجذبه أولا بالكرسى الى الخلف حتى تسهل الحركة •

قال ايليا : سأجذب أنا الكرسى • أما أنت فأمسكه بيديك حتى لا يسقط •

وامسك ربيع بالرجل الميت من كتفيه يحميه من الســـقوط ، ويتأكد أيضا أنه مات بالفعل • هذا الاسرائيلى • مات تماما ولن يهدده • مات تاركا لهما الطعام ، مثلما مات المصرى تاركا لهما ماءه •• يالمعادلات الحياة الغريبة • معادلات الحياة مع الموت !

وقال الاســـرائيلى : نحمله من تحت ابطيه • ذراعاه فوق كتفينا •

كان ثقيلا • وكافحا ليقطعا به تلك المسافة القصيرة التى تفصل

بين السرير ومنضدة الطعام ، وأرقداه على السرير ، ووقفا يصلبان قامتيهما ويلهثان ٠

قال ربيع : فلنغطه بهذه الملاءة ٠

قال ايليا ، معترضا : لا تتعجل يا ربيع ٠ فان الستار الذى سيسدل هذه المرة لن يفتح مرة أخرى !

ـ اى ستار ؟

هز ايليا راسه بمرارة : كان ايزاك فنانا ٠٠ كان ممثـلا مسرحيا ياربيع ٠٠ وياما لعب لنا وغنى ٠٠ وياما صفقنا له ٠

وغلبته دموعه فاجهش فجاة بالبكاء ٠ اهتز ربيع لدموعه ٠٠ قال مقاوما البكاء :

ـ كلنا ممثلون ياايليا والدنيا هى المسرح ٠ كلنا يلعب دوره الطويل أو القصير ويمضى ٠ (ثم بقوة) يجب أن نكون واقعيين يا ايليا ٠٠ نحن فى وضع حرج ٠ ولا ندرى أى مفاجآت أخرى فى انتظارنا ٠ لقد مات ولن تعيده ذكرياتك الى الحياة أو المسرح ٠ أو اذا كنت تريد أن تتذكر ، فاحك لى ذكرياتك معه ونحن نأكل ٠ هاهو الطعام امامنا أصنافا ٠٠ من كان يتصور ٠٠ أنا أعرف أنك فقدت الرغبة فى الطعام ، انا ايضا مثلك ٠٠ انه لمرعب أن يموت الانسان على الطعام ٠٠ لكننا مع هذا لابد أن ناكل وبسرعة ٠ نملأ بطننا ، فلا ندرى أى مصير ينتظرنا ٠ انا شخصيا سأبدأ ٠٠ (واتجه الى المنضدة) هيا يا ايليا ٠ فلا ضمان ابدا لاستمرار هذا الوضع ٠ قد نفاجأ بمن يخطفه منا ويقتلنا أيضا !

وحركت الكلمات غريزة حب الحياة فى نفس ايليا ٠ يجب أن يسلح نفسه ٠ وفكر : يجب أن أعيش ٠ يجب أن نقلل عدد موتانا وعددنا بسيط ٠ اليهود عددهم بسيط ٠٠ سأغطيه أنا ياربيع ٠

وسحب الملاءة من فوق أحد الأسرة واتجه بها نحو الميت ٠٠ فتبعه ربيع وقال مادا يديه : سأمسك الملاءة من ناحية لنغطيه جيدا ٠

وفرداها بين ايديهما ، فبدت بمساحتها الطويلة البيضاء كستار نهائى لقصة حياة ٠ وحين استلقت الملاءة فوق جثمان الميت ، أجهش ايليا مرة اخرى بالبكاء ٠ فالتصق به ربيع واحتضن أحد كتفيه بحنان وقال وشفتاه ترتعشان :

ـ البقية فى حياتك يا ايليا ٠ نحن المصريون نعزى بعضنا فى الموت هكذا ٠ حياتك الباقية ٠

ولم يرد عليه ايليا ٠ كان واقفا أمام الجثمان المغطى بخشوع ، ويتمتم بكلمات عبرية ٠ وفكر ربيع وهو يرقبه ٠ « أهى كلمات وداع ٠٠ أم صلاة ؟ انها صلاة الوداع ٠ وقال فى نفسه : « لقد شاركنى صلاتى على يوسف ، فهل أشاركه الصلاة على ايزاك ؟ » وتنبه : أليس ايزاك هو تبسيط لاسم اسحق ٠٠ واسحق مشترك فى الأديان الثلاثة ؟ اسحق هو أبو يعقوب اخو اسماعيل ٠٠ أبناء ابراهيم عليه السلام ٠ فلأصلى على الثلاث ٠ اسماعيل واسحق ويعقوب (واتجه ببصره الى الخارج) وعليك ايضا يا يوسف ٠٠ المسجى على بعد أمتار منا ٠

ورآه ايليا يرفع كفيه ويصلى بطريقة المسلمين ٠ أحس بالامتنان العميق ٠ وود أن يحتضنه ويقبله : هذا مسلم ثورى ٠٠ ذلك لأنه متعلم ٠ تخصصه البيولوجيا وعلم الحياة من خلال دراسته للنبات ٠٠ الايمان المنبثق من خلال عمليات الحياة (وزفر) ولكن ٠٠ ما الحياة ؟ ما حياة الانسان ٠٠ وما جدوى نظرية التطور ، اذا كانت كل مرحلة جديدة لا تقوم الا على أنقاض المرحلة السابقة ؟ ما الحكمة ٠٠

أن يأتى السوبرمان فى آخر الزمان ، ولكن على جماجم آلاف المراحل والأجيال ؟!

وتوجه ببصره الى الجثمان ٠٠ « ها أنتذا يا ايزاك تموت ميتة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ٠ لو أنك الآن كنت تمثل هذا الموقف على مسرح ، المسرح الذى كان حلم حياتك ، ثم نهضت واقفا من رقدتك التمثيلية هذه ، لملأت أذنيك عاصفة رعدية من التصفيق ، ولكنت الآن تنحنى للجمهور ، ممتلئا بالبهجة والسعادة ٠ لقد كنت مرحا وتحب الغناء ولطالما صفقنا لك فى هذا الخندق وأنت تلعب لنا مختلف الأدوار التراجيدية والكوميدية ، ولطالما رقصنا أيضا على غنائك ٠٠ لكنك الآن لا تمثل ٠٠ بل أطبق عليك ملك الموت والصمت ٠٠ نجم وليد ، ما تكاد يضىء ويسطع حتى احترق وتناثر ولا أمل فى جمع ذراته ٠ لو أن الأمر بيدى لأطلقت معازف العالم فى لحن جنائزى يرثيك ويرثينا جميعا فيك ٠ فنحن يتامى يا ايزاك ٠ طوال التاريخ يتامى ٠٠ لو كانت هناك ضفة أخرى للحياة وقابلت الهنا « يهوا » فاشكو له ضياعنا حتى اليوم يا ايزاك ٠ انى أرى نذيرا بضياع جديد يلوح لنا ٠ قدر رهيب أن نكون شعبه المختار ولكن للألم وللعذاب ٠٠ أم أننا نحن اليهود الذين اخترنا الألم والعذاب أرض ميعاد لنا ؟ مشكلة نحن أم لعنة ؟

وانقذه من أزمته صوت ربيع الذى انتهى من صلاته يقول بنبرة جادة :

ـ فلنبدأ طعامنا (وتوجه ببصره الى الطعام الموضوع على المائدة) ٠ فأنا أولا أحس بأنى على وشك السقوط من الجوع ٠٠ وثانيا ، لأننا يجب أن نستطلع الجو فى الخارج من حولنا ٠ لن أشغل نفسى لحظة بالموت والموتى بعد ذلك ٠ هيا يا ايليا ٠ (وراح

يتجول بعينيه على أصـــناف الطعــام) وبـــدا كأنــه يـــرى المائدة لأول مرة « يالـه من شيء رائع ·· ومذهل ، هذا شيء لايصدقه عقل (وندت عنه ضحكة قصيرة) يالها من غريبة ·· الحياة ·· من كان يتصور ·· بعد ذلك الخراب ، والقحط الشامل ، نجد أمامنا وليمة !

ـ مات وتركها ·

ـ ايليا ·· لا تقلب أحزاننا · قل لى بأى صنف نبدأ ·· انا حقيقة حائر ، أود لو أضع كل هذه الأصناف مرة واحدة فى بطنى ، لكنى خائف على معدتى من الصدمة !

قال ايليا بهدوء : سأبدا بالخبز · أحب ان أبدأ بالخبز ·

وقطع لقمة من رغيف ، ففعل ربيع مثله ، وراحا يمضغان على مهل ، وفى صمت ، مستشعرين الطعم · ما أحسا أبدا فى حياتهما بجمال طعم الخبز مثلما يحسان به فى تلك اللحظة · وكانت كمية الماء التى شرباها أجرت لعابهما فساعدهما على البلع ، وعبر ربيع عن احساسه بروعة طعم الخبز ·

قال ايليا :

ـ نحن نصنع خبزا جيدا ··

وتنبه ربيع كأنما لأول لحظة ، أن الخبز الذى يدخل بطنه الآن خبز اسرائيلى ، وأن دبيب الحياة الذى يشتد فى عروقه بفضـــل الطعام المصنوع فى بلاد أعدائه ، ورغم هذا فان طعم الخبز لم يفقد ذرة واحدة من حلاوته ، وفكر : « الخبز زاد للجائع حيثما يكون ·· الخبز لا جنسية له · والقمح هو القمح فى كل بلاد العالم · هل يريد أن يشعرنى بالجميل ؟ ان كان يعيد لى الحياة الآن بخبزهم ، فقد أعددت له الحياة بمائنا · قال بحماس :

ـ والماء المصرى يا ايليا ٠٠ ماء عظيم ٠ أليس كذلك ؟

ـ آه ٠٠ (قالها ايليا بشرود) ماء النيل هو الذى انقذنى ٠ اتمنى لو أعيش لأحكى كيف أن ماء النيل هو الذى أنقذنى ٠

واسعدت كلماته ربيع : أنا الآخر لو عشت يا ايليا سأحكى لهم هذه المعجزة ٠ (وضحك) طعام من اسرائيل ياأولاد هو الذى أنقذ حياتى ٠ يالها من حكايات ستكون يا ايليا ٠٠ لو نعيش ٠

كان يأكل وهو يتكلم ٠ وكانت معدته تفتحت وأصابها نوع من الهيجان المفاجىء ٠٠ فانهال على الطعام ٠ « مكرونة بالبشمل » ، فى خندق موت ٠٠ يا الهى ٠٠و بازلاء خضـــراء ٠٠ بالصلصة ٠٠ ياربنا ٠٠ وبرتقال ذهبى ، فى لون شمس الصبح وهى طالعة فوق الحقول ٠٠ أين أحمى عقل من الذهاب ٠ يالكم من قوم مترفـــين يا ايليا ٠٠ حقا أنتم مترفون ٠

ورغم أن ايليا كان واقعا تحت تأثير نفس الهيجان المعوى ، الا أنه قال ، محذرا نفسه قبل أن يحذر زميله :

ـ فلنأكل على دفعات ، مثلما شربنا على دفعات ٠

ـ نعم يا ايليا ٠ (وبدأ يتباطأ فى الأكل ، وفى الكلام ٠ ثم بعد قليل) لقد بدأت أحس بالثقل ٠

قال ايليا : الثقل فى الجسم ٠٠ وفى الرأس ٠٠ هل تعرف ماهى امنيتى الآن ٠ ٠بعد أن شربت وأكلت ؟ أنام ٠٠

ـ نفس رغبتى يا ايليا ٠٠

كان الطعام الدسم المفاجىء قد ثقل عليهما بالفعل ٠٠ واحس كل منهما بالخدر وبالرغبة فى الاستلقاء ٠ وأغراهما منظر الأسرة الثلاثة الفارغة ، وابتعدا بنظراتهما عن الجثمان المغطى ٠ وثقلت

جفونهما ، فنهض كل منهما متجها الى سرير · واسترخيا : يالروعة الراحـــة ·

وقال ربيع : الآن يا ايليا عرفت لماذا لا يعرف الانسان الجائع لذة النوم ·

ـ نم يا ربيع وسأظل أنا مستيقظا ·· يجب أن يظل واحد منا مستيقظا ··

وتنبه ربيع ، مقاوما سحر النوم ، فهز رأسه ·

ـ نعم ، واحد منا يجب أن يظل صـــاحيا · نم أنت أولا يا ايليا ·

ـ بل نم أنت أولا ··

ـ لا ·· لا ·· أنت أولا ·

وتعرت الحقيقة مرة أخرى بلا أى اعلان ·· فرغم أن كليهما كان يذوب شـــوقا لأن يغلق عينيه لحظات ويسلم نفسه للغيبوبة ، مطمئنا الى أنها غيبوبة نوم ، وليست غيبوبة موت ، الا أن الخوف كان يقفز الى وعيه ، فينفض نفسه متنبها : يجب ألا يخدع بذلك الوفاق المؤقت ، فقد يكون مبالغة فى الدهاء من الآخر ، وأنه انما ينومه بهذه المشاركة وهذا الاقتسام فى كل شىء ، ثم فجأة ينقض عليه !

وقال المصرى : أنا شخصيا لن أنام (وأشار على الاسرائيلى الميت) غدا سنشبع نوما يا ايليا ·· فلنكتف بالرقاد · (وعاد يهز رأسه) قالها لى صديق ذات يوم ، صديق فنان يكتب ويرسم ، كان يحزن جدا لو نام فى أحد الأيام لفترة طويلة · كان يقول : ياصديقى ·· غدا سننام النومة التى لا يقظة منها ، والحياة للأسف قصيرة ، فكيف نضيع على أنفسنا جزءا منها بالنوم ·· النوم هو لص العمر

٠٠ اكبر لص للعمر هو النوم ٠٠ كانت له تعبيرات جميلة ، وكان محبا وشغوفا بالحياة ٠٠ وكان أعزبا ٠٠ وله شقة صغيرة جميلة ٠٠ يزينها بالتحف والأثريات ٠٠ نجلس فيها بالساعات ٠٠ نشــــرب ونتحدث ٠٠ و ٠٠

وتوقف عن الكلام ٠٠ فقد اكتشف أن ايليا راح على كلماته فى نوم عميق ، فمضى يتأمله بهدوء ٠٠ كانت أنفاسه تروح وتجىء ٠ شهيق عميق وزفير اقوى ٠ كانما يطرد به من على صــــدره أطنان التعب ٠ واستلفتت نظره حركة ارتفاع وانخفاض الصدر ٠ وصوت الشهيق والزفير ٠ وحانت منه لفتة الى الاسرائيلى الميت ٠ ومضى يقارن بين الاثنين ٠ النائم الميت والنائم الحى ٠ وبدت له معجزة الحياة التى تعمل رغم نوم صاحبها ، هذه الآلة العجيبة التى تعمل بداخلنا ، دون أى دخل لارادتنا أو وعينا ٠٠ مثلما تعمل الحياة ف النبات فيتم التمثيل الكلورفيللى دونما أدنى ارادة أو وعى ٠ وأحس بالنوم ليس موتا ، بل أحس بأنفاس ايليا التى كانت ماضية على قدم وساق ، انها عملية شحن وتجديد للحياة ٠ اجل ٠٠ لا خطر من النوم ٠٠ بالعكس ٠٠ الخوف الآن منه ٠٠ من النوم ٠٠ فبعد أن يستيقظ سيكون قد استرد عافيته ، وأنا ٠٠ ازددت تهافتا وضعفا ٠٠ ويصبح هو المســــيطر ٠٠ فلأنم أنا الآخر لأشحن نفسى بقوة مماثلة ٠٠ (واغمض عينيه) ٠ غير انه عاد ففتح عينا ٠٠ نصف فتحة ٠٠ قد يكون نومه وشخيره تمثيلية ٠٠ وراح يفتح عينيه ٠٠ لا ٠٠ هو نائم ساقط الى أعمق أعماق الغيبوبة ٠٠ سأترك نفسى للغيبوبة ٠٠ أترك نفسى ٠٠ أنا متعب ٠٠ متعب ٠٠ وأريد ٠٠ أن أنام ٠٠

ولكن ٠٠ ما هذا ؟

وانتفض فى جلسته ٠٠ متحفزا ٠٠ ما هذا الصوت ؟ أم هو يحلم ؟ وركز كل وجوده فى سمعه ٠ وتتابعت أنفاسه ٠٠ تؤكد له

وجود حركة ٠٠ ليست حركة بل صوتا ، غريبا ، واندفع الى ايليا ٠٠ وهمس فيه :

ــ ايليا ٠٠ اصح ٠٠ انني أسمع صوتا ٠

انتفض اليا فى فزع وهب جالسا وقد تطاير النوم عنه ٠٠

ــ ماذا ؟

وعاود ربيع همسه : أسمع صوتا غريبا ٠٠ اسمع معى ٠

وصب ايليا كل كيانه فى سمعه وتحفز اذ سمع صوتا بالفعل اقرب الى الخشخشة أو الخرفشة ٠٠ وقال وهو يتحكم فى أنفاسه :

ــ ليس صوت انسان ٠ قد يكون فأرا من فئران الصحراء ٠٠

ــ أو انسان مستخفى فى حركة فأر !

وقفز الاثنان من على سريريهما وقد عاودهما الاحســــاس بالخطر ٠ ومضيا ينظران فى تحفز ، فى جميع الاتجاهات . ويتتبعان الصوت ، خطوة خطوة ٠

ــ الكارثة أننا فقدنا أسلحتنا ٠

كان الصوت الغريب لايزال ، رغم خطواتهما المتجولة الحذرة ولأن الاسرائيلى هو ابن المكان ، فقد وجد نفسه يقترب من السرير الرابع الخالى ثم يصيح وقد وقع على الاكتشاف ٠

ــ آه ٠٠ راديو ترانزستور ٠

اندفع عليه المصرى : عظيم ٠ أرنى يا ايليا ٠٠ نريد أن نعرف ما الذى يحدث فى الدنيا ٠ ؟

ــ لحظة او سمحت ٠ أسمع اذاعتنا ماذا تقول ؟

وراح يدير مفتاح الراديو بلهفة وشوق ، مقربا الجهاز من اذنه « أسمع صوت بلادى » ٠

قال ربيع متحرقا : وانا ايضا ٠ اريد أن أسمع ٠ صوت مصر ٠

تركز وجود الاثنين فى اذنيهما وارتبط السمع بدقات القلب التى راحت تسرع بين جوانحهما يستنشقان الأخبار ٠ وبدت المسألة غريبة ومضحكة الى حد الأسى ، أن من فى قلب المعركة لا يعرف شيئا عنها ، بينما الذين يعيشون خارجها هم الذين يذيعون أخبارها على الدنيا ٠

وأحس ربيع بالنشوة وهو ينتظر دوره ٠ كان لديه الاحساس بأن مصر الآن فيها فرح ، وأغانى ، ومواويل ٠ يريد أن يسمع الأغانى الجديدة فرحا بالانتصار ٠٠ ومحو العار ٠٠ نعم ٠٠ يانور ٠ نعم يا كل الأصدقاء ٠٠ صدقوا أننا عبرنا ، ودككنا حصونهم ٠٠ أنا الآن فى أحد حصونهم ٠

ورأى وجه ايليا يسطع بالفرح : وجدتها ٠ اذاعتنا ٠

وهتف ربيع : ماذا تقول اذاعتكم ؟

وضبط ايليا الصوت فجاء واضحا ٠ واذ كان بالعبرية ، لم يفهم ربيع أى كلمة ،فراح يتفرس فى وجه صاحبه بشدة ، يستشف نوع الأخبار من تعبيرات وجهه ٠ وكره فى تلك اللحظة أن يرى أمامه أى تعبير بالسعادة ٠ يريد أن يرى على وجهه أسوأ الأخبار ٠ ورأى ايليا يبتسم ، لكنها ابتسامة مملوءة بالمرارة والاحباط ٠ هنا تأكد من انتصاره ٠ قال بفضول ، مخفيا سعادته : ماذا سمعت ٠ ؟ قل لى

قال ايليا باقتضاب : يذيعون تعليقا للجنرال ديان ٠

وارتسم على الفور أمام ربيع صورة وجه أبيض مستدير تغطى احدى عينيه عصابة مستديرة سوداء : ماذا يقول ديان ؟

ـ لحظة من فضلك · حتى ينتهى التعليق ·

وماكاد يقول هذا حتى كان التعليق قد انتهى ، وبدأ فاصل موسيقى · فامتدت يد ربيع فى لهفة الى الراديو : لو سمحت · أسمع أنا الآخر · اسمع أى شىء من بلادى · أشم نسمة هواء ·

وراحت أصابعه تدير المفتاح ، باحثا عن صوت القاهرة ، البرنامج العام ، أو الشرق الأوسط ، أو صـــوت العرب ·· نحن عندنا برامج كثيرة · وجاءه الصوت ، فاحتضن الراديو بخده فى عشق وصاح :

ـ عبد الحليم حافظ · فى أغنية جديدة ·

وراح يتسمع بكل ذرة فيه · ورســـم له اللحن مع الكلمات صورة لعبد الحليم ، لابسا طاقية شبيكة ، وجلباب فلاحى ·· ويدور على قرى مصر ينشر البشرى داعيا الصبايا لاقامة الأفراح ·· وراح رأسه يتمايل مع الراديو على النغم · مع كلمات الأغنية ·

ـ لفى البلاد ياصبية ·· بلد بلد ··

هنى الولاد ياصبية ·· ولد ولد ··

ده المهر غالى ·· والعريس ابن البلد ·

يود لو يرقص مع اللحن والراديو فى يده ·

قال ايليا بصوت مكتئب :

ـ هل تريد أن تسمع اغانى ، أم اخبارا ؟

ـ بعض الأغانى اقوى من أى اخبار ·

وادار على محطة أخرى ، وسرعان ما صاح بأمل : بيان من قيادة القوات المسـلحة المصـرية · وغمغم فى سره : يارب ·· يارب ··

سأله ايليا بلهفة : ماذا يقولون ؟

ـ لحظة لو سمحت ·· أسمعه حتى النهاية · ثم أقول لك ·

كان البيان يذيع نبأ اتمام تطهير أحد الجيوب الاسرائيلية ، واسر بعض أفراد العدو ·· وأن الجيش المصرى ماض فى انتصاراته وعاودت ربيع كلمات الأغنية . ان البيان جاء متمما ومؤكدا لها ·· وانتابته الرغبة فى الرقص والقفز ، وتصاعدت نشوته : نعم يانور ·· لفى البلاد ·· بلد بلد ·· هنى الولاد يانور ·· ولد ولد ·· ده المهر غالى والعريس ابن البلد · المهر أنا دفعته يانور ·· أنا يانور ابن البلد ·

كان الجندى المصرى قد نصب الفرح فى داخله وأقام الزينات واضاء الكلوبات وود لو يشترك معه أحد فى احتفاله · لكنه كان حريصا على مشاعر صاحبه ، وفضل أن يعانى أفراحه فى الخفاء على أن يلقى بنبأ أسر الجنود الاسرائيليين فى وجه ايليا · ان فرحة كل منهما مأساة للآخر · وقد تقلبها فى النهاية مذبحة ·· من يدرى ؟!

وفوجىء ايليا يسأله بصوت مكتئب : ماذا كان يقول بيانكم ؟

ـ كان يقول (وتردد) كان يقول أن ··

وابتسم ايليا بسخرية مرة : تريد أن تحافظ على شعورى ·· أليس كذلك ؟ لا يا ربيع : نحن هنا لا نملك الا أن نواجه الحقيقة ان كانت حقا حقيقة !

وفكر ربيع : يريد أن يشككنى فى انتصارنا ·

ـ لكنك يا ايليا لم تقل لى ماذا سمعت فى اذاعتكم ، لم تقل لى ماذا كان يقول ديان ·

ـ آه ·· كان يتكلم عن خط بارليف ·· كان يصفه بأنه قطعة من الجبن الهش ·· ليس فى السيطرة عليه اية بطولة !

ضحك ربيع مقهقها ساخرا : الآن خط بارليف قطعة من الجبن الهش · اما قبل ذلك فهو الحاجز الاليكترونى الرهيب الذى يصعق بالموت كل من يقترب منه (وبغضب) انتم قوم كذابون ومضحكون ·

صرخ فيه ايليا : لا تشتمنى ··

تراجع ربيع ، شاعرا بالأسف : انا لم اشتمك يا ايليا · انما أنا أقول لك ·· أنا أطلب منك أن تجيبنى ·· تفسر لى : مرة خط بارليف هو الحاجز المستحيل ، ومرة هو قطعة الجبن الهش ، اليست احدى الحقيقتين كذبة ؟

ـ بالتأكيد ·· احداهما كذبة ·· لقد واتتنى الآن فكرة ياربيع · لا ترفضها أرجوك · بل فكر فيها على مهل : لم يكن خط بارليف فى حقيقته معجزة · نحن خلقنا حوله هذه الهالة لنخيفكم وحين واجهتم الخوف لم تجدوا الشىء الرهيب الذى يصدكم · ومع هذا فانتم ستصرون على أنه كان خطا رهيبا لتضخموا من انتصاركم ·· أوهام ، يرد عليها بأوهام !

وزعزعت ربيع الفكرة · « هذا التشكيك الخبيث فى انتصارنا » · واحس به عدوا مؤكدا · وأن كل ما جمع بينهما من لحظات وفاق ومشاركة ، انما كانت ومضة كالحلم وانتهت · وأن عليه أن يتنبه له جيدا من الآن · فهاهما الاثنان قد أخذا حظهما من الطعام والماء ـ

والراحة ·· » وقد يستخدم عافيته فى قتلى ، انتقاما لهزيمتهم ·· نعم ·· هذا الصمت يجب ألا يخدعنى · هل اقتله قبل أن يقتلنى ؟ -

غير أن منظر ايليا لم يكن يوحى بالقتل ، ولا بأبسط عدوان .· كان جالسا على حرف السرير ، مطرقا برأسه فى يأس كامل ·· وخاف عليه ربيع أن يموت وهو جالس هكذا ، مثل ما مات زميله اسحاق وهو جالس الى مائدة الطعام · فذهب اليه قائلا : استرح يا ايليا ·· تمدد على السرير ·

انتفض ايليا واقفا وقال : لا وقت للراحة · لقد أخذنا منها ما يكفى وزيادة · فلنخرج من هنا ·· الى باب الحصن الخارجى ، نستكشف ما يحدث حولنا (ثم لنفسه) يجب أن افكر كيف أهرب من هذا المأزق · ؟

قال ربيع بحماس : هيا يا ايليا (ثم لنفسه) قد أرى جنودا مصريين منتصرين يلتقطوننى ··

قال ايليا : فلنكن حذرين ونحن ننظر · فللصـــحراء عيون ترقب ··

قال ربيع : عيون منا ومنكم :

مزيج هائل من المشاعر كان يفور ويضطرب بحدة فى أعماق الاثنين وهما يعبران السرداب فى طريقهما الى باب الحصن · كلاهما يتمنى لو أن هذه الصحراء أصبحت ملكا للجيش الذى ينتمى اليه وتحت سيطرته وينطلق راقصا آمنا فى الفضاء ويأخذ الطريق عائدا فورا الى بلاده · غير انهما ما كادا يقتربان من الفتحة ويبهرهما الضوء للحظة ، حتى وجد نفسيهما يرتميان على الأرض ويدفنان وجهيهما فى الرمل ويسدان آذانهما وأنفاسهما تلهث من الخوف ·· وتسارعت دقات قلبيهما وهما يريان من فتحة مخبئهما معركة جوية

شرسة تنشب · ورآيا عن بعد طائرة تنفجر فى الجو · هل سيعود الهول مرة أخرى ويعاد تشكيل الكرة الأرضـــية ؟ وما أن انتهى الانفجار حتى أعقبه أزيز رهيب راح يتضخم ويقترب ·· كانت الطائرة المنفجرة تشق طريقها الى الأرض كوحش أعمى ·· وامتلئا بالرعب أن تصطدم بمخبئهما فيتبددا نثارا · وتعلقت عيونهما المرتعبة بذيل كثيف أسود من الدخان · كان واضحا أنها ضربت فى خزان الوقود فانفجرت ·· ثم أخذت تهوى ·· ورأياها مقبلة بسرعتها العمياء المجنونة فى اتجاههما ·

ابتعدى أيتها الطائرة عنا ·· سواء كنت مصرية أو اسرائيلية ابتعدى ·· ياشيطان الموت ·· ياشيطان الموت ·

- ٦ -

ومرقت الطائرة من فوقهما كطائر مضـــروب أعمى ، فدفنا وجهيهما فى الرمل يودان لو انشقت الأرض عن خندق الهى يحتميان به . وتنفسا الصـــعداء أن اللحظة مرت بلا انفجار ، وأن الأزيز الجهنمى ينسحب بعيدا . غير أن صوت انفجار آخر وصل الى سمعيهما ، لكنه انفجار مكتوم . وكانت الطـائرة قد اصــطدمت بالأرض بعيدا عن الحصن وامتصت الرمال جزءا كبيرا من الصوت . تبادلا نظرة بلا أى تعليق . ومع الهدوء الذى عاد يطـــل ، راحا يستعيدان أنفاسهما ويصيخان السمع للصمت . وراياكم تمتص هذه الصحراء فى بطنها ، تمتص الأصوات وتمتص معها الأحلام والآمال والآلام أيضا بالموت . كان كلاهما يتمنى من أعماقه ألا تكون هذه الطائرة التى احترقت ليست من طائرات قواته . ولم يكن الحزن لانفجار الطائرة ، انما الحزن كان على هذا الطيار الذى انفجر هو الآخر فى الفضاء وتناثر وما من قوة على هذه الأرض تستطيع أن تجمع أشلاءه لتدفنه .

لا : اسرائيلى أو مصرى ، موت الانسان محترقا فى الجو شىء بشع لايمكن لأحد أن يفرح له · وشملهما احساس بالتعاسة ، والعجز ، واتضح لهما على نحو مؤكدا أنهما أصبحا بلا أية فاعلية فى تقرير مصير هذه الحرب · وأنهما أقرب ما يكون الى حشرتين صغيرتين تحت نطاق أخطبوط هائل يكاد حتى لا يراهما ، لكن مصيرهما النهائى بيده أو بأذرعه الوحشية · وازداد هذا الاحساس عمقا فى نفسيهما وهما يريان المعركة الجوية على بعد تتجدد مرة أخرى · وفى هذه المرة لم يدفنا وجهيهما فى الرمل ، بل راحا يرقبان لعبة تبادل الموت بين الطائرات · لعبة مخيفة ورهيبة ، لكنها فى نفس الوقت مثيرة تستحق ، بل هى فرصة ، أن ترى · هذا الروغان والزوغان ، ثم الاقتراب والابتعاد بين كل طائرتين أو ثلاث مع تبادل اطلاق المدافع الرشاشة · وفجأة لمحا صاروخا أرضيا يصعد متجها مباشرة على احدى الطائرات ويظل يتبعها حتى يقبض عليها وينفجر فيها ·· وأغمض الاثنان عينيهما من بشاعة المنظر · ورغم أن المعركة لم تستمر أكثر من دقائق قليلة الا أنه خيل اليهما أنها استمرت دهور طويلة · أكد ذلك فى دخيلتهما الصمت المروع الذى أعقب المعركة وخيم على الصحراء فبدت أمامهما ساحة للموت ، وأنهما محظوظان بهذا الموقع الآمن الذى يختبئان فيه · فليلوذا به الى أن يحدث ما يحدث · وكان بعد من الحقيقة قد ظهر لهما ، فان كان المصريون قد عبروا قنال السويس واستولوا على خط بارليف ، الا أن المعركة لاتزال تمضى شرسة وسيناء واسعة ، واسعة · واذا كان خط بارليف قد سقط ، فهناك خطوط اسرائيلية أخرى لاتزال ، أخطرها ممر متلا ، والكونتللا وانعكس هذا أملا جديدا على الاسرائيلى ، وشرودا وقلقا على المصرى · وحرص كل منهما أن يبتعد بنظراته عن الآخر · ولم يلبثا أن ضاقا بهذا الشعور · فرغم أنهما نقيضان الا أنهما يكادان أن يمتزجا ·· جسدا وروحا · كان كلاهما قد فقد القدرة على

الاحساس بأن هذا الآخر عدو له · بالعكس هو أنيس ورفيق ساقه القدر اليه فى هذه الوحشة وهذاالرعب ، ويجب أن يظلا هكذا ·

قال ايليا بزفرة : ليس فى الخارج غير المـــوت (ونهض من رقدته) هيا نعود الى الحجرة ، نسترجع أنفاسنا ·

ووافق ربيع على الفور فنهض : هيا · فمنظر الصحراء يثير فى رأسى دوارا · (وأمسك نفسه من الترنح) يبدو أن للصحراء مثل البحر دوارا · أريد أن أستلقى بظهرى قليلاً على السرير ·

قال ايليا : ونفكر فيما يجب أن نفعل · لن نظل مختبئين هكذا حتى يعاودنا هذيان العطش · فالماء الباقى لم يعد يكفى لطفل عطشان· ثم ، وهذا هو المهم · قد نفاجأ فى اية لحظة بهجوم منا أو منكم . وفى كلتا الحالتين ، واحد منا سيكون ضحية ، وقد نصـــرع نحن الاثنين ·· من يدرى ·· ؟

ــ وماذا يمكن عمله يا ايليا ·· اننى أفكر فى القيام بعملية استكشاف صغيرة · أصعد فوق هذا الموقع زاحفا · وأرى المنظر بالضبط ·

ــ ربيع · اياك أن تتهور · فنحن فى منطقة اختلطت فيها قواتنا بقواتكم ، وقد يأتيك الموت من أية نقطة · يجب ألا نلفت الأنظار الى مكاننا ·

ــ وما العمل ·· كنت تقول ؟

ــ ننتظر حتى يحل الليل ، ثم يتسلل كل منا فى الظلام ·· عائدا الى بلاده ، متمنيا حظا سعيدا للآخر ··

اهتز ربيع للأمنية · هزّ رأسه موافقا : وننام بعض الوقت · نشحن نفسنا ببعض الراحة تساعدنا فى رحلة العودة ·

وفرح الاثنان فى أعماقهما أنهما وصلا الى هذا القرار · وفكر كل منهما انه عقد معاهدة يحاكم عليها فى بلاده : « فالمفروض أن يكون أسيرا تحت يدى وأسوقه أمامى مقيدا وأسلمه لقيادتى · (ثم بابتسامة مرة) انهم لايعلمون شيئا !

واجتازا السرداب الصغير المظلم وعادا الى الحجرة ·· كانت لاتزال مضاءة · وجذب نظرهما من أول لحظة جثمان الاسرائيلى المغطى بالملاءة · كان قد حدث له شىء غريب اقشعر له جسدهما ·

ــ هل تلاحظ شيئا يا ايليا على الجثة ؟

قال الاسرائيلى بصـــوت ذاهب : نعم · لقد تضخمت بعض الشىء ··

قال ربيع : وستمضى فى التضخم · بدأت كيمياء الموت ·

وأثار التعبير « كيمياء الموت » فى رأس الاســـرائيلى رؤى مخيفة · وتراءت له جثة زميله ايزاك ، وجثة المصرى أيضا ، وقد راحتا تتضخمان وتتضخمان حتى تملئاكل فراغ الخصن وتبتلعهما أيضا !

قال وقد تدافعت أنفاسه : يجب أن نسرع بدفنهما · واضح أن الغارة انتهت · فلنستغل هذه الفترة ·

قال المصرى بزفرة : أجل · انها مهمة تنتظرنا ، ولا مفر منها ·

واذ تصور نفسه حاملا جثة اليهودى المنتفخة ، أحس بقشعريرة لكنه تذكر أن ايليا سيقوم بنفس الدور مع جثة زميله المصرى ·· وزاغت عيناه · فجأة رأى الراديو الترانزستور ملقى على السرير · فاتجه اليه بحركة غريزية والتقطه وأداره · انطلقت منه خرفشات وصفير · صاح ايليا فى ضيق :

ـ ليس هو وقت السماع · فلننته أولا من مهمتنا ·· اننا ··

قال ربيع مقاطعا ومناشدا : لحظة أرجوك · اننى أسمع شيئا غريبا !

ومضى يصغى بانتباه · وتماوجت على وجهه تعبيرات الدهشة والسعادة والتفكر · كان ايليا يرقب ملامحه مستثارا وقلقا : هل ثمة شيء جديد فى المعركة ؟ وما أن سمع الكلام بالعربية ينتهى ولحن أغنية حماسية يبدأ حتى صاح : كفى ياربيع · اقتصد فى استعمال الراديو وقل لى ما سمعت ·

ـ سأقفله · أسمع المقطع الأول من الأغنية وأقفله فى الحال ·

ورسم له اللحن موكبا من الدراويش يغنون متمايلين · وانتبه للكلمات : « وما رميت ·· اذ رميت ·· لكن الله رمى · » ·

وقفل الراديو أمام نظرات ايليا ، واكتسى وجهه بابتسامة غامضة !

ـ هيه ·· فلتقل لى ماذا سمعت · على وجهك أخبار جديدة

وود ربيع لو يحتفظ لنفسه بما سمع ·· لكن نظرات ايليا كانت تلح عليه · قال بابتسامة هادئة : الملائكة تحارب معنا ·· الملائكة عبرت قناة السويس ، وتحارب مع قواتنا ··

قال ايليا بسخرية مقرونة بالضيق : وهل صدقت هذا يا ربيع ؟ أو ·· ربما تكون أنت قد رأيت هذه الملائكة ، أو واحدا منها على الأقل ، وهو يحارب معكم ·· قل لى ان كنت قد رأيت وسأصدقك ·

قال ربيع : أنا شخصيا لم أر شيئا · لم أر غير زملائى الجنود والضباط المصريين وهم يحاربونكم ببسالة · انهم يلجأون الى مثل هذا الكلام كنوع من رفع المعنويات · (وشوح بيده باسما) لابأس !

قال أيليا بزفرة : اننى ارثى لكم ·· ولنا أيضا ياربيع !

ـ ماذا تعنى ؟

ـ فرغم كل هذه التكنولوجيا وارتفاع وسائل العلم الحديثة التى استغلت فى هذه الحرب ، فما زلنا غير قادرين على الاستغناء عن استعمال الاساطير واحياء الايمان بالمعجزات القديمة وندفع بها هى الأخرى فى الحرب كاسلحة ·

لقد تذكرت على الفور وأنت تقول بعبور الملائكة وحربها معكم ، تذكرت قصة خروجنا الأول من مصر ، بقيادة موسى · وعبورنا البحر الى سيناء · وفرعون وجنوده يطاردوننا · كانت ملائكة الرب يومها معنا ، فأغرقت فرعون وجنوده وانقذتنا · (وابتسم بسخرية مرة) نحن وأنتم نتبادل الملائكة ياربيع · أو أن الملائكة هى التى تتبادلنا : (وزعق) كيف نصدق ؟

قال ربيع وقد أحس بزعزعة فى فكره وأحاسيسه :

ـ فلنسرع بالانتهاء من هذه المهمة · الا تلاحظ الرائحة ؟ اننى امنع نفسى من التنفس !

ـ الق اذن بهذا الراديو · ولنخرج الجثة بسرعة ·

وضع ربيع الراديو على السرير وقد غمره شعور بالارتياح · ثمة أمل غامض تفتح فى صدره · فمهما كانت الحقيقة فى حكاية عبور الملائكة هذه وحربها بجانبهم ، فان هذا يعنى بشكل عام ، أن النصر لايزال ، بل ويتأكد للمصريين ، مهما كان التفسير ·

قال ايليا وهو يتجه الى جثمان زميله الاسرائيلى :

ـ ننقله بملائته مغطى كما هو : ثم ننقل يوسف المصرى ·· ندفهما فى الخندق الأمامى كما اتفقنا ·

ودفعتهما الرائحة الى العمل بسرعة · رفع ايليا الجثة من تحت الابطين ، وربيع وضع الساقين على كتفيه · وبدءا السير ، كأنهما يحملان نعشا · وأحسا بثقل الحمل ، وأنهما يكادان ينوءان تحته فراحا يقاومان ببسالة ، ويتشجعان بتأوهات بعضهما ·

قال ايليا هو يئن : ليت ملاكا من الذين يحاربون معكم يأتى الآن ياربيع ويساعدنا ·

قال ربيع وقد أحس فى نبرته بثمة سخرية :

ـ ملائكتنا لن تحمل جثث الاعداء يا ايليا !

ـ اذن فحتى ملائكتكم عنصريون · هذا شىء فظيع ·

ـ مثل ملائكتكم يا ايليا ، الذين ساعدوكم فى الخروج وأغرقوا فرعون ·

قال ايليا متأوها :

ـ ليس أمامنا الا أن نعتمد على أنفسنا ·· آه ·· آه ··

كانا يتأوهان ويجاهدان كى لا ينهارا · واذ خرجا من الحجرة الى السرداب ، أحسا بقوتهما تتلاشى · قال ايليا مسرعا وقد أحس بنفسه يكاد يتهاوى والجثة تسقط منه ·

ـ فلنضعها لحظة على الأرض · نسترح دقيقة ·

تلقف ربيع الاقتراح : نضعها ·

ـ بهدوء حتى لا نؤذها ·

وما أن خففا أيديهما عن الجثة حتى تهاوت منهما بكل ثقلها وسقطت مرتطمة بالأرض وتطاير عنها الغطاء · وقفا يستردان

أنفاسهما وقد استندا على جدار السرداب · واحسا بالحاجة للجلوس لكن السرداب كان ضيقا ومعتما ·· بقيا على وقفتهما · وفوجىء ربيع بايليا يصيح مخاطبا جثة زميله بلهجة ندب : أين الرب « يهوا » يا ايزاك ، يساعدنا فى حمل واحد من شعبه المختار · اطلب منه يا ايزاك فهو يسمع الموتى كما يسمع الأحياء ·

استراح ربيع الى أن ايليا يسخر من دعواهم ، الا أنه خشى للحظة ان تتكلم الجثة وتدعو الرب وتعود الى الحياة · وركز بصره ، وقلبه يسرع ، على شفتى الميت · غير أن العتمة والصـــمت كانا يسودان · فلم تتضح جيدا ملامح الجثة ، انما حجمها الكلى فقط ·

ـ ايليا · لاداعى للدخول فى هذه المنطقة الآن ·

ـ أى منطقة ؟

ـ منطقة الأديان · فان كنت ملحدا ، فأنا واحد من المؤمنين ·

ـ مؤمن بماذا ؟

ـ مؤمن بوجود الله · اله واحد للجميع · لكنه لا يتدخل فى مثل هذه الأمور ·

وعاودت السخرية لهجة ايليا : الاله شخصيا لا يتدخل ، انما يرسل ملائكته لتجارب بالنيابة عنه ؟ أنا أرفض الايمان بمثل هذا الاله ، مثلما رفضت الايمان بـ « يهوا » الهنا فى التوراة حين رأيته يغضب فجأة على القرى والمدن فيهدمها ، وعلى الناس فيحولهم الى تماثيل من الملح · آلهة تدفع الناس الى الافساد فى الأرض ثم تعاقبهم وتعذبهم بسبب ذلك ! هذه هى آلهتنا التى جاءتنا بها الكتب القديمة فانحنينا لها وأعطيناها حياتنا · لابد من آلهة جديدة لهذا العالم ، أو فلنبق بلا آلهة أفضل ·

قال ربيع وقد توتر : اذن فانت لا اله لك يا ايليا ٠

قال ايليا : لست مصرا على الا يكون لى اله ٠ أنا فى انتظاره ٠ فليكشف لى عن نفسه ٠ اله يتحرك على الفور حالما يرى ظلما أو بؤسا يحيق بالناس فيرنعه عنهم !

قال ربيع بقوة :

ـ ويبقى الانسان بلا دور ؟

ـ وأى دور لنا الآن ياسيد ربيع (واشار على الجثة) هذا هو دورنا ٠ نقتل بعضنا ٠ ثم ندفن قتلانا (وزادت المرارة فى صوته) فلتفق ياربيع ٠٠ أيها المثقف المتخصص فى كيمياء الأرض وعلم حياة النبات ٠٠ فلنفق جميعا من هذا المخدر التاريخى ٠٠ ولنواجه حياتنا بلا أساطير ، انهم يلعبون بنا ، نحن وأنتم ، بسحر وسطوة هذه الأساطير ٠ نحن فى حاجة الى آلهة جديدة ، وفكر جديد !

قال ربيع ، رافضا منطقة بشدة : لست هذه أول مرة أسمع فيها هذا المنطق يا ايليا ٠ لى أخ فنان ٠ رسام ومثال ٠ يعيش فى القاهرة ويقول بهذا الراى ٠ غير أننى كنت أقول له انني لا أقتنع برأيك ، ولكنى أقتنع برسومك وتماثيلك ٠ ان هذه التماثيل الجميلة ما كان يمكن أن تكون لو لم تكن أنت الذى خلقتها ٠ كذلك الانسان نفسه ، ما كان يمكن أن يوجد لو لم يكن هناك خالق أعظم خلقه وصممه وبث فيه الروح ٠ ليس الانسان فقط ٠ كل شىء فى الحياة ٠ والذين يتعاملون مع الأرض والزرع يحسون أكثر من غيرهم بهذا ٠ قانون الحياة الكيميائى ٠ قانون واحد محكم ينطبق على الجميع ، فى رحم المرأة كما فى رحم الأرض كما فى رحم البحار والانهار وتخرج الحياة ٠ وتبزغ ثم تنمو ثم تزدهر ثم تنتهى ثم الدورة بعد أن

تكون قد بدأت دورة أخرى الى الأفضل والأحسن ·· قانون محكم مقدس لا مفر منه ولافكاك ·

ـ من هذه الوجهة أنا معك ياربيع · هناك قانون موحد يحكم كل هذا العالم · وينظم حركته · لو أعتبرت هذا القانون هو الاله فأنا معك ·

ـ سمه ما شئت يا ايليا · انما هناك قوة هيفي الأصـــل مصدرنا · ذلك تكريم لنا ، أننا لم نأت من الهباء ـ بل من خالق عظيم ·· هذا هو ايمانى · ولا أظن الوقت مناسبا للحديث فى ذلك أكثر من هذا · (وزفر) هيا نواصل المهمة ·· وندفن زميلينا ·

قال ايليا بزفرة مماثلة : أجل · فلنعيدها الى الذى جاء بهما الى الحياة · لقد انتهت دورة حياتهما ، ولاندرى متى ستنتهى دورة حياتنا نحن أيضا ·· ساعدنا أيها الاله الرحيم ·

وانحنيا على الجثة ، وجاهدا حتى رفعاها من على الأرض وحملاها من جديد · ومضيا يناضلان · وفى هذه المرة لم يتكلما ، بل راحا يشجعا بعضهما بتأوهاتهما · تأوهات بدت موقعة ومنغمة أقربالى أغنيات العمل الأليمة · وتشـــجعا أكثر حين انتهيا من السرداب ودخلا منطقة الضوء · ورأيا فتحة الحصن قريبة فتعالت صيحاتهما مندفعين بالجثة الى عالم الضوء · وما أن بلغا حافة الخندق حتى أخليا الأذرع عنها فســـقطت بكل كتلتها الى أعمـــاق الخندق وارتطمت بوجهها وبطنها فى الرمل ·

كان منظرها بشعا فأغمض ربيع عينيه · أما ايليا فقد غزاه احساس بالذنب ، وهو يرى وجه زميله مدفونا في الرمل · أنه أساء معاملته · قال وشفتاه ترتعشان :

ـ سوف أهبط اليه وأعدل من وضعه · يجب أن يكون وجهه الى أعلى ·

قال المصرى بحدة : الى أعلى أو الى أسفل · تتساوى كل الأبعاد والاتجاهات مع الموت · والجهد الذى نبذله فى ذلك نوفره لحمل جثة يوسف· تذكر أنه عملاق فى حجم اسحق مرة ونصف ·

وتنهد ايليا : لقد فكرت فى هذا · من أين ستأتينيا القوة لحمله ؟ حقا ياربيع · ليت حكاية عبور الملائكة معكم هذه صحيحة ، اذن لساعدتنا فى حمله · فهو مصرى ويدخل فى دائرة مسئوليتهم ·

ـ لا تعد الى هذه السيرة يا ايليا ·· وان كنت لا تستطيع مساعدتى فسأفعلها أنا وحدى · لو أنفقت فى ذلك يوما بأكمله ·

ـ ربيع لا تكن حساسا بهذه الصورة ·· اننى أخاطب فيك الجانب المرح من الشخصية المصرية · فضلا عن أن حكاية الملائكة هذه أخطر من أن تمر دون أن نعرف مغزاها ·· ومرماها ؟

ـ وما مغزاها ؟

ـ آه ·· فبعد أن عبرتم القنال وخضتم معنـــا معركة عنيفة وانتصـــرتم فيها ، خرج البعض عليكم بحكاية الملائكة هذه كى يسلبوكم انتصاركم : لستم أنتم أيها الجنود والضباط المصـــريون الذين انتصرتم ، بل الملائكة هى التى انتصرت · أما اذا هزمتم فالهـــزيمة لن تكون من الملائكة ، بل منكم أنتم ·· منطق خبيث ورهيب !

ورغم أن الفكرة لقيت صدى فى نفس ربيع ، الا أنه رفضها أن تأتى على لسان عدوه ·· انه يريد أن يشـــككه فى كل وجوده ومعتقداته ··

ـ ايليا ·· لا تضيع وقتنا فى مثل هذه التخريجات · هيا نأتى بيوسف لندفنه هو الآخر ·

ولم ينتظر موافقة من ايليا ، بل مضى بخطوات خفيفة مباشرة الى المطبخ حيث يرقد يوسف · وتبعه ايليا فى صمت كانت العتمة شديدة ، لكنهما ميزا كتلة الجثة الضخمة · وبلا أى كلام دخـــلا مباشرة فى ملحمة حمله والمضى به الى الخندق ·

وقال ايليا بكلمات متقطعة : لن ناخذ راحة هذه المرة ·· فلنمض به مباشرة الى الخندق ·

ولم يرد ربيع ·· خيل اليه ان كل ثقل الجثة الضخمة عليه ·· فمضى يجاهد ويئن ·· وسمع ايليا يصيح شاكيا : لماذا الميت ثقيلا هكذا ياربيع ·· كنت أظن كيمياء الموت تعمل على تحليل الجسم وتخفيف وزنه ، وليس العكس ·

قال ربيع معانيا ومختارا كلمات مركزة ومكثفة : انها الذروة · ذروة الأشياء ، ثم تأتى بعدها مرحلة التحلل · انها عملية تغيير وتحول ·

وما أن بلغا حافة الخندق ، حتى تركا الجثة تسقط منهما فى الحفرة فسقطت فوق جثة الاسرائيلى حتى كادت تغطيها ·· قال ايليا وقد عاوده الاحساس بالذنب ·

ـ ليس هذا هو الوضع النهائى لهما · لابد أن نعدل من وضعهما بحيث يكونان متجاورين ياربيع ·

ـ انت مضحك ياايليا · تفكيرك رغم انك عالم انثروبولوجى مضحك جدا · فما معنى أى تغيير فى وضعهما فى هذه الحفرة سوف يختلط ترابهما وعظامهما بعد قليل ·· فلا فائدة من أى شىء

ـ انت مصرى ياربيع • ومن تقاليدكم القديمة احترام الميت وتقديسه •

ـ وأخذتم عنا هذا التقليد ، فموسى نبيكم شرب كل أفكاره وتعاليمه فى مصر •• ومع هذا فهذه العصور مضـــت يا ايليا والمصريون تغيروا •• هل تعرف يا ايليا ما هى الصورة التى تلح على الآن وأنا أرى هاتين الجثتين فى هذه الحفرة •• انتى أتمنى لو ألقى فى الأرض معهما بذرة • بذرة شجرة • •بذرة تتغذى برفاتهما •• بذرة سمادها انسانان كانا عدوين ثم وحدتهما حفرة واحدة •• ترى ماذا سيكون شكل هذه الشجرة ؟

قال ايليا كمن يحدث نفسه ، مأخوذا بالصورة : الانسان يتحول الى شجرة ، أو يدخل فى تركيب شجرة ، حقا ياربيع • ليس هناك فاصل كبير بين علم الانسان وعلم النبات • الانسان الشجرة • أو الشجرة الانسان • يا لها من شجرة ستكون ياربيع • شجرة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ • سوف تكون مزارا لنا ولكم • (ثم قال مهتاجا فجأة) نحن نحلم ياربيع • بينما الواقع بشع •• بشـــع • (وأشار على الجثتين المجندلتين فى الحفرة) •

قال ربيع وقد استيقظ من حلمه بالشجرة : فلنغطهما بسرعة بالرمل • ننتهى تماما من المهمة ، ثم نذهب الى أسرتنا ونستريح •

وانحنى على الأرض ليجمع بكفيه حفنة • غير أنه أحس بتهافته وأنه يكاد يسقط فى الحفرة ، فوقف يجمع نفسه •

قال ايليا : لماذا نحن متعجلان فى تغطيتهما ؟ لم يعد لدينا أى جهد لهذا الآن •.لا بأس أن يبقيا بعض الوقت فى الهواء الطلق !

غمغم ربيع : نعم فالسماء تغطيهما ٠ هيا نعود الى الحجرة نستلقى على السرير ونتكلم ٠ فى مكان ليس فيه موتى ٠

قال ايليا وهو ينظر الى الجثتين : بالعكس ٠ نتكلم أمامهما حتى تكون الحقيقة هى ما نقول !

وخطر لربيع أن زميله ربما بدأ يدخل منطقة الاختلال العقلى ٠ فمامعنى أن يتكلما أمام موتى ؟!

قال بحدة : ايليا ٠٠ لاداع للندب مرة أخرى ٠

رد ايليا بحدة أكثر : لا يا ربيع ٠ نحن لن نندب ٠ نحن سندافع عن نفسينا أمامهما ٠ فأنا متهم ٠ وأنت متهم ٠ نحن متهمان بقتلهما !

وتأكدت الفكرة عند ربيع ٠ دخل ايليا منطقة الاختلال ومع اختلال العقل لا أمان ٠ وأخافته عيناه ٠ كانتا متسعتين بشكل غير عادى ، ولا حركة لرمش واحد ٠٠ وبدا بلحيته التى طالت وشعره الهائش الملبد بالرمال أقرب ما يكون الى انسان بدائى ٠ رجل الانثروبولوجى يرتد ويصبح رجل ما قبل التاريخ ٠ وما الوحش الا كائنا بلا عقل « وقد يقفز على فى أية لحظة ويصرعنى ويقتلنى خنقا » ٠

قال بهدوء ٠٠ كأنما يروضه : لكنى لم أقتل أحداً منهما يا ايليا ٠ أنت تعرف ٠ وأنت كذلك لم تمس أحداً منهما ٠٠ دعك من هذا الاحساس بالذنب ٠

صرخ فيه ايليا : لا ٠٠ لا أريد أن أقتل فى نفسى هذا الاحساس ٠ إنه الاحساس الوحيد الباقى ليحفظ لنا كرامتنا مع أنفسنا ٠٠ أن نحس بالذنب ٠٠ أن نعامل أنفسنا كمجرمى حرب ٠٠

كلنا ·· نحن وانتم ·· سواء الذين يشعلونها ، أو الذين يقبلون أن يكونوا وقودا لها ·

قال ربيع متحمسا فيه ابعاد العقل وابعاد الجنون ، اذن (واشار على الجنديين المجندلين) فهذان ايضا متهمان ، فقد قبلا ان يكونا وقودا لهذه الحرب ؟!

ـ نعم · هى محاكمة لنا جميعا · الأحياء منا والموتى ·· هذه المجزرة ·· على حلقات ·· اكثر من ثلاثين عاما ، وقد تستمر ثلاثين اخرى ، وثلاثين ثالثة ·· حرب المائة عام ·· حدث هذا فى التاريخ · عصر البربرية يعود · يجب أن يتوقف الزمن · يجب أن يتوقف كل شىء وتعقد المحاكمة ·· ليست على نسق المحاكمات العادية ، على منصات محاكم الدول · أو حتى على منصة هيئة الأمم المتحدة ، وتدور كاميرات الصحافة والتليفزيون والقمر الصناعى ويحرص الأعضاء ، الممثلون ، أن يبدوا فى هيئة أنيقة وجميلة ، وهم يلقون خطبا لم يكتبوا منها حرفا واحدا ، بل آخرون هم الذين اعدوها وكتبوها لهم · انهم مجرد السنة · نحن الآن لا نتكلم باللسان · نحن نتكلم بالقلب الموجوع ·· الممسوس · النازف من هذا الضياع · أتدرى ما هى أمنيتى الآن ياربيع ·· ؟ اننى أتمنى لو أن هذا الذى حدث بيننا نحن الاثنين ، يحدث بين أفراد جيشينا · أن يتلاقى الجيشان فى السر ، بعيدا عن عيون قادتهم وجنرالاتهم ويجتمعون حول موتاهم ويناقشون القضية·· أنا واثق أنهم سيصلون فيها الى حل نهائى ·· ووداعا للحرب الى الأبد ·

ـ غريب أنت يا ايليا ·· أنت تحيرنى ·

ـ أنا أحيرك ·· كيف ؟

ـ فاذا كنت مؤمنا بالسلام الى هذا الحد ، فلماذا لم ترفض أصلا الاشتراك فى هذه الحرب حتى ولو كانوا قد أدخلوك السجن ؟

ـ وهل انت دخلت هذه الحرب باختيارك ياربيع ٠٠ اقطع لو أن الأمر كان بيدك لكنت الآن فى احضان حبيبتك نور ٠٠ و ٠٠

قال ربيع مقاطعا : هذا صحيح يا ايليا ٠٠ لكن الموقف بالنسبة لى مختلف عن موقفك : فانا أحارب لكى أحرر أرضا اغتصـــــبت منا ٠ جزءا من أرض الوطن ٠ كيف أهرب او أتراجع ٠٠ اما أنت ٠٠ فقد جئت سيناء غازيا ٠ الا اذا كنت تعتبر سيناء أرضا اسرائيلية ، كما يقول بعض قادتكم ، وانت تساهم فى تحريرها ٠٠

هز ايليا رأسه بالنفى ٠

ـ لا يا ربيع ٠٠ ولقد كان من رأيى ، بعد أن هزمناكم فى حرب ٦٧ أن نترك سيناء ونعود ٠ نتركها ونحن منتصرون ٠ كان ذلك أكرم لنا ٠ كنا وفرنا هذه الدماء التى سالت منا ٠٠ والضحايا (وعاد ينظر الى الجثتين) ٠

قال ربيع متشككا : ولماذا اذن عدت لتحارب فى سيناء ؟

ـ أنا لم أحـــارب ٠٠ كانت أيامى ضـــائعة فى التنقل بين الخنادق ٠٠ كنت أدافع ٠٠ فنحن فى حاجة الى حزام من الأمان ياربيع ٠٠

ـ آه ٠ ها أنت يا ايليا تكشف عن فكرك الحقيقى ٠ أنت أيضا واحد من أنصار الحرب ولا تدرى ٠ عقدة الخوف ٠ انهم يربونكم من الصغر على أنكم فى جزيرة والوحوش تحيط بكم من كل جانب ٠ يربونكم على الخوف والخائف بطبيعته عدوانى ٠ عقدة سكان الجزر !

واستوقف التعبير ايليا : تقول عقدة ماذا ؟

ـ عقدة سكان الجزر . قرأت مرة قصة لكاتب مصرى حول هذا المعنى : رجل خائف ، يحوله الخوف الى قاتل .. هكذا أنتم ياايليا .. تغزون وتقتلون وتدمرون باسم الدفاع عن دولتكم .. اية دولة هذه يا ايليا ؟ .. اننى لم أر فى خريطة العالم دولة أعجب من دولتكم اسرائيل . الدولة الوحيدة التى لا تعرف لنفسها حدودا تعلنها وتلتزم بها أمام العالم . وهذا هو سبب مأساتكم . أنظر الآن الى اسرائيل وقد احتلت كل فلسطين وسـيناء والجولان . كائن متضخم تضخما غير طبيعى ، فيه كيمياء الموت لكم . (وأشار الى الجثتين) نعم يا ايليا ، اننى أرى شبها بين هاتين الجثتين واسرائيل .. انكم بهذا التوسع تحملون ميكروب فنائكم ولا تدروا .. ولقد كان الأولى بك أن تعرف الخطأ الأساسى والقاتل فى دولتكم ، كعالم انثروبولوجى ، يؤمن بارتداد الانسانية لكها الى أصل واحد مشترك . فما معنى أن تقيموا فى هذا العصر كيانا اجتماعيا قائما على العرق وعلى الدين ؟ لماذا هذا الحلقية والتعصب ؟ لماذا لا تكونوا أبناء كل هذا العالم وتصبحوا أولاد الأسرة الانسانية الكبيرة وليس أولاد الأسرة اليهودية الضيقة ؟ أنتم تصفون أنفسكم بالتحضر والعصرية ، وهذا هو قمة التخلف والرجعية . أنظر المسلمين والمسيحيين .. انهم ينتشرون فى العالم ، فى كل بلاد الدنيا ، يعايشون مختلف الشعوب ويصبحون جزءا عضويا منها ومن بنائها ونهضتها . وهكذا أنتم يا ايليا يجب أن تكونوا .. أن تذوبوا فى الانسانية وتنتشروا فيها .. سيكون ذلك فى صالح نسلكم . ان نسلكم مع هذه الحلقية الدينية التى تصرون عليها سيضعف مع الأيام ويهزل . لأنكم تتغذون من بعضكم .. ان الشعوب يجب أن تتلاقح لتقوى من نفسها ..

كان المصرى يتكلم متدفقا ناظرا أحيانا الى ايليا ، وأحيانا الى الجثتين ، وأحيانا الى فضاء الصحراء . وكان وجهه الأسمر

الناتيء العظام والذى كاد يختفى داخل لحيته الكثة المغبرة ، مسرحاً لانفعالات عنيفة ومتعاقبة ، انما فيض من الحياة كان يتدفق من عينيه وايماءات وجهه واشـــارات يديه بطريقـــة أخذت بمجامع الاسرائيلى الذى كان يسمعه بوجدانه · وكانت بعض كلمات يحفرها فى نفسه حتى لاينساها ·· لسوف تفيده بالتأكيد فى دراسته فيما بعد · جزء من تجربته الحية فى الحرب يضيفها الى أحاديثه ودروسه لطلبته وطالباته · تعبير : عقدة سكان الجزر · الخائف عدوانى · ميكروب التضخم · تلقيح أو تلاقح الشعوب ·

ــ ربيع · سوف أتجاوز كلامك عنى كمدرس انثروبولوجى وما فيه من اهانة · فأنا لا أؤمن كما تتصور بنظرية الجنس أو العنصر المتفوق · هذه نظرية النازى التى دمر بهاحياة ملايين من البشر كنا نحن اليهود أولهم · لقد علمتنى دراستى تاريخيا أنه ليس هناك شعب متفوق وآخر متخلف بالطبيعة والقدر · ان كل شعب مثل كل فرد هو ابن ظروفه · وبتغير الظروف تتغير الشـــعوب كما تتغير الأفراد · الظروف العبقرية تخلق شعبا عبقريا ·· والظروف المتخلفة تخلق شعبا خاملا ومتخلفا ·· ومع هذا ففى كلامك جزء كبير من الصدق ومن الحقيقة . فكرة التضخم الاسرائيلى · دعنى أسألك ·· على أى حدود يجب أن تبقى اسرائيل فى رأيك ؟

قال ربيع بحسم : تجاوزا ، ولكى نكون واقعيين : الى حدود ما قبل حرب ٦٧ · تعود سيناء لمصر · والجولان لسوريا ، وتنشأ للفلسطينيين دولة ، ونعيش كلنا فى جوار حسن ·

ــ آه جئت بمعضلة المعضلات ياربيع · المشكلة الفلسطينية ·· اننى قد أخالفك فى الرأى ، وعلى نحو أكثر تطرفا منك ، وهو ليس رأيى وحدى بل رأى لبعض أصدقائى وطلبتى فى اسرائيل ·· هذا ان كنا نريد أن نحل المشكلة حلا جذريا ·· وأبديا !

ـ ما هو ؟

ـ ارض واحدة ، هى ارض فلسطين . تقوم عليها دولة واحدة يعيش عليها الجميع • الفلسطينيون الاسرائيليون والفلســطينيون العرب ، يهود ومسلمون ومسيحيون •

ـ أوه •• انت تخيفنى بتطرفك يا ايليا ، فهذه مرحلة بعيدة • وان كنت أعتقد أنها يمكن أن تحدث فى يوم من الأيام • ولكننا نتكلم فى الممكن اليوم ، لوقف المجزرة بسرعة : دولة لفلسطين العربية ، بجوار فلسطين الاسرائيلية • ويمكن فيما بعد عقد اتحاد بينهما ، يمهد لوحدة فى الزمن القادم •

ـ آه ياربيع •• صحيح • لماذا لا يتحقق هذا ؟ فليكن هذا نضالنا حين نعود (واهتز بالشوق) آه لو نعود ياربيع • ســوف نعود ياربيع •• سوف نفعل الكثير من أجل هذه القضية • أنا وأنت • ستكون هذه هى قضيتى •• معركتى •• فى المدرسة ، وفى الشارع ، وفى تجمعاتنا ، وفى نجواى مع ســـارة فى هدوء النيل ، فى بيتنا الصغير •• وأنت •• فى (وتوقف فجأة عن الكلام وقد شحب لونه وراح يصيخ السمع) الا تسمع شيئا ؟ أسمع معى •

تحفز ربيع فى وقفته واتجه بســـمعه الى الخارج : صوت دبابات •

فلنختفى بسرعة •

وقفزا الى داخل الحصن ، ورقدا على بطنيهما خلف الفتحة •

ـ فلنكمن هنا •• بلا أى حركة • نرى ما يحدث •

وعاد قلباهما يدقان بسرعة ، وقد اختلجا بالمخاوف والآمال •

- ٧ -

وقال الاسرائيلى بصوت هامس : يخيل لى أن الصوت قادم من الشرق ·

قال المصرى وأنفاسه تسرع · نعم (ثم لنفسه متمنيا) · آه لو تكون مصرية ، فى طريق العودة بعد أن أتمت مهمتها بنجاح ·

واصل الاسرائيلى همسه : أحد احتمالين ، اما أنها دبابات مصرية منسحبة ، واما أنها دبابات اسرائيلية تبدأ مرحلة الهجوم · ويكون الجيش الاسرائيلى قد لم نفسه بعد الضربة الأولى ·

وأوشك ربيع أن يصرخ فيه : هذا كلام شؤم · لكنه تذكر أن امنيته هى أيضا شؤم عليه · وما لحظات التوحد الا حلم عابر ·· تلك هى الحقيقة ، أنهما على طرفى نقيض · هل آن الأوان للإستيقاظ من الحلم ؟!

ـ أيليا ·· افترض انها دباباتكم · ماذا سيكون العمل ماذا سيكون الموقف بالنسبة لى ؟

ـ وافترض العكس ياربيع ، انها مصرية والمنطقة اصبحت تحت سيطرتكم ·· اليس هذا ممكنا ؟

ـ كل شىء ممكن (وطرب لحظة للصورة · غير أن القلق عاوده) ليس أتعس على الجندى من أن يكون جاهلا بما يدور حوله · اننى أحس احساسا عميقا أن أشياء كبرى حدثت فى المعركة ، تحولات ما حدثت فى سيرها ·

ـ وأنا أيضا · عندى نفس الاحساس · ولكن كيف نعرف ؟

قال ربيع متحمسا : نسمع الترانزستور ··

ابتسم ايليا : تريد أن تسـمع انجـازات الملائكة لكم من انتصارات ؟!

قال ربيع بضيق : نسمع أخبار الدنيا يا ايليا ·· نعرف لنا اتجاها · نحن بلا أى دليل ·

ونهض من مكانه : سآتى به ·

ـ ربيع · لا تستمع وحدك كثيرا ·

ـ ثوانى وأعود (وعاد يصيخ السمع) ابتعد الصوت · أليس كذلك ؟

ـ يبتعد ويقترب ثم يبتعد · أيكون وهما ؟

ـ سآتى بالراديو · وخل بالك من الصوت ·

ودخل المصرى منطقة العتمة · وانتابته قشعريرة · وتعجب فى نفسه انه أصبح يتجول فى حصن العدو ويعرف مداخله ومخارجه

وكأنه حصنه (واهتز بالحنين) انها فى الأصل ارضنا · نعم يا أولاد ·
لقد عبرنا واستولينا على حصونهم ، واكلنا فيها وشربنا ونمنا ·
آه لو يكون صوت دبابات مصرية · ما الأخبار الآن ياترى ·· ؟
(وتذكر ما سمعه فى الراديو آخر مرة) آه لو أن الملائكة لازالت تحارب معنا ، بالتأكيد ستكون قد تحققت انتصارات أخرى ·

واسرع الى الحجرة · كانت ماتزال مضيئة · واستراح الى انها خلت من جثة الاسرائيلى · جميل انهما قاما بهذا الجهد الهائل · اين الراديو ؟ ولمح حجمه الصغير على سريره فاندفع عليه وفتحه والصقه على أذنه وراح يديره على المحطات ·· « لا ·· انا لا أريد اغانى ·· أريد كلمات ·· أخبارا ترسم لى خريطة الدنيا من جديد »·

ومضى يدير المفتاح ، متجاوزا ألحانا وشوشرة وصـــفيرا وتداخل أصوات ، وهو يعدو بأنفاسه ، كأنما فـى رحلة طويلة ، خلف صوت واضح يأتيه من مصر ·· آه (وانفرجت ملامحه) هو ذا صوت عربى · مصرى بالذات كم يحب اللهجة المصرية · وكم يحب صوت هذا المذيع بالذات ·· وتدافعت دقات قلبه مع الكلمات ·· وانقلبت ملامحه فجأة · ما هذا الذى يسمع ؟ وأحس بكيانه يترنح · كأن ضربة نزلت على أم رأسه والأرض بالحصن تتماوج به · كانت الكلمات رهيبة · بشعة : ثغرة ! فتحها الجيش الاسرائيلى ومنها عبر الى السويس واحتل الزيتية ، وجسر جوى أمريكى يمونه !

وصرخ : لا ·· لا · خيانة · أو اهمال يرقى الى مرتبة الخيانة· (وأوشك أن يحطم الراديو · لكنه عاد يسمع) كانت الكلمات تلقى فى هدوء وتهوين مما جعله يوقن بصدقها · وازداد يقينه بسمـــاع خبر تكوين جيش شعبى لمقاومة الغزاة وتحرير السويس · وانفجر باكيا : لماذا يارب ·· لماذا ؟ بعد أن عبرنا ، نهزم من جديد ! يعود

عار الانسحاب ؟ تكف الأغانى وتعود سرادقات الحزن ؟ ورأى وهو يبكى « عبد الحليم » يرتدى جلبابا أسود ويندب بنفس الأغنية ·· أغنية الانتصار : لفى البلاد ياصبية بلد بلد ·· انع مصر يانور بلد بلد ·· الجنازة كبيرة والكفن فيه ابن البلد ·

ورأى نفسه محمولا فى الكفن · أجل · الموت راحة · وان كانت هذه هى الحقيقة فلن يعود الى بلاده حتى لو أتيحت له فرصة العودة · «أحفر لنفسى حفرة أختفى فيها من نفسى وأموت » ·· (وصرخ صرخة مكتومة) أين كنتم أيها الملائكة حين دخل اليهود من هذه الثغرة ؟ (وتذكر كلمات ايليا) الملائكة هم الذين ينتصرون ، أما أنتم الذين تهزمون ! وأجهش من جديد · واستراح الى أنه يبكى وحده ، وأن ايليا لايراه · فليفرغ كل دموعه قبل أن يذهب اليه ·· وخطر له أن يفسد الراديو ، حتى لا يسمع ايليا أخبار انتصار بلده ويختل التوازن · ومادام قد اختل التوازن فليبدأ النظر الى الأمور على ضوء الواقع الجديد · فبدلا من أن يعطيه الراديو ، يهوى به على أم رأسه ويسكت أنفاسه فى الحال · لقد أصبح فى مصيدة · وما هدير الدبابات التى سمعاها الا صوت دبابات اسرائيلية فى طريقها لتأمين الثغرة · ما العمل ؟ لم أعد فى مواجهة فرد واحد من أعدائى · أصبحت فى مواجهة جيش بأكمله · هل يستطيع ايليا اخفائى ؟ لقد أخفيته من قبل ودافعت عنه !

وتنبه الى أنه تأخر عليه · فأسرع عائدا اليه ومعه الراديو · كان يبذل جهدا جبارا ليحفظ تماسكه ·

ـ تأخرت على كثيرا ياربيع · كنت تسمع طوال هذا الوقت ·

قال ربيع متحكما فى انفعالاته : قل لى ·· ما أخبار الصوت · صوت الدبابات ؟

ـ مازال غامضا · قل لي ماذا سمعت فى الراديو ؟

وفكر ربيع : هل يقول له ؟ مباشرة ؟ (ونظر فى عينيه) : قل لى يا ايليا · ماذا لو سمعت أن الجيش المصرى دخل اسرائيل · دخل تل أبيب ؟

قفز ايليا من مكانه كأنما أصيب بانفجار : هل حدث هذا حقيقة ؟ لا ·· لا ·· أنت تخرف ·· أنت تحلم ·· حلما أسود ·· الوحوش يدخلون بيتى ويأخذون زوجتى ويحطمون مدرستى ·· محرقة جديدة لليهود ·· هل سمعت هذا حقيقة ياربيع ··· أعطنى الراديو ·· لماذا لا تريدنى أن أسمع ؟ هات. هذا الراديو ·· أنه ملكى ·

قال ربيع ، بابتسامة مرة ، قابضا على الراديو بقوة : افترض أنك سمعت العكس يا ايليا ؟

ـ أى عكس ؟

ـ أن جيشكم عبر القنال الى الغرب ودخل السويس أو الاسماعيلية ؟

صرخ ايليا : أنت تلعب بى · ليس هذا وقت الافتراضات ·· أعطنى الراديو قلت لك ·

قال ربيع ، ومازال قابضا على الراديو ، وقد أطل من عينيه بريق مخيف · ستقتلون وتبقرون بطون الحوامل مثلما فعلتم فى دير ياسين حتى لا يخرج منهن أطفال يحاربونكم حين يكبرون ، وستدكون البيوت والمدارس والجوامع والكنائس وخطوط السكك الحديدية وخزانات المياه ومحطات الكهرباء ويعم الخراب واليتم والتشرد · أنتم وحوش افظع يا ايليا ·

وعاود ايليا الصراخ · قل لى ماذا حدث بالضبط يالربيع · هناك شىء أكيد حدث وتخفيه · أعطنى الراديو · هاته ·

(وزفر ربيع) : ساعطيه لك · ولكن دعنى اولا أنقل لك الخبر الحقيقى · خبر سيسعدك بالتأكيد ·

ورغم أن ايليا التقط منه الراديو ، الا أنه لم يفتحه فى الحال · سأل بفضول ·· ولهفة : أى خبر ·· وبصدق هذه المرة ياربيع !

ـ لقد تمكن جيشكم من اكتشاف ثغرة فى خطوطنا ، وعبر منها الى الســـــويس · كما تنبأت أنت يا ايليا من قبل وأنت فى الغيبوبة !

وأوشك ايليا أن يقفز راقصا مبتهجا · لقد أحس هذه المرة بصدق ربيع ، وبامكانية أن يحدث هذا ·· يجب أن يتأكد ·· آه ·· لو يكون هذا صحيحا ·· وكتم كل مشاعره ملصقا الراديو على أذنه ، وسرعان ما وجد نفسه يقفز صائحا ·· مهللا : صحيح ياربيع ·· الذى قلته صحيح · (ثم مؤكدا لنفســـه) لقد عبرنا واحتللنا الزيتية ·· و ·· آه ·· (بنشوة) ما هذا أيضا وقاوم فرحته بشدة ، فليس كل ما يسمعه بالعبرية يقوله لربيع ، ثم متخيلا الصورة الرائعة وتليفزيونات العالم تصور رئيسة وزرائهم · جولدا مائير ·· وهى واقفة مع القوات الاسرائيلية فى الزيتية · العبقرية الاسرائيلية ·· « وما هذا ايضا ؟ » خرجت من بين شفتيه بلا وعى ·

ـ ماذا ايضا يا ايليا · اياك أن تخفى عنى شيئا !

ـ خبر يريد منك أعصابا من حديد يا ربيع ·· أو ربما نكون قد عرفته قبلى ولم تقله لى !

ـ ما هو هذا الخبر · قله بسرعة ·

ـ جيشكم الثالث محاصر ٠

صرخ ربيع : لا ٠ كذب ٠ أنت تكذب (وهجم عليه وراح يهزه من كتفيه) تكذب ٠

وزحفت على ربيع تنميلة انهيار شامل ٠٠ وتراخت ذراعاه عن كتفى ايليا ، واسودت الدنيا فى عينيه ٠ جيش بأكمله يحاصر فى الصحراء وجنون العطش والجوع ، وانخفاض الرأس المهين ؟!

وصرخ مقاوما الانهيار : وحتى لو حدث هذا ٠ فلن نستسلم ٠ محال أن نترك جيشا بأكمله يموت ٠ سندمركم ولو كان فى ذلك دمار العالم ٠ (وشعت عيناه ببريق مخيف) أمريكا ٠٠ هى المجرمة الأولى فى هذه الثغرة ٠ اياكم أن تقولوا أنكم أبطالها ٠ أمريكا هى التى أمدتكم ومازالت تمدكم بجسر جوى من الأسلحة ومن البشر ٠٠ بطيارين أمريكان ٠ مزدوجى الجنسية لكى يفلتوا من المســئولية الدولية ٠ النفاق الأمريكى ٠ أما أنتم ، فى حدذاتكم فكيان هش ، بنفخة تطيرون ٠٠ وقد جربناكم فى العبور الأول وجربتمونا أيضا ٠٠ أبدا لاتستطيعون الوقوف بذواتكم ٠٠ لماذا لا ترد يا أستاذ ايليا ؟ هل تظن أنك تشفق على ؟ لا ٠ وخلص نفسك من هذه الابتســامة وتعال نواصل المحاكمة التى كنت تدعو اليها ، نواصل الحلم الذى كنت تحلم به منذ قليل ٠ حلم السلام ٠ أم كان ذلك من موقع احساسك بالهزيمة ٠٠ والآن بعد أن سمعت الأخبار الجديدة لم تعد فى حاجة الى محاكمات ولا أحلام ٠٠ تكلم ٠

قال ايليا وقد تخوف من لهجته وبريق عينيه :

ـ هذه انتصارات لم تتأكد بعد ياربيع ٠

صرخ فيه ربيع : لا تقل انتصارات · بل قل شرور وسفالات ·
لم يهن عليهم أن تحقق مصر لنفسها انتصارا ولو بسيطا تسترد به كرامتها بعد هزيمة ٦٧ · مصر لا يصح أن ترفع رأسها مرة واحدة · مصر يجب ان تظل مطأطأة الرأس ذليلة · هذه هى سياسة امريكا معنا ·· وتجار الحرب ·· تجار السلام وتجار الأقوات ·· أنتم قاعدة الأمريكان فى الشرق الأوسط · أنتم العصا التى يضربوننا بها ·· ومع هذا تخدعون أنفسكم بالمجد ·· وبالعبقرية الاسرائيلية أنتم لعبة تجار السلاح فى أمريكا · لكنكم ستدفعون ثمن هذه الفترة غاليا ·· ستتحول السويس الى مقبرة كبرى لأبناء اسرائيل ·· وسيمتلىء الشعب الاسرائيلى بالأرامل واليتامى ·· وهم هناك فى البيت الأبيض والبيت الأسود يضحكون على رنين بلايينهم ·· وانتم تضحكون على انفسكم بخرافة شعب الله المختار ·· ابدا لستم مختارين من الله ، بل أنتم مختارون من الشيطان ·· مجموعة من العصابات تحرككم وتلعب بكم · لو كنتم مختارين حقا من الله ، لكان دوركم فى العالم غير هذا الدور الشرير ·· يجب أن تعرف هذا يا ايليا ·· ولكن حتى لو عرفت واقتنعت فما الجدوى ·· انك عاجز ·· (وارتفعت يده فى اتجاه رأسه بينما تراخت عيناه) أو ··

ـ ماذا حدث ياربيع ؟

ولم يجب ربيع · كشلال هادر نضب فجأة ، سقط على الأرض متخشبا ، وقد خرج من فمه زبد أبيض · روع ايليا من المنظر ·· هل سيموت هو الآخر ؟ هل سينتهى به الأمر أن يصبح وحيدا فى الصحراء مع ثلاثة من الموتى ؟!

وانكفأ عليه : ربيع · افق ياربيع · لا تتركنى وحدى ياربيع ·

وراح يدعك له فى جبهته مرة ، ويجرى له تنفسا صناعيا مرة

اخرى ٠ لكنه كان غارقا فى الغيبوبة ٠٠ طمأنه قليلا أن انفاسه لاتزال ، لكن النبض السريع أخافه ٠ قد تكون الدقات الأخيرة للقلب ، ثم يأتى بعدها الصمت وكيمياء الموت ٠٠ ورأى فى موت ربيع موتا له ٠٠ وأرعبه صمت الحصن ٠٠ وطنين الصحراء ٠٠ وقد تخرج له أشباح الموتى ٠٠ « كان يعطينى الاحساس بالأمان ٠٠ وبالشجاعة أيضا » ٠٠ أفق ياربيع ٠ أنا فى حاجة اليك ٠٠ ان نصرا واحدا أو اثنين أو حتى عشرة لنا أو لكم لن يحسم هذه الحرب ٠٠ قم لتعود الى « نور » حبيبتك ، كما أنى أريد أن أعود الى زوجتى سارة ــ هل تسمعنى ياربيع ٠٠ هل أنت عطشان ؟ وبرقت فى رأسه الفكرة : ربما الماء يعطيه شحنة حياة ٠٠

واندفع الى حيث تركا الزمزمية ٠ زمزمية يوسف ٠٠ وعاد مسرعا بها ٠٠ وفكر فى نفسه : انها شربة ماء واحدة ٠ فماذا لو شربها ومات ٠٠ يتركنى لجنون العطش مرة أخرى ؟!

ومع هذا ، فقد وجد نفسه ينحنى على رأس ربيع بالزمزمية ، سيبلل شفتيه بالماء ٠٠ قطرة قطرة ٠٠ واذ وجد فمه مقفولا بقوة عصبية خطرت له فكرة تحمس لها : يقطر الماء فى أنفه ، فربما يحصل للجسم كله ردفعل آلى وتنشط حركته ٠

ولسعادته الكبرى حدث ٠ ما أن وضع فى فتحة أنفه قطرة ماء ، حتى رأى الجسم النائم يختلج ليطرد نقطة الماء ويستمر التنفس ٠

ــ اصح ياربيع ٠ اصح ياصديقى ٠ فما سمعناه لم يكن غير اوهام ٠٠ ان الحقيقة هى البؤس الذى جمعنا وجعلنا صديقين ٠٠ خذ بعض نقاط الماء فى فمك ٠

كانت الاختلاجة التى حدثت ، قد أرخت قليلا من عصبية فم ربيع واستطاع ايليا أن يدخل فتحة الزمزية برفق بين شفتيه وراح يسكب قطرة قطرة · وزغرد قلبه بالفرح أن رأى ربيع يبتلع ، ببطىء وصعوبة ·

ـ عظيم ياربيع ·· اشرب ·· انها آخر شربة لدينا ·

وبمعاناة هائلة حرك ربيع اصابع يده علامة الاكتفاء · واستطاع أيضا أن يفتح عينيه ، واذ رأى ايليا امامه ·

ـ شكرا · يا ايليا ·· أريد أن أنام ··

قال ايليا بفرح وحماس :

ـ نم ياربيع · أنت فعلا متعب · وأنا أيضا أريد أن أنام ·· أنا أيضا متعب · لقد اختفى صوت الدبابات · اختفى تماما · وعاد الهدوء ·

وربت ربيع بيده على الأرض بجواره ·

ـ نم هنا يا ايليا ·· بجانبى ·· أريدك بجانبى ··

ـ ها أنا بجانبك ياربيع ·· (وتمدد بالفعل بجواره ·· كنوع من التشجيع) ·

ـ النوم يا ايليا جميل ·· هات يدك ··

ـ هاهى يدى ·

لم يستطع أن يمسك بيد ايليا ·· لمسها فقط ·

ـ تعبنا كثيرا يا ايليا ·· وتكلمنا كثيرا ·· فلنسترح قليلا من الكلام ، ومن النظر : لا تفتح عينيك يا ايليا ·· أغمضهما مثلى تستريح ··

– اغمضهما ياربيع (واغمضهما بالفعل) والنوم يزحف ·· كان اتفاقنا ياربيع أنننام ·· استعدادا لرحلة العودة ·· وهانحن ننفذ اتفاقنا ·· النوم على الأرض أجمل من النوم على السرير ·· أليس كذلك ؟

ولم يجبه ربيع ·· أدرك أنه غرق فى النوم ·· فليأخذ هو الآخر سنة من النوم ·· يريح الجسم المكدود · وتوقف عقله ·

راح هو الآخر فى نوم عميق ·

* * *

بعد فترة لا يستطيع أحد حسابها ، استيقظ الاثنان · وكان أول من استيقظ هو ربيع · كان يحس بأعضائه مفككة ·· وآلام كبرى تسرى فى جسمه · واذ راح يتذكر بالتدريج ما حدث عاوده التحفز ·· قاوم آلامه ونهض من رقدته ·· ولاحظ فى الخارج ضوء النهار · هل ناما ليلة واحدة أم ليالى وأيام ·· ورأى لحية ايليا النائم وقد طالت وهاشت ·· فتحسس لحيته هو الآخر ·· « كأننا أهل الكهف ·· أيمكن أن نكون تجاوزنا سنينا وعصورا وأجيالا ، ونحن الآن فى عصـــر آخر انتهت منه الحروب وســـاده الهدوء والسلام ؟ » فجأة اضطرب كيانه وأصاخ الســمع · نفس الصوت ·· صوت الهدير ·· يقترب ·· واندفع الى فتحة الحصن ليرى ·· فلم ير شيئا وان كان الهدير آخذا فى الارتفاع ·

وفكر : ترى ما شكل الخريطة الآن بعد فتح الثغرة وحصنر جزء من قواتنا ؟

وجرى على ايليا : اصح يا ايليا · صوت الدبابات عاد ·· وهو قريب منا هذه المرة ·

قفز ايليا مفزوعا : اين ‥ ما شكلها ؟!

ـ أنا أكلمك عن صوتها ‥ أما هى فلم تظهر بعد ‥ تعال نرقبها من هنا ‥

فجأة صاح الاثنان فى نفس واحد :

ـ دبابات مصرية !!

ورغم أنهما قالاها بصوت واحد ، الا أن النغمتين كانتا متناقضتين : المصرى أملا · والاسرائيلى احباطا ورعبا ·

وقال ايليا فى نفسه : قد تكون دبابات منسحبة عائدة الى بلادها ·

وقال ربيع مقاوما رغبة فى الخروج الى العراء ويصيح : النجدة · أنا مصرى ‥ فيرونه ويلتقطونه · ولكن : قد تكون دبابات اسرائيلية مموهة ، من أجل تأمين الثغرة · لابد من الحذر ·

وتعالى الهدير · وازدادت الدبابات ضخامة وهى تقترب ‥ كتل وحشية حديدية زاحفة تثير حولها عواصف رملية ‥ وخيل لكل منهما أنه يسمع دقات قلبه ‥ هذه الدبابات تحمل الانقاذ والحياة لواحد منهما بالتأكيد ‥ ولكن كيف اليقين ؟

فجأة ، توقفت الدبابات · لماذا توقفت هنا ، فى المقابل تماما لحصنهم ؟!

تبادلا نظرة سريعة ‥

ـ احترس من أية حركة ‥

ونوجئا بعربتى جيب تظهران بعد آخر دبابة ، ثم تتوقفان فى

غموض · وتحولت دقات قلبيهما الى طبول · ورأيا دبابتين تفتحان وبعض رجال يهبطون الى الأرض قفزا بأسلحتهم ·

ومع الصدمة الهائلة التى أصابت المصرى ، وجد ايليا نفسه يصيح مهللا : اسرائيليون · (وانطلق جريا اليهم وهو يواصل الصياح) العبقرية الاسرائيلية · يا احبائى · انا اسرائيلى ·· انا اسمى ايليا رابين · (ومضى يجرى اليهم فاردا ذراعيه للأحضان) ·

خوف هائل اكتسح ربيع ·· امتلأ بالاحباط وبالفجيعة · فى لحظة واحدة تعرى كل شىء · اهكذا يتركه دون حتى أن يسلم عليه أو يطمئن على موقفه · اكثر من هذا قد يرشد عليه · وغامت الدنيا فى عينيه وهو يرى ايليا يعانق ابناء وطنه ويعانقونه · وتمنى لو أن هذا يحدث له · « لكنى وقعت فى المصيدة ولابد ان اتصرف بسرعة ·· ام ·· اخرج رافعا ذراعى وأسلم نفسى بهدوء ·· أتجنب اى احتمالات للعدوان أو التوحش · سوف ينتقمون لموت ايزاك منى ·· ليتنى كنت غطيته بالرمال وأخفيته !

ورأى الاسرائيليين يتقدمون بخطوات مسرعة فى اتجاه الحصن ومعهم ايليا ·· كان يتحدث مع رتبة كبيرة ويشير على الحصن ·· هل خانه وأرشد عليه ؟ أم أنها عملية استطلاع واسترجاع لحصن مهم سقط منهم ؟

وارتد مسرعا ·· وتخبط فى عتمة السرداب ، ثم اندفع الى المطبخ يلتمس مخبئا فيه ·· آه ·· خلف الثلاجة ·· وتكور على ذاته ··

اما ايليا ، فما كادت لحظة العناق الرائعة تنتهى ، حتى انتهى معها سحر المعجزة · فقد بدا أن كل شىء يتلاحق ويندفع بقوة غير

منظورة ، وأن هناك امورا اخرى أخطر من أنقاذ حياته · ووجد نفسه مواجها بأسئلة حادة وسريعة من القائد · كان باتر اللهجة والنظرات ، وفكر للحظة أنه المانى المولد · وكان الجنود يصغون الى اجاباته على أسئلة القائد بفضول وقلق ، وعيونهم تدور فى محاجرها بحذر ، خوفا من أى هجوم مفاجىء · وحدثهم عن هجوم المصريين على الموقع · والمعركة الوحشية التى نشبت ، ثم دك المنطقة بالقنابل ، ثم سقوطه فى الغيبوبة فلم يدر شيئا بعد ذلك مما حدث لزملائه · فقط « ايزاك » هو الذى بقى فى الحصن ولكنه كان ميتا · مات وهو جالس يأكل ·· ورأى الغيظ والتلمظ يرتسمان على الوجوه ·· فجاة ووجه بالسؤال :

ــ هل يعنى هذا انك وحدك ؟ اليس فى الحصن أحد ؟

وارتسمت امامه صورة ربيع · احس بخلخلة كبرى وأنه يكاد يسقط · قال مجاهدا الا يبدو عليه اى اثر للكذب : نعم (وبلهجة سريعة) لم يبق معى غير جثة ايزاك ، وجثة جندى مصرى ·· مات وهو ينزف ·

وساله القائد وفكاه يرتعشان : وأين جثة ابننا ايزاك ؟

ــ فى الخندق الأمامى · لم اجد مكانا انسب منه لدفنه ·

قال القائدة مخاطبا جنوده : فلنحملها ونسلمها اليهم (واشار على عربتى الجيب) ولكن ·· اولا نطمئن على تطهير الحصن ··

سقط قلب ايليا فى قدميه ·· ماذا سيكون موقفه حين يقبضون على ربيع ويكتشفون كذبه ؟ ·· كانوا يتقدمون الى الحصن بحذر ، شاهرين اسلحتهم ·

ــ مرة اخرى · هل انت متأكد من أن الحصـــن خـــال من الأعداء ؟

قال بثقة : نعم ·· (وود لو يقول : ربيع ليس عدوا ·· وهو اعزل ·· ليس منه أى خطر) · (ثم مهونا) لم يعد فى الحصن غير انهيارات · فلنحمل جثة ايزاك ونمضى ·

واذ بلغوا الخندق واطلوا فى جوفه ليروا جثة ايزاك ، رأوا جثة أخرى منبطحة فوقها ·· صاح القائد فى دهشة وفزع :

ـ من هذا ؟

قال ايليا وقد طأطأ رأسه : مصرى · وجدته ميتا ، فدفنته معه ··

وارتسم اشمئزاز وغضب هائلين على وجه القائد : تدفن مصرى مع اسرائيلى ·· ياخنزير ·· هل أصابتك لوثة ؟!

وأحس ايليا بالاهانة · ·لكنه ابتلعها ·· كان يحمل هم الجنود الذين دخلوا الحصن واكتشافهم لربيع · وتلعثم ·

ـ قلت أتخلص من رائحته ·

ـ وتترك رائحته تلوث جثمان ولدنا الطاهر ·· (وانطلق من عينيه بريق مخيف) لقد لوثت شعبا باكمله ياملعون ·· شعب الله المختار · عقابك يجب أن يكون فى أوسع ميدان ·

وأحس ايليا بخزى شديد مع نفسه · لولا كذبته الكبرى عن ربيع لرد عليه الاهانة بأقسى منها وليحاكم فى أوسع ميدان امام شعب الله المختار ويقول لهم تجربته ·· لكن عقله كان وراء الجنود الذين دخلوا الحصن : ماذا ياترى ·· ولم يكتمل سؤاله ، فقد رآهم يخرجون وامامهم ربيع رافعا ذراعيه بحركة استسلام · واذ جاءت عينا ربيع فى عينيه ، احس فيهما بالاتهـــام وبالفجيعة · وود لو يصرخ : أنا لم أرشد عليك · العكس هو الصحيح · واياك أن تبدر منك أية حركة أو كلمة يعرفون منها أننا صديقان ·

غير أنه ارتج على صـــوت القائد : كنت تعرف أنــه موجود وتكذب علينا٠

ولم يرد ايليا ٠ كان ذلك دليلا قاطعا على كذبه ٠

وتحول صوت القائد الى فحيح :اعترف أنك كذبت علينا ، وعرضت أفرادا من جيش الدفاع للخطر ٠

قال ايليا مدافعا بثقة : ليس منه أى خطر ٠ أنه أعزل كما ترون ٠

وصرخ القائد : جبان ٠ رعديد ٠ هذا هو سر هزيمتنا الأولى (ثم للجنود) لابد أن يحاكم محاكمة ميدان ٠ فليس لدينا فى اسرائيل وقت لك أيها الكذاب الخائن ٠ أين جهاز اللاسلكى ؟

واسرع أحدهم اليها بجهاز صغير ، فتناوله منه وابتعد خطوات وراح يتحدث بكلمات ، وفوجىء أيليا وربيع باحدى العربتين تتحرك وتقبل مسرعة ، وفى الحال نزل منها ضابط كبير وفى اثره آخران ٠ هل هؤلاء هم هيئة المحاكمة ٠ وداعب الأمل ايليا أن يجد لديهم صوت العقل والتآخى وتقدير الظروف ٠٠ وشجعه أن رأى القائد الجديد يسأل فى هدوء : ما الحكاية ؟

قال القائد الأول : جريمتان يحاكم عليهما ٠ الأولى انه أخفى أثناء الحرب عدوا ٠٠ أخفاه عمدا وكذبا ، ولم يعبأ بتعريض حياتنا للخطر ٠ والثانية أفظع وتكشـــف عن حقيقة فكره ، فقد دفن كلبا مصريا بجوار جثة اسرائيلى فى حفرة واحدة ٠ سيدى ٠ لا تظنوا أنه مجنون ٠ انظروا فىعينيه لتدركوا أنه ارتكب الجريمتين بمنتهى العقل والوعى ٠

قفزت الكلمات من ايليا : نعم ·· لست مجنوناً ، وما فعلته ليس بجريمة !

وصاح القائد وقد عاودت الرعشة فكيه : هل سمعت ياسيدى ؟ على كل حال ، فى وجودكم يصبح مثله ليس من اختصاصنا ·· (ونفخ بأنفه) أنتم المخابرات الاسرائيلية قادرون على اكتشـــاف حقيقة هذه النوعية والتعـــامل معها · نحن فى مرحلة مصـــيرية ياسيدى · وجيشـــنا بل واســـرائيل كلها يجب أن تتطهر من هذه النوعية ··

ـ بل من نوعيتك أنت أيها المتعصب الأعمى ·· هاهو أمامك أعزل ·· رافعا يديه فى استسلام ، يكاد يسقط من التعب ، ومن الجوع والعطش ··

ورغم أن ربيع لم يكن يعرف العبرية التى كانوا يتكلمون بها ، الا انه صاح بالانجليزية وقد أدرك المأزق الذى وقع فيه ايليا بسببه : لا يا ايليا · لا تضحى بنفســـك من أجلى · دعهم يفعلون بى ما يشاءون ·

ذهل الجميع ·· وارتسمت على شفتى رجل المخابرات ابتسامة غامضة وقال بهدوء ، وهو يتنقل بنظراته بين ايليا وربيع :

ـ واضح أنكما صديقان · أليس كذلك يا ايليا ؟ (والتفت الى المصرى) وأنت يا ·· مصرى ·· واضح أنك مثقف وتجيد الانجليزية · (قالها بانجليزية متكسرة) قل لنا ما اسمك ، وعملك ؟

قال ربيع بهدوء شديد : اسمى ربيع عبد الحكيم · متخرج من كلية الزراعة ·· تخصص كيميا أراضى ··

ـ أوه عظيم · أنت على درجة عالية من الثقافة ، وتحمل السلاح وتحارب أيضا ·· وما هى الكتيبة التى كنت تحارب معها اذن ؟

لم ينطق ربيع بحرف · أرخى عينيه ملتزما الصمت ·

ـ مثقف ومحارب ومخلص لبلادك أيضا · (والتفت الى ايليا) فلنرى مدى اخلاص ابننا ايليا لبلاده · فلنتناقش فى بعض الأمور ·· أما اخوتنا (وأشار الى قائد الدبابات الأول علامة الانصراف) فلتتفضلوا أنتم ·· امضوا فى طريقكم كما هى الخطة المرسومة واطمئنوا على سلامة صفوفنا · سوف نلحق بكم بسرعة ·

ـ هل ستحتفظون بالمصرى أيضا ياسيدى ؟

ـ نعم ·· ألم تتأكدوا أنه أعزل ؟

ـ لقد فتشناه جيدا ومع هذا يجب الحذر منه ؟

ـ اطمئنوا · و (أشار الى العربة الأخرى) ونحن ثلاثة ·· مسلحون جيدا ·· (وأشار على رجلى المخابرات الآخرين اللذين تحسسا على الفور أسلحتهما ·· ثم للقائد الأول وجنوده بلهجة منذرة) : أنتم لم تروا شيئا ·· لم يحدث أى شىء · ستكون المحاكمة على أضيق نطاق ، حتى لا يحدث أى اثر سىء على سير المعركة ·

رفع القائد الأول يده بحركة تعظيم عسكرية ، ثم مضى منصرفا هو وجنوده الى دباباتهم · وفى أقل من دقيقة كانت الدبابات تمضى مبتعدة بضجتها · ولم يبق فى الموقع سوى ضباط المخابرات الثلاثة ، وايليا ، وربيع ، رافعا ـ لايزال ـ ذراعيه ، والجثتان فى الحفرة ، الجيب الأخرى الواقفة بعيدا ترقب فى غموض ·

قال الضابط بهدوء ، بالعبرية ، راسما على شفتيه ابتسامة تمنى ايليا أن يصدقها فقد توجس شرا من ملامح الرجلين الآخرين ومن نظرات عيونهما وهما واقفان يرقبان الموقف فى صمت مخيف ٠

ـ ها انت يا ايليا رأيت حرج اللحظة التى نحن فيها ، والوقت لا يحتمل أية مناقشات ٠ ومع هذا ، فنحن نعطيك الفرصة كاملة لتدافع عن نفسك فى الاتهامين الموجهين اليك ٠ ولو انك مكانى لفعلت مثلى ٠ وتأكد أننا يهمنا تبرئتك كجندى ٠٠ وأساسا كانسان ينتمى الى الشعب اليهودى ، ليس فقط أمام اسرائيل بل أمام العالم كله ، فالجريمتان بشعتان يا ايليا كما سمعت من قائد الدبابات ٠٠ قل لنا ما اسمك ووظيفتك وأين ولدت ٠

ـ اسمى ايليا رابين ٠ مولود فى بولندة ٠٠ فى وارسو ٠٠

ـ آه ٠٠ لم تولد اذن على أرض اسرائيل ٠٠

ـ للأسف ياسيدى ٠٠ وجئت الى اسـرائيل مع أبى وأمى هربا من الغزو الألمانى ، وأعمل مدرس أنثروبولوجى ٠ ومتزوج من مدرسة أطفال ، وشاركت فى حربى ٦٧ و ٧٣ ٠

ـ وأنت اذن صاحب تجربة عالمية فى الاضطهاد يا ايليا ٠ فكيف سـمحت لنفسك وأنت المثقف والمدرس الذى يربى أجيالنا الجديدة بأن تكذب وتخفى عدوا والمعركة دائرة ، معرضا زملاء لك للخطر ٠هل هذا هو الوفاء للبلد الذى ضمك من الشتات !

قال ايليا بصوت يملأه التوسل والمناشدة : صدقنى ياسيدى كنت واثقا الا ضرر منه ٠ فها أنتم ترونه أعزلا ومتهافتا وغير قادر على الوقوف ٠ ثم هو ـ ان أردت الصدق الكامل ياسيدى ـ أنقذنى من زميل له كان سيقتلنى ، كما أنقذنى أيضا من العطش !

ـ تتكلم عنه بعاطفة شديدة · نحن طبعاً لسنا ضد التصرف الانسانى ، ولكن ، هل أنت واثق أنه لا يخفى قنبلة أو سلاحا يرجىء استعماله للوقت المناسب · ألم تسمع عن مكر المصريين ؟!

وود لو يقول له : المصريون ليسوا أمكر من اليهود ·

قال : أنا واثق ياسيدى · فقد كشف لى كل نفسه · أنا عندى حاسة أعرف بها الصدق من الكذب ·

ـ جميل أنك تملك هذه الثقة الاسرائيلية بالنفس · كنت تقول أنه كشف لك عن كل نفسه · هذا يعنى انكما تكلمتما معا كثيرا ·

ـ لقتل الوقت ياسيدى ·

ـ كم من الوقت قضيتما معا ؟

ـ لا ادرى ياسيدى · لقد فقدت الاحساس بالزمن ··

ـ وفيما كنتما تتكلمان طيلة هذا الوقت ؟

ـ فى كل شىء وفى أى شىء ·· وقد وجدتها فرصة لكى أتعرف على تفكير واحد من هؤلاء المصريين ·

ـ ووجدت تفكيره طيبا ومسالما وضد الحرب يا ايليا أليس كذلك ؟

ـ لا ياسيدى ·· ليس بالضبط ·· هو مع الحرب حتى تتحرر الأرض الذى يرى اننا اغتصبناها منهم ··

ـ ووافقته على ذلك يا ايليا ، لكى تحافظ على حياتك !

قال ايليا بقوة : لا ياسيدى ·· أنا لم أكن جبانا معه · وهو أيضا ·· للحق ·· انما كنا نتناقش مجرد أفكار نعرض بها القضية ·

ـ أية قضية ؟

ـ قضية الحرب والسلام ٠

ـ واتفقتما فى النهاية يا ايليا ٠٠ وأصبحتما صديقين ٠

ثمة رعشة خاطفة فى عينى الرجل احس ايليا معها بالخطر ٠

وتذكر فجأة أسلوب رجال المخابرات ٠ التفتيش داخل العقل ، مع المبالغة فى الاشعار بالأمان لادخاله المصيدة واحكامها عليه ٠

ـ لم نتفق بعد ، على شىء ياسيدى ٠

وفوجىء بأحد الرجلين الصامتين ينقره بعينيه : أنت تكذب ٠

قال الرجل الأول مشـــيرا لزميله بالهدوء : لا داع أن نفقد أعصابنا ٠ (ثم لايليا) لم أقصد أنكما اتفقتما على فعلٍ مادى معادى بل أقصد انكما اتفقتما فى الأفكار ٠٠ وذلك شىء طبيعى وانسانى بحكم الظروف ٠

ـ هو ذاك ياسيدى ٠ ونحن نهذى من العطش ٠ كنا نحلم بيوم يأتى فيه السلام ويظلل كل المنطقة ٠ وأظنك ياسيدى تحلم بهذا اليوم أيضا ٠٠ اسرائيل كلها تحلم بالسلام ٠

ـ هذا صحيح يا ايليا ٠٠ ولكن كيف ٠ قل لنا ، فقد نستفيد برأيك ٠ لقد سئمنا هذه المجازر التى لا تنتهى ، ما الحل فى رأيك ؟ هه ؟

ـ وما قيمة رأيى والطوفان على أشده !

ـ قد نستهدى به لوقف الطوفان ٠ قل ما فى نفسك يا ايليا وبكل صراحة ٠

ـ لقد تعقدت المأساة ياسيدى واصبح كل منا ينادى بالثأر لموتاه ·· والنتيجة مزيد من الموتى والضحايا ·· هناك شيطان ياسيدى يصب الزيت على النار كلما رآها توشــك على الهدوء والانطفاء· ولا اكتمك سرا لو، قلت لك أن هؤلاء هم تجار السلاح الذين يخافون بوار صناعتهم وتجارتهم فى أمريكا ·· لقد استغنوا عن سلاح الاتحاد السوفيتى · فلنستغن نحن أيضا عن الســلاح الأمريكى ، ونتواجه بالعقل · نتصارع بالفكرة ·· بل لماذا نتصارع ·· ونحن أبناء عمومة ·· ؟ أبناء منطقة واحدة وتاريخ مشــترك واحد ·· اننا فى الحق ياسيدي ، ولو رجعت للتاريخ ، اقرب الى المصــريين والعرب منا الى الأمريكان ·· هنا كان أصــل مولدنا ونشأتنا ·· وهنا تجسد لنا حلمنا بالاستقرار ·· فكيف نستقر ونحن نجعل من مستقرنا جزيزة محاطة بالأعداء ·· لقد اضطهدنا حقا ياسيدى ·· ولكننا لسنا وحدنا المضطهدين · المصــريون تاريخهم اضطهاد وكذلك كل البلاد العربية ·· كلهم كانوا محتلين مستعمرين · فلم لا نبدأ جميعا عصرا متحررا من الاضطهاد ومن الاستعمار ·· نحن نستطيع أن نكون مجموعة بشرية رائعة فى هذه المنطقة ، لو نستطيع فقط أن ننسى ما راح منا من ضحايا · لو صدقنا أن هذه الضحايا ـ حقيقة ياسيدى ـ لا تريد الثأر ·· بل قفل كتاب الحرب وبدء كتاب السلام ·

ـ وكيف يبدأ كتاب السلام يا أستاذ ايليا ؟

ـ هو ليس كتابا ياسيدى ، ولا حتى صفحة ، بل هو مبدأ نتفق عليه جميعا ، فى جملة واحدة : فلسطين اسرائيلية ، وفلسطين عربية ، وينشأ بينهما ، مع الأيام ، وحدة او اتحاد !

ورأى فكى الرجل يرتعشان · لكنه قاوم غضبه · وتبادل مع الرجلين الآخرين نظرة · ثم قال وقد أخفى كل مشاعره الداخلية ·

ـ وحدة أو اتحاد ·· ولهذا وحدتماهما فى القبر · دفنتماهما فى قبر واحد · رمزا للسلام المرتقب ·· اليس كذلك يا ايليا ؟ أنت تدافع عن نفسك في الجريمة الثانية ·

ـ سيدى ، انه لأمر مضحك أن نعتبر دفن المصـــرى بجوار الاسرائيلى جريمة كما قال قائد الدبابات المحترم · لقد ماتا وسيذهبان الى لقاء ربهما · لقد دخلا فى رحاب الرب فلا معنى للتفرقة بينهما · الرب هو الذى يجرى التفرقة بينهما كما يشاء ·· يجب أن نبدأ تفكيرا جديدا فى هذا الموضوع ·· واقولها لك بصـــراحة أكثر ياسيدى · لقد صليت على هذا الرجل المصرى الميت (واشار على الجثة) دون أن اعرف بالضبط ما هو دينه ، وكذلك هذا المصرى ـ ربيع ـ صلى على ايزاك صلاته الاسلامية رغم أنه يعرف أنه يهودى · اذن من الممكن ياسيدى ·· أهل الأديان الثلاثة يمكن أن يعيشوا معا على أرض واحدة فى سلام ·

قال الرجل وهو يتبادل نظرة جديدة مع الرجلين الآخرين ·· كأنما يتفقان على الحكم ·· نقطة بنقطة ··

ـ وما رأيك فى الثغرة التى احدثناها · واحتلال السويس ،

ـ رأيى الحقيقى ، ليس الآن ياسيدى · فأنا يهمنى سير المعركة الآن وانتصار وطنى أسرائيل ·

ـ واضح ان لك رأى يا ايليا ·· ويجب أن نعرفه ، فقد تكتمل استفادتنا منه · تكلم يا ايليا بالصدق الذى تتميز به شخصيتك !

ـ رأيى ياسيدى ·· رأيى أيها السادة ·· ان كان ماحدث يؤكد العبقرية الاسرائيلية ، ويؤكد صداقة أمريكا الحميمة لنا · الا اننا بهذا العبور إلى السويس نعقد المشكلة · ان اسرائيل بهذا تزداد

تضخما ٠٠ لايتناسب مع حجمها ٠٠ فلنحذر ياسيدى فهو تضخم غير طبيعى ٠٠ فيه كيمياء الموت ٠٠ مثل تضخم هاتين الجثتين ٠٠ يجب أن ننسحب بسرعة ٠٠ هذا لو كنا حقا نملك تقرير مصـــيرنا ٠٠ والا ٠٠

وانقطعت كلماته على صرخة من أحد الرجلين الصامتين : كفى (وراه يميل على قائدهم بصـــوت كالفحيح) هذه النوعية لا يصح أن تدخل اسرائيل ، فقد دخلها الميكروب الخبيث ويجب أن تباد بسرعة ٠

ـ وهذا أيضا خطير (ونظر الى المصـــرى) يجب أن يباد هو الآخر ٠

ـ أجل وضمائرنا مطمئنة ٠ يجب أن نلحق بقواتنا بسرعة ، فربما الميكروب بدأ ينتشر فى قواتنا وقواتهم ٠ فلنسرع ٠٠ انتهت المحاكمة ٠

ورأى ربيع الذى كان واقفا يرقب ويســـمع دون أن يفهم ، رأى أحد الرجلين الصامتين يضع يده خفية فى جيبه الخلفى ثم يخرجها ووجد نفسه يقفز على يده التى تحمل مسدسا وهو يصرخ بالعربية :

ـ لا ٠٠ لا تقتلونى ٠

لكن الرصاصات من الرجال الثلاثة انهالت عليه ، فارتمى على الرمل ساكنا بلا حراك ٠

وروع المنظر ايليا فانتابته لوثة صراخ : أيها الوحوش ٠ لماذا قتلتموه ٠٠ كان يمكن أن تأخذوه أسيرا ٠٠ ربيع انسان طيب ٠٠ انسان وفى ٠٠ مخلص ٠٠

وبابتسامة ملتاثة : أتريد ان تعرف لماذا لم نأخذه أسيرا ؟ ٠٠ لأن الأسير قد يعود يوما الى بلاده ، وهذه النوعية لا يصح أن تعود الى مصر ، تماما كنوعيتك يا أستاذ ايليا ٠٠ لا يصح أن تعود الى اسرائيل ٠ ولهذا (وشد من قامته واندلع من عينيه بريق رهيب) لقد حكمت المحكمة عليك ٠٠ بالاعدام !

واذ رأى الرجلين الآخرين يصوبان عليه مسدسيهما فى هدوء وجد نفسه يصرخ : لا ٠٠ لا تقتلونى ٠٠ هناك استئناف ٠ وهناك ٠٠

وتوقفت كلماته على شفتيه واتسعت عيناه بالرعب وهو يرى الرصاصات تنهال عليه ، ، فسقط على الأرض مضرجا بالدماء ٠٠

ـ الآن تطهر شعب الله المختار ٠ تطهرت اسرائيل ٠

وبلغت سمعه الكلمات وهو ملقي علي الرمل ٠ وجاء ينطق فلم يستطع ، ومع هذافقد راح يجاهد ٠٠ يريد أن يختم المحاكمة ٠٠ وبالفاظ متقطعة ٠٠ غائبة ٠٠

ـ الآن أدركت سر المأساة (ونظر الى قاتليه) : من نوعيتكم ٠٠ أنتم ٠٠ يجب ٠٠ أن تتطهر اسرائيل ٠٠ نوعيتكم هى التى ٠٠ تاجرت باليهود ٠٠ طوال التاريخ ٠٠ هتلر ٠٠ لم يمت حتى الآن ٠

ـ ماذا يقول :

ـ لم أسمع كلماته ٠ ها قد لفظ آخر انفاسه ٠

وأعادوا أسلحتهم الى أماكنها ٠ كانوا ينظرون الى الجثتين المضـــرجتين بالدماء ٠ والتفتوا الى الجثتين الأخريين فى أعماق الخندق ٠

ـ فلنسحبهما ونلق بهما في الحفرة ، ونغطيهما ببعض الرمال ٠

ـ وهذه الدماء أيضا يجب أن تزال ··

كان صوت الدبابات قد اختفى ··

من السهل ازالة الأثر من على الرمال ·· بالرمال ··

وتبودلت النظرات بلا اى كلام : عظيم أن أحدا لم يرنا ··

ونفضوا الرمال عن اكفهم ، وركبوا العربة الجيب وتبعتهم العربة الأخرى ··

وعاد السكون الى الصحراء ·

« أغسطس ١٩٧٨ »

• امرأة فوق الثلج

قصة امرأة من الشمال
وثلاثة رجال من العالم الثالث

(١)

ما كان يخطر ببالى وانا اضغط على جرس هذه الشقة ، انى أدق جرس احداث قصة غريبة ومثيرة سرعان ما ستكشف لى عن نفسها ، بمجرد أن انفتح الباب واطلت « هى » بوجهها ، وقوامها ، ومن فرط الجمال ، جمال الوجه وجمال القوام ، خشيت أن اكون اخطات الشقة ، وهممت أن اسأل معتذرا ، ان كانت هذه هى شقة صديقى « فاضل » العراقى ، واذا بها تسرع باســـتقبالى مرحبة ببعض التحفظ :

ــ مستر مصطفى · المصرى · أليس كذلك ؟

هززت راسى مؤكدا بفرح ، سعيدا بكلمة « المصرى » طالعة من بين شفتيها الالمانيتين الجميلتين ·· بالانجليزية ·

ــ نعم ·· انا هو ··

طار عنها التحفظ ·· اضـــاء وجهها الجميل بالترحيب ·· واشارت بذراعها البض العارى :

ـ تفضل بالدخول . فاضل سيكون هنا بعد قليل .

دخلت . واغلقت باب الشقة .

لو أن فى الفوضى أحيانا جمال له طعمه وموسيقاه الخاصة ، فهو فى شقق المحبين الصغيرة حين تكون الحياة فى فورتها وتأججها وليست فى مرحلة ثباتها ونظامها . تذكرت أيام عزوبتى بالقاهرة . ابتسمت لمنظر منضدة الطعام الابنوسية المستديرة ، والتى تحتل جزءا من المدخل . كتب وأطباق واكواب شاى واسطوانات موسيقى، وفازة بها زهور عمرها أيام . همست لنفسى « لا وقت للنظام » . الوقت هنا .. للحب .

وتصاعدت نغمة المرح . لفت نظرى مشجب عالى ينتمى مثل المنضدة الى طراز أوروبى قديم . نصفه العلوى مغطى بكومة ضخمة من الملابس .. ملابسها وملابسه .. متدلية ومتداخلة فى بعضها . ولأن لا شىء يجسم علاقة الرجل بالمرأة مثل علاقة ملابسها بملابسه، فقد أيقنت أن هذا الجسم الرائع يختلط بجسد صديقى العراقى . تفتحت مسامى . « مرحى يا أبناء العالم الثالث . انكم تعطونى الأمل فى المستقبل » . تصاعدت النغمة المرحة ، وفرحت أنى قبلت منه هذه الدعوة .

على كنبة مريحة وثيرة نصف عمر ، اشارت لى بالجلوس . جلست . ظلت هى واقفة . كان يبدو عليها العجلة . قالت ، مواصلة ترحيبها :

ـ شاى . أم قهوة ؟

تذنيت لو اجيب مباشرة بقولى : لا شاى ولا قهوة • الأفضل أن تجلسى أنت معى حتى ياتى فاضل ، ونتكلم • وجميل انك تعرفين الانجليزية •• لكننى أمسكت • أعرف شغفى بالجمال ، لكنى أعرف ايضا كيف أكبت شغفى هذا ازاء الجمال المملوك للآخرين •

لم يكن الوجه هو الباهر وحده ، بهالة الشعر الذهبى الفاتح المنسدل على كتفيها ، بل الصدر ايضا ، بنوع خاص ، نهدان ممتلئان يكادان أن يقفزا من فتحة الثوب القصير الضيق الذى ترتديه • وفكرت كملاحظة : نادرا ما تجتمع هذه النهود مع هذه الرشـــاقة فى البلاد الأوروبية •

قلت مسرعا : الأفضل قهوة • سكر خفيف • (ثم مشيرا على رف عليه صف من الكتب) ولو سمحت لى ، القى نظرة على هذه الكتب •

قالت متحمسة : أوه بالطبع • هذا شىء جميل • لكن معظمها بالألمانية • هل تعرف الألمانية ؟

قلت معترفا : بضع مفردات قليلة مع الأسف (وبالألمانية) صباح الخير • نوم طيب • مدهش •• وبضع كلمات اخرى •

استقبلت ردى بنصف ابتسامة •• تساءلت فى نفسى :

أين النصف الآخر من الابتسامة ؟ •• فى عينيها شعاع ذاهب الى بعيد ، وشعاع آخر معى • قالت معلقة على حصيلتى المضحكة من اللغة الألمانية :

يمكنك أن تحاول (واشارت على الكتب) بينما انا اصنع لك القهوة ، واتابع الطعام على النار • فاضل سيصل كعادته يصرخ من الجوع •

واستدارت متجهة الى المطبخ • وجدتنى مشدودا لمتابعة خطوط واستدارات قوامها الطويل الرشيق من الخلف • « ليس جوع فاضل للطعام الذى تعدينه •• جوع فاضل لكل هذا الجمال الانسانى الحى •• أنت طعامه الحقيقى الرائع » •• ورأيتها تخطو الى أحد الأركان، وادارت جهاز تسجيل صغير فصعدت منه على الفور موسيقى هادئة •• ومضت الى المطبخ •

استنامت روحى للجمال • بعض الناس يمضون لكنهم يتركون أطيافهم خلفهم • بقيت فى جلستى • عزفت عن التقليب فى الكتب • الكتب تملأ الدنيا والعيون تعبت من القراءة ومن الكتابة ومن ملايين الحروف المرصوصة الجافة •• أما هذا الجمال الحى المشع •• فما أندر أن يقابله الانسان ويجد نفسه معه فجأة فى مكان واحد !

مع دقات بيانو كانت تتصاعد من اللحن وتتقافز فى فضاء الصالة ، كنت أتخيل صديقى العراقى فاضـــل مع هذه الالمانية الجميلة الشقراء ، يكونان وحدة انسانية طروبة •• هو ببشــرته القمحية •• لا فرق كبير بينهما فى لون البشـــرة ، انما الفرق الواضح بينهما فى لون الشعر • شعرها الذهبى الناعم المنسدل • وشعره الأســـود الهائش يكاد يغطى جبهته • •رائع أن يختلط الشعران وتمتزج رائحتهما وتتوحد •

وفكرت •• باسما : ربما تكون هى أطول منه قليلا •• أم أن صدره العريض ، وتربيعة جسمه هى التى تعطينى هذا التصور ؟!

ساحر ذلك التوحد الذى يصنعه الحب بين اثنين من قارتين مختلفتين ، هو من الشرق ، من بغداد ، من آسيا • وهى من الشمال ، من برلين •• من أوروبا •

لكن العالم صغير ، والأرض فى النهاية كرة تدور ، وسط ملايين الأجرام الدائرة ٠

كانت موسيقى وترية دائرة تتموج ، مع دقات بيانو تتراقص ، حين رأيتها خارجة من المطبخ ، حاملة بين يديها صينية عليها فنجالا قهوة ٠ فرحت أنهما فنجالان وليس فنجالا واحدا ٠

اذن ستجلس معى ونتكلم على مهل ٠

قالت وهى تقترب بحذر بالقهوة : ألم تجد كتابا مناسبا ؟

قلت : الحق أنى لم أتحرك من مكانى ٠٠ والمسئول هى هذه الموسيقى التى أدرتها ٠

ندت عنها نظرة خاطفة ٠ نظرة لم تستغرق أكثر من برهة أو ومضة ٠٠ أحسست بها تخترق عمق أعماقى ٠ كأنها تستكشفنى ، هل جانبنى الصواب فى كلامى ، وربما فى نظراتى ؟ داهمنى شعور بالاغتراب ٠ غير انها قالت بسرعة ، بلهجة اعتذار ، وهى تضع الصينية على المنضدة : أوه ٠ أنا آسفة ٠ لم استأذنك قبل أن أديرها ٠ لكنها موسيقى خفيفة ، من النوع الذى يستطيع الانسان أن يقرأ ويعمل معه ، دون أن تنبهه أو تعطله ٠

قلت مؤكدا : هذا صحيح ٠ وأشكرك عليها ٠ لكنها فى الحقيقة جذبت انتباهى بشدة ٠ هى فعلا موسيقى هادئة ، لكنها فى تلك اللحظة ، كان وقعها على نفسى وقع سيمفونية هائلة ٠

كانت تصب القهوة فى الفنجال ، فوجئت بالكنكة النحاسية تتوقف فى يدها لبرهة وتنظر لى ٠ فى عمق عينى ٠ نفس النظرة الخاطفة المخترقة ٠ ماذا تريد أن تعرف عنى ؟ وعلى أى نحو تتقبل كلامى ؟

وانتبهت الى أن الكنكة والفنجانين من طراز عربى ·· قلت بحماس : قهوة عربية ؟

قالت بنصف الابتسامة : اجل · فاضل علمنى اياها · أرجو أن تعجبك ·

قلت : بالتأكيد ستعجبنى ·

عاودت نفس النظـــرة الى عينى : لماذا بالتأكيد ؟! الحكم الصحيح بعد التجربة ·

قلت : أحيانا يسبق الاحساس التجربة · (وددت لو أكمــل ما فى نفسى واقول : وفى الحقيقة ، أن النظر اليك وحده ، خير من شرب ألف فنجان قهوة عربية أو المانية أو تركية ·· أو من أى جنسية) ·

تناولت فنجانى وأخذت منه رشفة على مهل : آه ·· (وعاودنى الحماس) صدق احساسى · كأنى فى القاهرة أشرب فنجان قهوة على احدى مقاهى السيدة زينب ·· واحد من أعرق وأشهر أحيائنا المصرية الشعبية ·

قالت وقد عاود وجهها نصف الابتسامة : نفس العبارة قالها لى فاضل : كأنى يا ايفا أشرب قهوة فى حى الكاظمية ·· أشهر أحيائنا الشعبية فى بغداد ·

قلت متحمسا : هذا يثبت أن هناك حقيقة اســمها « الأمة العربية » تفرز خصائص واحدة · أبناء أمة واحدة · أنا وفاضل ·

قالت بهدوء ، وهى ترشف من فنجانها : ليس المهم أن نكون أبناء أمة واحدة · أبناء البيت الواحد يختلفون · المهم أن نكون أبناء أفكار واحدة ، ومواقف واحدة · ليس على مستوى الوطن

الواحد ، بل على مستوى العالم كله ٠ العالم اصبح صغيرا جدا ٠ فاضل يتفق معى فى هذا ٠

قلت : وأنا أيضا أتفق معك ومع فاضل فى هذا (ثم باسما) ومع هذا تبقى هذه القهوة الجميلة من صنع يديك ، قهوة عربية تتذوقها كل القوميات وكل الطبقات وكل الأجناس ٠٠ هى قهوة انسانية وعالمية ٠

ـ أوه ٠٠ شكرا ٠

ونهضت فجأة واقفة ٠٠ وبدا فى عينيها بريق غريب ذاهب الى بعيد ٠٠ وقالت كمن يستجمع أفكاره بعد تشتت وشرود : يجب ألا أنسى الطعام على النار ٠ لحظات قليلة ٠٠ أستأذنك ٠

كانت رائعة فى وقفتها مثلما هى رائعة فى جلستها ٠ وقاومت النظر الى صدرها الناهد ٠ وفكرت : لا حيلة للانسان الا ينظر الى مثل هذا الجمال ٠ بل ان الانسان يدارى نفسه بالكلام وهو ينظر اليه ، ويتأمل معالمه ٠

قلت مبددا عنها وعنى الحرج : اهتم أنت بالطعام ٠ سآخذ نظرة من هذه الكتب ٠ (وابتسمت مشـــيرا على الجهاز) أنتهت الموسيقى ٠

فى تلك اللحظة ، حدث شىء مفاجىء خفق له قلبى ٠ فقد سمعت صوتا عاليا لطفل يبكى ٠ ورأيتها تعتدل فى وقفتها وتقول : أوه ٠ لقد صحا من نومه ٠ الآن موعد وجبته ٠ أستأذنك ٠

ومضت مسرعة الى حجرة عن يسارى ودخلتها ٠

هزة داخلية عنيفة غامضة أيقظتنى من خيالاتى ٠

طفل من هذا ؟

أيكون طفلها من صديقى العراقى الذى يدرس الاخراج المسرحى هنا منذ أكثر من عامين ، ولم يبق له فى هذه البلاد سوى أشهر قليلة ؟

لم يحك لى فاضل فى ذلك اللقاء السريع السعيد ، لقاء الصدفة الذى حدث بينى وبينه منذ أيام فى احدى محطات القطار ، تحت الأرض ، وكلانا ذاهب الى موعد ، لم يحك لى ولم أحك له ، الا علامات سريعة لكلينا فى هذه العاصمة الأوروبية ، مع استرجاع بعض ذكرياتنا الساطعة المبهجة ، مرة فى القاهرة ومرة فى بغداد ·
وها نحن نلتقى فى مدينة أوروبية · كلانا جاء يسعى خلف آخر صيحة للعقل الأوروبى · هو فى الاخراج المســـرحى ، وأنا ·· ككاتب وصحفى ·

ـ لابد أن نلتقى · وتقول لى وأقول لك · ليس فى المسرح أو فى الفن فقط ، بل وفى الحياة هنا ·· التجربة الانسانية بشكل عام ·

ـ هاك عنوانى · انها شقة صديقة لى (ثم قال مستدركا) أنا أيضا لى شقتى أستذكر فيها وأحضر رسالتى ·

وأوشكت لحظتها أن أقول له مازحا : أما شقتها فهى عش الغرام والرومانسية ·

لكن القطار جاء وسلمنا ·· وافترقنا على هذا الميعاد ·

كان بكاء الطفل قد توقف فور دخولها اليه ، وران على الشقة صمت عميق ·

ليس هو اذن عش غرام رومانسى · أو أن الرومانســـــية تصاعدت بهما حتى تجسدت أخيرا فى كائن حى صغير من لحم ودم ·· هو هذا الطفل الذى سمعت بكاءه منذ قليل ·· ووجدتنى أربط بين

نهديها الممتلئين ، وكونها اما • تراجع طعم الأنوثة ، وحل محله طعم الأمومة ورمزها الجليل • واستبد بى الشغف لأن أرى هذا الطفل الذى يتغذى من هذا الصدر الرائع العظيم •

غير أن المفـــاجأة الثانية التى حدثت جعلتنى أكتم شـــهقة دهشة كادت تخرج من فمى ، وبذلت جهدا جبارا كى أحتفظ بتوازنى وتماسكى • فقد رأيتها خارجة من الحجرة وهى تحمل طفلا •• أســـود •

أقول احتجت الى طاقة هائلة لكى أكتم مشـــاعر دهشـــتى واستغرابى لذلك التناقض الصارخ فى اللون •• بين بشرة الطفل وبشرة أمه •• أم انها •• ربما ليست أمه ؟!

غير أن الشك فى أمومتها البيضاء سرعان ما تبدد وأنا أراها تفتح علبة طعام محفوظ صغيرة ، ثم راحت تطعمه ، وهو جالس على ركبتيها • فى رقة وحنان • هى أمه بالتأكيد • وبالتأكيد أيضا فان صديقى العراقى فاضل ، القمحى اللون •• ليس أباه • أبوه بالقطع رجل أفريقى • أسود • زنجى • وما أكثر ما سمعت ورأيت فى هذه البلاد قصص حب عارمة بين بيض شقراوات وسود زنوج مفلفلوا الشعر موشوموا الوجوه •• قصص حب وعلاقات رأيتها تتحرك وســـط هذا المجتمع كشىء عادى وطبيعى ، مؤكدة فكرة الأخوة والتقارب بين البشر ، كأنما هى تكفير عن ذلك الشعار الهتلرى الذى انتهى بهم يوما الى الدمار والمأساة : عظمة الجنس الآرى • وألمانيا فوق الجميع •

ايفا هذه •• أهى احدى رائدات تطبيق الشعار الانسانى ، أم هى ضحيته ؟!

وبدا لى انى وجدت التفسير لنصف الابتسامة التى ترسم على شفتيها • كانت عيناى تتنقلان بين الوجهين المتناقضين والمتكاملين فى نفس الوقت على نحو ذكرنى بتراجيديات القدر •• وأنا ارى ثمة حزن هائل ، لكنه عاجز يطل من عينى الطفل الواسعتين فى وجهه الشاحب رغم انه كان يتناول طعامه ، بيد أمه • شىء غير الطعام ، وغير الأم ، ضائع منه : الأب !

من هو أبوه • وأين هو الآن ؟ تحركت فى نفسى رغبة لاحتضانه اعوضه عن هذا الافتقاد • توجهت اليه بابتسامة وضعت فيها كل رجـــائى ، الا يفزع منى أنا الغـــريب • أن يأنس لى • وكم كانت سعادتى حين وجدت نظراته تثبت على ابتسامتى وراح يتفرسنى فى هدوء • كأنما يسأل نفسه : من هذا ؟

أيمكن أن يكون أبى •• أو طريقا لأبى ؟

أرسلت له قبلة فى الهواء ، تقبلها بسكينة ، مثبتا عينيه لايزال على ••

قلت لها : سوف يصبح صديقى بعد قليل •• عندى تجربة طويلة فى اكتساب صداقة الأطفال •

ـ أوه • سيكون هذا شيئا طيبا •

قالتها وندت عنها تنهيدة لمست قلبى • أيقنت أن فى القصة بعد خفى محزن • خرج السؤال منى بلا وعى •

ـ أين أبوه ؟

ـ فى بلاده •• ولن يعود ••

ورغم أنها قالتها ببساطة شديدة ودون أن تنظر لى ، الا أن دقة

هائلة عنيفة مثل تلك الدقات التى تصاحب وقوع الأحداث الكبرى على خشبة المسرح حدثت بداخلى وتفجرت آلاف المشاعر ، ولم أعرف ماذا أقول على الفور · ثمة احساس بالندم ملأ نفسى · انى أقحمت نفسى عليها وجعلتها تكشف لى أنا الغريب عن أسرار عالم لم أدخل فيه الا منذ دقائق ·

غير انى سرعان ما تخلصت من هذا الاحساس حين رأيت وجهها لا يحمل ضيقا ، وانها لم تبح بسر كان من الواجب أن تخفيه ·· فتلك حياتها التى تعيشها بوضوح أمام كل الناس : أجل ، هذا الطفل الأسود ابنى · من رحمى · أيها الناس · وأنا أمه البيضـــاء ·· الشقراء ·

واذ لمحت فى تلك اللحظة عربة أطفال صغيرة بعجلتين فى أحد الأركان ، ارتسم لى بالخيال منظرها وهى تدفع بطفلها الأسود أمامها فى الشوارع على مهل ·

وفكرت : ماذا نقول نحن فى بلادنا لو رأينا هذا المنظر ؟

وعاودنى طعم التراجيديات اليونانية ، حيث الصراع ضد ما يحدث هو صراع ضد حكم الأقدار ومشيئة الآلهة ·

كانت تجلس أمامى على المقعد المقابل والصغير على ركبتيها ·· تطعمه فى هدوء ، مشجعة اياه ببعض كلمات المانية ، وهو ينظر اليها فى صمت حزين · تفجرت كل طاقات الحب عندى نحوه · تحديث نفسى أن سيأنس لى · رحت أصطنع حركات وأصواتا من تلك التى تثير فضول الأطفال ودهشتهم · فجأة ابتسم لى ·

صحت فرحا عليها : أرأيته وهو يبتسم لى ؟ لقد أصـــبحنا صديقين ·

اشرق وجهها بالسعادة وقالت :

ــ هذا شيء جميل (ثم بصوت سارح ٠٠ متنهدة) أنه في مزاج غير طيب منذ أيام ٠

تحركت في نفسي جرثومة الفضول من جديد ٠ أن أعرف أكثر أبعاد القصة أو المأساة ٠ غير اني فضلت أن أحرك في نفسها عوامل البهجة والسعادة باسعاد الطفل ، وليس بتقليب الأحزان ٠ وأحببت نفسي حين رأيت الطفل يستجيب لي ويعاود الابتسام ٠٠ ثم حدث الانتصار الأعظم حين ندت عنه ضحكة ذات رنين اهتز لها قلبي بالطرب ٠ لست وحدي ، فقد رأيتها تبتهج ، وضمته الى صدرها بسعادة وحنان ٠

قلت لنفسي سعيدا ومنتشيا : أن اضحاك طفل حزين ، أصعب وأعظم من فتح جيش لمدينة بالسلاح ٠

ونهضت فجأة واقفة وهو بين ذراعيها وخاطبته بشكل هادىء حاسم بما يعني أنه ما دام قد تناول طعامه ، فعليه أن يعطيها الفرصة لكي تعد الغداء ٠ وددت لو أقول لها : هاته ٠ أحمله عنك ، واهتم أنت بالطعام ٠

لكنها اســـرعت به ودخلت الحجرة ، ثم خرجت بعد لحظات بدونه ٠ واذ لم يصدر عنه أي صوت ، تصورته نائما على سريره في صمت وامتثال ٠٠ راضيا بقدره ٠ وفكرت أن أدخل اليه وأؤانسه ، بينما هي تنتهي من تجهيز الغذاء ٠ غير اني قدرت أن هذا قد لايتفق مع خطتها في تربيته والتعامل معه ٠ ان عمره لا يتجاوز العام الواحد الا بأشهر قليلة ٠ لم يصـل بعد الى الســـن التي تذهب به الى الـ « الكندر جارتن » أو روضة الأطفال ، ولابد انها تتركه وحيدا وتخرج ٠ وانقبض قلبي لمنظر طفل صغير وحيد في شقة ومقفول

عليه · وأين ؟ فى بلاد أجمل من رأيت فيها هم الأطفال ، وأعظم ما فيها الأطفال · غير أنى تصورت بعض طيور وحيوانات وهى تترك أفراخها وأولادها الصغار ··· وحدهم ، وتنطلق بحثا عن الطعام ·

أجل ·· مثل أطفال الغابة يمكن أن ينمو هذا الطفل ويعيش · وقانون الحياة الأكبر هو التكيف والتأقلم !

قالت وهى تقطع المسافة الصغيرة بين حجرة الطفل والمطبخ :

ـ تستطيع لو أحببت أن تخرج الى الشرفة وترى المنظر · ان جزءا من البحيرة يبدو منها ·

صحت فرحا بدهشة : بحيرة · هذا شىء رائع · أن يسكن الانسان قريبا من بحيرة · لم يقل لى فاضل · لم يكن هناك وقت ليقول لى ·

واذ رأت حماسى « أسرعت وفتحت بابا جانبيا وأشارت لى بالدخول فدخلت · واذا بمسطح أبيض يترامى أمامى ·

صحت مأخوذا باللون الأبيض : انها متجمدة · أول مرة أرى فيها بحيرة متجمدة ·

أسعدتها سعادتى ·قالت متبسطة : بماذا توحى بحيرة متجمدة لكاتب ؟

أحببت منها السؤال ·

قلت : توحى برواية رائعة أحداثها غير معروفة بعد ، (وضحكت) لكن الرغبة التى تتملكنى الآن حقيقة ويوحى مدها ، ان أذهب اليها وأمشى فوقها · أن يسير الانسان فوق أرض من الثلج · تجربة ·

قالت منبهة : آه ·· ولكن يجب أن تأخذ حذرك · ان السطح

وحده هو المتجمد . أما الأعماق فهى مليئة بالمياه . وفى بعض المناطق لا يغطى السطح سوى قشرة رقيقة هشة من الثلج ، تخدع السائر فيسقط فى مياهها العميقة !

ورأيتنى أسـقط فجأة فى بطن البحيرة . فى أحد المواقع الخادعة تغرقنى المياه الثلجية . انتابتنى قشعريرة وقلت ضاحكا : فلتكن التجربة بالخيال فقط .

ورأيت فجأة مجموعة من البط تمشى فوق الثلج بخطى هادئة وئيدة وعلى نحو طبيعى . استثارنى المنظر .

- أترين هذا البط السائر فوق الثلج ؟ . منظر غريب حقا !

- ما وجه الغرابة ؟

- هذه القدرة على الاحتمال .. واضح أنه لا يعانى من برودة الثلج .

قالت ببساطة :

- كل الكائنات تتكيف مع بيئتها . وظروفها .

- هذا صحيح . ولكن ، ما الذى يجبر هذا البط على العيش فى البحيرة فى فصل الشتاء . يستطيع أن يخرج ويعيش على البر الى أن يأتى الصيف والدفء فيعود الى البحيرة .

قالت : لا أحد يجبره . أنه يجد حياته فى البحيرة . سواء فى الشتاء أو الصيف . ابن مخلص للبحيرة .

وبدا لى كلامها خليطا من الواقع والرمز . وان ما ينطبق على بط البحيرة قد ينطبق عليها هى وابنها . ورأيت نظراتها تشرد لحظات

الى بعيد ثم قالت متنبهة : أوه · الطعام · سرحت معك · أستاذنك اسرح أنت مع البحيرة وبطها ·

ومضت مسرعة ·

كانت ثمة نشوة هاذأة تسرى فى كيانى · أجل : بم توحى بحيرة متجمدة لكاتب ؟

توحى برواية عظيمة لم تعرف أحداثها بعد ·· أجل يا ايفا ·· أنت ·· بالطفل الأسود ·· بالأب الذى رحل ·· بالصديق الذى لم يصل بعد ·· وما أشبهك بالبحيرة نفسها ·· هذا الزخم وهذا التجمد وهذا الغموض ·

كانت البحيرة ممتدة أمامى حتى الأفق · والسحب الرمادية تملأ السماء ، ومساحات الثلج المختلط بياضها برمادية الغيوم ، والبط السائر بتؤدة فوقها · كنت مازلت مدهوشا بايقاع خطى البط ·· وهو يسير فى مملكته الثلجية ، وعاودتنى كلماتها : كل الكائنات تتكيف مع بيئتها · وهى الأخرى ستتكيف مع مأساتها ، هى وطفلها ·· هذا هو قدرها !

وتصورتها سائرة على الثلج بين البط حاملة ابنها · وتذكرت المناطق الخادعة وقد تسقط فيها · خذى حذرك يا ايفا · أرجوك ·· لو فعلت هذا ·

وهبت موجة هواء باردة لاسعة ارتعد معها كل جسدى ·· أسرعت وقفلت باب الشرفة ودخلت · وعلى نفس المقعد جلست ·· قدر سعيد هذا الذى ألقانى بفاضل فى هذه المدينة وجعلنى أتعرف على هذا العالم المثير · لماذا غبت هكذا يا فاضل ؟

وانتبهت على صوت صرير مفتاح يدور فى باب الشقة · وفى

نفس اللحظة رأيتها تخرج مسرعة من المطبخ قائلة مهللة : فاضـــل وصل ٠٠

كان كيانها كله يتشعع بالسعادة على نحو طفولى ٠ انتقلت السعادة الى روحى ٠ وتخيلت ثلوج البحيرة، تتفكك وتذوب ، والبط يسبح سعيدا فى مياهها ويصفق بأجنحته ٠

ليست السعادة فقط فى أن نحب ٠ السعادة أيضا أن نرى الآخرين يحبون ٠٠ بكل هذه الحرارة وهذا الصدق ٠

ودخل فاضل ٠

(٢)

كانت جلستى فى مواجهة الباب ٠

ورأيتهما وهما يتعانقان بلهفة ، كأنما يلوذان ببعضهما ٠ كان آسيوى اللون ، عريض الفكين ، متين البنيان ، أسود الشعر هائشه كرجل الغابات ٠ ومرت بخاطرى فكرة الصيد والصـــيات ، لكنى أبعدتها بسرعة من ذهنى وأنا أرى شعره الأسود يختلط بشعرها الذهبى ويتضامان ثم يفترقان ٠٠ ثم يتضامان ٠٠ بحنين ٠٠ وفكرت باسما : انهما بنفس الطول ٠

وما كاد يرانى حتى صاح مندفعا على : آه مصطفى ٠ بالحضن باصديقى المصرى العزيز ٠

وكان وهو يخبطنى بكفه العريضة على ظهرى مرحبا ، ينظر اليها ويقول :

هؤلاء المصريون لهم طعمهم الخاص ٠ ومع أنهم أرض المآسى ، الا أنهم مصدروا النكات والضحكات للمنطقة العربية كلها ٠

قلت ضاحكا مقاوما خبطاته : ليس الضحك عندنا الا نوعا من الدفاع عن النفس · لولا ذلك لمتنا من زمن (ثم مستدركا) ومع هذا ، فاسمح لى أن ابدى تحفظا · مصر ليست وحدها هى أرض المأساة فى المنطقة · هل نسيت ·· كربلاء ·· يا ابن العراق ؟

وأخلانى من ذراعيه ·· صائحا : آه · لا تذكرنى · بالكرب وبالبلاء · قل لنا آخر نكتة من مصر · ستغرلها انا ونحن نأكل · (وخلع معطفه والقى به) ايفا ·· أكاد أسقط من الجوع · وأنت ايضا لابد جائع ·· آه ·· لم أعرفكما ببعضكما ·

قلت مسرعا : لقد قدمت لى فنجانا من القهوة لا ينسى ·· انها سيدة نبيلة وكريمة ·· وجميلة أيضا ·

ـ آه ·· الم اقل لك انه مصرى ؟ ها هو يغازلك أمامى · وأنا سعيد بذلك · (واحتواها برقة ·· باحدى ذراعيه ·· ناظرا لى) ايفا ··من لا يستطيع الا يحبها ؟ (وضمها بقوة) ايفا · لو لم تكن هى ، لكنت مت هنا من زمن (وقبلها بين حاجبيها ، وهى واقفة بين ذراعيه هاجعة مستسلمة) ·

ساحر انت يا فاضل يا ابن العراق ·· يا ابن أرض الشعر والشعراء ·· وواصل حماسه وحيويته : هيا أعيدى لنا الحياة بطعامك يا ايفا ·· واهتمى باطعام هذا الكاتب المصرى · أنه يعمل باحدى المجلات المصرية الواسعة الانتشار ويتميز بأسلوب انسانى ، يستحق أن يغذى من اجله ·

قالت وقد تفتح وجهها : ليس غريبا اذن أنه جعل البرت يضحك ·· انه حقا يملك قدرة سحرية مع الأطفال ·

مع شعورى بالامتنان لهذا الثناء ، لاحظت اضطرابة معتمة فى عينيه سرعان ما تجاوزها وقال بحماس : اذن نستبقيك هنا يامصطفى ، وتكون رسالتك فى الحياة اسعاد طفل واضحاكه ٠

قلت جادا : أناشخصيا مستعد ٠ البرت طفل رقيق ولطيف ٠ يستحق ٠

قالت بانفعال : أوه ٠ كم أنت طيب القلب ٠ أشكرك ٠

وجذبت من صدرها نفسا تحول الى تنهيدة ، وشردت عيناها الى بعيد ٠٠ عاودتنى نظرات الطفل الواسعة الحزينة ٠٠ مهما كانت كلماتى طيبة ، فقد حركت فى نفسها مأساة راقدة ٠ طفل أسود فى بلاد بيضاء ، بلا أب ٠ وتذكرت منظر البحيرة المتجمدة والبط السائر فوقها فى عز الشتاء ٠

قالت بصوت سارح : سأجهز لكما الغذاء ٠ عن اذنكما ٠

وتركتنا ومضت بقوامها الشامخ فى اتجاه المطبخ ٠

وفكرت : قد تبكى وهى وحدها فى المطبخ ٠

قال وهو يتبعها بعينيه : عظيمة هذه الانسانة ٠ أنا لم أحك لك قصتنا ٠ سوف أحكيها لك ٠ بعد أن نأكل ، نخرج ونجلس فى أى مكان ٠ وأحكى لك ٠ (وأشار لى بالجلوس) استرح ٠ دقيقة وسأعود اليك ٠

ولحق بها فى المطبخ ٠ وتصورته يمحو عن وجهها وروحها الآسى بقبلاته ٠ وفكرت : رجل من أفريقيا يقدم لها الحزن ، وآخر من العراق ، من آسيا ، يمحو هذا الحزن عنها ٠ أى قدر عجيب هذا الذى ربط بين هذه الفتاة وبين اثنين من أبناء العالم الثالث ٠ وانتابتنى فكرة درامية ، أن دمها لم يعد قابلا أن يمتزج بدم رجل

ابيض ، من بنى جنسها • سيطر عليها دم المناطق الحارة • حسن انهم لم يعودا يصفوننا بالعالم المتخلف •• بل بالعالم النامى •• وداخلنى نوع من الفخار !!

وتناهى الى صوته آتيا من المطبخ صائحا بنشـــوة وتلذذ : يا الهى •• رائع • مذاق طعامك رائع • أبشر يامصطفى • أبشر •

وددت لو أرد عليه مداعبا : بل هى نفسها طعامك الالهى أيها الجن • وانت الآن ، أنا واثق ، تتذوق طعم شعرها وخدها وعنقها وليس طعم الأكل •• المحبون يحلو لهم اختلاس القبلات والمداعبات بعيدا عن عيون ضيوفهم • أرنى يا فاضل قدرتك على اذابة الآسى من وجه ايفا • أذب الثلوج واجعل بط البحيرة يسبح فى سعادة !

وسرعان ما ثبتت لى قدرته بالفعل ، فقد رأيتهما يخرجان معا ، حاملين أطباق الطعام • ونظراتها عاودها الرضا والابتســـام ، ووجنتاها ، بفعل حرارة المطبخ (أم بحرارة الغرام ؟) بلون وردى ضارب •

واستعادت الشقة طعمها الفوضوى الحلو المرح ، ونحن نخلى المنضدة مما عليها ، ونضع الأطباق وزجاجات البيرة والأكواب ، وهى تنسق المائدة بيضع لمسات • وبدت الزهور التى رأيتها لحظة دخولى قديمة ، بدت جديدة فى زهريتها وســـط الطعام • كانت جلســـتها قبالتى ، وفكرت وانا اتامل تورد خديها ، وشـــعرها المسترسل : أنها زهرة بشرية رائعة • زهرة على ضفاف بحيرة ، تتجمد فى الشتاء وتتفتح فى الصيف وتزدهر •

وتذكرت الطفل • ليته يظل نائما لتبقى ايفا جالسة معنا •• وكان عند حسن ظنى • فلم يصدر عنه أى صوت • وسرعان ما نسيته

تماما وفاضل يحدثنى بحماس عن رسالته المسرحية التى يعدها وسيتقدم بها قريبا للمناقشة • وكان أكثر ما جذبنى فيها :

فصل بعنوان : الايهام المسرحى •• والغاء الحائط الرابع •

وفى البدء كنا نتكلم انا وفاضل بالعربية • أما ايفا فكانت تراقب تعبيرات وجهينا ، وهى تاكل على مهل ، تحاول أن تستشف معنى ما نقول من مجرد أصواتنا • ثم اذا بها تبتعد بظراتها ، سارحة عنا

قلت : فلنتكم الانجليزية • حبذا لو شاركتنا ايفا •

قالت بحماس : كنت أود أن أقول هذا • ما دمنا نحن الثلاثة نملك لغة مشتركة ، فلماذا لا نستعملها !

وبدأنا نتكلم بالانجليزية •

مع ترديد كلمات : الايهام المسرحى •• الغاء الستار •• هدم الحائط الرابع ، داخلنى احساس عميق بأن هذه الفكرة النظرية ، تجد مجالا لتطبيقها على حياتنا العملية •

قلت متحمسا : اسمحوا لى أن أعبر لكما عن وجهة نظرى • اننى أرى أن عملية الايهام فى المسرح هى جزء من المتعة • جزء أساسى فى صميم عملية الخلق الفنى • أننى لا أتحمس كثيرا لالغاء الستار ، ومزج الصالة بخشبة المسرح ، وخلط الممثل بالمتفرج • ذلك سلب المسرح أجمل ما فيه : خصوصيته وتفرده واستقلاليته •

اننا لو ضيعنا الايهام السحرى من الفن •• فماذا سيبقى لنا غير الواقع الموجود والمكرر بلا فن • أنا شخصيا من أنصار وجود ستار مسدل لكى أرفعه قبل العرض •• من أنصار دقات الجونج

الثلاث معلنة من خلف الستار بدء اللعبة • ويبدأ المخفى فى الانكشاف •

الاستخفاء هو ورح الفن العظيم •

قالت ايفا : ربما يكون هذا صحيحا ومناسبا للمسرح فى بلادكم • فان فكرة الستار كرمز للاخفاء مازلتم تحتاجونها فى بلادكم •• أما نحن ، هنا ، فنكره الستائر • ليس فقط لأن سماءنا مليئة بالغيوم • بل أيضا لأن كل الأشياء انكشفت وتعرت •

المسرح العظيم هو الذى يتعامل مع المتفرج بلا مقدمات من ستاس أو حائط رابع • هو الذى يبدأ من أول لحظة بالغاء هذه المسافة التى تفصل بين الممثلين والجمهور •

كانت تتكلم بحماس • واستثارنى ربطها للمسرح بالحياة وبالأنظمة • لقيت الفكرة هوى فى نفسى : أجل • نحن مازلنا بلاد الاخفاء • أما هم « فكل الأشياء انكشفت وتعرت » جملتها التى قالتها بقوة وبساطة • والتى يكمن فيها ــ ربما ــ تفسير مواجهتها للعالم بطفلها الأسود • ولكن ••

هل حقا كل الأشياء تعرت يا ايفا ؟ أنا شخصيا أحس أن بينى وبينك ألف ستار • فهل يأتى الوقت وترفعين هذه الأستار ؟

قلت : واضح أنك تحبين المسرح ••

ابتسمت وقالت : وليست أوهامه (ثم مؤكدة) المسرح فن عظيم •

قلت : هذا من حظك يا فاضل •

قال : هل تعرف أن ايفا تحضر رسالة فى الاقتصاد السياسى •

بوغت بما قال : الاقتصاد السياسى ؟ انه نقيض للمسرح والفن بشكل عام •

قالت ببساطة : وفيما التناقض ؟ دراسة الاقتصاد تزيد من قدرة الانسان على فهم الفن العظيم · والعكس صحيح · جوته كان شاعرا عظيما ، وعالما أنثروبولوجيا كبيرا فى نفس الوقت ·

ـ وتحبين جوتة أيضا ·· هذا عظيم (واندفعت بحماس) ما رأيك لو أجرى معك حوارا عاما ·· شاملا ·· فى الفن وفى الاقتصاد وفى الحياة وأنشره فى مجلتى ·· نموذجا للمرأة الألمانية الجديدة ·

قالت : ولم لا ·· فى أى وقت تريد ·· تستطيع أن تتفق مع فاضل ·

قال فاضل ·· مسرعا : سنتفق على ميعاد · سنتفق ·

الا أن نظرة خاطفة من عينيه ، جعلتنى أحس أنه قليل الحماس لحدوث هذا · ربما هو لا يريد للستائر أن ترفع بينى وبينها الى هذا الحد ، وأنا لا أريد لمشاعره أى ازعاج ·

ـ فلنعد الى موضوعنا الأصلى ·· رسالتك المسرحية ، انها هى الأخرى تستحق موضوعا فى مجلتى ·

عاود وجهه الحماس والتفتح ·

قالت ايفا : عموما ، ان الجيد فى دراسة فاضل ، أنها تعرض مختلف النظريات ، ما هو ضدها ، وما هو معها · لكن أحسن ما فيها ·· خاتمتها : ان المسرح الأب ·· المسرح الاغريقى العظيم ، نشأ وعاش فى العراء ·· فى الهواء الطلق ·· بلا ستائر

صحت بحماس : اذن فلتسقط الستائر · (ورفعت يدى الى أعلى بكوب البيرة) حتى فى بلادنا المشمسة ، تلك التى لا تعرف الغيوم ولا البحيرات المتجمدة ، تسقط الستائر ·

للحظة بدت عليهما الدهشة لمنظرى ، غير انهما سرعان ما ابتسما فى رضا وسعادة ، ورفع كل منهما كوبه الى اعلى ٠٠ وصحنا معا فى صوت واحد : تسقط الستائر ٠٠ تسقط الستائر ٠

فى تلك اللحظة ارتفع صوت الطفل فجاة بالبكاء ٠ رعدة شملت كل كيانى ٠ ورأيت الاثنين ٠٠ ايفا وفاضل ٠٠ ينهضان فجاة من جلستهما ليذهبا اليه ٠

قال لها : ابق أنت يا ايفا ٠

قالت بحسم : لا ٠٠ لا ٠٠ ابق انت مع صديقك ٠

وجرت مسرعة الى حجرة الطفل ٠ وعاود الجلوس ٠

حل علينا الصمت لحظة ٠ كنت أفكر : غريب الا يرتفع صوت الطفل الا ونحن نهتف بسقوط الستائر ٠ كأنه يريد ان يشـــاركنا الهتاف !

قال فاضل ٠٠ سارحا : أنا لم أحك لك عن الطفل ٠ سوف أحكى لك ٠٠ بعد أن نكمل طعامنا ، سنخرج على الفور وأحكى لك ٠

قلت : انا شخصيا شبعت ٠

قال ناهضا : وأنا ايضا ٠ فلنستعد ٠ (واتجه بخطواته الى حجرة الطفل) لحظة أرى فيها البرت واطمئن عليه ٠ ثم نخرج على الفور ٠

(٣)

في صالة واسعة ، منخفضة السقف ، مليئة بظلال أضواء خافتة قال انها « نادى المسرحيين » ، جلسنا وأمامنا كأسان من الكونياك الألمانى طلبهما بمجرد دخوله • جرع كأســـه الأول مرة واحدة ، ثم طلب آخر • كان المكان أقرب الى العتمة حتى أنى لم أتبين ملامح الجالسين فيه • قلت مداعبا ومدربا عينى على درجة الضوء أو العتمة : هذا تأكيد لنظرية الايهام المسرحى • أعتقد أن ايفا لا تحب الجلوس طويلا فى مثل هذا المكان • انها ضد الاستخفاء وضد الغموض وضد الستائر •

قال وقد لمعت عيناه فى العتمة : هو ذاك • حقيقة يا مصطفى • انها لا تتحمس للمجىء هنا لكثيرا • لو أردت أن أسميها اسما آخر لاسميتها : ابنة النور • فقوتها فى الصدق ، وفى المباشرة •

قلت : ربما اكتسبت ذلك من حياتها بجوار بحيرة : الامتداد •• والاتساع •• ولا حجب ولا ستائر • مازلت أذكر منظرها وهى رافعة كوبها وتهتف معنا ، تسقط الستائر • هذا مكمن الدراما فى شخصيتها •

ــ أى دراما ؟ (وشرب جرعة كبيرة من كأسه) •

ــ المفروض أن من فى وضـــــعها ، يميل الى الانزواء والى التخفى • لكنها تبدو متحدية •• مجابهة •• كانت تبدو لى وهى تهتف معنا بسقوط الستائر • انها تقول للعالم : نعم أيها الناس • هذا الطفل الأسود ابنى •• من رحمى •• وأنا فخورة به ••

هات وأحك لى عن هذا الطفل وعن أبيه وعن قصتك معها كما وعدت •

قال وهو يجرع بقية كأسه الثانى ، ويبحث بعينيه عن الساقى ليطلب كأسه الثالث : أجل . سأحكى لك . غريبة هى الحياة يا أخى ، حين يجد المخرج المسرحى نفسه فجأة ممثلا فى مسرحية من تأليف الحياة نفسها . الحياة هى المؤلفة العظمى . ليس عليك كمؤلف أو كمخرج ، الا أن تتفرج على الأحداث فى مواقع الأحداث ، ثم تعيد صياغتها على نحو فنى . سأحكى لك موقفا واحدا من قصتنا . يعطيك القصة كلها .(ونادى على كأس ثالثة)

— فى يوم من الأيام ، ذهبت اليها فى شقتها كالعادة بعد الظهر مثلما رأيت اليوم . فوجئت بها تقول لى : لا أريدك أن تبيت معى هنا هذه الليلة !

قلت لها : لماذا ؟

قالت : لأن جوليوس أبا الطفل سيأتى الليلة . وصلتنى منه برقية بذلك .

كأن كتلة ثلج هائلة سقطت على رأسى . أكان كل ما بيننا وهم منى وخداع منها ؟ لو كنت تركت الأمر فى تلك اللحظة لمشاعرى لامسكتها من رقبتها وخنقتها ، وأثأر لكرامتى . لكننى أمسكت نفسى بقوة . انها تصنع حياتها بالصدق من أول لحظة تعرفت فيها عليها . لم تكذب أبدا على فى شىء . لم تقل لى يوما أن أبا الطفل انتهى من حياتها تماما . كان جرحها العميق الذى لم أشأ أن أضغط عليه ، آملا أن يلتئم بالتدريج وعلى مهل .. ولكن هاهو الجرح يبدو غير قابل للشفاء .. والرجل الأول ، أبو الطفل ، يعود فجأة من أعماق أفريقيا ، ليرمينى خارج حياتها .

وواصلت كلامها بهدوء .. بصراحتها الرهيبة : أريد أن أكون أنا وهو فقط .. ومعنا ابننا .. وميتام البرت .. وسنبقى معا طوال الليل .. وحدنا . لو وجدتنى مازلت أحبه ، سأقول لك . أنت تصدقنى . سأقول لك .

خرجت يومها هائما على وجهى لا أدرى الى أين أذهب • فكرت أن أرمى نفسى فى البحيرة •• أستلقى بظهـــرى على ألواحهـــا الثلجية وأتخشب من الألم وأموت • قضيت ليلة سوداء رغم أن الثلج كان يتساقط والعالم كله ناصع البياض •• لماذا تركتنى أحبها وفى قلبها يسكن رجل آخر ؟

فى ذلك اليوم كرهت كل شىء •• كرهتها •• وكرهت نفسى • وفكرت أن أستبدل دراستى عن أوهام المسرح بدراسة أخـــرى من أوهام الحب •

كنت أصرخ صرخات يمتصها الثلج المتساقط بطول الليل •

فى اليوم التالى •• فى نفس الموعـــد الذى كنت أذهـــب فيه اليها فى بيتها بعد الظهر ، فوجئت بها تفتح باب شقتى وتدخل وهى تقول جملتها الوحيدة العظيمة : فاضل • أنت حبيبى •

كنت أنظر اليها وقلبى يرتعش من السعادة • واندفعت نحوى وراحت تغمغم ورأسها على صدرى •

ــ الآ •• أيقنت أنه خرج من نفسى •• لم استطع أن تلمس أصابعه جسمى • لقد رحل مع الفجر •

عند هذه النقطة توقف •• كأنما انتهى من مشهد كامل ، ومضى ينظر لى ليرى ويسمع أثره على • وكنت طوال ما هو يحكى وخيالى هناك •• فى شقة ايفا •• بجوار البحيرة •• أحاول أن أتخيل تفاصيل ما حدث • لكن نظراته أوقفت خيالى •• كان يطل منهما بريق واضح محدد المعنى : الاحساس بالنصر وبالتفوق • وكان قد شرب كثيرا ، وها هى الأعماق الحقيقية تبدأ فى الظهور •• أعرف جيدا هذا الشعور • حين ينتصر الرجل منا على رجل آخر دون أن

يلتحما فى قتال ، حين تؤثرنا امرأة رائعة الجمال والشخصية على غيرنا ٠

وفكرت أن أهنئه ـ مجاملا ـ على انتصاره ٠ غير أننى لم أستطع ٠ لكنت متأثرا فى نفس الوقت بقصة الرجل الأفريقى الأسود وهو يرحل حزينا ٠٠ مهزوما ٠٠ مع الفجر ٠

وأوشكت أن أفجر معه القضية كما أراها : أقول له : لقد فتحت لك قلبى فأرسلت اليه عاصفة بددت أمنى وسكينتى ٠٠ وحزنى أيضا ٠ ان المسألة ليست مسألة انتصارك فقط ياصديقى العراقى ٠ أنها أيضا هزيمة لرجل آخر أفريقى ٠ وأنا مصرى ٠ والمصرى عربى وأفريقى ٠ لئن كان جزء منى أنتصر فى هذا الصراع ٠ ٠فان جزءا آخر منى انكسر وانهزم ٠٠ وكلاكما عزيز على قلبى ٠٠ ثم ان القصة كما هو واضح تحتوى على مشاهد وفصول أخرى ٠٠ فهاتها لى من الأول ٠ (وعاودنى وجه ايفا والطفل وبط البحيرة المتجمدة) بل ان القصة تحمل فى أحشائها بذور فصل أو فصول جديدة ومثيرة على ما يبدو ٠

غير أنه كان قد أفرط فى الشراب ولم يعد قادرا على التركيز ٠

وجاء بعض الألمان والألمانيات ٠٠ ألقوا عليه التحية ، فنهض مرحبا ودعاهم على الجلوس فجلسوا معنا ٠

أنتهى تماما أى أمل فى ان يواصل الحكاية ٠

لابأس ٠٠ فالأيام بيننا ٠٠ وتسقط كل الستائر ٠

(٤)

افترقنا فى تلك الليلة على ميعاد ، وكان هو الذى افترح أن يكون لقاؤنا يوم الأحد القادم مباشرة ، قائلا بحماس : تأتينا فى شقة ايفا ·· فى الصباح · لا تتأخر بقدر الامكان · يوم أجازة ، نقضيه معا طول النهار ·

وقد سعدت بالاقتراح · وتصورت يوما بأكمله مع ايفا ، فى شقتها المطلة على البحيرة المتجمدة ·· بكل ايحاءاتها ·· وقد ننطلق أيضا الى الخارج · الى أحد الميادين أو احدى الحدائق ·· وايفا معنا ·· والطفل أيضا · وظل رجل افريقى رحل مع الفجر يتبعنا ·· وتتوالى مشاهد القصة ·

وتفجرت فى نفسى نشوة مقترنة برؤى غامضة رائعة ، هى خليط من النغم والصراخ ·· رؤى الخلق الفنى !

كنت أستعجل مرور الأيام ليأتى يوم الاحد هذا ، وأخليت نفسى فيه من أى ارتباط أو التزام · غير أنى فوجئت يوم السبت السابق عليه بفاضل يطلبنى فى التليفون ويعتذر لى عن الميعاد ·

امتلأت بالاحباط · وأوشكت أن أعبر له عن ضيقى ، غير أن صوته كان مرهقا حتى خشيت أن يكون مريضا · قال انه مشغول لشوشة رأسه ، وأنه يحارب فى أكثر من جبهة فى وقت واحد ·· وتراءى لى لحظتها وجه ايفا بالطفل ، فسألته : أى جبهات ؟!

قال : سأحكى لك عندما نتقابل · أننى أكلمك من الشارع ، وخارج الكابينة أناس كثيرون ينتظرون دورهم فى الكلام · سأتصل بك خلال أيام ·

لكن الأيام مرت ، والاسابيع أيضا ، ولم يتكلم · وخلال فترة الصمت هذه فكرت أنه ربما يكون مريضا ومن الواجب أن أذهب اليه

في بيت ايفا وأطمئن عليه ، لكنى وجدتنى أفكر : وحتى لو كان مريضا ، ألم يكن من الواجب عليه أن يطلب من ايفا أن تتصل بى وتعطينى تفسيرا لهذا الصمت ؟ انه لم يفعل اكثر من أنه ألغى زيارتى لهما • أجل ، وربما هو يقصد هذا الصمت • ربما أحس بالندم ، انه فى لحظة شراب وانفعال مضطربة ، وبأثر من لقاء الصدفة فى بلاد الغربة ، حكى لى عن أشياء لم يكن له أن يحكيها لى •• وأنه قرر ابقائى خارج دائرة حياته مع ايفا •• ألا يلغى معى الحائط الرابع ، ولا تسقط الستائر أكثر من ذلك بينى وبينها •

وغزانى احساس بالضيق وبالاكتئاب ، ولأنى أكره اقتحام حياة الآخرين ، كما أكره الاستجداء فى العواطف •• وفى الفن ايضا ، فقد قررت ايقاف سيطرة قصة ايفا والطفل والبحيرة على ذهنى • وقلت لنفسى : اننى لم آت الى هذه البلاد لأتصيد قصصا أكتبها • أنا جئت لكى يكون لى أنا نفسى قصصى وتجاربى الحية المعاشة • وانطلقت فى حياتى ، وتراجع بالتدريج عالم فاضل وايفا وبطفلها وبط البحيرة المتجمدة من خيالى !

فى تلك الأيام ، كان الشتاء يتراجع ، والربيع يتقدم ويمس العالم بعصاه السحرية • وبدأت الثلوج تذوب والأشجار العارية والجافة تورق وتكتسى بالخضرة وبالزهور ، والسناجب خرجت من جحورها وراحت تتقافز بين فروع الشجر فرحة بالدفء وبالضوء - وبقدر ما كان ذلك الشتاء قاسيا وطويلا كان الربيع يبدو لى أقرب ما يكون الى انفجار البركان • بركان الحياة التى انكمشت وتداخلت فى بعضها كنوع من الدفاع عن النفس ضد الجفاف وضد الموت ، ثم فجأة اذا بالطاقة الشتوية الثلجية الكامنة تنفجر مجسدة فى ملايين الملايين من الأوراق والازهار بمختلف الألوان والأشكال •

وتفجرت فى نفسى أنا الآخر طاقة الحياة • كنت مشـــدوها ومنتشيا وانا أتابع على الطبيعة سحر معجزة بعث الحياة • وتراءت

لى الأشجار كارامل خرجت من حزنها واكتست بثياب الفرح الجميلة ·· وفكرت مشتاقا :

ترى ·· كيف منظر البحيرة الآن من شرفة ايفا ، وما حال البط فيها ؟ لابد ان موسم السباحة والانطلاق بدأ · وانتابنى حنين دافق لأن أرى المنظر ، وايفا واقفة معي ، تحمل طفلها الأسود وقد ابتهج وجهه وتوهج بأشعة الشمس الدافئة ·· وبمنظر البط يسبح فى ماء البحيرة ويكاكى ويصفق بأجنحته · لم لا ؟ أن القادر على منح الطبيعة الشتوية الثلجية كل هذا الدفء وكل هذا الازدهار · قادر على أن يمنح القلب الانسانى الحزين بهجته ومسرته ·

انا ايضا أريد أن تكون لى بهجتى ومسرتى · واذ سمعت من بعض الأصدقاء والزملاء عن رحلة جماعية الى بعض مدن ومناطق الشمال ، حتى أسرعت بالاشتراك فيها · ومن أول لحظة ركبنا فيها القطار ، عاودنى ذلك الاحساس الرائع البهيج بأن العالم أوسع وأغنى من أن يحصر الانسان نفسه فى وطن أو فى بيت أو فى انسان ·· أو فى مأساة ! تلك هى الأيام التى أحسب بها عمرى ، حين أكون طليقا كطائر ، أتنقل من قطار الى قطار ، ومن مدينة الى مدينة ، ومن فندق الى فندق ، ووجوه وأماكن تفرح لأنك تراها ، وتحزن أيضا فى نفس اللحظة لأنك ستفارقها ولن تراها بعد ذلك ابدا ! أناس ومبانى وقلاع وكاتدرائيات وعصور من التاريخ ، ومصانع ومناجم ومعامل تعطى ملحمة الانسان الذى خربت الحرب أرضه فبناها من جديد · وخطر لى معنى دونته فى ورقة :

« الانسان هو أعظم مادة خام فى الوجود » ·· هذه بلاد قست عليها الطبيعة فلم تمنحها مناجم فحم أو حديد أو آبار بترول ، ومع هذا فهى بالعمل الانسانى بنت وشيدت وأبدعت وحققت المعجزات · « الانسان المبدع هو أعظم المناجم فى الوجود » ·

وكان أحدنا معه جيتار ، وبيننا فتاة تغنى ، وأحببنا غناءها فغنينا معها . ومع انى لم أكن أعرف معنى الكلمات ، الا اننى كنت أشارك فى الغناء . ذلك هو المعنى الأروع . أن نشترك جميعا فى أداء واحد واحساس واحد . المعنى الأكبر هو المشاركة فى الفرح بالحياة .

وكنت أمام بعض المناظر الرائعة أقفل عينى وأثبت صورتها فى خيالى . أريد أن آخذها معى لتصبح رصيدا لى أيام الجفاف والضنك ، مثلما ندخر النقود لأيام الفقر والعجز .

وعدنا من الرحلة . كان الكل مشتاقا بعد فترة السفر والتجوال الطويلة الى بيته والى حجرته والى سريره .. تلك الأوطان الصغيرة التى نصنعها لأنفسنا فى الغربة ، ونحن اليها .

غير اننى ما أن وضعت حقيبتى وغيرت ملابسى حتى فوجئت بمديرة البيت الذى أسكن فيه تقدم لى ورقة صغيرة ببضع أسماء اتصلت بى أثناء الرحلة . فرحت جدا أن بينها اسم « فاضل » وارتسم لى على الفور وجه ايفا .. وطفلها .. ووقفتنا أمام البحيرة المتجمدة، يقينا ذابت منها الثلوج .. واكتسحتنى رغبة جارفة فى أن اذهب اليهم على الفور وأقضى معهم هذا المساء وجزءا من الليل .. غير أن بيتها كان بعيدا .. نصف ساعة بالقطار .. وأنا عائد لتوى من قطار ، وضجيج الرحلة ، وزحام المشاعر والصور .. فلأؤجل زيارتهم للغد .. لكننى فى الغد وجدتنى مشغولا ببعض أعمال وواجبات كانت تنتظر عودتى من الرحلة ، فتأجلت زيارتى لهم رغما عنى .

الى أن حدث ذات يوم ، ودون قصد منى ، وجدتنى أسير فى

المنطقة التى تسكن فيها ايفا ، بل وقريب من بيتها ، تفتح قلبى ، واتجهت مباشرة الى هناك ·

كانت هى التى فتحت لى الباب · وما أن رأتنى حتى شع وجهها بالسرور وصاحت :

ـ أوه ·· مصطفى ·· تفضل بالدخول ··

أسعدنى استقبالها ، وأسعدنى أكثر أنها نادتنى باسمى هكذا مباشرة دون ألقاب · أحسست أنى أصبحت صديقا قديما لهذا البيت، وفكرت أن أسألها ـ قبل أن أدخل ـ أن كان فاضل موجودا ، لكننى أحببت أن أمارس الاحساس بعدم الاغتراب ·· دخلت ·· فقفلتورائى الباب ·

كانت ترتدى فستان خروج أزرق صافى وحذاء بكعب رفيع عالى ، وددت لو أقول لها ، كصديق : مازال القوام الفارع الرشيق ـ والصدر الناهد ، والشعر الذهبى المسترسل والمتسق مع لون الفستان ·

ـ آسف أننى جئت بلا تليفون ·· كنت ··

قالت مسرعة : لا تلق بالا · لطيف أنك جئت فى هذا الوقت بالذات · كنا على وشك الخروج ، أنا والبرت ، لأشترى بعض الأشياء قبل أن تقفل المحلات ·

ـ آه ·· اذن فأنا محظوظ أنى لحقت بك ورأيتك · (واذ تصورت أنها ستتركنى وتخرج) آمل أن يكون فاضل هنا الآن ·

لم تجب على الفور · ولمحت بريق عينيها يضطرب « ماذا هناك ياترى ؟ » ·· قلت مستفسرا : ألم يعد من الخارج ؟

قالت بهدوء : فاضل رحل ·

كان قبضة هائلة دقت على طبلة قلبى : رحل ؟ الى أين ؟

ــ الى بلاده ·· الى بغداد ··

واصلت صياحى :

ــ ومتى رحل ؟

ــ منذ يومين (وشردت نظراتها) فى الفجر ·

ــ مع الفجر ؟ (قلتها بدهشة وأسى) هو الآخر رحل مع الفجر ؟!

قالت مستغربة : من تقصد بالآخر ؟

قلت معتذرا ·· بحزن : لقد حكى لى فاضل عن موقفك مع والد البرت فى زيارته الأخيرة لك · قال لى : انك قلت له · أنه رحل مع الفجر ·· وها أنت تقولين لى ·· ان فاضل هو الآخر رحل مع الفجر ؟

هزت رأسها بابتسامة حزينة وحكيمة وقالت : هذا صحيح · قلتها لنفسى أنا أيضا : الاثنان رحـــلا مع الفجر ، جوليوس ، وفاضـــل ·

رن الاسم الأفريقى فى رأسى : جوليوس · وأوشكت أن اكون له صورة فى خيالى ، غير أن صوتها وهى تنطق بالاسمين ، بدا وكأنها تشيع راحلين عزيزين ·· الواحد بعد الآخر ، فى ضباب الفجر ·

قلت وقد احتشدت نفسى بشتى المشاعر والانفعالات :

ــ لكن فاضل سيعود · بالتأكيد سيعود ·

ــ لو عاد ، فلن يكون من أجلى ·

قالتها بهدوء حاسم ، واتجهت بنظراتها بعيدا عنى ، كأنما قالت كل ما عندها وأن القصة انتهت وانتهى فاضل صديقى من هذه الشقة ، واذن فقد أنتهى مبرر وجودى أنا الآخر هنا ٠٠ وعلى أن أسلم وأمضى ٠٠ وعاودتنى صورة فاضل وهو يحكى لى فى نادى المسرحيين عن موقفها مع الأفريقى ومعه ٠ وكان يحكيها لى كانتصار له ٠ ليلتها حزنت من اجل الأفريقى ، مثلما فرحت له ٠ هل دارت عليه الدائرة ورحل هو الاخر مهزوما مع الفجر ؟

واكتنفنى ضباب لم آر معه أى شىء !

قلت بتعاسة : ولكن ما الذى حدث يا ايفا ؟ اعلم الا وقت عندك الآن للكلام ٠ لكنى فى ظلام كامل ولا أرى أى شىء ٠٠ أنا فى حاجة لأن أجلس معك بعض الوقت ٠٠ فى اى وقت ٠٠ وفى أى مكان تحبينه ٠ ولتكن المرة الأخيرة ٠

ـ ولماذا الأخيرة ؟ ليس فى الأمر مشكلة ٠٠ تستطيع أن تقترح الموعد الذى يناسبك ٠٠

ـ ويناسبك أنت أيضا ٠٠ الأحد القادم ٠٠ هل يناسبك ؟

ـ يناسبنى ٠٠ نأخذ البرت ٠٠ ونجلس قرب البحيرة ٠

تفجر ينبوع فرح فى قلبى ٠

ـ عظيم ٠٠ هذا عظيم ٠٠ والآن أين البرت ٠٠ صديقى البرت ٠٠ أراه قبل أن اخرج ٠

قالت : سنخرج معا ٠ الآن فورا ٠٠ آسفة انى لم اقدم لك شيئا ٠٠ لكن يجب أن أضمن عشاءه ٠٠ لم أخرج من البيت طوال اليوم ٠

قلت بحماس : يمكنني أن أذهب بسرعة واشرتى له كل ما يلزمه ·· ويلزم البيت ·· ثم أعود أنا ببتى ·

قالت بهزة نفى من راسها : شكرا ·· البرت فى حاجة للخروج وتغيير الهواء ·· أستاذنك ··

ومضت بسرعة الى حجرة الطفل · لحظات وعادت تدفعه امامها فى عربته ·

هل أسلم وأمضى بعد أن أذكرها بالميعاد ؟ واذ وجدتها تسير بعربتها فى نفس الطريق الذى على أن أقطعه لأصل الى محطة القطار، ظللت سائرا بجوارها فى صمت ·· متنقلا بعينى بين وجه الطفل الأسود البادى من العربة ووجهها الأبيض بشعرها الذهبى ·· كانت سائرة بثقة ·· وشموخ ·

اندفعت مسرعا نحوه : آه ·· البرت ·· ياصديقى العزيز ·· نحن صديقان قديمان ·· كيف حالك يا ألبرت ·· ألبرت جوليوس ·

واذ حانت منى نظرة الى ايفا ·· وجدت وجهها وقد سطع بفرحة غامرة وقالت بصوت يملؤه الحنين والامتنان : هذه أول مرة أسمع فيها رجل ينادى البرت ، باسم أبيه ·

قلت : هذا هو الطبيعى يا أيفا · وهى الحقيقة · ويوما سيكبر ألبرت ·· وسينادون عليه فى المدرسة · البرت جوليوس · يا البرت جوليوس · وحين يكبر اكثر ويدخل الجامعة ويصبح مهندسا أو طبيبا ويفتح عيادة سيعلق لافتة باسمه ·· دكتور البرت جوليوس ·· و ··

ـ أوه ·· أنت رجل متفائل ·· أشكرك ·· هيا نخرج ونشترى الطعام ·· (وازداد انفعالها) آسفة جدا انى لم أقدم لك شيئا هذه المرة ·

قلت : ساشرب القهوة هنا فى المرة القادمة .. سأشربها ثم نخرج الى البحيرة .

هزت رأسها بارتياح .. واشارت لى بالخروج وهى تدفع بعربة الطفل أمامها . وفى لحظات .. كنا نحن الثلاثة فى الشارع .

كل انتباهى كان على نظرات الناس .. ما وقع منظر فتاة شقراء خرج من رحمها طفل اسود ؟! وحقيقة كان المنظر لافتا للعين ، لكنى لم أر أبدا نظرة استغراب أو استنكار تطل من عين أحد . ربما نظرة رثاء واشفاق وبالذات من بعض أزواج عواجيز كنا نمر بهم أو يمرون بنا .

وفكرت .. ماذا لو كان هذا المنظر فى القاهرة .. أو فى بغداد؟

أيكون هذا المنظر الحى هو المدخل لتفسير المأساة .. أم أنها ليست مأساة الا فى خيالى ؟

ــ مام .. مام ..

صاح الطفل فجأة على أمه .. وبدا أنه على وشك البكاء . توقفت عن السير . انحنت عليه بحنان : ايه .. البرت .. ماذا تريد ؟ تريد أن تخرج من العربة وتمشى ؟ ليس الآن .. البرت .. بعد ان ننتهى من شراء طعامك . لقد اقتربنا .

قلت : الا تلاحظين أنى لم أسلم عليه حتى الآن .. أن البرت صديق قديم لى .. ويجب أن [illegible] معا .

ابتسم وجهها وقالت . بتنهيدة خفيفة : انه لم يضحك من يومها .

لمستنى الملاحظة . قلت وقد انتابتنى رغبة جارفة فى احتضانه

ـ سوف أضحكه يوم الاحد القادم · سنضحك ونلعب معا ·

شردت عيناها : ها هو المحل ·

قلت : سأدخل معكما · امسك بالعربة وأعتنى بالبرت حتى تشترين ما تريدين ·

استحسنت الفكرة : هذا لطيف منك ·· سيساعدنى هذا على الانتهاء من الشراء بسرعة ·

أمسكت أنا بالعربة · ومضت هى تدور على الأرفف وتنتقى ما تريد · أما الطفل · فكان مأخوذا بما حوله ، وبوجوه المشترين والمشتريات · ثم جاءت عيناه فجأة فى عينى ·· أرسلت اليه قبلة · ابتسم لى · ياصديقى العزيز البرت · ·لولا هذا الزحام للاعبتك وضاحكتك ·· و ··

وبدأ فجأة أنه ضائق بجلسته داخل العربة ، وأنه على وشك بالبكاء : لا ·· لا يا البرت ·· طفل لطيف مثلك لا يصح ان يبكى ·· ذلك معناه أنى فشلت فى مهمتى ·· ماذا تريد ؟ (كان يرفس برجليه) هل تحب أن تمشى قليلا ·· على قدميك ؟ هذا من حقك يا البرت · يجب أن تكثر من المشى ·· يجب أن تكبر بسرعة يا البرت جوليوس ·

كنت اكلمه بالعربية · وكنت أعلم انه لا يفهم شيئا مما أقول · لكنى كنت أريد أن أنقل اليه احساسى ·· بأى لغة وبأى صوت ·

وملت عليه باسما مادا ذراعى الاثنين اليه · لم يجفل منهما · حملته بغاية الرقة والحنان والحذر واخرجته من العربة . وأوقفته على رجليه ·

أضاء وجهه الأسود بسعادة كبرى ·· ومن فرط الفرح كان يتعثر وهو يمشى · ويوشك على السقوط لولا ذراعى اللتين كانتا

تتبعانه وتحيطان به • وأحدث سيره فى المكان حالة مرح ، وانسعت ابتسامات الرجال والنساء والفتيات وهن ينظرن له •• ولى •• ورأته ايفا يسير على رجليه وسط الناس فجاءت جريا ووجها خايط من الفرح والخوف :

ــ أوه •• فرض رأيه عليك •

ــ لا •• ليس فرضا •• انما هو رغبة منه ، وتجاوبا منى •

ــ آه • هذا لطيف • ولكن •• أنت ترى الزحام ••

ــ يجب أن يتدرب على زحام العالم من الآن •• البرت يجب أن يكبر بسرعة ويتعود على مواجهة العالم •

نظرت فى عينى •• نظرة امتنان •• ثم قالت بصوت جـــاد وحاسم : هل هناك ما يشغلك الليلة ؟ ارتباط أو موعد ؟

قلت : لا شىء اطلاقا فى العالم يشغلنى •

ــ اذن •• فلتكن الليلة جلستنا التى طلبتها منى •• لاداع لأن ننتظر الى الاحد القادم •

ونبت لقلبى جناحان ورفرف بهما •

(٥)

هناك لحظات تتحول فيها نفس الانسان فجاة الى غابة استوائية تزدحم فيها الأشجار والنباتات •• تختلط وتلتف ، وتسرح فيها الزواحف والوحوش والغزلان والهوام والطيور ، وتضج جنباتها بالزئير •• وبالأغاريد ••

ها هو الطفل قد تناول عشاءه ونام . واصبحت أنا وايفا وحدنا

فى شقة تطل على بحيرة كانت يوما متجمدة ثم ذابت منها الثلوج · وها هى ايفا نفسها تخرج من حجرة الطفل وقد غيرت فستانها ولبست روبا ناعم الزرقة طويلا يكاد يغطى قدميها ويهف على الأرض وهى تسير ، وشعرها عقدت خصلاته الى الخلف ، فبان كل العنق بالأذن الوردية الساطعة · وددت لو أقول لها : ان كنت تقصدين الاحتشام فأنت لا تعرفين أن هذا النسق من التكوين يلهب مراكز الاحساس بالجمال عندى · أنت ايضا لا تعرفين غرامى بالمرأة ذات الأذن الدقيقة البديعة التكوين ، وكم يفرح قلبى حين أجد امرأة او فتاة أذنها غير مثقوبة · أكره الثقب فى الأذن · جسدى يقشعر منه ·· أعتبره من بقايا عصور الجوارى والحريم · آه ·· ما أروع أذنك الدقيقة الملساء يا ايفا ·· بالعنق ·· بلون الشعر المنسجم مع لون الروب ولون البشرة ·· و ··

وماذا أيضا يا قلب ؟ يا قلب اهدأ وتعقل · فليس من اجل هذا عادت بك الى شقتها وأنامت طفلها ، وعجلت بالجلسة التى تنشدها ·· و ·· ها هى تعلن اقتراب رفع الستار ·· تقول وهى واقفة فى وسط الصالة :

ــ فى البدء نشرب قهوة ·

قلت متحمسا ·· متعجلا : نشرب قهوة ·

قالت : نشربها فى الشرفة · الجو اليوم لحسن الحظ دافىء ·

نهضت واقفا مرحبا بالاقتراح : أنت تصنعين القهوة · وانا أعد الجلسة فى الشرفة ·

ــ لا شىء سوى أن تنقل هذه المنضدة الصغيرة ، وهذا هو مفرشها ·

وناولتنى اياه ٠٠ وأسرعت الى المطبخ ٠

رفرفت على الشقة روح بهيجة ٠٠ ها نحن نتشارك فى صنع الجلسة ، وهى التى اقترحت المكان ٠ والغروب فى صيف هذه البلاد طويل ، ومازال فى الامكان رؤية البحيرة ٠ البحيرة التى اصبحت تلازم خيالى منذ أن رأيتها أول مرة وسألتنى يومها ايفا : ترى ٠٠ بما توحى بحيرة متجمدة لكاتب ؟

لعلها الليلة تسألنى : بما توحى بحيرة ذابت ثلوجها لكاتب ؟

تفجرت فى نفسى نشوة الحياة حين يمور الاحساس ويتوهج بقرب ميلاد جديد ٠ هذه الليلة هى عطية من عطايا الله لك ككاتب ٠٠ فهل يمكن أن تخرج هذه الليلة بتكوين لرواية أو مسرحية جديدة تحطم بها الحلقة الحديدية التقليدية التى أصبحت تدور فيها كتاباتك بل وحياتك كلها فى السنوات الأخيرة ؟!

منتشيا ومتهللا ، حملت المنضدة الصغيرة الى الشرفة ، وعدلت الكرسين فى تقابل ٠ وجه ايفا سيكون لى ٠٠ أنا وحدى ٠٠ طوال الجلسة ٠ لا ٠ بل سنقف أولا بعض الوقت ٠ ووجهانا للبحيرة ، ننظر الى امتداد المسطح الكبير فى ضوء نهايات الغروب ٠ كان ثمة قارب بشراع ٠ يبدو وكأنه سيطير ٠ آه ٠٠ وهذا هو البط لا يمشى هذه المرة فوق الثلج ،بل يسبح فى مياه متموجة ٠٠أيكون أوان انقشاع الحزن عن ايفا ، مرتبطا بذوبان الثلوج ، وفى نفس الوقت بخروج الرجلين من حياتها ،ورحيل كل منهما الى بلده ؟!

ــ آه ٠٠ هو ذا أنت أيها الذئب المصرى ٠٠ تنتهز فرصة غيابى لتحل محلى ٠

كان وجه فاضل ٠٠ بشعره الهائش ٠٠ ينظر لى بابتسامة تقطر غضبا ٠٠ ومرارة !

ـ لا ٠٠ بل انطلق معها الى آخر المدى أيها المصرى ٠ فلم نعد

ـ انا وهذا العراقى المغرور بالنسبة لها غير شبحين من أشباح الماضى !

كان وجه أسود زنجى غائم ٠٠ أبو الطفل ، يبتسم أيضا بسخرية وعيناه تلمعان حزنا ٠٠ واحباطا ٠

صحت فى نفسى رافضا منطق الاثنين : لا ٠ أنا لم آت هنا لآخذ مكانكما ٠٠ أنا أتيت لكى أعرف منها قصتكما معها ٠٠ ليكون بعد ذلك الحكم والحساب ٠ وأنت أيها العراقى ، يا فاضل ياصديقى ، لا تنظر الى هكذا نظرة المستريب غير المصدق لكلامى ٠ ليس فى طبع الذئاب الغادرة ، وان رايتنى مجذوبا بعنف نحو جمالهـا ، فلذلك قدرى أمام الجمال حيثما يكون ٠ ليس فى المرأة وحدها بل حتى فى الطبيعة الصامتة أيضا ٠

ـ أنا واثقة انك ستكتب عنها ٠ هذه البحيرة ٠

انتبهت على صوتها ٠

ـ آه ٠٠ تلك أمنية لى ٠

كانت قادمة تحمل صـــينية القهوة وأطراف روبها الحريرى الطويل تهف على قدميها ٠ هرعت اليها ٠

ـ هات عنك هذه الصينية ٠

ـ ٠٠ ليست مشكلة ٠٠ أنا مدينة لك بفنجان قهوة ٠٠ أنا التى سأقدمه لك ٠

ووضعت الصينية على المنضدة ٠

ـ كم انت كريمة وعظيمة ٠

ـ الكرم ربما · أما العظمة ، فهذا كثير ·· ارجوك ··

ـ أنا أقول احساسى ·

نظرت فى عينى وقالت بشبح ابتسامة : دعنا لا نعتمد على الاحساس كثيرا · آن الأوان لكى نعتمد على العقل بعض الوقت ·

(وشردت بعينيها) على كل حال · العقل ظاهرة حديثة على الانسان · وهذا هو ما يغفر لنا ·

قلت وقد تفتحت نفسى للحوار : أنا متفق معك · حداثة العقل على الانسان · ولهذا يجب أن نتدرب على استعماله بكثرة · ومع هذا ، وحتى بعد استواء العقل ونضجه ، سيظل الانسان فى حاجة الى الاحساس · أن يعتمد على مجرد الاحساس وحده والا (وأشرت الى امتداد البحيرة) فماذا يمكن أن يقول العقل وهو يقف أمـام بحيرة مثل هذه ·· فى نهايات الغروب · هذا المنظر البديع ، بألوانه وتكويناته الالهية · هذا الجو المليء بالرموز الرائعة الغامضة ·· ماذا يمكن أن يقول العقل فيه ؟!

ندت عن صدرها تنهيدة : كلكم شعراء · (قالتها وجلست على أحد المقعدين) كلكم أبناء العالم الثالث · أغنى ما فيكم منطقة الاحساس · وهذا هو لب المأساة ·

ـ أية مأساة ؟

ـ تذوق أولا القهوة ··

ـ ولنشعل أيضا سيجارة ·

أشعلناها ··

ـ رائعة قهوتك · أقولها بالاحساس ، فلا مجال للعقل هنا ·

ـ شكرا ٠ (وعاودتها نصف ابتسامتها الغريبة) ولو كنت من أصدقاء جوليوس ، لكنت الآن تقول لى ، شايك رائع ٠ كنت أصنع له ولأصدقائه الأفريقيين الشاى على الطريقة النيجيرية التى تعلمتها منه ٠ طريقة أهله وقبيلته ٠ كان كل شىء يتم بالاحساس ٠ بل ان الحكاية كلها معه بدأت باحساس ٠ احساس بدأ خارج منطقة العقل والادراك ٠

قلت متحكما فى لهفتى متعجلا رفع الستار : أنا لا أعرف من قصتك مع جوليوس سوى الموقف الأخير ٠ زيارته الأخيرة لك ٠ ثم رحيله مع الفجر ٠٠ بلا عودة ٠ فاضل حكى لى هذا ٠

قالت بنصف ابتسامة ، ممتزجة بسخرية مرة : لم يحك لك من كل قصتى مع جوليوس الا هذا الموقف ٠ لأنه بدا وكأنه انتصار له على رجل آخر ٠ حكى لك النهاية ٠ ولم يحك لك البداية ٠ بداية قصتى مع جوليوس ٠ كانت رائعة ٠ وكان فاضل يعرفها ٠ حكاها جوليوس له أمامى ٠

قلت مسرعا : أكان فاضل يعرف جوليوس ؟

قالت : هناك جاذبية خفية تشد أبناء العالم الثالث الى بعضهم فى بلاد الغربة وتسرع بتعارفهم ٠ لقد تعرف عليه فى احتفال أقامته السفارة النيجيرية بمناسبة أحد أعيادهم القومية ٠ وعرفنى جوليوس بالتالى عليه ٠ ومن ليلتها أصبح صديقا لنا ٠

أوشكت أن أقول لها : وخليفة أيضا له فى الحب ٠

كتمت التعليق فى نفسى !

وواصلت كلامها : لم يكن فاضل يحب سماع بداية قصتى مع جوليوس ٠ البداية بالذات ٠ وكنت أعطيه العذر ٠ فقد كانت شيئا

ليس فوق العقل فقط ، بل وفوق الخيال أيضا · نعم · هكذا كانت ·· طوفانا من المشاعر والاحاسيس دفعتنى دفعا الى كل ما حدث · الى ما أنا فيه الآن · لكنى غير نادمة أبدا · أبدا · (وجذبت نفسا من سيجارتها ، ونظاراتها الى بعيد) ·

ذات يوم ، كنت أزور احدى صديقاتى ، وهى تعمل مديرة لأحد الأقسام فى أحد المستشفيات · فجأة ونحن جالســتان فى مكتبها جاء من أبلغها بأن حالة خطيرة دخلت الآن المستشفى : امرأة مصابة فى حادث وتحتاج أول ما تحتاج · نقل دم اليها · استأذنت منى صديقتى وهرعت الى المصابة · وجدتنى أهرع خلفها ورغبة طاغية تتملكنى لأن أرى هذه المصابة ، فقد تكون قريبة منى أو معروفة لى ، من يدرى ·

واذ رفعوا الملاءة البيضاء من على وجه المصابة ، رأيت وجه امرأة ألمانية شقراء فى حوالى الخمسين ، ضائعة فى غيبوبة ، ورغم أن الوجه لم أكن أعرفه ، الا انها ذكرتنى بأمى · اكتسحنى حزن هائل وخوف من الموت لأول مرة · كان السباق على أكبر كمية من الدم يجب نقلها اليها بسرعة · وأدركت من الهمس أنهم نقلوا اليها كل البلازما الموجودة فى ثلاجة المستشفى ، لكنه لم يكن كافيا لحالتها · مازالت فى حاجة لنقل دم ، ولابد من متطوعين ، غير أن المشكلة لم تكن فى ايجاد المتطوعين · فقد تطوع بعض الألمان والألمانيات الموجودات بالمستشفى باعطاء دمهم ، لكن فصيلة دمهم للأسف لم تكن من نفس فصيلة دم المصابة · ورفرف شبح الموت · صحت على صديقتى وأنا أمد ذراعى :

ــ فلتجربوا دمى ·· أرجوك ·

فى تلك اللحظة ، فوجئنا بمن تقول مهللة : لقد وجدوا من هو

دمه من فصيلة دم المصابة · ويا للسماء الرحيمة · تصوروا · انه شاب أسود ·. صديق للدكتور ليتنن ·

اهتز كل كيانى ·· دم رجل أسود ينقذ حياة امرأة بيضاء · أى دم هذا ؟ وأى رجل ؟ واستبدت بى رغبة جارفة أن أراه · هو الآن فى المعمل معهم ، ويسحبون من ذراعه الدماء ! كان ما يحدث يأخذ فى نفسى شكل معجزة تتخلق أمامى وتتكون · دم رجل من الجنس الأسود يغذى جسد امرأة من الجنس الأبيض ، ويرد اليها الحياة !

الاحساس الطاغى الذى غزانى فى تلك اللحظة أنى وجدت الدماء فى شـــرايينى تنادى وتطلب الامتزاج بالأسود · ليس فقط بدمه ، بل بكله · كان هذا هو احساسى · ما هو التفسير ؟ لا أدرى· وقررت الا أغادر المستشفى الا بعد ان أرى الشاب الأسود ، بطل المعجزة · ورأيته وهو يخرج من حجرة المعمل بعد أن أخذوا كمية من دمه · كان أسود ·· عميق السواد · وكان مبتسما ·· بشفتيه الغليظتين · مرتديا قميصا فضفاضا · مزخرفا ، قومى الطابع · وخطواته ثابتة وقوية ، كأن شيئا لم يسحب من عروقه ، وبعض الواقفين والواقفات من جوار المستشفى يجرون عليه ويحتضـنونه ويقبلونه ·

ــ أوه · كم أنت انسان نبيل · ومضحى · وكريم ·

ــ لا كرم ولا تضحية · الله أعطانى · وأنا أعطيتها مما أعطانى الله · (وكان وجهه الأسود يلمع ويتشعع فرحا وسعادة) الله أعطانا دماءا واحدة · رغم اختلاف البشـــرة · لكن الجوهر واحد · ماء الحياة واحد · لكن معظمهم من البيض والسود أيضا لا يعرفون ذلك للأسف · والسبب هو هذه البشرة المظلمة · (وأشار باصبعه على

جلد وجهه) ثم فوجئت به يحول أصبعه من وجهه الى وجهى أنا بالذات ويقول : فى مقابل لون هذه البشرة البيضاء المتوردة البهيجة ٠

ووجدتنى أصيح عليه ، مهتزة كلى بكلامه : لا ٠ بل بشرتك أنت المضيئة ٠

واندفعت اليه اقبله مثلما فعل الآخرون والآخريات ٠ فوجىء بما فعلت ٠ بدا للحظة كطفل كبير مشدوه وقال : هذه القبلة تساوى الف لتر أنزفها من دمائى ٠ أشكرك يا الهى ٠ هذا يوم تاريخى ٠ من اليوم سأحب لونى الأسود وأنا أراه أمامى فى المرآة ٠

ضحك الواقفون والواقفات ٠ أوشكت أن اقول له : أنا على استعداد لأن اكون مرآتك ٠٠ ترى فيها وجهك المضىء الجميل ٠

لكنى أحجمت أمام الموجودين ٠ فقد تعودت فى حياتى ، بفضل تربية أبى وأمى على ضبط انفعالاتى ٠ ووجدته يقول مخصصا الكلام لى :

أستطيع أن أحكى لك حكاية طريفة ، تفسر لك كيف أن حب انسان أسود للون بشرته ليس حدثا بسيطا ، بل هو حادث هائل ، حادث كونى وعالمى ٠

قلت بفضول ولهفة : احكها لى ٠ أرجوك ٠ احكها لنا ٠

قال : سأحكيها بعد أن نطمئن على الأخت المصابة ٠ أريد أن أطمئن عليها من صديقى الدكتور « ليتش » يا لها من صدفة (وكان يوجه الحديث لى) وجدتنى قريبا من المستشفى ، فقررت المرور عليه لكى أراه ولو لدقائق ٠ كأن القدر أرسلنى فى هذا اليوم وهذه الساعة لكى يكون دمى من نصيبها ٠

وددت لو أقول له : وأنا أيضا · ما جئت اليوم هنا لأرى صديقتى الا بالصدفة · كان القدر أرسلنى لكى أراك أنت بالذات ·

ولا اغرقك فى تفاصيل ذكريات ذلك اليوم ، فقد وجدنا نفسينا نتقارب أمام الجميع · أمام صديقتى مديرة القسم ، وأمام صديقه الدكتور ليتش الذى خرج من حجرة العمليات مبتهجا ، يحتضنه · ويكرر شكره قائلا له : يا له من قدر ياجوليوس · أن تاتى لزيارتى هذه الساعة بالذات · وعلى غير ميعاد ·

ونظر فى عينى : ألم أقل لك ؟ هناك قوة خفية عظيمة تدبر الأحداث ؟

فى ذلك اليوم · وجدنا نفسينا نخرج معا ، وحدنا ، من المستشفى ، نمشى فى الشوارع سعيدين كطفلين فرحين عثرا على معجزة · وراح يحكى لى الحكاية التى وعد بها · قال أنه لم يشأ لحظتها أن يحكيها للجميع ، بل أحب ان يختصنى أنا بها وحدى · ثم بعد ذلك أحكيها أنا للآخرين ·

حكى لى عن شقائه وهو صغير بلونه الأسود ، وحلمه بأن يكون له بشرة على الأقل سمراء ، وكيف أنه كان يغطى وجهه بالدقيق الأبيض وينظر الى شكله فى المرآة · وحين أحس بفشل العملية ، وأن اللون الأسود سيظل قدره الى ان يموت امتلأ بالحزن الشديد · الآن وبعد أن قبلت بشرته ، ووصفتها بالضيئة ، الآن هو يحب هذه البشرة السوداء ، ويريد أن يعلن ذلك العالم كله !

واحتويته · نعم · كنت أحس به منيرا ، ناصع البياض ، وفرحت ان حبى الأول قام على اكتشاف عظيم لم تسبقنى فيه الا اقل

القليلات • واحببت من أول لحظة أن يكون أى طفل منه • واسعدنى أنه لم يعارض أو يتردد ، بل كان يتعجل مجىء الطفل • وكم كانت فرحته أن الطفل جاءت بشرته سوداء • وأنه العنصر الأقوى • وفرحت انى منحته هذا الاحساس • (وتنهدت) كانت فترة فيضان الاحاسيس •• ليس أجمل من الحياة بالاحساس ، أن يأتى الحب نتاج معجزة • الأبيض والأسود يختلطان لتخرج منهما معجزة أخرى (وأشارت على حجرة الطفل) الآن يكفينى البرت •

وتوقفت فجأة عن الرواية • سرحت بعينيها عبر البحيرة • كان الليل قد حل • ولم تعد ثمة امتدادات أمامنا ، بل كتلة ظلام تحولت الى مسرح لأحداث تلك القصة العجيبة • وكان ثمة دوار قد أمسك برأسى • دوار الصور والرؤى والأحداث المتلاحقة المثيرة •

قلت لها : تلك كانت البداية يا ايفا • هذا الامتزاج الالهى الرائع بينك وبين جوليوس ، فلماذا انفصلتما بعد ذلك ، رغم أن المعجزة أنتجت زهرتكما الجميلة الحبيبة •• البرت ؟

جذبت نفسا طويلا الى صدرها وقالت : لأن عصر الاحساس كان قد انتهى ، وبدأ عصر العقل •

ـ كيف ؟!

ـ كانت بعثته الدارسية انتهت ، ولابد أن يعود الى بلده • قلت له أنى مستعدة للذهاب معه أنا والبرت ونعيش معه فى نيجيريا • واذا به يقول لى : دعينا يا ايفا نتحدث بالعقل • لأول مرة كان يقول العقل • أنت تعرفين كم أحبك • وما الذى يمثله حبنا لى فى الحياة • لكن الحب الآن ، فى الموقف الجديد الذى أنا فيه ، لم يعد هو كل شىء • هناك زوجتى التى تنتظرنى ، ولا أستطيع أن أعود اليها بعد

غياب ثلاث سنوات ، ومعى زوجة اخرى جميلة بيضاء · ستقتلنى أو تقتل نفسها !

كانت الصدمة رهيبة لى · لا لشىء الا لأنه كذب على من أول يوم واخفى عنى أنه متزوج · صرخت فى وجهه : لماذا كذبت على ياجوليوس ؟ لماذا أخفيت عنى أنك متزوج ؟

ـ لأنك كنت ستضيعين منى يا ايفا · هى الكذبة الوحيدة التى كذبتها عليك طوال حياتنا معا · هل كذبت عليك فى شىء آخر ؟ ذكرينى · ومع هذا ، دعينا لا نتعجل الأمر يا ايفا · أعطنى فرصة لأتدبر الأمر وأنا هناك ·· أنت تعرفين آلا حياة لى بدونك أنت والبرت ·· اعطنى فرصة ارجوك ·

وأعطيته الفرصة · بل اعطيتها لنفسى · وامتزجت دماؤنا قبل رحيله بمثل ما لم تمتزج من قبل · بقوة الوداع والخوف من الضياع الأبدى · لا · لن يضيع منى ومن ولده · سيفعل الفارس الأسود الذى أنقذ البيضاء بدمه ما ينقذ به حبنا ·· وابننا (وندت عنها شهقة) لكنها كانت منطقة الاحاسيس · وحين استيقظ العقل بمرور الزمن ، ادركت كل شىء على حقيقته · عرفت بعد شهور قليلة من وصوله بلده ، أنه أصبح شخصية مرموقة · لم أقل لك أنه سياسى وينتمى الى أحد الأحزاب الوطنية فى بلاده · كلهم أبناء العالم الثالث ، حتى غير السياسيين منهم ، حينما يأتون الى هنا يصبحون سياسيين ويهاجمون تاريخ أوروبا الاستعمارى مع بلادهم · يبدون وكأنهم يريدون الانتقام منها · المهم ، بدأ يلمع فى بلاده كسياسى له جماهير تلتف حوله وتؤيده · وله أيضا خصوم يهاجمونه ويريدون ضربه وطعنه ! وفى احدى خطاباته القليلة · قال ان هناك كلاب بشرية تنبح حوله وتتشمم نقطة ضعف فى حياته الشخصية ليشهروا به ·

قال هذا بشكل غامض ملفوف · كان يعنى أن قصتنا معا لو عرفت ، فستكون مصدرا التشهير به · واذن ، فقد أصبحت انا نقطة الضعف التى تودى صعوده السياسى ، ومسيرة حياته الجديدة فى بلاده ·

حينذاك أيقنت ان قصتنا معا وصلت الى نهايتها ، فأرسلت له بذلك · لكنى فوجئت به يتخذ موقفا عجيبا · يريد ان يوقف حياتى لحسابه ، ممنيا اياى أنه سوف يأتى لزيارتى عدة مرات كل عام · يأتى من افريقيا عبر الصحارى والأنهار والغابات والبحار ليرانى ·· لا ·· بل ليمارس الحب ليلتين او ثلاث فى السر مع البيضاء ، ثم يعود الى بلده ·· الى زوجته والى أحلامه السياسية !

لا ياجوليوس · لن اكون لك بعد هذا · لن تكون بيننا حتى لمسة اليد لليد · وهذا ما حدث فى زيارته الأخيرة · وكان رحيله فى الفجر . كما حكى لك فاضل · انتهت القصة التى عاشت حية متأججة لثلاث سنوات ·· لم يبق منها الا هذه الزهرة ، فاحتضنتها واكتفيت ·

(ونظرت فى عينى بابتسامة حزينة شاردة) الا يكفى الانسان ان يكون له طفل مثل البرت ؟

أوشكت ان أقول لها : لا يا ايفا · الأطفال وحدهم لا يكفون · من ذاق روعة الحب لا يمكنه الاستغناء عنه · ولهذا دخل « فاضل » حياتك ليحل محل صديقه جوليوس على الفور ·

غير انى طردت الفكرة من رأسى ، وأسرعت أربت على نفسيتها المرهقة : أجل · البرت هذا يساوى العالم كله · أنه ابن المعجزة ·

ابن العالم الذى لم يأت بعد · العالم الذى يمتزج فيه الأبيض بالأسود ويتكاملان ، لا ليتصارعان ويجلبان لبعضهما الدمار !

قالت مغمغمة : كان يقول لى نفس الكلام · حين كان ثائرا ، متمردا على تخلف العالم الذى جاء منه · وبمجرد أن عاد ، فقد ثورته ، واستكان وتماشى مع ما كان يتمرد عليه ·· وأصبح له طريقا آخر · اشترى أرضا ·· وبيتا جديدا · وعربة · هو الذى كان يتحدث كثيرا عن زهد الثوار · وأعتقد أن طموحه الآن يوصله لأن يفكر ق ترشيح نفسه للرئاسة فى بلاده (وطردت نفسا عميقا من صدرها) انتهى جوليوس القديم · المتحرر المنطلق البسيط الذى يعطى دمه للآخرين · وحتى عطاءه الدم فى ذلك اليوم ، لم يكن فقط بقصد انقاذ انسانة من الموت ، بل كان أيضا بقصد أن يتحقق من تلك المعجزة الغريبة ، أن دم الأسود هو نفس دم الأبيض ·

وتنتهى العقدة المأساوية القديمة · ومع هذا · فأنا لا اكرهه · أبدا لا يمكن أن اكرهه · بل أرثى له · أنه ابن تراث قبلى واقطاعى عتيق · لست نادمة · لقد حملت فى الطفل ايام الحب · وسيبقى الى الأبد · ابن الحب !

هل أتعبها الكلام والذكريات ؟ كانت قد لزمت الصمت وشردت ببصرها فى الظلام · وفكرت أن أعتذر لها عما أكون قد سببته لها من ارهاق · غير أن دوائر الضوء رغم الظلام كانت تتسع امامى · لقد جئت معها لأعرف حكاية رحيل صــــديقى فاضل ، فاذا بها تبدأ بالكشف لى عن عالمها مع جوليوس ، والد الطفل · كانها تقدم لى عناصر القصة ·· قصة رجلين من العالم الثالث ·· وامرأة بيضاء تسكن بجوار بحيرة تتجمد فى الشتاء وتذوب فى الصيف · قلت طامعا فى مزيد من رفع الستائر :

ـ هذا عن جوليوس يا ايما • وفاضل ؟ أم هو الآخر ينطبق عليه نفس الكلام • كواحد من أبناء العالم الثالث ؟

قالت بسرعة : لا • ليس بشكل مطلق ، وان كان الجوهرواحدا • لقد عرض فاضل على قبل ان يرحل ان أتزوجه • لكنى رفضت •

قلت مندهشا : انت التى رفضت ؟ لماذا ؟ أعتقد انك احببت فاضل حقا •

قالت بهدوء : هو الوحيد الذى عوضنى عن فقد جوليوس • وهو الذى حمانى من وطأة الحزن واليأس • هو الذى أضاء حياتى بعد الظلام الذى حل • كان أبا ثانيا لألبرت • لقد بكيت على رحيل فاضل كثيرا •

ـ فلماذا اذن لم تتزوجيه وتسافرى معه •

ـ والطفل ؟!

ـ يسافر معكما •

ـ مستحيل • هل تعرف ان فاضل ولد فى مدينة اسمها « كربلاء » وأن أهله مازالوا يعيشون فيها حتى اليوم ؟!

قلت مستثارا بطريقة نطقها لاسم المدينة • كر •• بلا : أعرف بالطبع هذا • وقد اخذنى ذات مرة فى زيارة لهذه المدينة ، وعشت فيها يومين • كان ذلك منذ ما يقرب من سبع سنوات •

ـ أكانت الزيارة أيام الاحتفالات ؟

ـ اى احتفالات ؟!

ـ الاحتفالات الدينية التى تقام كل عام ، فيتجمعون فى

الساحات وقد لبسوا السواد · الجميع · الرجال والنساء وحتى الأطفال · ويضربون أنفسهم بسلاسل من حديد · رمزا للندم على جريمة قتل ارتكبها الأجداد · هل تعتقد أن بلادا مثل هذه يمكن أن تتقبلنى كزوجة لأحد أبنائها ، ومعى طفل أسود من رجل آخر ؟

لو ذهبت معه ، فسأنضم لهذه الجموع وسأضرب نفسى بسلاسل الحديد ندما على ما فعلت · ليس فقط للمعاناة التى سأسببها لفاضل ، بل أساسا من أجل الطفل · البرت يجب أن يعيش فى وطن يجد فيه سعادته (ونهضت واقفة وعيناها فى اتجاه البحيرة) ألمانيا وطنه ·

كنت ممتلئا بفيضان من السعادة الممتزجة بالأسى · ذلك الاحساس النبيل بالتطهير الذى تحدثه فى النفس التراجيديا ·· خليط أنا بين أن آخذها بالعناق كما كنت آخذ صديقاتى بطلات مسرحياتى فى القاهرة بعد انتهاء العرض بالأحضان اعجابا ومحبة ، وبين أن أحنى رأسى للقلب الذى يثقله الحزن ·· حزن امرأة تعيش وحيدة مع طفلها أمام بحيرة ، وحالا سيعود الشتاء وتتجمد المياه ويعود البط للمشى وئيدا فوق الثلوج ·

وددت لو أهتف عليها : أنا يا ايفا ·· أستطيع أن أخفف عنك الحزن وأشباح الوحدة ·

لكن الموقف لم يكن يحتمل منى اى كلام ، أو فليكن كلاما من نوع آخر ·

ـ فلنستند لحظة على سور الشرفة · نشرب سيجارة ، وبعدها أمضى على الفور · كى الحق بآخر قطار ·

ـ مازال هنك وقت كثير على آخر قطار ٠

اشعلنا سيجارتين ورحنا ندخن فى صمت ٠ كانت البحيرة يعمها الظلام ٠ ثمة أضواء بعيدة تبرق وترتعش ٠ وتخيلت البط سابحا أو غافيا على سطح الموج ٠ بدا لى وكأن العالم كله نهار ٠ وان كل شىء أراه ٠

ـ أتذكرين يوم هتفت معى أنا وفاضل : تسقط الستائر ؟ كنا ساعتها بالنهار ، لكنى كنت أحس بعشرات الستائر بينى وبينك ٠ الآن والدنيا ظلام ، أحس أنى أرى كل شىء ٠ حظ سعيد أن يلتقى الانسان بانسانة مثلك ٠

سكتت ولم تعلق بشىء ٠

ـ لماذا لا تقولين أى شىء ؟!

ـ ماذا أقول ؟ ٠ لقد قلت كل شىء ٠

اذن فقد انتهى وقتى فى بيتها ٠ وقفت متأهبا للخروج ٠

واذ تصورت أنى لن أراها بعد ذلك آبدا ، اندفعت قائلا بحنين :

ـ ايفا ٠ ألا يمكن أن نصبح صديقين ؟

قالت بابتسامة يظللها الأسى : هكذا بدأ فاضل ٠ (وتنهدت) الأفضل الا يأتى يوم وترحل انت الآخر فى الفجر ، مثلما رحلا ٠ القلب متعب ٠ وفى حاجة الى أن يستريح ٠

وابتسمت وهى تخرج من صدرها تنهيدة طويلة :

ـ فلنتعلم من تجاربنا (وأعطت ظهرها لفراغ ظلام البحيرة) ٠

فلنبدأ عصر العقل ٠

ـ أجل ٠٠ فليبدأ عصر العقل ٠٠ اسمحى لى أن أرى البرت وأقبله قبل أن أمضى ٠

ـ لو أضأنا عليه النور فسيصحو ٠٠ و ٠٠

ـ اذن قبليه لى ٠

وسلمت عليها ٠٠

ومضيت ٠٠

« ١٩٧٩ »

• مَحاكمة فأرْ

والفأر هنا فأر حقيقى وليس رمزا ·· والمحاكمة التى جرت له محاكمة حقيقية اكتملت لها ومنذ لحظاتها الأولى كافة الشروط والاجراءات القانونية التى تعـــارف عليها الناس منذ فجـــر الديمقراطية فى اثينا ، بل وما قبلهـــا من أيام بابل وقـــانون حمورابى · حتى ديموقراطيات هذه الأيام !!

وضمانا لاكتمال الســـلامة القانونية ، فقد حرص الرجال الذين قاموا بهذه المحاكمة على مناقشة الشكل الذى يجب أن تتم من خلاله : هل تكون محاكمة مدنية أم عسكرية ؟ ·· وما يستتبع هذا من ضرورة الالتزام بالمواد الخاصة بكل منهما · ذلك أن واحدا منهم كان جنديا ينتمى الى القوات المسلحة !

وحين اتفقوا بالاجماع على أن تكون المحاكمة مدنية ، وكان المجند أول المحبذين لهذا ، تشكلت هيئة المحكمة من ثلاث ، وأخذت مكانها فى الصدارة · ووقف ممثل الاتهام متحفزا للالقاء بالتهم وتكييفها التكييف الكفيل باصدار الحكم شنقل وبلا أية رحمة ، بينما

وقف « الدفاع » فى الناحية الأخرى ، متأهبا لتفنيد أدلة الاتهـام وانقاذ رقبة الفأر المسكين من المصير المؤلم !

ولابد أن نؤكد من الآن أننا لسنا حيال احدى قصص العبث وشطحات الخيال ، الا اذا اعترفنا بأن الواقع نفسه كثيرا ما يكون أكثر غرابة وعبثية من أى خيال !

انما نحن حيال لحظة تغير فيها تماما كيان هؤلاء الرجال النفسى ، بعد خمس سنوات قضـوها فى ذلك السـجن النائى المطوح فى الصحراء ، والذى اشتهر باسم « سجن المحاريق » .. حيث فى جهنم الصيف ، أو فى زمهرير الشتاء تحترق أو تتمجد الأشياء والكائنات الحية ولا يبقى منها الا القادرة على التكيف فتتحول الى كائنات كل همها الافلات من الفناء ومن الانقراض .

وقد بدا ذلك واضحا من طريقة نومهم فى تلك الليلة ، قبل أن يتسلل الفأر اليهم من تحت عقب الباب ، وهم ممددون جميعا فوق أسفلت الزنزانة ، شبه عراة من شدة الحر ، فى مسـاواة تامة . رغم أنهم كانوا قبل المجىء الى هنا ينتمون الى فئات ومهن ومسـتويات اجتماعية مختلفة . فمنهم من كان مشهورا الى حد النجومية ، مثل اسماعيل يسرى الشاعر الذى أخذ شهرته بسبب قصائده الهجومية العنيفة على النظام وعلى السلطة والسلطان .

ومثل كامل البدرى المحامى الذى احترف النضال السياسى منذ أن كان طالبا بالجامعة . وبعد أن تخرج نذر نفسـه كمحام للدفاع عن المتهمين فى القضايا الوطنية والسـياسية ، كما كان المؤسس الأول للجنة الدفاع عن الحريات الشهيرة حينذاك .

ومثل أحمد رضوان الذى كان يعمل مستشارا بمجلس الدولة،

قسم الافتاء والرأى ، ثم نحى عن موقعه بسبب فتاويه المضادة لاتجاه الدولة ، فعكف على كتابة كتب ومقالات تتضمن رؤيته وتفسيره لأحداث التاريخ المعاشر ، فطاردوه وطاردوا أيضا كتبه ومقالاته !

ومنهم من كان شخصية عادية مغمورة ، لا صلة لها أصلا بدنيا النضال الوطنى والسياسى ، لكن قدرها أوقعها فى شباك هذا العالم المتفجر البركانى ·· مثل محمود المناديبى ·· الموظف الصغير ، رغم أنه كان اضخمهم جسما ، والذى كانت كل طموحاته فى الحياة أن يسد أفواه أسرة كبيرة ، تبدأ بأمه وأبيه ، وتنتهى بزوجته وأولاده الصغار الثلاثة ، ثم صدرت عنه ، من فرط احساسه بالأزمة ، نكتة لاذعة ، وصلت « المسئولين » فكان ذلك بدء نكبته ومأساته !

ومثل ذلك المجند الهارب الذى قبض عليه فى المظاهرات ونجح فى اخفاء حقيقة أمره ، فعومل كمدنى ·· وكتبوا أمامه : منصور البنهاوى : عاطل ·· و محترف ثورى !

ومثل العاطل حقيقة ·· عرفان أبو الليل ، الذى كان يسير شريدا فى شوارع القاهرة ، يبحث عن أى عمل ، ثم فوجىء بالمظاهرات تكتسح الشوارع ، فوجد نفسه بلاوعى يدخل فيها ويهتف بحماس مع الهاتفين ·· كأنما وجد لنفسه عملا !

ومنهم من هو « بين بين » مثل حازم سعد ، الطالب بالسنة النهائية ·· كلية الاعلام قسم صحافة · والذى يتدرب فى قسم التحقيقات الصحفية باحدى الجرائد اليومية الكبيرة ·

ومثل ابراهيم العلائى ·· عامل النسيج ، والريفى الأصـل ، والموهوب فى صناعة التماثيل من الطين أو من لباب الخبز المتبقى ·

رغم هذا التباين الواضح فى الهوية ، فقد قبض على الثمانية فى ليلة واحدة ، ضمن حملة اعتقال واحدة هائلة غطت أرض مصر كلها ، وألقى بهم فى هذه الزنزانة !

وقد أدرك الفأر من أول لحظة أطل فيها برأسـه وشـواربه من تحت عقب البـاب ، أن لا شىء عادى فى المـكان · كانوا جميعا نائمين أو مغلقين عيونهم تماما ليخففوا من وقع ضـوء الكهرباء الساطع · وما أكثر ما تمنوا لو كان مفتاح النور فى متناول أيديهم · لكن المفتاح الرئيسى كان هناك ، فى مبنى الادارة ، حيث مأمور السـجن ، وكلابه ورجاله ، لا يغلقونه الا مع انتشـار ضوء النهار · أما الليل ، فلابد أن يبقى ضوء الكهرباء ساطعا ، كاشفا لأية حركة مريبة يقوم بها أحد هؤلاء « السياسيين » الملاعين الخطرين الذين لا يؤمن لهم أبدا !

ومع هذا ، رغم الضوء الساطع المركز عليهـم ، فقد بدوا جميعا وقد سقطوا فى جب النوم العميق ·· أو ·· فى حلم يقظة أعمق ·· أو ·· هى غيبوبة عقلية أورثها اياها ذلك التبلد والتحجر الذى أصاب أدمغتهم وخيالهم بالتدريج ، يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ·· مع تواتر الحياة الجهنمية وتكرارها ، منذ جىء بهم الى هذا المنفى مكبلين بالحديد ، عبر رحلة الأهوال فى الصحراء ، وكل مجموعة تربطها سلسلة واحدة · بالنهار ، من طلعة الشمس ، يعملون فى تكسـير الأحجار · وفى المساء والليل لا شىء غير التجمع والتمدد تعبا على الأرض والتسلى بالحديث ·· ولكن حتى الأحاديث فرغت ·· الأحاديث الحقيقية والأحاديث المتخيلة ·· لم يعد ثمة جديد أو مثير ·· ولا ثقب ضوء من الأمل ··

الكل كان نائما ، أو هادئا ، أو ساقطا فى الغيبوبة ، حين أحس أحدهم ، وهو الشاعر ، بثمة حركة غريبة ، ففتح عينيه واذا به يرى فارا يتشمم وجهه ٠ واذ التقت نظراته بنظرات الفأر ، حدثت انتفاضة فزع من الاثنين ٠ الفأر أنطلق قافزا يجرى ٠٠ وهو ٠٠ هب واقفا ، وحمل بطانيته واندفع على باب الزنزانة ، وسد بها العقب الذى دخل منه الفأر ٠ وما ان نجح فى ذلك حتى صاح على الفأر بلهجة المنتصر : ووقعت يا ابن الـ ٠٠ ٠٠

ومضى يضحك ، بينما الفأر كان يجرى متخبطا مذعورا فى كل اتجاه ٠٠ انتفض الباقون ٠ صحوا من نومهم ٠ وما أن رأوا المنظر حتى خيل لهم أنهم فى حلم أو كابوس مزعج ٠ وراح كل واحد منهم يتفادى اصطدام الفأر به ٠ واذ اصطدم بالفعل بأحدهم ، وهو « محمود المناديبى » ٠٠ والغريب كما قلنا أنه كان أضخمهم جسما ، حتى صرخ فى وجه الشاعر كأنما أصابته هستريا : ما هذا الجنون الذى تفعله ؟ هل نحن ناقصون فئرانا ؟ اخرجه فورا ٠

قال الشاعر وقد أخذ بثورته ٠٠ وكلماته : ولماذا تصـــرخ هكذا ٠٠ لم يحدث شىء يســـتحق منك هذه الثورة ٠ أتريد لهذا الوضيع أن يخرج بهذه البساطة ، بعد أن وقع ؟!

حملق فيه المناديبى : وما الذى تريد أن تفعله به ؟!

ـ ســـنرى ٠٠ بعد أن يســـتقر ! خذها ٠٠ أرجـوك ٠٠ ببساطة ٠

كان الآخرون يتابعون حركة الفأر المذعور ٠٠ وحين رأوه يلجأ الى الركن المجاور لباب الزنزانة خلف جردل الماء ، ويقبع ساكنا فى ظله ، هدأت توتراتهم ، وتحول استغرابهم وذهولهم الى

ابتسامات ، أو الى نظرات ضيق ·· انهم يعرفون زميلهم الشاعر وحبه الشديد للهزل يحارب به البؤس واليأس ·· كم له فى هذا من فصول ·· هى محض تخاريف خيال ·

قال كامل البدرى المحامى وهو يتأمله بابتسامة ســـــاخرة ودودة :

ـ حقا ان الشعراء لقوم مشعورون · لم يبق غير الفئران تجعل منها لعبتك ، وتقوى بها عزيمتك ؟!

قال الشاعر متماديا ، مؤكدا موقفه : ولم لا ؟ الغاية تبرر الواسطة !

ـ واسطة حقيرة ·· ومقرفة ·· هيا خلصنا منها · أنت تعرف ماذا ينتظرنا فى الصباح ·· ولابد أن نأخذ راحتنا ·

قال المناديبى : أنا شخصيا سأنام ·· ســـــواء أخرجته أم استبقيته ·· سأنام ·· نحن فى سجن ، ولســــنا فى مستشفى مجاذيب !

وبالفعل ·· تمدد على الأرض بجسمه الضخم ·· معطيا ظهره لهم ، ووجهه للحائط فى سكون ·

قال كامل البدرى ، محامى الحريات ، مخاطبا الشاعر بجدية : ان لم تتركه يخرج · سأخرجه أنا ·

صـــاح الشاعر بغضــب ، وقد وقف معترضا ومتصديا لأى تحرك : قلت لا · لن يخرج بهذه الطريقة · لن أسمح بذلك ·

حين رأى المحامى جدية غضبه وانفعاله تمهل · وحسب حساب أن يكون زميله قد انتابته نوبة ، ولابد أن يتعامل معه بهدوء وحكمة ·· وحانت منه نظرة الى الباقين ليستطلع مواقفهم وأثر الحادث

عليهم · كانوا جميعا ـ باستثناء الذى نام ووجه الى الحائط ، ينظرون ويتابعون فى ذهول مختلط بابتسامة رضا · كما لاحظ أن أوسع الابتسامات هى ابتسامة أكبرهم سنا ·· الأستاذ رضوان المستشار السابق والمؤرخ الحالى · تراه ينظر الى هذا الذى يحدث كاحدى العلامات الساخرة للتاريخ المعاصر ؟! ·· كما رأى الطالب حازم ، الحالم بأن يكون صحفيا وكاتبا بالجرائد ، وقد انتابته حيوية وحماس شديدين ، وقال معلقا بمرح :

ـ شاعرنا عنده حق طبعا ·· كيف يترك هذا الفأر يخرج قبل أن يخرج هو منه بقصيدة شعر جديدة ويسميها ·· يسميها ··

أسرع العلائى عامل النسيج والموهوب فى صناعة التماثيل ·· قائلا : يسميها الطاعون ·· ما رأيكم ؟!

شوح البنهاوى ـ الشريد ـ بيده فى سخط وضجر : أعوذ بالله · ما هذه السيرة المقرفة · أتعرفون أين كنت ؟ · (وسرح بنظراته) جالسا على النيل ·· ومعى بنت حلوة ·· أجمل بنت فى حينا · وكنت على وشك أن أحتضنها ، وأشرب من العناب الذى فى شفتيها ·· ثم فجأة ·· أصحو على فأر ؟!

قال الشاعر مداعبا : أليس أحسن من أن تصحو على لا شىء ؟!

ضحكوا ·· ضحكة انتقلت عدواها الى المناديبى الذى كان يبدو أنه نائما ، واذا به يستدير بوجهه عن الحائط ويقول : وماذا كان يحدث لو أنه صحا على فأرة ، وليس فأرا ؟!

ضحكوا ·· قال الطالب حازم : كان سيأخذها بالحضن فورا !

ضجوا جميعا بالضحك · وفرح الشاعر بأن المناديبى تخلى عن موقف المقاطعة للعبة ، وبدأ يشارك فيها · وصاح مخاطبا اياه : هو ذاك · اكشف يا مناديبى عن موهبتك العظيمة التى أودت بك الى هنا · موهبة التنكيت والاضحاك · لكن نكتتك لم تكن جنسية على ما أذكر ·

ــ لا تذكرنى أرجوك ·· والا أعطيت وجهى للحـــائط من جديد !

ضحكوا مرة أخرى · ضحكة عالية صافية · كانت أعلاها وأصفاها ضحكة كبيرهم فى العمر ، الأستاذ رضوان ، بجسمه المربع وشعره الأبيض · والذى لم ينطق من أول الموقف بكلمة · وحين رأوه يقهقه فجأة وبكل هذه البساطة والطلاقة ، فرحوا مثلما يفرح الأبناء حين يرون أباهم الوقور المهموم بمسئوليات الحياة فى لحظة متخففة بهيجة · واكتسبت اللحظة طعما جماعيا عائليا حلوا ·· وبدت لهم المسألة فجأة كلعبة لطيفة وطريفة · فلتستمر بعضا من الوقت ·

قال المستشار للشاعر دون أن تزايل الابتسامة وجهه ·

ــ والآن ياسيد اسماعيل يسرى ·· فلنتحدث بشكل موضوعى · لماذ انت مبق على هذا الفار حتى الآن ؟!

ــ ذلك لأننى لم أصـــل بعد الى التصـــرف الواجب معه · فلتشتركوا معى فى الرأى !

قال المناديبى من مرقده : وهل أشـــركتنا فى الرأى حينما استضفته معنا ؟

ــ قصدك اعتقلته ··

هز الشاعر كتفه لا مباليا ..

– يمكن أن تقول هذا .

رفع كامل البدرى المحامى ذراعه منبها : اذن فلجنة الدفاع عن الحريات تحتج . كيف تقبض عليه دون اذن ؟!

رد الطالب حازم مبديا دهشته : وهل اللجنة تدافع عن حرية الفئران ؟!

– تدافع عن أى مظلوم أو مقهور فى العالم . انسانا كان أو حيوانا ، أو حتى نباتا . لجنتنا راقية وتؤمن بوحدة الكائنات .

صاح المناديبى متاثرا بالكلمات والمعانى : اذن فلتعيش لجنة الدفاع عن الحريات .

قال الشاعر مؤكدا : مهلا أيها السادة .. مهلا .. فأنا ايضا أؤمن بوحدة الكائنات . انما متى ؟ حين تكون كائنات صالحة .. خيرة .. وتعمل فى انسجام للصالح العام .. هل ينكر استاذنا المناضل ، مؤسس لجنة الدفاع عن الحريات ، مبدأ التناقض والصراع بين الكائنات !

قال كامل البدرى : بالطبع لا .. لكنى مع المظلوم أيا كان .. ضد الظالم مهما كان ..

قال البنهاوى .. الذى كان شريدا : اذن فأنت مع هذا الفأر .. ذلك لأنه فأر مظلوم .. أعتقد هذا .. هو فأر من فئران الصحراء .. كان شريدا جائعا يبحث عن قوته ، ثم أدخله سوء حظه عند أناس أكثر جوعا منه . هذه هى كل الحكاية !

قال البدرى : بهذا المنطق ، يجب أن نطلق سراحه فورا .

وأضاف المناديبى : ونعتذر له أيضا بحرارة ٠

ضـــحكوا ٠٠

صاح الشاعر معترضا ٠٠ بصوت فيه نبرة تحذير : لا أيها السادة ٠٠ ليست المسألة مسألة جوع أو شبع ٠٠ فضلا عن أنه أكثر سمنة منى وأشار على عظام قفصه الصدرى البارزة) لكنه ليس فأرا عاديا ٠٠ أؤكد لكم ٠٠ بالعكس ٠ انه فأر من نوع خطير خطير ٠ انكم لا تتصورون الجريمة البشعة التى جاء الى هنا متسللا ليرتكبها ضدنا ٠

انتبهوا جميعا : آية جريمة هذه ؟!

ـ هذا الفأر جاسوس ٠ تسلل الينا مبعوثا من قبل أسياده ليعرف دخيلة أخبارنا ، وحتى أحلامنا ونحن نيام ٠

هب المناديبى من رقدته : فأر جاسوس ؟!

ـ هاهاها ٠٠ (واختلطت الضحكات بالتعليقات)

ـ الصماويل فكت تماما ٠٠

ـ واضح أن اللعبة انتهت ٠٠

ـ نضحك آخر ضحكة ثم ننام ٠ ٠

وعاد المناديبى يقول : ألم أقل لكم أن النوم أفضل ؟!

ـ أرجوكم ٠٠ لحظة من فضلكم ٠ (قال الشاعر بغضـــب وحدة) تستنكرون أن فأرا يصبح جاسوسا ؟! ولماذا لا تستنكرون أن الجاسوس الرجل يتحول مع الأيام الى فار ؟ ٠٠ يصبح وجهه وجه فأر ، وتصرفاته تصرفات فئران ٠ جبان ٠ متسلل ٠ متشمم ٠ فيه طبيعة الغدر ٠ يلجأ دائما الى الظلام والى الأركان ٠ الجاسوس فار ٠

والفأر جاسوس . لا فرق . وتتبعوا تاريخ أى رجل عمل بالتجسس . ستجدون فيه من الأصل جزء فئرانى .. الفئران أيها السادة مؤهلة بطبيعتها لهذا العمل الحقير .. ولا تتعجبوا .. فقد دخل العـــلم والتكنولوجيا فى الموضوع ؟!

ـ العلم والتكنولوجيا .. كيف ؟!

ـ ألم ينجحوا فى تدريب الدرافيـــل على أن تقـــوم بدور الجواسيس على غواصات الأعداء تحت سطح الماء ؟! فهل سيصعب عليهم تدريب الفئران على ذلك ؟ بالعكس .. ان الأمر يصبح أسهل بكثير . هذا لو أخذنا فى اعتبارنا طبيعة الفئران .

ـ وهل وصلوا حقا الى هذا مع الدرافيل ؟!

ـ ومع غير الدرافيل . (أكد الشـــــاعر) لقد حقق العلم اكتشافات مذهلة وخطيرة .. انما نحن الذين نعيش على هامش العالم ولا ندرى بما يستجد فيه . وأنتم تعلمون طبيعة هؤلاء المجرمين .. انهم يلتقطون اكتشافات العلم العظيمة ويحولونها الى خدمتهم . هل نسينا ما حدث بعد اكتشاف امكانية انقسام الذرة ؟! حولوها الى قنبلة ذرية هدموا بها مدينتين على سكانها .. ثم أبقوها بعد ذلك سلاحا لارهاب وهدم نضال الشعوب . اليوم تستكثرون أن يجعلوا من الفئران جواسيسا ؟!

قال المناديبى منفعلا ، بصوت خفيض ، كأنما يكلم نفسه : لا .. ليس كثيرا عليهم أى شىء .. الأوغاد . القتلة . قتلة الضمير قبل الأجساد !

تشجع الشاعر بتعليق المناديبى وانفعاله .. واصل : تصبح عيناه ، بفضل العدســـات اللاصقة ، كاميرتان خفيتان تصوران ،

وتسجلان . شواربه .. تصبح قادرة على التقاط الذبذبات الداخلية للانسان .. حتى وهو يحلم . العلم الآن يفعل الأعاجيب ! وهذا ما يجب أن يتنبه اليه رجال القانون (ونظر الى المحامى والمستشار) .

قال المستشار : لو افترضنا أن هذا الكلام صحيح .. ما الذى يؤكد لنا أن هذا الفأر بالذات هو من هذا النوع ؟!

قال الشاعر مسرعا : ذلك ما أحسسته فيه لحظة أن استيقظت عليه يتشمم وجهى ورأسى . فما كدت يا اخوانى أفتح عينى حتى وجدتنى أمام وجه الرجل الذى قبض على .. كنت ليلتها مستغرقا فى النوم ، وجاء هو متسللا فى الظلام ، وبنفس الأسلوب الذى لجأ اليه هذا الفأر ، حينذاك انتفضت وقبضت عليه .. انهم جميعـــا فئران .. هؤلاء الذين قبضوا علينا فى تلك الليلة الكالحة الباردة !

نقلتهم الكلمات فورا الى ليلة القبض . استرجع كل منهم ذكرى الحادث كما وقع له ، وتراءى لهم الرجل أو الرجال الذين انقضوا عليهم فى صورة فئران .. أجل .. كلهم يتسللون فى الليل .. ودائما وقت النوم .. يقتحمون دوظ استئذان ، ويتشممون ثم ينقضون .. لم يعد الفأر فأرا . أصبح هو القهر والبطش والام وعذابات المنفى والبعد عن الأهل والأحباب ..

ــ هذا الفأر يجب أن ننتهى منه فورا .. بقتله !

قالها الشريد الذى كان منذ قليل متعاطفا مع الفأر .

وأضاف المجند مؤيدا : وأنا الذى سأقوم بهذه المهمة ..

وتحرك فى اتجاه الفأر . غير أن الشاعر أسرع باعتراضه وقال راجيا .. بشدة :

ـ لا · ليس بهذه الصورة · نهاية هذا المجرم يجب ان تكون نهاية تاريخية ومشهودة ؟!

ـ ماذا تقصد ؟!

ـ الايكون ما نفعله مجرد قتل فار · بل يكون قتلا لجميع الفئران ·· هذا هو المغزى ·

ـ وكيف يتم ذلك ؟!

ـ نحاكمه ·

ـ نحاكم من ؟!

ـ الفار طبعا !

واذ ضحك البعض لغرابة الفكرة وخرافيتها ، صاح الطالب منبهرا بها ·· كموضوع يمكن أن يكتب وينشر فيما بعد ··

ـ يالها من فكرة ! · محاكمة فار ·· نحاكم من خلالها جميع الفئران ·· لم لا ·· ألم نتفق على ان هذا الفار ليس فارا عاديا ؟!

قال الشاعر سعيدا برأيه : ولكى نثبت لهم أننا أفضل وأرقى منهم ، واننا المؤمنون ·· قولا وعملا ·· بالعدل وبالحرية وبالديمقراطية · خمس سنوات أيها الزملاء ونحن بلا محاكمة ·· المتوحشون ·· القتلة ·· بينما هو ـ عميلهم ـ (وأشار على مكان الفار المختفى) يحاكم قبل مرور ساعة من القبض عليه ·· (ونظر

اليهم واحداً واحداً ·· مخاطبا بالاسم) أليس كذلك يا رفاق المحنة والأيام السوداء ·· انها لفرصة تاريخية ، يجب الا نفوتها ··

وأمام غرابة الفكرة وطرافتها ، وتجاوبها مع المأساة التى ترقد فى الأعماق ·

وافقوا جميعا على الفكرة ··

صاح الشاعر : اذن نبدأ بتشكيل المحكمة ·

وهكذا دخلت اللعبة الدرامية الغريبة والمثيرة مرحلة جديدة ٠ وبدوا جميعا متحمسين ٠ من أصغرهم سـنا (الطالب الجامعى وهاوى الصحافة الذى لم يتعد الثانية والعشرين) الى المستشار السابق رضوان الذى قارب الستين ٠ الكل بدا حريصا على أن يشارك ويلعب دورا فيها ٠ لهذا لم يستغرق تشكيل هيئة المحكمة وتحديد بقية الأدوار غير دقائق قليلة ٠٠ فقد وقع الاختيار بالاجماع على الأستاذ رضوان ، بحكم السن والمستشارية ، لكى يكون رئيسا للمحكمة ٠٠ ووافق هو على ذلك بابتسام ورضا ٠

كما رحب صاحبنا الشريد بأن يتقلد منصب عضو اليمين ٠ وكذلك المجند الهارب بمنصب عضو اليسار ، وانتفخت أوداجهما كبرياء وفخرا ٠

أما الشاعر فهو بالطبع ممثل الاتهام ، باعتباره المفجر الأول للموقف ، وانضم اليه فى هذا ثلاثة : الطالب حازم ٠٠ وابراهيم العلائى العامل ، ومحمود المناديبى الموظف ، حسب ما أبدوا من رغبة ٠٠ وان بدا المناديبى الضخم مجاريا لا أكثر ٠

ولم يبق غير الأستاذ البدرى المحامى . قال محددا دوره : تعلمون حضراتكم أنه فى مثل هذه المحاكمات الهامة ، قد درج العرف على ضرورة وجود رقابة شعبية ، تأكيدا لفكرة العلنية ، وضمانا للعدالة المطلقة .

تحمس الشاعر : يالها من فكرة . وبالنسبة لظروفنا ، يكفى ممثل واحد للشعب ــ للجمهور .. وليكن أنت . لا أظن أن أحدا يعترض .

ولم يعترض أحد . غير أن المشكلة ثارت فجأة حين قال رئيس المحكمة :

ــ القانون يوجب انتداب محام عن المتهم .

ــ آه ..

تبادلوا النظرات . كان الكل قد تحدد دوره . عم الصمت .. لم ينطق أحد بكلمة ..

تفرقت النظرات . فمن ذا الذى يقبل القيام بهذا الدور البغيض، ولو حتى تأكيدا لفكرة العدالة ؟

قال رئيس المحكمة : فلتؤجل الجلسة حتى يتم انتداب محام للمتهم .

أسرع الشاعر مناشدا .. راجيا : لا يا سيدى الرئيس .. أرجوك .. أنتم تعرفون دقة لظروف . لو تأجلت المحاكمة هذه الليلة فلن تنعقد بعد ذلك أبدا .

ــ إعطنى حلا ..

ــ قليلا من رحابة الصدر ياسيدى . وستحل المشكلة . لابد ستحل . ولو اقتضى الأمر فسأقوم أنا بهذه المهمة . ولن يكون فى

ذلك أى عيب • ذلك لأننا فى النهاية لا نبغى غير تأكيد العدل ••
(وارتسمت على وجهه التعاسة • وراح يدور بنظراته على الموجودين)
أليس من انسان كبير القلب •• رحب الصدر •• واثق بنفسه كل الثقة ، يقبل القيام بهذه المهمة •• وينقذ الموقف ؟!

و لايدرى لماذا تمهلت عيناه قليلا عند المناديبى ، وابتسم له •• ابتسامة استعطاف وعشم •• خجلا فى ذات الوقت مما يفعل •• واذ التقت النظرتان ، رأى انقلابا فى ملامح المناديبى ، ومضة غريبة لمعت بها عيناه • حول عنه نظراته فى الحال ، خائفا من أن ينفجر الرجل فيه •• غير أن المفاجأة الغريبة حدثت •• فقد رفع يده بجدية شديدة وقال :

ـ اقبل انتدابى للدفاع عن المتهم • هل بهذا تنتهى المشكلة ؟!

صاح الكل مهللا ، بين دهشة واستنكار سرعان ما أخفوهما ، بينما اندفع عليه الشاعر يحتضنه : أقسم أنك صاحب أكبر وأنبل قلب فينا • وسيسجل لك تاريخ العدالة هذا الموقف الانسانى • الآن لم تعد هناك مشكلة ياسيدى •

* * *

سيدى الرئيس •• السادة المستشارون أعضاء الهيئة الموقرة •

اننا اليوم ازاء محاكمة تاريخية لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل •• محاكمة لو نجحنا فيها فاننا نقدم بهذا للانسانية تراثا ثمينا وجليلا ينفعها فى مسيرتها الى الأمام •• ذلك لأن الهدف الأعظم والأسـمى منها هو تطهير العالم من الفئران •• وانكم لتعلمون ياسيدى أن عالمنا اليوم يمر بمرحلة أو بمحنة غاية فى الخطورة • والسبب فيها هى سيطرة الفئران • ان ظاهرة انتشـار الفئران

وتسيدها على حياتنا ليست صدفة عبثية من صدف الطبيعة ٠٠ انما هى مخطط اخطبوطى هائل ينتهى بأن ٠٠

قال الرئيس مقاطعا بهدوء :

ـ مع احترامى لكلام المدعى وادراكى لأهميته « الا اننى أرى الدخول مباشرة فى موضوع الدعوى ٠ أولا بسـبب الظروف التى تجرى فيها المحاكمة ، والتى اشرتم أنتم بالذات اليها منذ قليل ، ان عنصر كسب الوقت أمر هام جدا ٠ فقد يداهموننا فى اية لحظة ويفسدونها علينا ٠

ثانيا ٠ وهى نقطة قانونية هامة يعرفها جيدا السيد المراقب (واشار على البدرى المحامى) وهى اننا يجب أن نكون حيال جريمة محددة بالذات ٠ فالقانون ينص على أن الجريمة شخصية ٠ وكذلك العقوبة ٠ (هز المراقب رأسه موافقا ٠٠ مؤكدا) ذلك لأن المتهم ٠٠ أى متهم ٠٠ لا يصح أخذه بذنب غيره ٠٠ فما هى ادلة اتهامك ضد هذا الفأر بالذات ؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة ، وأحنى رأسه باحترام : معذرة سيدى الرئيس ٠ اننى أقدر جيدا ما أشرتم اليه ٠٠ فعن النقطة الأولى ٠ لابد فعلا من مراعاة الظروف التى نحن فيها ٠ ولكننا ـ وعفوا ياسيدى ـ لا يصح أن نقع فى خطأ الاستعجال المخل ٠ ذلك لأن المحاكمة يجب أن تستوفى أسباب نجاحها واكتمالها ٠ وأحب أن أطمئنكم جميعا ، وبكل ثقة ، أن هذه المحاكمة لابد ستكتمل ٠

حتى ولو جاءوا فى اية لحظة وفضوها ٠٠ حتى لو جاءوا وساقونا أمامهم الى الجبل كالمعتاد لنكسر الأحجار ، فاننا سنعود بعزيمة أشد لنواصلها ٠

مال عضو اليمين « الشريد » على الرئيس وهمس فى اذنه بكلمات · قال الرئيس :

— على المدعى أن يتذكر شيئا · ان لحظة واحدة يفتح فيها الباب ، سيقفز المتهم ويفر هاربا الى الأبد ·

— نحاكمه غيابيا ياسيدى ·

— غيابيا ؟!

— لم لا أيها السادة ؟ · ولدينا فى ذلك نقطة مشـــجعة · أن زميلى فى الاتهام (وأشار على العامل) ابراهيم العلائى ، يستطيع وهو الفنان الموهوب ، أن يصنع للفأر تمثالا ونمضى فى محاكمته ·

(رفت على الوجوه ابتسامة) ألم نقل أننا نجرى محاكمة غير تقليدية · محاكمة لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل ؟!

تقدم العلائى خطوة من هيئة المحكمة متحمســا وقال : أنا شخصيا مستعد · وسأحاول هذا من الآن ·

صاح عليه الشاعر : أحيى ثوريتك أيها الفنان الشعبى العظيم · العامل حين يكون فنانا يصبح أعظم الناس · ومع هذا فأنا حريص على أن تكتمل المحاكمة فى حضور هذا المتهم الخطير اللئيم · هذا عن النقطة الأولى ياسيدى · أما عن الثانية · وهى أن الجريمة شخصية والعقوبة أيضا ، وألا يؤخذ أحد ، أو فأر بذنب غيره ·· فأنا حريص على هذا · ذلك لأنى واثق كل الثقة ، بأن هذا الفأر أجرم فى حقى وسأقيم الدليل على هذا · ان أبسط حقوق الانسان ياسيدى أن يعيش حياته غير مؤرق بآخر يتجسس عليه ، ويتشمم أثر خطواته ، ويسجل عليه كلماته في الخفاء · ولقد حول هذا الفأر

حياتى الى سلسلة من المضايقات والتوترات · تلك هى أول جريمة ارتكبها فى حقى ·· جريمة اختراق حياة انسان وهتك أسرارها بدون رضاه ! · ولسوف تسألنى المحكمة الموقرة : كيف يتأتى لفأر أن يقوم بهذا ؟! ·· أقول ياســـيدى أن هذا الفأر قادم من مدينة يســـخطون فيها الرجال ويحولونهم الى فئران · ليس كل الرجال بالطبع · هناك رجال ونساء تتنافى طبيعتهم الراقية مع هذا ، وهم ضد مسخ الانسان · ولهذا فهم يكرهونهم ويسلطون عليهم هؤلاء المســـوخ ليتعقبونهم ويفسدون عليهم طعم الحياة ·· وهذا الفأر واحد منهم !

لقد خصصوه ليتعقبنى · وكنت أحس به ، بجانب الحيطان ، وفى التاكسيات وفى الأتوبيسات ·· وكنت أتظاهر بأنى لا أحس به · الى أن جاء يوم ضاق فيه صدرى بمطارداته · فأمسكت به بغتة من خناقه ورحت أصيح ·· ·فاضحا اياه : يا ناس ·· هذا الرجل يلاحقنى ويتجسس على ·· اننى اشهدكم عليه ·· ولو خنقته الآن بيدى لـ ···

ولم اكمل فقد فوجئت بقبضة يده تهوى على وجهى فترنحت وسقطت على الأرض · وما كدت انهض حتى كان قد اختفى ، بينما كان بعض الشهود يضحكون والآخرون يمصمصون شفاهم أســـفا على ···

مرت بعد ذلك أسابيع لم أره ولم أحس به · خيل لى أنه وعى الدرس جيدا فأصبح يتجنب مطاردتى · الى أن كانت ليلة دعيت فيها لسهرة فى بيت ممثل سينمائى مشهور بمناسبة حصوله على جائزة · كانت ليلة رائعة تموج بالأضواء وبالنجوم ·· وبينما أنا واقف مع مجموعة نتحدث ، اذا بى ألمح وجهه يمر من أمامى ·· تعجبت · كان مصدر العجب ملابسه الذى يرتديها · كان بثياب

السهرة ‥ بالغ الأناقة ‥ بينما تعودت عليه من قبل يلبس جلبابا بلديا فضفاضا ، أو بنطلونا وقميصا وحذاء كاوتش ‥

راجعت نفسي بسرعة ٠ لابد أنه شبيهه ٠ ويخلق من الشبه أربعين ‥ ألقيت بالشكوك خلفي ٠ غير أنها عاودتني بقوة حين لاحظت عينيه ترصدان كل تحركاتي ‥ عاودني ضيق الصدر ٠ قررت أن أقطع الشك باليقين ٠ خرجت وحدي الى الشـــرفة المطلة على الحديقة ‥ ثم هبطت من الشرفة ومضيت سائرا في الحديقة ‥ بين الأشجار ‥ في الظلام ‥ واذا بي أسمع حفيف خطواته ‥ كان يتعقبني ٠ كدت انقض عليه ٠ قلت له مواجها ، وعيناى في عينيه : انك هو ٠ وعبثا تتنكر في هذه الملابس الأنيقة !

ابتسم وقال : ومن قال أنني أتنكر ‥ أنا هو أنا ‥ أما تغيير الملابس فهو ليس من قبيل التنكر ‥ انما انا في الغالب أحب الملابس الخفيفة التي لا تعوق حركتي ‥ سواء كان جلبابا فضفاضا ، أو بنطلونا وقميصا ‥ واستريح جدا للحذاء الكاوتش أو الكريب بنوع خاص ‥ لكني كما أنا عليه الآن ، هو أنا الحقيقي ‥ ويمكنك أن تزورني في مكتبي لتعرف بالضبط قدري ومركزي ٠

قلت : هل يعني هذا أنك رئيسهم ، أو واحد من الرؤساء ؟!

هز رأسه بالموافقة ‥

اشتعل الغضب في رأسي ، وقد تذكرت الضربة التي كالها لي في وجهي ٠ أمسكته من خناقه : مهما كان قدرك ومركزك ، فلابد أن أرد لك الضربة !

قال مدهوشا :

ـــ ضربة ؟! أية ضربة ؟!

ـ الضربة التى وجهتها الى فى وجهى وأوقعتنى على الأرض امام الناس ··

قال مستنكرا : انا ·· ضربتك ؟! لم يحدث · متى حدث هذا ؟!

هززته بقوة من خناقه : لا تكذب · فأنت قلت لتوك ·· انك هو ·· وحتى اذا لم تقلها ·· فملامحك تنطق بها ··

ابتسم دون أن يحاول اخلاء يدى من خناقه : لا تجعل عصبيتك توقعك فى الخطأ · هناك حقيقة يجب أن تدركها ·· اننا كلنا متشابهون ·· وهذا يسبب لنا كثيرا من الحرج ··

أحسست بدونيته وحقارته · شددت على خناقه : سواء كنت هو أم شبيهه · سواء كنت الضارب أم الآمر بالضرب ، لابد أن آخذ منك حقى الآن ··

قال دون أن تزايل وجهه ابتسامته الكريهة : ها انا أمامك · اضرب ان كنت تريد ·· ولكن تذكر أن ضاربك الحقيقى قد تقابله بعد قليل ، وحينذاك ستندم كثيرا ·· والآن دعنى أتنفس ·

ـ حقراء ·· أنتم أحقر خلق الله ··

وأخليت يدى من خناقه · عدل من ملابسه ومن رباط عنقه وقال : هذا هو عيبكم · عصبيون · تفرغون طاقتكم فى سب وشتم أعدائكم ··

ـ اذن فأنت تعترف بأنك عدوى ·

ـ وهل يحتاج هذا الى اعتراف ؟ اننى أحاربك · ولابد أن أوقع الهزيمة بك !

لولا انه كان يتكلم بهدوء بالغ ، لقلت أن به لوثة · قلت ساخرا : الى هذا الحد تظن انى خطير ؟ انت واهم · فأنا لست فى

تنظيم سرى ·· أؤكد لك ·· ولا فى أى تشكيل من تلك التشكيلات الخطيرة التى تزعجكم ·

قال : وهل تظننى لا أعلم هذا · إننا أعرفكم بالواحد · الذين تحت الأرض ، والذين فوق السطح · وأنت من الذين فوق السطح · وهذه هى خطورتك ·

ـ كيف ؟!

ـ منذ قليل سمعتها وهى ترجوك أن تكتب لها أغنيات فيلمها الجديد !

ـ وماذا فى هذا ؟

ـ فى هذا الكثير · الأغنية الواحدة أخطر من ألف منشور ·· فهل نتركك تدخلون هذا المجال ببساطة ؟

رغم انى أحسست بالسعادة لاحساسه بقيمة وخطورة كلماتى ، الا أن صدرى فى نفس الوقت تعبأ بكل الكراهية الممكنة ضده ·

ـ شىء بشع أن تكون وظيفة الانسان هى محاربة الكلمة !

ـ أنا لا أحارب الا الكلمة المسمومة ·

ـ أنا ·· كلماتى مسمومة ؟!

ـ من وجهة نظرى !

ضحكت رغما عنى ساخرا :

ـ انت ؟! لك وجهة نظر ؟!

قال دون أن تزايله ابتسامته الكريهة : تخطىء خطأ كبيرا حين تنظر لى على أننى مجرد آلة منفذة لخطط وأوامر صادرة من فوق ··

لا ·· اننى مؤمن بما افعل · ولهذا انا ناجح ومتفوق فيه · ليس هناك من خطة تمس مصير البلاد الا ولابد أن أوافق عليها أنا ·· ذلك لأنهم يثقون فى وطنيتى ·· وفى ثقافتى ·· وأننى لأدعوك الى زيارة لمكتبتى ·· سترى فيها كتبا لن يتاح لك طوال حياتك أن تقرأها ·· أنا اكثر ثقافة من هؤلاء المهرجين الذين يركبون الجماهير بديماجوجيتهم ولعبهم على آلامهم ·· جرب مرة أن تفكر بأن وجهة نظر خصمك قد تكون سليمة ·· لم لا ؟! فلنبدأ جلسات معا ·· تناقشنى وأناقشك ·· اننى أتحداك · فهل تقبل التحدى ؟!

لم يفض لقائى بهذا الشيطان المتلون الا صديقى الممثل الذى كان يبحث عنى واكتشف مكانى · وكدت أزعق على جميع المدعوين بحقيقة شخصية هذا الرجل ·· هذا الفار الأنيق اللامع ، والذى يحوز مكتبة يتحدى بها مكتبات كل المثقفين والثوريين ·· ولكنى تحرجت من افساد بهجة الليلة ·· وتركته كى أواصل السهرة من الساهرين ·· لكننى لاحظت أنه اختفى تماما من المكان ، ولم يعد له من أثر غير انقباضة ثقيلة تركها فى روحى ·

فى تلك الليلة ياسيدى أدركت حقيقة هامة ورهيبة فى عالم الفئران ·· أنهم من أقدر الكائنات على التخفى وعلى التنكر ·· يتنكرون بالملابس ، وبالمراكز ، وبالمكتبات وبالثقافات العالمية المختلفة ·

وقد أصابنى ذلك بالاحباط لفترة · لكننى سرعان ما تنبهت الى أن هذا هو قصده النهائى ·· أن أيأس وأنسحب وأنعزل ·· شحنت نفسى بالشجاعة والتحدى ، ومضيت كما أنا فى الحياة طائرا بأجنحة الشعر والرغبة فى اكتشاف العالم وتغييره أنا والأصدقاء الى الأفضل ··

وتوقعت أن أراه مرة أخرى فى أية لحظة ، وتحت أى شكل أو قناع سأكتشفه ٠٠ غير أنه اختفى تماما من حياتى ٠٠ ولم يعد شبحه يعاودنى ٠٠ الى أن كانت الليلة اياها ٠٠ ليلة رأس السنة ، وكنا مجموعة نحتفل بها فى بيت أحد الأصدقاء ، نلقى الأشـــعار ونغنى ونضحك ونرقص ٠ دفء الأرواح حين تجتمع على المحبة وعلى التآخى وعلى الفكر المشترك ٠ وقرعنا كؤوس الأمل فى عالم جديد يطل علينا وعلى كل البشر ٠٠ وحين خرجت من السهرة عائدا الى بيتى فى السيدة زينب ٠ كانت تسابيح الفجر تسرى متماوجة فى الفضاء وفى السكون ٠٠ تملكتنى رغبة عميقة فى الصلاة ٠ صلاة شكر لله على انى جئت الى هذه الحيـــاة ٠٠ وتفجرت فى قلبى ارهاصات قصيدة جديدة بهذا المعنى ٠٠ وتصاعدت نشوتى ٠٠ متهيئا للميلاد الجديد ٠٠ قصيدة حب وامتزاج : لو٠٠ لوكنت نجمة ترسل شعاع ٠٠ لو كنت دعوة تحقق شفاء ٠٠ لو كنت مدفع يصم الآذان ٠٠ ويهد أركان الشيطان ٠٠ لو ٠٠ لو كنت بسمة تفرش على وش اليتيم ٠ لو كنت شلال متدفق عظيم ٠٠ يكسح من النهر صخور الاعتراض ٠٠ لو كنت أنا النهر ٠٠ لو كنت أنا المنبع والمصب ٠٠ وأجمع فى قلبى كل أنهار الحياة » ٠

وبدا لى أن الحياة تحقق لى أمنيتى ، حين وجدت زوجتى وحبيبتى فى انتظارى ، والطفلين لحسن الحظ نائمين ٠٠ كنت أحس ونحن متعانقان أننا النهر وأننا المصـــب ٠٠ واننا ندور مع دورة الأفلاك البهيجة ٠٠ نشع ضياء ٠٠ وأملا ٠٠ وفرحا ٠٠ وأن العالم فى صمت الليل سعيد بنا ٠٠ وبحبنا ٠٠ غير أن أحدالطفلين صحا فجرت الحبيبة اليه ٠٠ جرى قلبى معها ٠٠ نشوة أخرى تضاف الى القلب ٠٠ حين تكون الحبيبة هى نفسها أما لأولادك ٠٠ كيف لا أفرح انى جئت الى هذه الحياة؟!

غير أن الرجل ياسيدى ، أقصد الفأر ·· كان للحظتى السعيدة بالمرصاد ·· فما كدت أغمض عينى ويأخذنى النوم ، حتى استيقظت فجأة عليه واقفا فوق رأسى ومعه مجموعة من نفس الفصيلة ·· وقبضوا على ·· توقفت دورة الأفلاك البهيجة وتبدد شمل الهناء ·· وكان ما كان !

وكان يمكن أنأنسى كل هذا الذى كان بمضى المدة· خمس سنوات احترقنا فيها واحترقت حتى الذكريات ، الا أننى فوجئت به هذه الليلة ·· هو نفسه ·· يعدو متسللا ·· زاحفا على بطنه ·· ليتجسس على داخل الزنزانة ·· الى هذا الحد وصـــل به التحدى والاستهانة · ليس بى وحدى ·· بل بنا جميعا !

ذلك نذير خطير ياسيدى بأفعال أخرى أبشع سيرتكبها ضدنا ، ولهذا فلابد من مواجهته بسرعة وحسم · اننى أطالب بتوقيع أقصى وأقسى العقوبات عليه ·· بحيث نجعل منه عبرة لكل فئران العالم · هؤلاء الذين يستبيحون حياة الناس ، ويحولونها الى مسلسل طويل من الرعب والخوف والتشكك والمطاردات · بينما المفروض أن يكون الانسان للانسان نجدة ·· ومنارة فى الظلام ·

سيدى ·· ان لدى عشرات القصص كان يمكن أن أقدمها لكم دليلا على عراقته فى الاجرام ·· لكنى التزم الاختصـــار مراعاة للظروف ، ولكى أترك الفرصة لزملائى الآخرين ··

وبعد ·· فاننى أترك تقدير العقوبة لعدالة المحكمة · واثقا من احساسها الشديد بالمسئولية أمام عشـــرات القرون من القهر والهوان بسبب سيطرة الفئران ·· ان التاريخ يرقبكم الآن فى انتظار

حكمكم ٠٠ اجدد ثقتى ياسيدى الرئيس ٠ وشـــكرا على أتســـاع صدركم ٠

* * *

وقد أوشك الأستاذ رضوان أن يبتسم لكلمات الشاعر الأخيرة ، الا أن المواجع والذكريات المؤلمة التى حركتها المرافعة فى نفسه غطت على كونها لعبة ٠ تراجع الاحساس تماما بأنها لعبة ، وقام فى نفسه أنهم يقومون بمحاكمة حقيقية لهؤلاء الزبانية الذين جاءوا به الى هذا الجحيم ظلما واعتسافا ٠٠ بدءا من ذلك الفأر الذى كان يعمل معه بالمجلس ووشى به ثم حل محله ٠٠ الى الفئران التى قبضت عليه فى تلك الللية الكالحة ٠٠ لم يقدروا شيبته ولا سنه ولا مركزه ٠٠ لم يقدروا أية قيمة انسانية : لا حزن رفيقة العمر ، ولا بكاء أولادهما البنات ، ولا صراخ الأحفاد الأطفال الذين راعهم ما يحدث دون أن يفهموه ٠٠ كانت الأسرة كلها مجتمعه فى ظله ٠ تلك العادة الحلوة التى حرصوا عليها منذ سنوات ٠٠ ان يجتمعوا جميعا فى البيت الكبير كل ليلة رأس سنة ٠٠ ويحتفلون بها ٠٠ ويطرح كل واحد حلمه ٠٠ وأحيانا كان يأخذ الاجتماع شكل النقد والنقد الذاتى ٠٠ « من اجل أن نكون أجمل وأفضل يا أولاد ٠٠ الأعظم هو من لا يتوقف عند حسناته ومميزاته ٠٠ بل عند اخطائه وسلبياته ٠٠ انا لا أقول هذا الكلام لكم فقط ، بل أقوله لنفسى دائما ٠٠ ولجدتكم العزيزة أيضا » ويحتضنها أمامهم ٠٠ لم يكن فى هذا الحضن أى ملق أو ادعاء ٠٠ ان تاريخ حياتهما معا ينطق بالصدق وبالاخلاص وبالعطاء المتبادل ٠٠ والوفاء ٠٠ وعاوده منظر بالذات : رفيقة العمر وهى تجرى متعثرة خلفه ، بعد أن قبضوا عليه حاملة بطانية من الصوف وتصيح عليهم أن يســـمحوا له بأخذ البطانية ٠٠ لكنهم لم يأبهوا

برجائها ·· حينذاك انقلبت الى نمرة غاضبة وراحت تصب عليهم سيلا من الشتائم وكلمات الاحتقار ·· متحدية ومطالبة أن يقبضوا عليها هى الأخرى ·· غير أن الفئران سرعان ما ادخلته العربة ، وانطلقوا به فى جوف الظلام ··

الأوباش ·· الفئران ·· أحس بدماء ساخنة تتصاعد الى رأسه : أين أنت يا أوسع الميادين لأقف فى قلبك وأخطب وأعرى وأفضح ·· كان خطأ منى أن اقبل منصب القاضى فى هذه المحاكمة ·· كان يجب أن أكون فى موقع الادعاء ··

ورأى أصغر المعتقلين سنا ، الطالب حازم ، يرفع اصبعه بالحاح وحماس ، طالبا الكلمة · أحس نحوه بحب جارف : « ذلك ما يجدد فى النفس الأمل · ان كان العمر مضى والشيخوخة خذلتنا ، فالحياة مازالت فى اندفاعها تعطى ·· الأرض مازالت تطرح ·· والتطور سائر سائر ·· الفئران لم تجهز على كل الحقول ·· مازالت الأرض تنبت ·· لم تقض الفئران بعد على حماسة وشجاعة كل الرجال ··

ـ تفضل يا أستاذ حازم · هات ما عندك ·

ـ عندى الكثير ياسـيدى · لكنى مراعاة للوقت والظروف ، سوف أكتفى بذكر واقعة واحدة ارتكبها ضـــدى هذا الفأر المتنكر الخسيس · هى واقعة واحدة ، وبسيطة جدا على ما تبدو ، لكنها كافية للكشف عن مدى خطورة الدور الذى تقوم به هذه الفئران فى حياتنا · انهم وراء كل شر · وسند كل تخلف ·· وكل احباط يصيب أحلام الانسان فى بلادنا ·· !!

ذات يوم ياسيدى ، كنت أتمشى فى الشوارع أنا وخطيبتى ليلى ، الطالبة معى بنفس الكلية ·· نتمشى ونحلم بمكان يضمنا ·· مكان له سقف يظللنا ، وباب نقفله علينا وحدنا ·· كان المشى والتصـــعلك فى الشـــوارع المزدحمة قد أرهقتنا ، فالجلوس على الكازينوهات أصبح فوق طاقتنا المادية ·· أنتم تعرفون أن جميع الكازينوهات أصبحت أسعارها سياحية ·· اذن فليس أمامنا الا المشى ، أو الجلوس على شاطىء النيل نريح أقدامنا ·· ولكن هذه أيضا أصبحت صعبة ·· فالمقاعد الرخامية الجميلة التى كانت منتشرة بطول الكورنيش اختفت ياسيدى ·· ما الذى رفعها ؟ ·· ما الذى

حطمها ·· ؟ أو من الذى سرقها ؟ ·· لاأحد يدرى ·· وكذلك الحدائق ياسيدى اختفت من المدينة واصبحت نادرة ·· المهم ياسيدى لم يكن امامنا ، لكى نبقى معا ، الا أن نمشى ونمشى على أقدامنا ·· فجاة وقفت ليلى أمام احدى العمارات العالية الضخمة وقالت وهى تصعد بنظراتها الى أعلى ·

ـ هل تتصور يا حازم أن هذه العمارة كلها ·· كلها فارغة ·· رغم أنها مكتملة منذ سنوات ؟

قلت مندهشا : معقول هذا ؟!

قالت :

ـ وتصور ايضا انها بنيت في الأصــل خصيصا من أجل العرائس والعرسان !

دب فى الغيظ : ومن هو مالكها ؟! لابد أنها الحكومة !

قالت : فى الغالب · لكنها تبدو بلا صاحب · ولا حتى حارس !

قفزت الصورة أمامى : السنا عروسين ؟ ما رأيك لو صعدنا وفتحنا احدى الشقق ، ولتكن فى الدور الخامس أو الرابع ·· وفى الناحية البحرية ·· وفرشناها بأثاث بسيط ، وعشنا فيها ·· ما الذى سيحدث ؟!

قالت ضاحكة : سنجد أنفسنا ، ووراءنا عفشنا ، طائرين من نوافذها البحرية · أو مقبوضا علينا ·

اصطكت أسنانى بغضب : هذا لأننا اثنان فقط ·· انما ·· لو أن عرائس وعرسان بعدد هذه الشقق ·، اجتمعوا واقتحموا معا فى لحظة واحدة ·· هذه العمارة واحتلوها ·· لن يقوى عليهم أحد ·· أؤكد لك ·· ستتحرج الحكومة من طردهم ·· ستتغلب الاعتبارات

الانسانية ، وستكون حديث الصحافة ووكالات الأنباء العالمية ·· وسينتصر الأمر الواقع !

كانت الفكرة مزيجا من المزاح والجدية ، لكن الجانب الجدى فيها سرعان ما سيطر على تفكيرى ، ووجدتنى ياسيدى اكتبها وانشرها في مجلة الحائط التى نصدرها بكليتنا ·· غير اننا ياسيدى ماكدنا نعلق المجلة على الحائط ، حتى رأيت هذا الفأر يظهر فجأة ، متنكرا فى زى طالب بنفس الكلية ، وراح يقرأ المكتوب · دقائق قليلة ، واذا به يصرخ وقد أربد وجهه ، وامتدت يداه الى المجلة بالتمزيق : البلاشفة · الشيوعيون !

هجمت عليه أحول بينه وبين المجلة ، لكن عددا من الفئران احاطوا وانهالوا على بالكلمات ··و حين جاءت خطيبتى تحاول الدفاع عنى ، صفعوها على وجهها ودفعوها بوحشية فسقطت ـ لحسن الحظ ـ على العشب القريب··ولم يلبثوا أن اختفوا جميعا، ومعهم عدد المجلة الممزقة ·

رغم بشاعة ما حدث ياسيدى ، ورغم الدموع الكثيرة التى ذرفتها حبيبتى الا اننا بعد قليل وجدنا انفسنا نسير فى الشوارع من جديد ونطلق الضحكات ··

قالت : حمدا لله أنها مرت بخير ·

قلت : ليس اجمل من اننا مازلنا معا تحت الشمس ·

قالت : بسمة محذرة : ولنكف عن احلامنا المجنونة ··

قلت : لسبب واحد فقط ·· أن يظل العريس مع عروسته ·· ولو على الرصيف ·· واياك من المرور مرة اخرى امام هذه العمارة الفارغة المنحوسة !

وعدنا نضحك من القلب ·· القلب المرور ··

ذلك ياسيدى لأن الفئران لا تترك مثل هذه الواقعة تمر ببساطة ·· فقد فوجئت بنفس هذا الفأر ومجموعته ، ولكن بزى آخر ، يهجمون على بيتى ليلة المظاهرات ويقبضون على ·· هذا رغم أننى كنت مريضا فى تلك الأيام وملازما فراشى ·· وحين صاح أبى الشيخ فيهم : هذا ظلم بين · ابنى منذ ماقبل المظاهرات بأسبوع وهو راقد هكذا فى سريره ·· فكيف ولماذا تقبضون عليه ؟! ابتسموا ساخرين : ابنك لم يشترك فعليا فى هذه المظاهرات · هذا صحيح ·· لكنه أخطر من المشتركين ·· انه من المخططين والمحرضين ·· ابنك يدعو الرعاع للهجوم على بيوت وعمارات وممتلكات الأغنياء والاستيلاء عليها بالقوة ·· وهو لا يمكن أن ينكر ذلك ·· فدعوته المكتوبة بخط يده موجودة تحت أيدينا · لكن الخطورة لا تكمن فى هذا ·· الخطورة أنه لا يتصرف هكذا وحده ·· أنه يعمل ضمن تنظيم اكتشفناه ·· شبكة واسعة تدعو الى قلب نظام الحكم ، وتدمير أسس المجتمع المستقرة بالقوة والعنف ·· ستقرأ الأخبار غدا فى جرائد الصباح ··

وقد كان ياسيدى · طلعت جرائد اليوم التالى بنبأ اكتشاف المؤامرة الخطيرة التى شاركت أنا وخطيبتى فى الاعداد لها ، وذلك لحساب جهة أجنبية · مؤامرة مدعمة بالوثائق والصور ·· وكانت صورتى أنا وخطيبتى ونحن نتهامس حبا ، دليلا على خطورتنا كمتآمرين ضالعين مع الآخرين ·

(وجذب نفسا عميقا من صدره) ما الذى يمكن أن يفعله الشيطان اكثر وأبشع من هذا ·· أن يحولوا حلم اثنين بشقة يسكنانها ، الى خيانة وطنية ! ·· وياليت الشر والكذب ·· والتزييف

٠٠ قد توقف اثره عندى أنا وخطيئتى التى ألقوا بها هى الأخرى فى السجن ٠٠ انما الذى حدث بعد هذا ياسيدى كان هو الأفظع ٠٠ ولن أدخل بكم فى تفاصيله ٠٠ يكفينى أن أقول لكم أن والدى الشيخ بعد صدمة تلك الليلة لم يعش طويلا ٠٠ (وارتعشت شفتاه بالحزن) سقط مريضا ياسيدى ، ثم بعد شهرين مات ٠٠ وشيعت جنازته ٠٠ وأنا ٠٠ ابنه الوحيد ٠٠ هنا ٠٠ لم أستطع السير فى جنازته ٠٠ انهم لا يقتلون الحب فقط ، أنهم يقتلون البشر أيضا ٠٠ ان بحار العالم لا تكفى لمحو دماء جرائمهم ٠٠ أن استئصالهم ومحوهم من على ظهر الأرض هو الواجب العاجل والحتمى ٠٠ اننى لا أطالب الا بأن يكون العقاب من جنس العمل ٠٠ وأكتفى بهذا القدر ياسيدى (مقاوما دموعه) تاركا الفرصة لمن يريد الكلام من الزملاء ٠

وانسحب بهدوء من مكانه ٠

***

ازدحم الكل بمشاعر الحزن والغضب ٠ ما أقسى أن يموت الأحباب ونحن فى المنفى ، أو نموت نحن فيه ولا تحدث التعازى الا بعد زمن طويل !

وطار كل واحد منهم بخيـــاله الى الخارج ، عبر الأســوار والصحراء والأرض الخراب : ترى ٠٠ ما هو الحال الآن هناك ؟! من الذى مات ، ومن الذى مازال حيا ٠٠ من الأولاد والزوجات والأهل والأصدقاء ؟! تصاعد الاحساس بالقهر والعجز والهوان ٠٠ تأججت شحنة الغضب فى الصدور ٠

لم يبق من ممثلى الاتهـــام غير واحد فقط ، هو ابراهيـــم العلائى ، عامل النسيج الموهوب في صناعة التماثيل ٠ اندفع بشحنة الغضب آخذا دوره ٠

ـ سيدى ٠ (وبسط كفه أمام هيئة المحكمة فظهرت عليها قطعة من الصلصال) لقد حاولت جادا ان أصنع تمثالا لهذا الفأر كى نحاكمه غيابيا لو نجح فى الهروب ، لكنى فشلت وهذا طبيعى ٠ فأنت لا تستطيع أن تصنع تمثالا الا لمن تحب ٠ لا يمكنك صنع تمثال لمن أمسك بسكين وراح يذبح فيك وأنت موثق اليدين والقدمين ! ٠٠ وهذا هو ما فعله بى هذا الفار الخسيس (ورمى بقطعة الصلصال الى أحد الأركان) ذلك لأن دوره الاجرامى لم يبدأ معى الا بعد القبض على وترحيلى ! (وندت عنه تنهيدة حارة) فهو لم يكتف بما حدث لى من فصل واعتقال ، بل اعتبر ذلك فرصته السانحة كى يوجه لى الضربة التى تذل كبريائى وتحطم نفسيتى ٠ لقد قرر أن يضربنى ٠٠ بزوجتى ! بعروستى التى لم يكن مضى على زواجها منى أكثر من شـــهرين !

(اتسعت نظراتهم ٠ أمسكوا أنفاســـهم) انكم تذكرون يوم الزلزال ٠ حين جاءنى الخطاب منها طالبة الطلاق ٠ ثم بعد أن استعدت نفسى وتجاوزت الموقف ، وكتبت لها بالموافقة (ورفع رأسه باعتزاز ، مستعيدا بعض كلمات الخطاب) ٠٠ « ان الذى يكافح من أجل حرية شعب بأكمله ، لا يمكنه الوقوف فى وجه حرية انسان يريد أن يعيش حياته كما يريد » ٠٠ مازلتم تذكرون ٠ وتم الطلاق !

غير أن ذلك لم يكن غير صفحة واحدة فى الجريمة أو المأساة ٠٠ ثم بدأ الزمن يكشف عن بقية الصفحات ٠

لقد كان لومى فى البدء ياسيدى موجها اليها ٠ لكنى سرعان ما اكتشــفت أنها وقعـــت تحت تأثير مخطط نفســـى دقيـــق ٠ رسمه لها هذا الوغد الحقير ، باعتباره أخاها ٠٠ نعم أيها السادة ٠٠ شقيقها ٠٠ ابن أمها وأبيها ٠٠ وتلك عظم المصيبة ٠٠ حين نكتشف

أن المجرم من أقرب الأقربين الينا ، والمفروض أن يكون نصيرا لنا ٠٠ يساندنا ويؤازرنا فى المحنة ، فاذا به هو نفسه الضارب بلا رحمة ٠ فبدلا ياسيدى من أن يقف بجانب أخته ويقويها ويشجعها على احتمال الأزمة ، راح يحاوطها ، ويلقى فى نفسها ببذور اليأس ٠٠ والخوف ٠ الحزن الذى كان ناشرا أجنحته السوداء على البلاد كلها : لن يعود ٠ لقد تلقفته الأبالسة ولا رجعة ٠ لا تضيعى حياتك وجمالك وراء مغامر مخبول مثله ٠٠لم يؤمن لك حتى لقمة عيشك قبل أن يعتقل ٠ ويا ما قلت له ونصحته:أمن أولا حياتك ومستقبلك ومستقبل أولادك القادمين ٠٠ فكان يهز كتفه ساخرا ٠٠ لامبال «مستقبلى ومستقبل أولادى مرتبط بمستقبل الشعب كله » ٠ فهل تريدين الانتظار حتى ينصلح حال الشعب كله ؟! ٠٠ انه واحد من المجانين بحب الظهور وحب الزعامة ٠ اعقلى يا أختى ٠٠ وانفدى بجلدك بسرعة ٠٠ والحمد لله انك لم ترزقى منه بطفل أو طفلة ، والا كانت حياتك ستتحول الى نكبة ٠٠ لا تدفنى صباك وجمالك هذا ، بينما أحسن الرجال ٠٠ المحترمين ٠٠ والأغنياء ٠٠ يتمنونك ٠٠

ثم انك يا أختى لابدأن تتنبهى الى شىء هام جدا ٠٠ بعد هذا الذى حدث له ، وفى الظروف التى نعيشها ، أصبح ارتباط اسمه بنا ، ضارا بنا ٠٠ وبمشاريعنا التى دخلنا فيها ٠ ان أبسط شبهة فينا ، معناها سحب الثقة منها ، وتحويلها الى غيرنا ٠٠

وكان هذا هو مربط الفرس ياسيدى ٠ فقد أصبح ، هو الذى كان فقيرا يغسل القميص ثم ينتظر حتى يجف ويكويه ويلبسه، أصبح واحدا من نجوم عالم الاســـتيراد والتصدير ٠٠ يركب الكاديلاك والمرسيدس ٠٠ ويسهر فىنوادى الفنادق الليلية ويتعامل بالشيكات السياحية ٠٠

المهم ياسيدى ، لقد ظل يضغط على اعصابها ، ويغسل فى مخها ، يوما بعد يوم ، وســـاعة بعد ســـاعة ٠٠ غمرها بالهدايا المستوردة ٠٠ طوق ذراعيها وصدرها بسلاسل الذهب ٠٠ اصطحبها معه فى احدى رحـــلاته للخارج ٠٠ الأكثر من ذلك علمها قيادة السيارات ٠٠ عملية شيطانية رهيبة ياسيدى توجها بتزويجها من تاجر مقاولات كبير أدخله فى بعض مشاريعه ٠٠ وكانت هدية هذا التاجر لها ٠٠ سيارة مرسيدس !

عملية محو لانسان واستبداله بشخص آخر تماما ٠٠ حتى يتخلص منى ومن أثرى ٠٠

هنا ياسيدى اختفى اللوم من صدرى ناحيتها ٠٠ أشفقت عليها ٠٠ كانت حمامة أو يمامة طيبة رقيقة ، فانقضت الصقور أو النسور عليها ٠٠ كنتبالطبع أرجو أن تكون اكثر قوة ووعيا من ذلك ٠٠ لكن الحمامة أو اليمامة وقعت فىشبكة الاخطبوط ٠٠ فقضى عليها ٠ ذبح قلبها ٠٠ ذلك لأنى عرفت فيما بعد من أخى ، فى زيارات الأعياد انها لم تعش غير شهور مع هذا التاجر المقاول وطلبت الطلاق ٠٠ وقد رآها أخى بعد ذلك فصعق منمنظرها ٠٠ زال جمالها وصباها ٠٠ وكأنها كبرت مائة عام ٠٠

سيدى ٠٠ ان مياه المحيط لا تكفى ٠٠ كما قال زميلى حازم ، لغسل جرائم هذا الفأر وأمثاله ٠٠ أن العقوبة لابد أن تكون على مستوى بشاعة الأفعال التى قاموا ، ومازالوا يقومون بها ٠٠ اننى ، مع زملائى ، نترك الحكم لـ ٠٠

ولم يكمل الجملة ٠٠ فقد انتبهوا فجأة على صوت ٠٠ وأدركوا على الفور انه المفتاح يدور فىثقب الباب ٠ لحظة ورأوا الباب يفتح ووجه الحارس يطل منه بعينين مستريبتين !

أوشك الشاعر أن يصيح عليه : أقفل الباب بسرعة أرجوك حتى لا يهرب الفأر . لكنه كتم صيحته ، ومضى يراقب مكان الفأر خلسة وبقلق ، متوقعا هروبه في أية لحظة من فرجة الباب .. بينما الحارس واقفا ، فى الفرجة ، يتفرسهم ..

عاجله الأستاذ البدرى المحامى ، باعتباره المسئول عن الاتصال بالادارة : خير ياشاويش .

ـ وهل يأتى خير منوراء « السياسية »

تبادلوا جميعا نظرة توصى بعدم مد الكلام ، متعجلين خروجه وقفل الباب . وجميل أن الفأر حتى الآن لم يخرج . لابد أن منظر حذاء السجان الضخم أرعبه ، فازداد انكماشا على نفسه !

وراح الشاويش يعدهم .. برؤوسهم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .... مـــــرة ومرتين ، حتى اذ ما اطمأن على أن « التمام » سليم ، خرج وقفل الباب خلفه .

فى نفس اللحظة اندفع الشاعر على بطانيته التى كانت قد تزحزحت من مكانها ، وسد بها عقب الباب مرة أخرى ، وصاح هامسا .. مهللا :

ـ الحمد لله .. لم يهرب .. فلنواصل المحاكمة .. بسرعة وبصوت منخفض ..

قال الرئيس : ننتظر قليلا .. حتى تبتعد خطواته تماما ..

أصاخوا السمع لصرير الخطوات ، حتى تلاشت تماما ، ولم يبق من صوت غير أنفاسهم .. وطنين الليل ..

قال رئيس المحكمة ، مستعيدا حماسه :

ــ أظن أن الادعاء قال كل كلامه ، ولم يعد هناك اتهام جديد يمكن أن يضاف ٠٠ واذن ٠٠ فليبدأ دور الدفاع ٠٠

ــ لا ٠٠ ليس بعد ياسيدى ٠٠ مازالت هناك جرائم أبشـــع وافظع لم يواجه بها هذا المجرم !

فوجئوا بأن المتحدث هو « المجند الذى اختير فى البدء عضو اليســـار ٠

التفت اليه الرئيس مستنكرا ٠٠ ومنبها ٠٠

ــ أنت قاض ولا يجوز لك ٠ هل نسيت ٠ أنت هكذا تفســد سير القضية ٠

قال بغضب ممزوج بالتوسل :

ــ اسمع ياسيدى ٠٠ اسمعونى أيها السادة ٠٠ ليس ذنبى أنكم اخترتمونى عضوا فى هيئة المحكمة وقبلت أن أجلس ساكتا طوال الوقت كالبلاصى ، وذلك بقصد واحد ، هو أن تنعقد المحاكمة وتأخذ شكلها القانونى ٠٠ لكننى ياسيدى فى الأصل مجنى عليه ٠ فى قلبى صرخة تريد أن تخرج ، وان لم تخرج الآن فمتى ستخرج ؟! اننى أناشدكم أن تجدوا لى مخرجا قانونيا ، كى آخذ أنا أيضا فرصتى ٠٠ وأؤدى واجبى ٠٠ فكاتم الحق شيطان أخرس ٠٠ ولقد عشت سنين طويلة ٠ وآن الأوان أن أنطق بما كتمته فى نفسى ٠٠ وأتكلم ٠

تأثر الكل بصدق انفعاله ٠٠

قال رئيس المحكمة ، وقد تراءى له أن المحاكمة تزداد ثراء وغنى : ليس أمامك غير مخرج واحد ٠٠ أن تطلب التنحى ٠ وفى هذه الحالة لابد من قاض آخر يحل محلك ٠

قال ألبدرى المحامى ، منقذاً الموقف ، ودافعاً به الى الأمام فى نفس الوقت ٠

ــ انا مستعد لأن آخذ مكانه ٠ لو تقبل المحكمة بهذا ٠

ــ المحكمة تقبل ٠

قالها الرئيس بحماس ٠

وهكذا حلت المشكلة ٠

***

سيدى الرئيس ٠٠ السادة المستشارين ٠٠

قلت ان كاتم الحق شيطان أخرس ٠ وأنا الآن أسأل : من يكون اذن هذا الذى يفرض علينا كتمان الحق فى صدورنا ؟ ٠ انه شيطان الشياطين !

ولقد انقضت على الآن ياسيدى خمس سنوات وأنا اكتم السر فى نفسى خشية شيطان الشياطين هذا ٠ أما وقد استباحوا حياتنا الى حد التنكر فى شكل فئران تتجسس علينا ، فلم يعد هناك جدوى من الكتمان ! ثم اية لغة ستضتيب المزء اكثر مما اصابه ؟!

اسمحوا لى ان احكى لكم قصتى لكى تعرفوا بشاعة الجريمة التى ارتكبها هذاالفار فى حقى ، حين ملأنى بالرعب ، وجعلنى أعيش باسم غير اسمى ٠٠ على مدى خمس سنوات !

ولقد بدأت الحكاية ياســـيدى حين أخرجونى يوم المظاهرات اياها ، مع مجموعة كبيرة من العساكر لمحاصرة المتظاهرين ودقهم

بالعصى ، بعد تدويخهم بالغاز المسيل للدموع • لكننى ياسيدى وأنا أسمع هتافاتهم وصراخهم •• كنت أحس أنهم يعبرون عما فى نفسى •• وتمنيت لو أصرخ وأهتف بما يهتفون ويصرخون به • فالعيش أصبح مرا ياسيدى ، والقطط السمان هى التى باتت تأكـــل خير البلاد ! لهذا لم يطاوعنى قلبى أن أرفع العصا على أحِد منهم •• وقد لاحظ الضابط ذلك فاندفع نحوى بغضب وصاح على يشجعنى : أهجم ياوحش • اضرب ياوحش !

وأمام نظراته المتوحشة الغاضبة ، رفعت العصا لأضرب ، لكن ذراعى تخشبت فى الهواء ووجدتنى أصرخ : شلت يداى •• شلت يداى ••

دفع بى الضابط بعيدا : أيها الخرع •• ســـترى ما الذى سينالك ••

وتركنى وانهمك فى المعركة • لم تكن معركة • كانت مذبحة •• وتصورت العقاب الذى سينالنى • فانتهزت فرصة الهوجة ووضعت ذيلى فى أسنانى وهربت •• قابلتنى بعد ذلك مظاهرة أخرى ، فدخلت فيها ، بعد أن خلعت سترتى ورميت بخوزتى وعصاتى •• وبلاشعور وجدتنى أصرخ وأهتف مع المتظاهرين بما يهتفون به •• فجأة •• اذا بنا داخل كماشة •• وقبضوا على أنا والآخرين •• قبضوا على دون أن يعرفوا هويتى الحقيقية •• خمس سنوات ، وأنا أعيش منكرا نفسى وشخصيتى •• وهاهم الليلة يرسلون بهذا الفأر ليتســمع ويكتشف سرى ••

أهناك اجـــرام أكثر من هذا ؟! لا أقل من الحكم بالاعـــدام ياحضرات المستشارين • على حضراتكم اصدار الحكم •• وعلى أنا التنفيذ •• أنا أعرف جيدا كيف تقتل الفئران ؟ !!

فى تلك اللحظة حدث شىء مفاجىء · خرج الفأر مندفعاً من مخبئه خلف الجردل ، وراح يجرى مذعورا فى كل اتجاه ·

صاح الشاعر مؤكدا : هل ايقنتم الآن انه بالفعل جاسوس ·· حين أيقن من اقتراب نهايته ، خرج يبغى الفرار !

كان وضع المحكمة قد اضطرب · كل واحد كان همه أن يتفادى اصطدام الفأر به · الا المجند ·· اشتعل غضبه أكثر وانكب عليه يطارده لكى يمسك به ·· وصاح عليه « المناديبى » مشجعا : هيا أمسكه ·· وخلصنا منه ·· هيا أرنا مهارتك وشطارتك !

قال رئيس المحكمة « رافعا اصبعه محذرا الجندى : اياك أن تفعل هذا يا بنهاوى · اتركه وسيعود تلقائيا الى مكانه · (ثم نظر الى « المناديبى » غاضبا ومستنكرا) ·

ــ كيف يا أستاذ ، وأنت المحامى المنتدب للدفاع عنه ، تحرض على قتله ·· كيف ؟!

أرتبك المناديبى للحظة ، ثم قال بجدية وعصبية : لأنه مقتول ·· مقتول ·· بعد كل ما قيل فيه ·· بعد كل هذه الاتهامات الرهيبة التى انصبت فوق رأسه ، هل يبقى أى أمل فى تبرئته ؟ !

قال الرئيس بهدوء : هذا يتوقف على نوع الدفاع !

ــ نوع الدفاع ؟!

ــ طبعا ··

وتجمعت كل الأنظار عليه ·

لو أن كاميرا خفية تسجل هذه اللحظة ، لتوقفت عند عينى « المناديبى » . فقد كان يطل منهما بريق غريب متمـــاوج مزدحم المعانى ، ثم سرعان ما تحدد فى معنى واحد : البؤس الغاضب ، أو الغضب البائس .. وقال وهو يجز على أسنانه :

ـ وأى نوع من الدفاع هذا ياسيدى يمكنه انقاذ رقبة مجرم عتيد مثل هذا ؟ ، فرق الأحباب،وحطم الأحلام،وأشاع الكآبة والخوف فى قلوب الناس .. الخوف ياسيدى .. الخوف .. لو لم يكن لهذا المجرم من ذنب أو جريمة غير اشاعة الخوف ونشره فى تلافيف الدماغ وفى العروق ، لكانذلك سببا كافيا لقطع دابره من الوجود .. (وهدأ صوته قليلا) سيدى . اننى نادم على انى قبلت القيام بهذه المهمة .. معذرة .. أرجو اعفائى منها .

حدثت همهمة ضيق واستنكار ..

وقال المستشار : اذن فالمحكمة مضطرة لتأجيل الجلســـة أو حفظها الى أجل غير مسمى ..

صاح الشاعر بغضب : مناديبى ·· أنت هكذا تضيع كل ما فعلناه · لقد قبلت من الأصل · والرجل لا يتراجع عن كلامه مهما كان الأمر ··

وقال الطالب ملاحقا : هل أنت خائف من أن يقال عنك أنك دافعت عن الفأر ؟! أنت تدافع بهدف نبيل ·· ونحن كلنا فى النهاية على خط واحد ·· لا تنسى أن الحكاية من الأصل لعبة ··

وعاد الشاعر يخاطبه ··

لا تتردد يا مناديبى ·· قل أى كلام ·· هل تسمع ؟! اى كلام ·· المهم أن تستوفى المحاكمة بقية شروطها الشكلية ، حتى تصبح المحكمة قادرة على اصدار الحكم عليه !

نظر اليه المناديبى فى عمق عينيه ·· كارها ·· ثم محولا الكراهية بسرعة الى سخرية : أليس هذا هو ما يفعله الفئران فى محاكماتهم لخصومهم بالخارج ·· توفير الشكل القانونى والديمقراطى بينما الحكم مسبق وجاهز ؟!

بدا على رئيس المحكمة الاستياء وقال : هذه اهانة كبرى للمحكمة · أتشبهنا بالفئران يا أستاذ مناديبى ؟!

أسرع المناديبى قائلا ·· معتذرا : ليس قصدى ياسيدى الرئيس، ان ثقتى فيك أنت بالذات لا يتطرق اليها أى شك ·· ولكنى أرد على كلام الأستاذ اسماعيل يسرى الذى يريد أنهاء المحكمة بأى شكل ·· فما معنى أن أقول أى كلام ؟ اننى أبحث عن هذا « الأى كلام » فلا أجد كلمة واحدة أقولها ·· وانني لأتحداهم جميعا ·· أن يجد واحد منهم منفذا للدفاع عن هذا الفأر ·· بعد كل الذى قيل فيه !!

قال الرئيس : أتعتقد أن كل ما قيل فى هذا المتهم يكفى للحكم عليه ؟! لا ياسيد مناديبى ·· أن أية جريمة لكى تثبت على فاعلها

لابد أن يتوافر فيها ركنان : الركن المادى ٠٠ والركن المعنوى ٠ هل تفهمنى ؟!

ولقد ركزوا جميعا على الركن المادى ٠ لم يقدموا غير الوقائع والأفعال المادية التى قام بها الفار ٠٠ أما الركن المعنو ى٠٠ القصد الجنائى لم يتطرق أحد اليه ٠٠ ان المحكمة لا يمكنها الحكم بالاعدام على قاتل ، ما لم يثبت لها ثبوتا قاطعا أنه قتل عامدا متعمدا ، مع سبق الاصرار والترصد وحتى فى هذه الحالة كثيرا ما تكون لديه ظروف قاهرة دفعته لهذا القتل وحينذاك ينص القانون على تخفيف الحكم عليه ٠٠ اعتبارات انسانية !

اندفع المناديبى قائلا متشبثا : هو ذاك ياسيدى ٠٠ هو ذاك ٠٠ القصد الجنائى ٠٠ أن يكون للمجرم قصد ٠٠ فالأعمال بالنيات ٠٠ فكثيرا ما يكون القاتل ضحية للقتيل نفسه ٠٠ لكنه يبقى قاتلا ملعونا ٠٠ ذلك لأنه ٠٠

وسكت فجأة ٠٠ واتخذت ملامح وجهه شكلا غريبا ٠٠

ـ ذلك لأنه ماذا يامناديبى ٠٠ ؟ أكمل دفاعك ٠٠ هذا دفاع عظيم عن الفار ٠٠

صرخ : لا ٠٠ أنا لا أدافع ٠٠ لا تعتبروا الذى قلته دفاعا ٠٠ فأنا ٠٠ لم ٠٠ لم ٠٠

ولم يكمل ٠٠ فوجئوا بشىء بالغ الرعب يحدث له ٠٠ تهاوى بكل جسمه الضخم وارتمى على الأرض ٠٠ اضطربوا ٠٠ تحلقوا حوله ٠٠ انكبوا عليه حاول الطالب والمجند أن يجريا له تنفسا صناعيا ، عجزوا عن ذلك ٠ فقد كان جسده متصلبا ومتخشبا الى درجة استحال معها ثنى ساق أو ذراع أو حتى اصبع ٠٠ وكان مع هذا ينتفض ٠٠ ويخور ٠٠ وزبد يخرج من بين شفتيه ٠٠

قال البدرى المحامى : أنها حالة صرع !!

– جاءته مرة من قبل ··

– بل مرتين ·· أتذكر هذا جيدا ·· ونقلوه فى المرة الثانية الى المستشفى ·

– هل نبلغ ؟!

– اياكم ·· نوبة وسرعان ما ستزول ·

– عندى بصلة ·· ما رأيكم ؟

– هاتها ·· اكسرها وشممها له ··

– بلطف وهدوء ·· حتى يفيق بالتدريج ··

مرت نصف ساعة كأنها نصف قرن ، ثم لاحظوا ان عينيه بدأتا تختلجان تحت الجفنين المغلقين ·· استبشروا ··

همس له الشاعر مشجعا : الحمد لله : غمة وزالت يامناديبى · وستعود بأحسن مما كنت · أفق أيها العزيز ··

– أتركه يفيق على راحته · فالصرع يترك الانسان كالفتات ·· انا قرأت عنه كثيرا ·· تراكم توترات تنتهى بانفجار بركان ·· ليته ينام ·· ويستغرق فى النوم ··

– سأصنع له وسادة أضعها تحت رأسه ··

– لا ·· دعوا رأسه كما هى على الأرض بمستوى الجسم ·· ذلك يفيد التنفس الطبيعى · انه ماض فى التحسن ·

كانت الرعشة قد توقفت ·· والزبد كف عن الخروج من فمه ··

لكن عينيه بقيتا مغلقتين ·· الا ان محجريهما كانا يتحركان تحت الجفنين ·· كانما انسانا آخر بداخله يتحرك ويتجول ويشير ··

اقترب منه المستشار رضــــوان ، وهمس له بحنو بالغ : أخ منادیبی ·· کیف حالك الآن ؟!

غمغم المناديبی ، دون أن يفتح عينيه ··

ـ من ؟! الأستاذ رضوان ··

فرحوا جميعا بعودة الوعى اليه ·

ـ نعم أنا ·· أنا سعيد لأنك عرفت صوتى دون أن ترانى ··

ـ وهل ·· هذا ·· يحتــــاج ·· الى رؤية · ·اننى ·· (وانفجر باكيا فجاة ·· وراحت الدموع تنهمر كالسيل من عينيه) ··

همس البدرى : اتركوه يبكى · هذه هى نهاية النوبة ·· انها الغسيل الأخير ·

ظل يبكى ·· حتى هدأ من تلقاء نفسه ·· غمغم : قليل من الماء ··

اتجهوا بعيونهم جميعا الى الجردل · جرى الشاعر عليه وملأ منه كوزا وعاد به الى المناديبى وراح يسقيه ·· قطرة ·· قطرة ·· الا انهم لاحظوا شيئا غريبا ·· لكنهم لم ينطقوا بحرف ·· فأين الفار ؟!

ونظروا الى عقب الباب ، فرأوا البطانية التى كانت تسده قد انزاحت ·· واذن فقد هرب الفار ·

حسن أنه هرب ·· وليكتفوا من اللعبة السوداء بهذا القدر ·

لكنهم فوجئوا بالمناديبى ـ بعد أن شرب جرعة ، يقول بصوت خافت : الآن أنا أحسن · الآن · أستطيع أن أدافع عنه ·

ـ تدافع عن من ؟!

ـ عن الفأر ·

ـ لا يامناديبى ·· لا تتعب نفسك ·· كانت لعبة وانتهت ··

ـ لا ·· لم تكن لعبة ·· بل كانت محاكمة حقيقية ·· ويجب أن تصل الى نهايتها ·· أرجوكم أن تساعدونى ·· لا تدعوا اللحظة تطير منى ·· فأنا الآن عقلى صافى والحقيقة واضحة أمامى ·· واستطيع أن أصوغ دفاعى ·· نعم ·· هو يحتاج الى من يدافع عنه ، رغم أنه اقترف جريمته المنكرة ·· ليس طلبا للبراءة وإنما ·· هذا الفأر الذى كان يوما رجلا ·· لماذا أصبح فأرا ·· هذا هو موضوع دفاعى ياسيدى ·· فهل يصلح دفاعا مقبولا ؟!

ـ دفاع عظيم يا أستاذ مناديبى ·· استمر ·

هنا فتح عينيه نصف فتحه ·· فتهللوا واستبشروا رغم مأساوية الموقف وحشيته ·· وجال بنظراته المرهقة فيهم ·

ـ كان المفروض أن أكون واقفا وأنا أتكلم ·· احتراما للهيئة الموقرة ، لكنى غير قادر ·· والكلام والانسان ممدد على الأرض لا يعنى عدم الاحترام ·· بالعكس ·· اننى وأنا بهذا الوضـــع ، تتراءى لى الحكاية واضحة جدا ·· وأستطيع أن أقدم شيئا يرضى ضمير المحكمة (كان جفناه قد أغلقا منه مرة أخرى) هل تسمعنى ياسيدى ·· هل تسمعونى كلكم ··

ـ كلنا آذان صاغية ·

سوف أحكى عليكم قصة الفأر الذى كان رجلا ، كيف تحول الى فأر !

وتقبضت ملامحه حتى خشوا أن تعاوده النوبة ، لكن ملامحه عادت وانفرجت ٠

احس كل واحد منهم برعب خفى ٠٠ شىء أشبه بعتبات الجنون أو الجحيم يسحبهم هذا الرجل اليه ٠٠ ان كلماته توحى بأشـــياء يرفضها العقل ولكنها مثيرة للفضول ٠٠ فليستمعوا اليه بهدوء يوازى هدوءه ٠٠

هذا الفأر ياسادة كان يوما رجلا ولا كل الرجال ٠٠ كان فتى ولا كل الفتيان ٠٠ رغم أنه ولد لأبوين فقـــيرين ٠٠ لكنهما كانا من اصل طيب ٠٠ كان حلمه أن يدخل الجامعة ويحمل شهادة عالية ترفع رأس الأسرة وتعيد اليها كبرياءها القديم ٠٠ لكن الحلم للأسف لم يتحقق ٠٠ ذلك لأن الوالدين كانا قد كبرا وأصابهما الوهن ٠٠ فاضطر للعمل بشهادته المتوسطة ، موظفا صغيرا فى احدى المصالح الحكومية لتغطية احتياجاتهما وعلاجهما ٠٠ ثم ضحك القدر ضحكته الثانية أو الثالثة حين أرسل له فتاة من أقربائه فتزوجها لتهون عليه الحياة وترعى والديه بينما هو فى عمله بالخارج ٠٠ لكنها بعد ثلاث سنوات كانت قد عمرت البيت بثلاثة أطفال صغار ٠٠ وهكذا بعد أن كان يعمل فقط بالنهار أصبح يعمل بالليل أيضا ٠٠ لم تعد الشهادة العليا حلمه ٠٠ أصبح الحلم هو تحقيق الاكتفاء للأســـرة الكبيرة بمختلف أجيالها ٠٠ (وسكت قليلا لكى يجذب من صدره نفسا واهنا طويلا) ٠٠ التقت نظراتهم ٠٠ اتسعت عيونهم وأطل منها معنى مرعب ٠٠ حاول كل منهم أن يستبعده بقوة ٠٠ انه يحكى قصة حياته ٠٠ هو ٠٠ فهل يعقل هذا ؟!

تعالت دقات القلب وتعلقت الأنفاس والنظرات بشفتيه ٠٠ وكان المناديبى قد اتخذ وضعا عجيبا ٠ وكان ساكنا ثابتا ٠٠ كأنه جثمان محدد بجوانب تابوت ٠٠ وكان يتكلم بصوت رائق قادم من بعيد ٠٠ كأنما من عالم آخر ٠٠ هل تأخذ المحكمة بكلام المنومين ٠٠ أم أنها الآن أمام أصدق اللحظات !

ـ وكان كل شيء ياسيدى يمضى على نحو طيب ٠٠ حتى الفقر كان يبدو طيبا ، والمعاناة أيضا طيبة ٠ ذلك لأن الحياة كان فيها أيضا أشياء أخرى جميلة بالمقابل ٠٠

دعوات الوالدين ٠٠ دفء نظرات الزوجة ٠٠ لمعة السعادة المطلة من عيون الأولاد ٠٠ وهو عائد لهم بما يحبون ٠٠ الى أن جاءت ٠٠ لحظة ٠٠ تراكمت فيها المشاكل عليه ٠٠ واحس انها ضاقت ٠٠ واستحكمت حلقاتها ٠٠ فخرجت منه باللاشعور ٠٠ كنوع من التنفيس ، نكتة يعالج بها ضيقه وحزنه ٠٠ لكن النكتة وصلت رؤساءه فى المصلحة ، فكان بدء الجحيم !

الآن أيقنوا أنه يتكلم عن نفسه ٠ تبادلوا النظرات ٠٠ تسارعت الأنفاس ٠٠ يا له من جحيم ـ لو صح ـ يفوق أى جحيم !

ـ ماذا كانت النكتة ؟ وهل كانت تستحق كل هذا ؟! هل كانت تساوى ؟! ثم انها ٠٠ لم تكن نكتة ٠٠ كانت صورة تراءت للمسكين ٠ واضحة ٠٠ مجسمة : حمار يركب بغلة ٠٠ والبغلة راكبة حصانا ٠٠ والحصان راكبا لبؤة ٠٠ واللبؤة راكبة من ؟! راكبة الأسد طبعا ٠٠ ماذا يعنى هذا ٠٠ لا أدرى حتى الآن ما هو تفسير هذه الرؤية ٠٠ لكنهم ضحكوا جميعا لسماعها ، وسرعان ما انتقلت وسرت حتى دخلت مكتب رئيس المصلحة ٠٠ صورت له على أنه هو الحمار ٠٠

وراوى النكتة هو الأسد المغلوب على أمره ·· غضب الرجل غضبة رهيبة واستدعاه وواجهه بالاتهام ·· فأنكر بالطبع وقال له انه لا يقصد الا نفسه ·· فهو يحس بنفسه أحيانا فوق ·· ولكنه حمار ·· وأحيانا يحس بنفسه ·· أسدا ·· لكنه تحت ·· أسد مركوب !

لا أطيل عليكم ياسيدى ·· انتشرت النكتة أو الصورة ·· واتخذت معنا سياسيا ·· فقبض عليه مع الخطرين !

حتى ذلك الوقت ، كان رجلا ولا كل الرجال · واحتمل فترة السجن التى استمرت أكثر من سنتين ·· رأى فيها الأهوال ·· أهوال يعرفها كل من دخل السجن فى تلك الأيام السوداء ·· ثم خرج وبدأ يعاود حياته على نحو طيب ·· حتى المعاناة بقى لها معناها الطيب ·· اذ يكفى أنه حر طليق قادر على الكفاح من أجل الأبوين ·· ومن أجل الأولاد ·· يكفى أنه محيط ومحاط بالزوجة ·· وبالصغار ·· وبالكبار ··

الا أنه فوجىء بهم ذات ليلة ·· نفس الليلة الكالحة التى كنتم تتحدثون عنها ، يقتحمون عليه بيته ·· ويقبضون عليه : صرخ فيهم بكل ما فى العالم من بؤس : لماذا تقبضون على ؟! · أنا لم أنطق بحرف ·· أنا لا صلة لى على الاطلاق بأى شخص يعمل بالسياسة فى هذا البلد ·· والنكتة اياها لم تتكرر ·· أبدا !

ــ هل أنت متأكد من صدق ما تقول ؟!

ــ تأكدى من وجود أبوى العجوزين ، وأولادى الثلاثة وأمهم ·· رحمة بهم ··

خيل له لحظتها أن الشفقة مست قلوبهم : نحن مصدقون ما تقول · لكن الأمر بالقبض عليك صدر ولا مفر من تنفيذه الآن ··

المشكلة أن اسمك لم يرفع من قوائم الخطرين ·· منذ الحبسة الأولى ·· لا تقلق ·· المسألة فى أيدينا ·· سنتكلم من أجل رفع اسمك ، ونحقق لك الافراج السريع ··

ـ أرجوكم ·

ـ الأمر لا يحتاج الى رجاء · الأمر فى يدك أنت شخصيا ·

ـ أنا ؟! كيف ؟!

ـ تعطينا الدليل ·

ـ أى دليل ؟!

ـ أن يصدق المسئولون الذين تحت يدهم القائمة ·· أنك معنا ·· ولست مع هؤلاء المخربين !

ـ كيف ؟!

ـ تبلغنا وبصدق بكل ما يفعلون ويفكرون ·· بهذا تؤدى خدمة لنفسك ولوطنك ·· ولن يصدر لك فقط الأمر بالافراج ، بل وستعود الى عملك الذى فصلت منه ·· وسنؤمن ، من هذه اللحظة ، لأسرتك كل احتياجاتها ·· بغير هذا ستعامل كقائد للمظاهرات · هذه المرة ليس فيها غير الحكم بالاعدام !

الاعدام ·· والحبل الملفوف حول الرقبة ·· وسقوط الجسم بالحبل والجثة تتأرجح ·· وسقط من الخوف سقطته الفظيعة التى كانت أبشع من أى اعدام · تحول فى لحظة واحدة من رجل الى فأر حقير ·· خسيس (وتسارعت أنفاسه · وجاهد كى يفتح عينيه نصف فتحة ·· وهو ممدد الجثمان) هذه هى القصة ياسيدى ·· وهذا هو الدفاع ·· والفأر أمامكم ·· تحتكم ·· فاحكموا بما ترون !

صرخ عليه الشاعر : مناديبى · لا نصدق يا مناديبى · قل انك تلعب ·· انك تضحك ضحكة سوداء مثل التى ··

قاطعه الطالب والشرر يتطاير من عينيه : لا ·· بل الحقيقة طفحت منه رغما عنه ·· الآن انكشف السر فى ذهابه الى المستشفى عدة مرات ·· كم تقريرا كتبت ، وماذا كتبت أيها الحقير ؟! الآن تبدأ المحاكمة الحقيقية ·· فلنحاكمه ·

ـ بل نرمى به الى الخارج ونتخلص منه ·

ـ نتركه حيا ؟! لا ·· لابد أن يصبح عبرة ··

ـ هدوء أيها السادة ·· (قالها كبيرهم رضوان ، ووجهه يفيض حزنا وأسى) لن نحاكم جثة · لقد حاكم نفسه ·· خنق نفسه ·

عاد الشاعر يصرخ : ولكن كيف ؟ كل هذه المدة · كل هذه السنوات وأنت تخدعنا يا مناديبى ؟!

ارتسمت على وجهه الشمعى ابتسامة باهتة مريرة : ولم يكن المناديبى يخدع ·· الا نفسه ·· كان يظن أنه يصنع جميلا لأولاده ·· وزوجته ·· فاذا به ·· وصمة فى جبينهم ·· آه ·· لا يمكن للأبناء أن يغفروا للأب أنه أصبح فأرا ·· ماذا يبقى بعد ذلك ؟! (وداهمته نوبة البكاء مرة أخرى) اتعرفون لماذا أسموه بالمناديبى ؟ لأن قدره فى هذه الدنيا ان يمضى فيها وهو يندب وجوده وحياته ·· ابك يا مناديبى ·· ابك طويلا وابك جسمك الضخم وقلبك الضعيف الهش ·· ضحكوا عليك ·· اصطادوك من نقطة ضعفك ·· تلقفوا لحظة خوفك وقتلوك بها ·· خمس سنوات ·· سـنفرج عنك ·· سريعا ·· وحول وراء حول ·· ولا افراج ·· بل مذلة وهوان ·· لا أمان للفئران ·· لا أمان للفئران ·· »

وفوجئوا به يحاول النهوض ·· ناظرا بعينين غائمتين ، آملا فى أن يسنده أحد ·· سار وحده ·· بجسمه الضخم المنهك ·· يترنح ·· فى اتجاه الباب ·· وحين بلغه ·· حاول أن يخبـــط عليه ·· خانته قواه ·· قتلتمونى يا أولاد الزناة ·· وستقتلونى مرة أخرى ·· حين تعلمون أنى كشفت السر ·· لا مفر من الاعدام ·· هنا أو هناك ·· لا مفر من الاعدام ··

وسقط منهارا بجوار الجردل ·· مكان الفأر الذى هرب ·· بلا حراك ··

واشتعلت المحاريق بنيران الجحيم ··

• العـودة للحيـاة

حلم الخروج من النكسـة

مقدمـــة

كتبت هذه الرواية ونشرت مسلسلة ، عقب هزيمة يونيو ٦٧ بستة شهور · كانت الهزيمة صاعقة ، دشـــدشت أرواحنا قبل ان تدشدش أجسامنا · رغم أن لوح زجاج واحد لم ينكسر فى بيت أو فى مدرسة أو فى مصـــنع ! كانت هزيمة مخجلة الى حد التكفير باشتياق الموت أو الاختفاء عارا فى جوف الأرض · حملنا نعوشنا وسرنا فى جنازة أنفسنا ونحن أحياء · ولهذا فقد بدا عنوان الرواية أيامها : « العودة للحياة » ·· صرخة أســتنقاذ وهمية ، أو رؤيا سرابية ·· ضاق بها البعض ·· كانوا ينادون أيامها بالكف عن الكتابة ·· أن يكون صمتنا نحن الكتاب هو تعبيرنا عن الاحتجاج على ماحدث · كان نداء مضحكا ومقيتا بقصد الهرب من المسئولية·

ان صوت مصر ، ممثلا فى كتابها وفنانيها ومفكريها ، يجب ألا يصمت للحظة ، فما بالنا بتلك اللحظة بالذات ، والأمة كلهــا تترنح ·

ان الكاتب والفنان والمفكر هم عمود الأمة الفقرى الذى يصلب عودها فى المحن ، وكان هذا هو احساسى وأنا أكتب : انى أصلب عودى وعود أهلى وأصدقائى وكل من يقرأ كلماتى ، أو يقرأ على الأقل العنوان « العودة للحياة » ٠٠ كل أسبوع ، لمدة ستة شهور ٠٠ أجل أيها الناس ٠٠ يجب أن نعود الى الحياة ، أن نطرح أرضا النعش الذى نحمله على أكتافنا ونبدأ الحياة من جديد ٠٠ نبدأها بكلمة ، بصرخة ، بلحن ، أو حتى بمندبة ! وقد كان أطرف ما فى الموضوع ، انى شفعت العنوان بهذا التنويه ، ونحن فى عام ١٩٦٨ ٠ « رواية تقع أحداثها بعد عام ١٩٧٠ » ٠ لم يكن ذلك من قبيل التنبؤ ٠ انما انطلاقا من الاحساس بأننا لو صـــمدنا عامين أو ثلاثة أعوام بعد الهزيمة ، لو حافظنا على لبنا ، فباليقين ستنطلق بعدها مصبــر ، وتتجاوز النكسة ٠٠

واتفق هذا الاحساس مع النبأ العالمى بنجاح الدكتور برنارد (يناير ١٩٦٨) فى عملية نقل قلب ، من انسان ميت الى آخر حى ، لينقذه من الموت ٠٠

لماذا لا تجرى هذه العملية لنا ٠٠ فى مصر ٠ نقل قلب جديد الينا ، أو على الأقل علاج القلب الذى صعقته الكارثة ؟!

بهذه الروح كنت أكتب « العودة للحياة » ٠ ولم أكن طبيبا يجرى عملية ، بل كنت أنا المريض الراقد فى حجرة الانعاش يحلم حلما ٠ وبهذا الحلم ، عام ١٩٦٨ استطاع أن يعبر سراديب وأهوال برزخ الموت ٠

ولقد عبرنا البرزخ حقا ٠٠ ولكن الحقيقة أيضا أننا لا نزال على الشاطىء ٠٠ الشاطىء الآخر ، تمتد الصحراء أمامنا كبرزخ أصفر من برازخ الموت ٠ يطالبنا بعبوره ٠٠ عبر أهوال وسراديب ومفاجآت أخرى فى انتظارنا ٠٠ حينئذ فقط ، تكون العودة للحياة قد اكتملت ٠

فهل من حلم آخر ؟

« عبد الله الطوخى »

- ١ -

نجحت أول عملية نقل قلب فى مصر · فطيرت الخبر المثير وكالات الأنباء الى كل صحف واذاعات العالم · وكان الذى أجرى العملية طبيبا مصريا شابا ، فاعتبر ذلك مقياسا حاسما للمستوى الحضارى الذى بلغه أحفاد بناة الأهرام · وقالت احدى الدوريات الطبية المشهورة بأوروبا ، فى تعليقها النهائى على نجاح التجربة : وعلى أية حال ، فان هذا النجاح النابغ ليس بغريب على المصريين الذين تفردوا بفن التحنيط واكتشفوا علم التشريح ، وبفضل اكتشافهم للكتابة سجلوا فتوحاتهم الطبية والجراحية فى بردياتهم المسماة ·· بالقراطيس ··

ان « أبو قراط » الذى كان معتبرا أبا الطب ظهر أنه اخذ عنهم الكثير ··

لقد اعتبر قدماء المصريين القلب مركزا للأوعية المنتشرة فىسائر الجسم ، ووصفوا نبضها بأنه « كلام القلب الداخلى » ·

ان نجاح هذه التجربة لهى احدى علامات البعث الذى يتحقق يوما بعد يوم ٠٠ فى حياة المصريين ٠٠ وحياة العرب بشكل عام ٠٠

ولكن ٠٠

مع هذا الاتجاه فى متابعة التجربة والتعليق عليها ، كان هناك اتجاه آخر ، خرجت به احدى المجلات المصرية التى تهتم بالموضوعات المثيرة تحت شعار « الانسانيات » ٠٠ التقط أحد محرريها « الأذكياء الأشقياء » زاوية أخرى من الموضوع :

« هل القلب حقا ، هو حصيلة عواطف الانسان ومركز أحاسيسه ومشاعره ، أم هو مجرد مضخة لتوزيع الدم السـائل على بقية أنحاء الجسد ؟!

وكان السؤال فى مظهره يبدو بريئا ومنطقيا ومحلا للتساؤل بالفعل ٠٠ الا أن المحرر الشقى كان يعلم ان سؤاله خطير ٠ ذلك انه لن يكون سؤالا نظريا ، بل تطبيقيا على الأبطال الحقيقيين للتجربة : يا له من قدر ٠ وراح ، وعيناه تلمعان ، يشرح فكرته لرئيس تحريره : « ان الرجل الذى مات واخذوا قلبه ، له زوجة فى الأربعين ٠ وجميلة وطبعا حزينة ٠ وهى التى وافقت على ان ينقلوا قلبه لهذا المريض الذى عاش ٠ هذا المريض الذى انتقل اليه القلب الجديد له زوجة : ما هو شعور هذه الزوجة ؟! انه يحبها وهى تحبه ٠ هل سيظل يحبها بعد أن زرعوا له قلبا آخر ٠ القلب الذى كان يحب به الرجل الميت زوجته ؟! ٠ أليس من الجائز أن يظل قلب الرجل الميت على حبه للأرملة الحزينة والجميلة ؟ ٠٠ وحينذاك تصبح أول دراما من نوعها فى التاريخ » ؟!

حين عرض المحرر الشقى فكرته هذه على رئيس التحرير ، اتسعت نظرات هذا ، وقال وقد انتفض من على كرسى مكتبه مسرورا

فرحا : اسمع · هذا الموضوع سيحدث هزة · لن يهز الناس في بلدنا فقط ، بل فى الدنيا كلها · صحيح : ما هى ماهية القلب ؟! هل هو قطعة لحم · عضلة · مضخة · أم هو جماع عواطف الانســــان وأحاسيسه ومشاعره ، ويظل محتفظا بسره العجيب ، حتى لو انتقل الى جسم انسان آخر ؟! ·· على هذا المستوى أريد أن يكون تحقيقك الصحفى · لكن الضربة الحقيقية لن تكون فى هذا ·· انما ستكون بنشر الصور : صورة الزوجة التى تبرعت بقلب زوجها الذى مات ·· وصورة الزوجة الآخرى ·· زوجة الرجل الذى عاش بعد أن انتقل اليه القلب الجديد والرجل بين المرأتين : الى أين سيتجه هذا القلب؟!

من هنا ينطلق تحقيقنا الصحفى ·· المصور !

بكل الطموح الذى يملأ جوانح الصحفى الشقى فى أن يدير اليه عيون العالم ، غادر حجرة رئيس التحرير ، واصطحب مصورا ·· وعسكر الاثنان بالقرب من العنبر الذى يقيم فيه الرجل الذى أجريت له العملية ، ولم يلبثا أن رأيا الزوجة قادمة !

لكز الصحفى زميله المصور فى جنبه وقال هامسا : تنبه ·· استعد ·· انها خمرية ·· وجميلة ·· هل تلاحظ ·· خذ لها عدة لقطات بينما أنا أتحدث معها ، انها متوترة · هل تلاحظ ·

واتجه اليها الصحفى · رسم على شفتيه ابتسامة ، واعترض طريقها فى أدب وبانحناءة خفيفة :

ــ كامل قدرى ، محرر فى مجلة « أضواء الليل » ·

ــ أهلا وسهلا ··

ــ يا أفندم · احنا بنعتبر العملية دى عملية البلد كلها ·· عملية الانسانية كلها ·· احنا بنهنى أنفسنا على نجاحها ·

ـ ربنا يتمم بخير يا أستاذ ··

وفجاة ، رمشت بعينها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عفوية مرتبكة · وعفويا أيضا تحسست خصلات شعرها لتطمئن على منظرها وكان المصور يقوم بمهمته !

وواصل الصحفى :

ـ احنا بنعتبر العملية دى يا افندم عملية تاريخية · حضرتك زوجة أول رجل فى مصر ينتقل له قلب جديد ·· وتنجح العملية معاه ·· خلاص ، عدى مرحلة الخطر ·

ـ ربنا موجود يا أستاذ · ده حياتى · عشرة عمرى ·

هنا أخرج الصحفى من فمه صيحة اعجاب : « ياسلام على التعبير · اكتبه لو سمحت » ·

وأخرج « عدة شغله » الورق والقلم ، وراح يكتب مطريا أذن الزوجة : « ده حياتى ·· عشرة عمرى » ·

واقترب منها المصور أكثر · فنظرت اليه بابتسامة كبيرة ، ورمشت عيناها مرة أخرى مع ضوء الفلاش ·

وقال الصحفى : متجوزين بقالكم كام سنة يامدام ؟!

ـ سبع سنين ··

ـ عندكم أولاد ؟!

وابتسمت : هو ابنى ·· وأنا بنته !

صاح الصحفى الخبيث باعجاب : الله · ده تعبير مايقولوش نجيب محفوظ ولا حتى توفيق الحكيم ·

قالت فى هدوء وقد سرحت عيناها فى حلم : دى الحقيقة ·· واذا كان ربنا شفاه ، ونجحت العملية ، فعلشان خاطر · حبى الأول والأخير ·

قال الصحفى وقد بدأ ينعطف الى هدفه الأصيل :

ـ وهو يا أفندم ؟! ·· نفس الشعور طبعا !

ابتسمت ،

ـ تفتكرى مش حيحصل تغيير فى الشعور ؟!

ـ تغيير فى الشعور ·· ازاى ؟

ـ عشان القلب الجديد ··

ـ (وارتبكت الزوجة لاحظة) ماله القلب الجديد ؟!

ـ أقصد القلب اللى كان بيحبك به راح طبعا · وقلبه الجديد دلوقت مش قلبه ، قلب انسان تانى ، كان بيحب انسانة تانية · الزوجة اللى لسه عايشة ··

ـ مش فاهمة قصدك ··

ـ قصـــــدى · مش جايز يلاقى نفسه بيحبها · بفعل القلب الجديد ، من غير أى تعمد !

هنا انقلبت ملامح السيدة ، واكفهرت بالغضب وصرخت فى وجهه :

ـ ده كلام فارغ اللى بتقوله ده · هو ده الموضوع الصحفى اللى أنت عايز تعمله معاى · عايزين تضيعوا على فرحتى ·· أنتم مجرمين · متوحشين ·

رغم ثورتها المفاجئة ، والمتوقعة بالطبع من الصحفى والمصور ، الا أن الأخير انتهز فرصة ثورتها واصفرار وجهها ، والتقط لها صورة · حينذاك ، أحسست السيدة بثمة مؤامرة تحاك ضدها ، واندفعت نحو المصور ، وأمسكت به تحاول أن تنزع منه الكاميرا ، غير أنه نجح فى أن يفلت منها بمساعدة زميله الصحفى ، وانطلق يجرى · وبكل براعة الصحافة الذكية الشقية مضى الصحفى يهدىء من ثورتها ، ويطمئنها الى حسن نيته ، وأنه ـ لا هو ولا غيره ـ يجرؤ على أن يمس زوجة أول رجل فى مصر نجحت معه تجربة نقل القلب بكلمة تجرحها · انما سيتناول التجربة من الناحية العلمية البحتة و ···

وقاطعته صارخة : لا · أنتم كدابين · منافقين · واذا ماكنتش أنت ، حيبقى غيرك · أنا كنت عارفة ان الكلام ده حيتقال · وحيتقال أكثر منه · الناس مش حتسيبنا فى حالنا · بعض قرايبى قالوا لى الكلام ده على أنه ضحك ، وهو مش ضحك · هو سم · وعايزين كمان تنشروه فى الجرايد · عايزين تقتلونى · وتقتلوه هو كمان ·

على الضجة ، تجمع الناس ، وهرع بعض الأطباء ، وما ان رأوا هياج الزوجة ودموعها ، حتى أحاطوا بالصحفى · ضربوا حوله حصارا من الوجوه الغاضبة المتحفزة واختلطت التساؤلات · وهدد البعض بضربه ··

فجأة انحسرت الضجة ، وهدأت فى لحظة · كان الطبيب الذى أجرى العملية قد وصل ·

كانت أية كلمة من هذا الطبيب تعنى فورا الامتثال والخشوع والاحترام · انه الطبيب الذى حقق المعجـــزة · فخر البلاد وفخر

الانسانية · صحب معه زوجة مريضه ، وكذلك الصحفى · ودخل بهما حجرته ·

ـ ايه الموضوع بالضبط ·

وبدموع حبيسة ، قالت الزوجة :

ـ بيقول ان جوزى ماعدش حيجبنى · القلب اللى كان بيحبنى به مات ، والقلب اللى فيه دلوقت مش بتاعى · بتاع الست التانية ·

رغما عنه ، تراجع برأسه · اتسعت عيناه · مأخوذا ··

أسرع الصحفى ··

ـ مش انا أبدا يا دكتور اللى قلت كده · أنا كنت باسألها : هل ممكن ·· ؟!

وبصوت هادىء رهيب :

ـ ممكن ايه ؟!

ـ باقول لحضرتك مش أنا اللى قلت · هى اللى بتقول · ان بعض قرايبها قالوا لها · انه ماعدش حيحبها · حيحب الست التانية اللى أعطته قلب جوزها · اسألها ·· !

أخذ الطبيب نظرة سريعة من الزوجة : كانت ترتعش ، وفى عينيها دموع · ولونها شاحب · ومكياجها فسد · ! داهمه شعور بالخطر · كان ذهنه يفكر بسرعة · ها هو بعد جديد وحقيقى يظهر فجأة فى التجربة · لم يكن يفكر فى العملية · سواء قبلها أو أثناءها أو بعدها ، الا بشكل تكنيكى ··

حتى هذه الساعة ، كانت « العملية والطب » أما الآن « فالعملية والناس ·· القلب الجديد والمجتمع ·· »

وأحس برجفة تهز كيانه · كيف لم يفكر فى هذا ولو للحظة · ان مريضه العزيز لا يزال فى المستشفى · ولكن على وشك الخروج · هل يخرج الى الحياة لتواجهه هذه المشكلة التافهة والخطيرة فى نفس الوقت ··

ان اكثر ما اقلقه ، صوت الزوجة · كانت تتكلم بشعور الخائفة فعلا ، بل المرتعبة ، من امكان أن يحدث هذا ··

وتجسد له هذا الشعور القاتل : الغيرة · أى سخف · ولكنه الواقع · والواقع أيضا انه لاتزال عندنا صحافة من هذا النوع ·· صحافة الاثارة · لا ·· لن يسمح لأحد باللعب بالمعجزة · وسيقاتل ·

ــ شوفى يامدام · أنا واثق انك أكبر من كده بكثير · اكبر من كلام فارغ وجاهل زى ده · أنت يامدام قدامك مسئولية خطيرة · قدامك دور كبير من يوم ما الأخ كمال حيخرج من المستشفى ·· دور يوازى الدور بتاعى اللى قمت به · انك تحافظى عليه · وأنا واثق انك حتكونى عند حسن ظنى ، وظن الجميع ·

واستدار الى الصحفى ·

نظر اليه فى عينيه نظرة طويلة · عيناه وقحتان · هازئتان ، رغم ما يبدو عليه ، من صمت وانكماش · انه يفهم هذا النوع من الصحفيين · واقترب منه وكأنما سيطبق فيه ·

ــ وأنت يا استاذ · (ولوح باصبعه فى وجهه محذرا ومهددا) اى كلمة تمس الحياة الشخصية لأى انسان اشترك فى العملية دى · مش حيحصل طيب ·· واذا كنتم فاكرين البلد هيصة ·· لأ ·· البلد فيها رئيس جمهورية · فيها نقابة أطباء · فيها نقابة

صـــــحفيين ‥ (ولوح مرة أخرى بيده) أنا باحملك المســــئولية التاريخية !

* * *

فى نفس ذلك اليوم ، كانت هناك تعليمات مشددة قد أرسلت لجميع الصحف والمجلات ٠

‥ « لخطورة التجربة التى تعطينا وجها متقدما أمام العالم المتحضر ، ولفائدتها الجليلة المنتظرة ، فى أن يستفيد منها أكبر عدد ممكن من مرضى القلب فى هذه المنطقة ٠ رجاء عدم تناول هذه التجربة من ناحية حياة الأفراد الشخصية على الاطلاق ٠ وأى موضوع يمس هذا من قريب أو من بعيد ، لابد أولا أن يعرض على الجهة المختصة ، وهى فى هذا الشأن : الطبيب الذى أجرى العملية ‥ »

وهكذا ، أسدل الستار على مولد تحقيق صحفى مثير ، كان بالفعل سيحدث ضجة كبرى فى المدينة ٠ تلك المدينة التى بـــات أهلها لا يحبون شيئا فى الدنيا أكثر من حبهم للجدل وللمناقشات ‥ خاصة وكانت هناك كلمتان أصبحتا على لســـان الجميع : العلم والتكنولوجيا والى أى مدى يمكن أن تصل قدرة الانسان ٠ ما هى المسافة التى ستظل محفوظة بين الاله والانسان ؟!

- ٣ -

جاء اليوم الموعود · اليوم المرتجى · اليوم الذى ظل الرجل الذى رأى ظلام الموت بعينيه يحلم به · اليوم الذى يخرج فيه من المستشفى الى الشارع سيرا على قدميه ··

تلك كانت لحظة تاريخية فى حياة « كمال أدهم » · وكان يمكن أيضا أن تكون لحظة تاريخية بالنسبة لمصورى الصحافة والسينما والتليفزيون ، لولا أن الطبيب الذى أجرى العملية كان قد أخذ درسا من حادثة الصحفى والزوجة ، فقرر أن يخرج مريضه المعافى من المستشفى من غير ضجة أو ازعاج ! وقد قال الطبيب للثلاثين طبيبا وممرضا وممرضة الذين عاونوه فى اجراء العملية ·· « حقا ان مسئوليتنا عن مريضنا المعافى تقف عند هذا الحد ، والمجتمع كله بعد هذا هو المسئول عن حياته ، غير اننا يجب أن نكون معه انسانيين الى أقصى حد · (ونظر الى زميل له أخصـائى فى علم النفس والأعصاب) وقال : ان مجرد خروج الأخ كمال أدهم الى الشارع

على قدميه ، يعتبر فى حد ذاته صدمة قوية عليه ، فما بالكم لو وجد نفسه فجأة محاصرا بجيش من مخبرى الصحف والاذاعة ومصورى السينما والتليفزيون ؟! ٠٠ لا ٠٠ ان مسئوليتنا عنه يجب أن تستمر حتى يصل الى بيته ٠٠ « نعم ٠ سنعلن عن خبر خروجه من المستشفى ٠٠ كنجاح نهائى لعمليتنا ٠ ولكن بعد أن يكون قد خرج فعلا وأصبح فى بيته ٠ وبعد ذلك ، يصبح السيد كمال أدهم ، بمدى حبه للحياة ورغبته فى المحافظة على صحته ، هو المسئول عن نفسه ، عن قلبه الجديد ، فى مواجهة أى موقف يقابله فى الحياة ٠

وابتسم الطبيب ذو الوجه الدقيق الشاحب ، فنور وجه العالم ، وقال : ولنستعد من الآن ، أيها الأعزاء ، لنقل قلب آخر ٠٠ والله معنا ٠٠

* * *

هكذا فى هدوء بالغ ، خرج كمال أدهم من المستشفى ، غير أن هذا الهدوء لم يكن الا من وجهة نظر الطبيب فقط ٠ أما « كمال أدهم » نفسه ، فكان وهو ينتظر مجىء زوجته ليعود معها الى بيته ٠٠ كان كل ما فيه يضج بآلاف المشاعر والانفعالات والصور ٠ كان يدبدب بقدميه على الأرض ويقول فى نفسه أنا أعيش ٠ أنا أحيا ٠٠ أنا أتنفس بلا ألم ٠ أتنفس طويلا وعميقا (ويجذب للمرة الألف نفســا طويلا طويلا يطمئن به على قوة قلبه) حمدا لله ٠٠ شكرا لله ٠ وشكرا لك يا دكتور ٠ أنت معجزة !! وكان ينظر فى مرآة الدولاب الطويلة ، ليطمئن على منظـــره بالكامل ٠ كان لأول مرة بعد عام كامل فى المستشفى ٠٠ يرتدى بدلته وحذاءه ٠٠ ورأى نفسه أنيقا وطويلا وازداد سمنة بعض الشىء ٠ أى سعادة ٠ كان مشهد الســعادة مجسدا ٠ وكان يقترب جدا بوجهه من المرآة كأنما يطمئن الى أن

الوجه وجهه بكل التفاصيل بكل الملامح · ولونه القمحى الغامق ·· وعيناه الواسعتان السودوان ، بأهدابهما الثقيلة ، كأنها اطار يحيط بهما ، ويبرز بريقهما ·

ويضحك فجأة بصـــوت خافت ، وهو يقبض بيده على أنفه ويتحسسه : يا أنفى الكبير العزيز ـ كم أحبك » ·· كان أنفه كبيرا · من النوع المتكور ، بشكل يمكن أن يبعث على الضحك · وفيما مضى ·· زمان ·· خصوصا أيام الصبا ، كان يتضايق جدا من هذه الضخامة فى الأنف · كان يتضايق من أنفه ، ويتمنى لو يصحو من نومه ذات صباح · فيجد نفسه بأنف صـــغير ·· وحينذاك يصبح وسيما وجميلا ·

الآن · كم يحب هذه الضخامة · يحبها ويعتز بها !! لو كان قد خرج من هذه العملية بأنف صغير دقيق ، لما فرح · ولما صدق أنه صدق أنه هو ·· الذى تحققت معه المعجزة ··

ـ انه أنا ·· كمال ادهم ·· رجعت الى الحياة بقلب سليم ·· مضى زمن الآلام ·· (ويريح كفه على قلبه ·· ويحس بالدقات ·· ويجذب نفسا طويلا) ·· شكرا لكم أيها الناس الذين وهبتمونى قلب رجلكم · قلب أعز انسان لديكم · أريد أن أراكم · أركع أمامكم ·· كيف سأعبر لكـم عن امتنانى ·· وشكرى ·· وعرفانى بالجميل ··

وحين رأى زوجته سناء قادمة نحوه ، تكاد تجرى ، لا يعوق سرعتها غير كعب حذائها العالى ، أندفع نحوها ·· لم تكن وحدها ، كان معها أخوها « يحيى » وصديق زوجها « أحمد زهران » المحامى صديق طفولته ·· والثلاثة يتسابقون عليه ، غير أن السبق فى هذه المرة يجب أن يكون للزوجة ·· وفى لحظة · كان الجسدان اللذان

التحما ، جسدا واحدا · وتهدج صوتاهما وهما يتبادلان بحـرارة القبـــلات ·

وصاح احمد زهران بصوته العريض ضاحكا :

ــ واحنا كمان لنا حق ياست سناء ·

ــ ياصديقى العمر كله · يا ابن بلدى ·

واندفع الصديقان الى بعضهما ، وتهدج صوتاهما أيضا وهما يتعانقان ··

ــ وأنت كمـــان يا « يحيى » (وفرد له كل ذراعيه) تعال بالحضن · وحشتنى سنتك المكسورة ، وريها لى ··

وضحك يحيى من كل قلبه ، فبانت سنته المكسورة · غير أن ضحكته لم تلبث أن تحولت على الفور الى بكاء وهو يدخل فى صدره ويعانقه · كان « يحيى » بعكس « زهران » يميل الى القصر ، مع متانة فى البنيان · وتناول زوج أخته من وجهه ومضى يربت على وجنتيه فى تأثر وحنان ··

ــ الف ألف حمد الله على السلامة (ويطمئنه) المصنع ماشى كويس جدا · ماتحملش همه · ماتحملش هم أى حاجة · أبدا ·· أبدا ··

ويقول الرجل مهتزا :

ــ متشكر · متشكر يايحيى · أنا كلى ثقة فيك · والمصنع مصنعك · أنا ماليش غيرك (ويزفر) الحمد لله · كفاية انى عايش وشايفكم (ويعود ويضغط على يد زوجته بحرارة وحنان) ·· ازيك ياسناء · ازى البيت ·· نفسى أشوف بيتى ·· نفسى أشـــوف

سريرى · نفسى أشوف الحيطان نفسها ·· والصالة و « ركس » ·· عامل ايه ركس ياسناء ؟

– حيتجنن عليك ··

وقال يحيى : من يوم ما سبت البيت ، وهو راقد قدام الباب ، فى انتظار أنك ترجع فى أى لحظة ··

– ياحبيى ياركس · بالحضن ·· عايز آخده بالحضن (وتذكر) وحوض السمك ·· عامل ايه السمك ياسناء ·· قوليلى ما ولدش ؟

– لسه ياحبيبى ·· اليومين دول الموسم بتاعه (وتضحك) منتظرك عشان يولد ·· كل شىء فى البيت فى انتظارك دلوقت ·· وماما وبابا كمان فى انتظارك ، فى البيت ·

وهتف فرحا : ماما وبابا ؟! ·· ازيهم · ليه ماجوش معاكى ؟!

– ماحبناش نعمل هيصة · حسب كلام الدكتور ··

كان يغمرها احساس بالفرح ، وشعور بالغ بالطمأنينة · وتذكرت سناء وجه الصحفى الخبيث ، محرر مجلة « أضواء الليل » ·· وتمنت لو كان هنا ، فى هذه اللحظة · ويرى كمال كيف يحتضنها ، ويكاد يمتصها · ويسمع أيضا كلامه · ها هو زوجها بعد أن نقلوا اليه القلب الجديد ، يتكلم عن الأشياء القديمة التى كانت فى حياته قبل العملية·عالم ما قبل العملية يسأل عنه فى حنين وشغف·لايزال يحب ركس وحوض السمك · حوائط البيت يريد أن يراها · لم يفعل به القلب الجديد ·· أيها الصحفى الخبيث ، أى شىء ·· وأنا ·· مازلت ، وسأظل حبه الوحيد ·

وقال أحمد زهران : وعربيتك كمان فى انتظارك · فى الحوش ·

ـ عربيتى أنا ؟!

ـ أه ٠٠ قلنا لازم نرجع البيت بعربيتك ٠ وأنا اللى حاسوق ده يوم تاريخى !

يا صديق الطفولة وأيام شربين ودمياط ٠ ياربيب السجون والمعتقلات ٠٠ لم تفقد أبدا شهامتك ٠٠ وأنا الآخر ، كنت شهما معك ومع زوجتك ووليك ٠ جريت وراءك سبع سنوات وأنت فى السجن وقبل السجن ، كنت أخفيك فترات ٠ كنت وفيا لصداقتنا ٠

وركبوا العربة ٠

أحمد زهران على عجلة القيادة ، وكمال أدهم يجلس بجواره ، وسناء وأخوها « يحيى » فى المقعد الخلفى ٠٠

كان الوقت بعد الغروب بقليل ، وغلالة الليل الصيفية شرعت تلقى بنفسها على المدينة ، غير أن العربة ما كادت تجتاز فناء المستشفى المعتم ، وتخرج الى الشارع ، حتى خطفت بصر كمال أضواء النيون وحركة العربات ، والبشر ٠ انتابته لحظة ذهول ٠ شبه دوار ٠٠ وزغللت عينيه أنوار كهربائية ملونـــة للافتة احد الكازينوهـات الواقعة على فرع النيل الصغير ٠ كانت على شكل كرات تضىء وتنطفىء ٠ وصاح فجأة ، يقرأ اللافتة وقد خاف أن يستسلم للدوار :

ـ زهرة اللوتس ٠٠ فاكرة ياسناء ؟

واصل فرحته بكل ما تقع عليه عيناه ، يريد أن يرى أكبر عدد ممكن من الأشياء ٠

كان يهتف لنفسه أكثر مما يهتف لمن معه ٠٠

ـ وقصر محمد على القديم ٠ عمر الخيام ، والكوبرى الصغير،

ونهر النيل ، أنا دلوقت فوق نهر النيل (وهدأ صوته قليلا ، وقال مغمغما وهو يحدق فى مجرى النهر :

ـ فيه حاجات مابتموتش أبدا ·

والتقط أحمد زهران كلمته وقال :

ـ مادام فيه تجدد ، يبقى مفيش موت ·

يا صديقى الحبيب · المناضل القديم · شاب شعرك ، أصبحت فيلسوفا · هل مضى زمن البطولة والمغامرات والسجون والمطاردات، وجاء الزمن الذى حولكم الى فلاسفة وحكماء ؟! ·

ـ عاملة ايه السياسة دلوقت يا أحمد يازهران ؟

ـ أنت عارف طبعا ان فيه انتخابات قريب ·

ـ آ ه · كنت باشوف عناوين الجرايد · لكن تفاصيل ماعنديش فكرة طبعا · (ثم هز كتفيه باستهانة) يعنى · معركة زى آلاف المعارك اللى فاتت ·

قال زهران ، وقد داخل الحماس فجأة صوته :

ـ لا ياكمال · أنا فى اعتقادى أنها حتبقى أخطر معركة انتخابية فى الفترة الأخيرة ··

ـ ليه ·· ؟!

ـ كل الخلافات اللى كانت متغطية فى المرحـــلة اللى فاتت حتبان ، وحيتحدد فيها اليمين من اليسار ·

ـ مين اليمين ·· ومين اليسار !

ندت عن زهران ضحكة قصيرة ، وقال بلهجة تحذير لطيفة :

ـ اسمع ياكمال · مش وقته الكلام ده ·· (وأشار بيده على

الطريق) ده اليمين • وده اليسار • خلينى أوصلك لغاية البيت سليم •• (وضحك عاليا) حياتك من النهاردة بقت مســئولية عالميــة ••

وقال يحيى معلقا بابتسامة « فعلا •• أنت يا ابو الكمال دلوقت ثروة انسانية •• أنت اهم انسان فى العالم النهارده مفيش شك •

ـ لا •• حاسبوا على شوية ارجوكم •

كان فرحا بأن هذين الاثنين بالذات هما أول من رأى فى هذا اليوم العظيم ، وابتسم فى نفسه : أنهما من نوع واحد • لقد تعرف « يحيى (على أحمد زهران عن طريقه • فاستهواه الكفاح فترة •• احترف الكفاح تاركا دراسته فى الكلية • ثم دخل السجن مع زهران، وأيامها ، أحس بالذنب أنه كان سبب المعرفة • غير أن « يحيى » خرج بعد ستة أشهر ، تاركا زهران فى السجن • فتلقفه كمال •• وربطه بمصنعه ودخل « يحيى » دنيا العمل ، بكل ما يمتلك من طاقة • تاركا خلفه دنيا الكفاح ، والدراسة •

منذ أن اشـــتدت على كمال أزمة القلب ، وهو القائم بادارة المصنع • أثبت أنه شاب جاد • لقد أصبح تماما مثل ابنه الكبير • وهو بلا أولاد •

وقد توقفت العربة فجأة أمام اشارة مرور حمراء • وتراكمت على الفور كميات ضخمة من العربات • بينما انطلقت أعداد أضخم • مضت تنهب الشارع المقاطع • ما هذا الزحام •• ؟! وبدت الأرض لـــكمال وكأنها تنبت بشـــرا • تتنفس بشـــرا • وعاودته كلمة « زهران » : مادام فيه تجدد • مفيش موت • وفكر : لو كانت العملية قد فشلت ، وانتهيت ، لما نقص عددهم • لما حدث أى تأثير • واعترته مسحة كآبة • وهز رأسه : لا •• أنا لست كأى واحد من هؤلاء • لقد رأيت ما لم يروا وتجربتى لم يمر بها أحد •• فى مصر !!

وأضاء النور الأخضر ، فواصل « زهران » قيادة العربة ··
وأخرج كمال أدهم ذراعه من النافذة فجأة ولوح بكفه لعسكرى المرور يحييه ، فرد العسكرى التحية مستغربا ·· وضحك الجميع ! كانت العربة منطلقة بمحاذاة كورنيش النيل الموازى لجاردن سيتى ، وبدت أنوار كوبرى قصر النيل من بعيد ــ ونجمة البرج العالية الحمراء · وصاح كمال فى نشوة : « والبرج · والجزيرة · ومركز قيادة الثورة القديم ·· و ·· الله ·· شايفين النيل هنا واسع أد ايه ·· والنافورة كمان ·· ياسلام ·· القاهرة حلوة ياأولاد » ··

قال « يحيى » وقد انتقلت اليه انفعالة كمال ··

ــ أنت عارف بتفكرنى بايه دلوقت ؟ بأول يوم أنا خرجت فيه من السجن · وكان بعد المغرب ، زى كده بالضبط ··

لم يسترح كمال أدهم للتشبيه ·· أحس بالتعالى · لا · لا مثيل لتجربته · قال معترضا بقوة : لا يايحيى · الخروج من السجن مش زى الخروج من الموت ·· من ضلام الموت · دى تجربة تانية خالص · والا ايه رأيك يا أحمد يازهران ؟!

كان يسأل أحمد زهران ، باعتباره قائد يحيى القديم ، وربيب السجون والمعتقلات العتيد ··

قال زهران :

ــ مفيش شك التجربتين مختلفتين · لكن لو أخذت السجن ، أو فقدان الحرية ، على أنه نوع من الموت للانسان ، يبقى الخروج من السجن كأنه خروج للحياة ، ده معنى كلام « يحيى » ·

وقال يحيى مؤكدا : بالظبط ·

قال زهران مستدركا : بس أنا رأيى غير كده · السجن للمكافح مش موت ·

بالعكس بيبقى موقف · بيختاره المكافح ، عشان يؤكد به حريته ·· (وضغط على الكلمات بشكل واضح) ويستمر فى كفاحه ·

لسبب ما ، أحس يحيى بالضيق · ترى ، هل يقصد « زهران » غمزه بأنه تخلى نهائيا ، بعد خروجه من السجن عن الكفاح السياسى ·· « أى كفاح يا عم زهران ؟ ماهو كفاحك الآن · قل لى · نحن دفناه سويا يازهران » ··

تملكته رغبة أن يقول هذا ، لكنه أمسك : هو أولا يكن له احتراما من أجل أيام قاسية مضت وجمعتهما سويا · وثانيا لأن هذا ليس وقته ، أن تحتدم بينهما مناقشة سياسية · وكمال أدهم ليس رجل سياسة ، ولا حكما ، حتى يثير أمامه لب القضية · واستراح الى أن أخته سناء تململت فى جلستها بجواره وقالت محتجة على اتجاه الحديث :

ـ سجن ايه ، وموت ايه ، وكفاح ايه ياجماعة ؟! ده وقته ؟ قولوا لنا حاجة حلوة كده تفرح · والا ايه ياكمال ·

قال كمال أدهم معبرا عن قمة فرحته · أنت عايزة فرحة أكثر من كده ياسناء · انى الاقى نفسى من تانى قاعد مع « زهران » و « يحيى » بنتكلم وبنتناقش ؟! ده أنا خفيت بصحيح يا أولاد ·· (وسرح بصوته) · أنا أحيانا ما باصدقش ··

ثم قال مغمغما :

« مش عارف أشكرهم ازاى » ··

ـ تشكر مين ؟!

ـ الناس اللى وهبونى القلب . (وشرد صوته) أنا مش عارف أرد لهم الجميل ازاى .. كان ممكن يرفضوا .. كنت زمانى انتهيت !

قالت سناء مندفعة :

ـ ويرفضــــوا ليه .. ؟! هو المرحوم مش كان مات ؟ كانوا حيستفيدوا ايه بالقلب بتاعه ؟!

صدمه منطقها . نظر اليها بدهشة واستنكار .

أسرع يحيى قائلا لأخته بلهجة عتاب حادة : (وكان قد تذكر حادثة صحفى مجلة « أضواء الليل » المسألة ماتتصورشى بالشكل ده ياسناء . ده موقف عظيم منهم مفيش شك .

وقال أحمد زهران مؤكدا : فعلا . موقف عظيم . موقف ضخم . مش بسيط أبدا (وعلا صوته فجأة وبحماس) ياسلام على شعبنا ده . بشرفى شعب عظيم . مش صدفة أبدا ، ان أول عملية نقل قلب ناجحة ، تتم بفضل قلب واحد عادى من الشعب (والتفت الى صديقه كمال) صح والا لأ ؟! (وضحك) يعنى القلب اللى جواك دلوقت ، هو قلب الشعب !

ورغم أن أحمد قالها بضحكة ، الا أن كمال أدهم أحس معها بكل كيانه يرتج ، « قلب الشعب » .. هو يعرف ماذا يعنى « الشعب » عند زهران : معبوده المقدس الذى ضيع العمر من أجله . لايمكن أن يكون هناك تكريم له من صديقه السياسى أكثر من هذا .

لكنك تضع على كاهلى ثقلا ضخما يازهران : آلام الناس ، والمرارة ، والشوك ، والمستحيل . وطالعته وجوه الفلاحين فى قريته ،

والحقول ، والظهور المحنية بالفئوس ، وعمال التراحيل • وعمال آخرون • وعمال مصنعه •• و •• أصدقاؤه أصحاب المصانع •

– لا • لا ياعم أحمد يازهران • حكاية قلب الشعب دى كبيرة أوى على • أعمل معروف أنا • أنا رجعت للحياة بفضل قلب رجل بسيط • عادى بيشتغل فى السكة الحديد • وساب وراه زوجة وبنت وولد • مساكين •

قال زهران : تصور بقى • هم دول اللى أخدوا القرار • بمنتهى الشجاعة • ووهبوك قلب أعز انسان عليهم • مش عايزه دراسة دى !

– ربنا يقدرنى أوفى لهم الدين ••

كان يتكلم بخشوع وابتهال • وأحست سناء بشىء ما يتقلص فى داخلها • ومع ضيقها بكلام زهران ، تذكرت وجه الصحفى الشقى، وطالعها وجه الزوجة • زوجة الرجل الذى مات • أيمكن أن تكون هذه هى البداية • وتصح النبوءة ؟!

كانت العربة قد انحرفت عن شارع النيل •• ودخلت شارع رمسيس • وكانت عينا كمال دائبتين على التقاط الأشياء بقدر ما يستطيع يؤكد عودته للحياة • وفى أحيان ، كان يغشى عينيه نوع من الذهول • وفى احدى اللحظات ، ولا ندرى كيف حدث هذا بالضبط ، رأى الأرض كرة تدور ، وأنه يدور معها • وهز رأسه متخلصا من هذا الاحساس المروع ، وساعده على هذا ان العربة كانت تجتاز ميدان باب الحديد ، بزحامه الشهير • ولمح تمثال رمسيس الضخم ، والنافورة ، والبحيرة المستطيلة ، والتقطت أذناه صفير قطار، اهتزت روحه بالشوق ، رأى بعين الخيال أرض مولده • ارتسمت له القرية الصغيرة الواقعة قرب البحر الأبيض • والمصيف • وتراءى له الفضاء الفسيح • وزرقة البحر • والأمواج تضرب فى الشاطىء •

ـ تعرفوا أنا فين دلوقت يا أولاد ؟! فى « رأس البر » ولابس مايوه وباجرى وبانط فى البحر ٠

سارع « يحيى » قائلا وبحماس : وده لازم يحصل ياكمال ٠ لازم السنة دى نصيف بدرى ٠

قالت سناء بنفس الحماس : كل سنة بنصيف فى أغسطس ٠٠ السنة دى ناخذ يوليو ٠٠ ايه رأيك ياكمال ٠٠ المصيف يفيدك تمام ٠٠

(وسرح) ـ فعلا ٠٠ نأخد يوليو السنة دى ٠ بس تيجى معانا يا أحمد يازهران ٠ ولو ماجيتش مش حاسافر !

ضحك أحمد مندهشا وقال : وأنت ذنبك ايه ترتبط بى ٠ افرض ماقدرتش آجى ٠

ـ وماتقدرش ليه ؟! محاكم وأجازة ٠ أظن حتقوللى : المعركة والانتخابات ؟! (وابتسم مداعبا) ! ايه رأيك لو ترشح نفسك عن دمياط ورأس البر ٠ تبقى كافحت ، وفى نفس الوقت صيفت ٠

ضحك أحمد وقال : الكفاح على الطريقة العصرية ٠٠

وعاد كمال يؤكد على صديقه : بجد يا أحمد ٠ يا أخى لازم تعيش ، عيش حياتك يا أحمد يازهران ٠ الحياة مش سياسة وبس ٠ الحياة : اسألنى أنا عن الحياة !

ورفع أحمد زهران احدى يديه عن عجلة القيادة ، وأشار بها على الرصيف :

ـ طيب لو سألتك عن دى ؟! ٠٠

كانت العربة قد توقفت عند اشارة مرور أخرى ، وكانت فتاة رشيقة جميلة ، ترتدى الميني جيب ، وتخطو على الرصيف بايقاع

نشيط ، وخصلة عريضة من شعرها الناعم الأسود تنسدل وتغطى نصف وجهها الأيسر ، وفى خديها غمازتان تضحكان ٠

واسرع أحمد زهران يضحك موجها حديثه الى سناء :

ـ لامؤاخذة يامدام ، أنا يس باسأله عن رأيه ، مش أكتر ٠ هيه ياكمال ، رأيك ايه فى الحاجات دى ؟!

وقالت سناء ضاحكة : قول يا كمال ، ولا يهمك ٠ خد راحتك ٠

قال كمال وقد تعلقت عيناه بالفتاة ، من أسفل الى أعلى : حاجة فى منتهى الجمال والظرف ٠ ماله المينى جيب ٠ حلو المينى جيب (كان صوته فائضا بالحيوية ، وطوح بيده) خليهم يعيشوا ٠ يستمتعوا بحياتهم !

قال « يحيى » متشاقيا : عينى ياعينى ، سامعة ياست سناء !

قالت سناء ترد على المداعبة ، وفى نفس الوقت متحديةبلطف: «بقى على كده حافصل لنفسى فستان مينى جيب ٠ وأخرج به !

ـ أنا شخصيا ماعنديش مانع ٠

قالت وقد فوجئت برده ولهجته : كده ؟!

ـ طبعا ٠ مش دى رغبتك ؟! أنا مش عايز أشوف حد نفسه فى حاجة ٠ له رغبة فى شىء ، ومايحققهاش لنفسه ، مادام فى أمكانه !

أسرع زهران ! اى حاجة ؟ اى رغبة ؟!

ـ أى حاجة ٠ وأى رغبة ٠ مادام راضى عن نفســـه وهو بيعملها !

قال زهران ، مثبتا يديه جيدا على عجلة القيادة ، ده كلام

خطير وجـــديد عليك يا كمـــال ٠٠ يستحق المناقشة ٠٠ بس لازم تاخد فرصة ٠٠ لغاية ماترجع للحياة مظبوط ٠

أضاءت الاشارة الخضراء ٠ وانطلقت العربة من جديد ٠ مع كل لحظة كانت تمضيها العربة منطلقة ، كان يدرك أنها تقربه من البيت :
اخيرا ٠ يابيتى العزيز ٠ اخيرا سادخلك ٠٠ وياركس الحبيب ٠٠ كيف سيكون عناقنا ٠ لن أعانقك فقط ٠ سأعانق خشب الباب ٠ بخدى سأتحسسه ٠ وياسمكى العزيز الملون ٠ سأراك من جديد وأرقبك وانت تتوالد ٠ تلد ٠ وياسريرى العزيز ٠ وياسناء ٠ ربما ننجب هذه المرة : قال لى الطبيب اننى سأنجب ٠ لم أقلها لك ٠ سأتركها لله ٠ واذا حدثت فستكون المعجزة المقدسة ٠

وحين لاح البيت ، وجد ذراعه ــ دون وعى منه ــ ترتفع ، وتمتد فى هدوء الى الخلف ٠٠ نحو سناء ٠

مدت ذراعها اليه أخذت كفه فى كفها ٠ وتعانق الكفان !

- ٣ -

كان لقاء مثيرا ومؤثرا ، ذلك الذى حدث بين « ركس الصغير » وصاحبه كمال أدهم ، آمن كل من رآه آن الكلاب مثل الناس تضحك وتبكى وتعرف دموع الفرح !

كان ركس راقدا تحت أحد المقاعد فى الصالة وقد مد رأسه برقبته أمامه على الأرض فى حزن واكتئاب · وكانت أم سـناء وأبوها جالسين فى نفس الصالة ينتظران وصوله فى صمت وقلق · وفجأة ، اذا بالكلب ركس ينتفض من رقدته ، وراح يمد أنفه فى الهواء ويتشمم بشواربه المرتعشة ، ويزوم بأصوات غريبة ·

نهضت الأم من على مقعدها ، وقالت لزوجها بانفعال :

ـ ايه رأيك أنهم حيوصلوا دلوقت ؟! الكلب ده أصله بيحس به · كان دايما يشم ريحته من بعيد وهو جاى ··

قال الرجل العجوز ، وقد أقنعته حركة الكلب بما قالته زوجته : جايز • ما هى الكلاب دى فيها سر ، مش فى الانسان •

وتنهدت وقالت وهى تمصمص بشفتيها فى حسرة وابتهال ــ لو ربنا يعطيه ، يعطيه ولد من صلبه ، عشان خاطرك ياسناء يابنتى •

قال الرجل معترضا بكفه • مستعيذا كأنما يدفع شرا : استغفر الله العظيم • أنت حتكفرى ياست أنت • ده انكتب له عمر جديد •• أكتر من كده يبقى طمع • يبقى كفر •

واصلت المرأة الكبيرة ابتهالها عن يقين : ويبقى كفر ليه •• مادام الانسان بيقصد الرب • مش العبد • (ونظرت الى القوة العليا من خلال السقف ، ترتجيها) اكرم منه مفيش • قادر على كل شىء •

ــ اى نعم قادر على كل شىء • لكن كمان له حكمة فى كل شىء •

كان الكلب لايزال على حالته القلقة ، وكان يروح ويغدو فى الصالة ، ويمد بوزه من تحت عقب الباب ويتشمم ، ثم ينظر اليهما وهو يعوى عواء خافتا متصلا ، ثم يعود فيشب على الباب • يريد أن يفتحه ••

فجأة فتح الباب وظهر كمال أدهم : يتقدم سناء ويحيى وأحمد زهران • وما ان رآه ركس ، حتى بدا عليه للحظة أنه لا يصدق ثم فجأة ، ومن النقيض الى النقيض انتابته حالة فرح جنونية ، وراح يثب عليه ويقفز ويصيح بأصوات تئز الناب بعنف : كان يقفز حينا ، وحينا آخر يتصاعد فى الهواء ، وحينا ثالثا يتمرغ فى الأرض تحت

قدمى كمال ، ثم يشب من جديد ، ويقفز الى صدره ويتمسح فيه بعنف ، ويتشمم وجهه وملابسه وينشج نشيج الفرح !

وكان كمال مهتزا باللقاء ، حلم اللقاء الذى تحقق ، نسى كل من معه ، نسى حتى حماته وحماه اللذين اندفعا نحوه بهدف العناق · اعتذر لهما بنظرة دامعة ، فياضة بالحب وبالشكر وبالحنان، ودخل مع الكلب فى اللقاء العنيف · يضمه الى صدره باشتياق شديد، يريد أن يحتويه ، ويغمره بالقبلات ، يقبله من وجهه ومن جبهته ومن فمه ، ويربت على خديه ويدعك له جسده ، بشعره الطويل الأسود · ويهدهده على صدره ، كطفل صغير ويحدثه ،مغمغما · بصوت متهدج - ازيك ياركس ، وحشتنى جدا (ويرد عليه الكلب بصوت معاتب) · ايه زعلان منى · معلهش معلهش · خلاص ، جيت لك وحاقعد معاك على طول ·· (ويتحسس لحمه وعظامه) مالك خاسس كده ليه (وينظر الى سناء معاتبا فى ود) فتقول مدافعة :

- ماكنش بيرضى ياكل · اسأل يحيى ·

ويؤكد يحيى مسرعا بانفعال :

- فعلا يا كمال · كان راقد على طول قدام الباب · ليل نهار · على أمل انك ترجع فى أى لحظة ·

- ياحبيبى ياركس (ويضمه بانفعال) أنا اللى حاأكلك بايدى من هنا ورايح ، زى زمان ·

وبالكاد ، استطاع أن يتخلص من ركس للحظات ، واندفع يعانق حماته وحماه · غير أنه وجد نفسه مجذوبا الى ركس من جديد ·

كان الواقفون يرقبون المنظر بانفعال شديد · وكانت أم سناء

وسناء تبكيان · أما أحمد زهران ، ويحيى البدرى والبدرى الكبير ، فكانوا ـ كرجال ـ يقاومون الانفعال ، ليتميزوا عن النساء ·

وهز أحمد زهران رأسه ، وقال بصوت خافت كأنما يكلم نفسه·

ـ ياسلام على الوفاء ·

وقال البدرى الكبير ، بصوته الضخم المتناســـب مع ضخامة جسمه ، وهو يهز رأسه فى صمت الحكماء :

ـ لو البنى آدم يتعلم من الكلاب ·

وقالت زوجته ذات الشعر الأشيب المفضض بلهجة ذات مغزى ، وهى تجفف دموعها : لو ·· !!

وضحك يحيى لهذه الغمزة من أمه لأبيه · « أين أنت من وفاء الكلاب يابابا · لقد تزوجت على أمنا الغالية هذه أربع مرات » ·

واللقاء بين كمال أدهم وكلبه لايزال · وبدا لسناء أن الكلب لو ترك هكذا ، فلن يترك كمال حتى الصباح ، وقد يجهده بحركته الدائبة الراقصة العنيفة ·

ـ كفاية بقى كده ياركس · عايزين احنا كمان نقعد معاه ·· يالله تعالى ·

قالتها بلهجة آمرة ، وأمسكته من شعره الطويل ، وحاولت أن تجذبه اليها ، غير أنه تشبث بكمال ، وبدامن صوته المحتج انه على وشك البكاء ·

قال كمال منفعلا وهو يحتضنه من جديد : سيبيه ياسناء · خليه معاى شويه (ويقبله) سنة بحالها ماشافنيش ولاشفته (ويضحك) انما أنت كنت بتيجى تزورينى (ويقول معتذرا للواقفين يتفرجون عليه

هو وركس) ،لامؤاخذة ياجماعة • اتفضلوا اقعدوا استريحوا •• أصله واحشنى •• عايز اشبع منه •

وجلسوا ضاحكين ، واستغرق مع ركس من جديد •

على نحو ما ، غاصت ضحكة سناء فجأة • وتململت فى جلستها •

كانت ازاء هذه العلاقة تحس بغصة ، ومع هذا المشهد الذى يرقبه صديقه زهران واخوها يحيى وامها وأبوها ، كانت تحس بجرح حياتها يتقلب عليها : ان يأخذ زوجها كمال من كلب ، بديلا للطفل المفتقد ، وأمام الناس بلا أى حرج (وتهز رأسها بعصبية) • لا • ليس هذا أوان نبش الجراح • الليلة فرح ياسناء ، علقت له أوراق الزينة ، واعددت له الشربات • الحبيب عاد (وتطفو على وجهها ابتسامة) ياما حلمت بهذا المنظر بالذات أيام القلق السوداء • افرح ياكمال بركس وافرح ياركس بكمال • أحيانا تسميه « بالولد » • (وتعاودها الغصة رغما عنها فتحاول الفصل بينهما بطريقة ذكية) :

ـ انت ناسى السمك ياكمال • مش كنت بتسالنى عنه ؟!

وصاح كمال ، كمن يدفع عن نفسه اتهاما لا يقبله لنفسه :

ـ ازاى • أنا من اول لحظة دخلت فيها من الباب ، شفته شفته ، وفرحت به • واتجه بنظراته الى الحوض المضىء ، باسماكه الملونة السابحة • وخضرة الماء والأعشاب ، وفقاقيع الأكسوجين المندفعة من أسفل الحوض ، الى سطح الماء فى خط رأسى ثابت لا يحيد) •

.. ده عايز قعدة طويلة لوحده • سمكة سمكة عايز اشوفها (وحول نظره فجأة عن السمك) مش السمك بس • كل حاجة فى البيت عايزة قعدة لوحدها •

وراح يدور بعينيه فى أرجاء الصالة : على الأبواب ، والستائر والجدران ، والمكتبة والتليفزيون · حتى لوحات الكانفاه المعلقة على الحوائط من شغل سناء !! · ومع أصغر الأشياء التى كانت تلتقطها عيناه ، كان يزداد ايمانه ببهجة اليقين · يقين العودة ، لايزال يؤكد عودته للحياة · هذه الصالة وحدها تذكره بكل ما كان · هذا البيت يجسد له قمة كفاحه فى الحياة وفى الانتصار ·

وقالت سناء :

ـ تعال شوف الترتيب الجديد بتاع البيت ·

قال بحماس :

ـ تعالى ، عن اذنكم ياجماعة · دقايق · آخد نظرة من البيت ·

وأخذها من يدها واندفعا فى مرح · يتبعهما ركس·ومن المطبخ الى الحمام · ومن حجرة الصالون الى حجرة الطعام · الى حجرة النوم ·

معجزة · منذ عام ، خرج من هذا البيت محمولا على عربة مغمى عليه ، وقلبه القديم يقوده بخطوات سريعة نحو الموت · اليوم يعود · واقفا على قدميه · يجرى · يضحك · يحتضن الأشياء · يحتضن سناء ·

ـ فاكره ياسناء · أول يوم جينا نسكن فيه الشقة دى ؟!

ـ كل لحظة من عمرى معاك ياحبيبى فاكراها ·

وجذبها فجأة نحوه · يضمها بحنان شديد · كأنما يضم الماضى كله الى صدره يضم الحياة التى كانت · والتى ستكون !!

ـ ربنا يقدرنى ، أسعدك ياسناء ·

زغرد قلبها بالفرح · تذكرت وجه الصحفى الشقى · تعال أيها الشيطان الخبيث واشهد ·

وتملكتها رغبة فى أن تلتصق بصدره أكثر · تضغط عليه · تحس بقلبه الجديد · غير أنها أحست بالخوف عليه ·

وابتعدت قليلا بجسمها عنه ، وشبكت يديها فى يديه :

ـ مجرد وجودك معايا ياحبيبى هو السعادة · أنا خلاص · مش عايزه حاجة من الدنيا أكثر من كده · (وجذبته فى رفق) ·

ـ لسه البلكونة مادخلتهاش · تعال نشوف المنظر منها ·· وحشتنى القعدة فيها ·

ما ان فتحت سناء باب الشرفة ، حتى اندفعت موجات متتابعة من الهواء · قوية وباردة ومنعشة · جذب نفسا طويلا ملأ به كل رئتيه ثم تقدم الى سياج الشرفة ، واستند عليه بمرفقيه ، ومضى ينظر · كانت الشرفة عالية بعض الشىء ، منها يستطيع الواقف أن يرى عض ثكنات الجيش القديمة وجامعة عين شمس ومن بعيد أضواء الضواحى وأضواء مصر الجديدة والنجوم فى السماء · وفيما هو مأخوذ ببقاء العالم كما هو منذ أن تركه ، تراءت له فجأة صورة ارتجف لها : رأى أنوارا كاشفة فى الظلام · وقطع نور حمراء تضىء فى السماء · وطلقات مدافع ودوى قنابل وأزيز طائرات · وكل شىء يترنح ·· ويتساقط وينهار · يونيو ٦٧ · الأيام السوداء · وأحس بفزع داخلى اذ قفزت له هذه الصورة وأسرعت دقات قلبه وتتابعت أنفاســـه : وغامت نظراته : البداية ··

كانت تلك بداية تصاعد الأزمة فى قلبه · وظلت تتصـــاعد وتتصاعد حتى وصل الى مرحلة لم يعد فيها وسطا : اما موت أو حياة · الحياة بمعجزة · وحدثت المعجزة · قلب جديد !

ونفض رأسه بشدة يدفع الصورة · وعاد يجذب نفسا عميقا يطمئن به على قوة قلبه · « الحمد لله · عاد كل شىء كما كان وأحسن ·· وكفى اليوم ذكريات » !

- ٤ -

ـ أنت ياكمال يا أدهم منتظرك مستقبل عظيم ، وحتشوف ٠

قالها أبو سناء فى هدوء ٠

رنت الكلمة فى اذنى كمال ٠ نظر الى الرجل العجوز الضخم فى فضول ٠

واصل الرجل : كلمة عمك البدرى عمرها ما تنزل الأرض ٠

(ولوح له بكفه الضخم) أنت بقيت راجل مبروك !

عفوا ، وبلا ارادة ، انطلقت ضحكة من أحمد زهران ، وقال بروح مرحة لا تخلو من سخرية :

ـ ابسط يا عم كمال ٠ وحنجيب لك سبحة كمان !

بسط كمال كفه فى وجه الرجل ضاحكا ، ومنزعجا فى الوقت نفسه :

- لا ياعمى البدرى · ارجوك سيبك من حكاية المشيخة دى ، اعمل معروف ·

قال الرجل ولم تعجبه لهجة زهران وتفسيره :

- لا ياكمال · مش بالشكل اللى بيصوره الأستاذ زهران ·· البركة اللى أقصدها حاجة تانية خالص (ثم لزهران) أنا عارف برضه يا أستاذ زهران ، اننا فى عصر العلم و « التاكنولوجيا » ·

تراجع زهران مسرعا ومجاملا : أنا فاهم ياعمى قصدك · أنا بس باضحك معاه ·

وابتسم كمال أدهم ناظرا لحميه : متشكر ياعمى · أنفاسك معانا باستمرار ·

(والتقى بسناء فى نظرة ضاحكة سعيدة) · هذا الرجل ·أبوك ياسناء · أبو العواطف والخيال · ضيع ثروتة وراء النساء ووهم الاختراعات · ورغم ذلك ، لم يزل جذاب الشكل ، لطيفا ، وبنيانه رغم أنه عدى السبعين كالجبل ، لايعرف اليأس أبدا · يحلم بأيام الماضى البعيدة ، أيام أن كان له ثروة ، ولايركب غير العربة الفورد العتيدة ·

قال له كمال مجاملا : عامل ايه فى اختراعاتك ياعمى ؟

قال الرجل وقد أطلت من عينيه نظرة يمتزج فيها الغضب بالحزن :

- عامل حاجات · حاجات مايعملهاش فى البلد غير عمك اسماعيل البدرى (وزفر) بعدين · بعدين ياكمال · دى عايزة قعده طويلة · أنا وأنت وبس · وأحكيلك كل اللى حصل بالتفاصيل ·

- ماشى ياعمى · بكره والا بعده ·

ـ أجنتين ياكمال • لجنة من وزارة الصناعة • ولجنة من مجلس البحوث ، جم وعاينوا الجهاز وجربوه •• وقالوا ناجح •• ويوفر •• لكن ايه النتيجة ؟! ولا حاجة •• ويقولوا دولة العلم والتاكنولوجيا » !

قال يحيى مسرعا ، ومحولا الحديث عن أبيه خوفا من أن ينفتح فى الكلام فلا يسكت أبدا :

ـ جرى ايه ياست سناء • احنا مش حنشرب شربات جوزك والا ايه ؟!

قالت مداعبة : جرى ايه ياسى يحيى • احنا مش حنشـــرب شربات جوز اختك والا ايه ؟!

وضحك الجميع نهض زهران فجأة وقال بحماس :

اقسم بالله ماحد موزع الشربات غيرى •

ياصديق العمر •• اقسمت أن تقود العربة من المستشـــفى الى البيت ، وتقسم الآن على توزيع الشربات !! كثيرا ماتبدو ورغم التجاعيد ، والشعر الذى شاب ، كالأطفال !

كيف أرد لك الجميل ؟ • الأيام بيننا قادمة يازهران •

وحينما توجه الثلاثة الى المطبخ (سناء ويحيى وزهران) نهض الرجل العجوز من جلسته واقترب منه :

ـ عايز اقول لك حاجة ياكمال ، ماتنساهاش فى أى لحظة •

ـ اتفضل ياعمى •

ـ خدها واحدة ، واحدة •

ـ هى ايه ؟!

ـ الدنيا · الحياة · ماتجريش ورا حاجة ابدا · كل حاجة حتجيلك لحدك ·

المهم حافظ على نفسك ياكمال ·

ـ من أى ناحية ياعمى ؟!

ـ من جميع النواحى · (ولوح له باصبعه الضخم) أنت التراب فى ايدك ممكن يبقى دهب ·

دهش كمال للمبالغة ، أوشك أن يضحك · الا أن احساسا قويا خفيا مال به الى الرغبة فى التصديق · أن يصبح التراب فى يده ذهبا ·· هكذا ، دون عناء !! كيف ؟ ما الذى حدث لى · لا شىء غير القلب الجديد · هل ثمة سحر حدث ؟!

وتنبه لنفسه · وقال وهو يضحك ·

ـ ازاى ياعمى التراب يبقى فى ايدى دهب ·

ـ أنت بتضحك ؟! · (وهز رأسه الضخم) بعدين ياكمال ·· بعدين ·· لنا قعده طويلة مع بعض ·

كيف يفكر هذا الرجل · وما الذى ينويه معه ؟!

كانت سناء ويحيى وزهران ، قد خرجوا من المطبخ ، حاملين الأكواب والشربات · ناشرين حولهم جوا من السعادة والمرح ·

وفى دقائق ، كان قد بدأ الاحتفال ·

أمسك ، كل واحد بكوبه ، وبادر أحمد زهران قائلا بصوت عال، كأنما يخاطب جمعا ضخما من الناس ·

ـ فى صحة كمال أدهم · فى صحة القلب الجديد · فى صحة الحياة الجديدة اللى منتظراه ·· ومنتظرانا كلنا معاه ·

امتز الجميع لكلمات زهران ولهجته • حتى « يحيى » الذى كان يأخذ كل ما يقوله زهران ، بشك شديد ، تأثر باللحظة • ورفع كوبه فى حمـــاس • غير أنهم فوجئوا بكمال أدهم ، رافعا ذراعه بالكوب ، شاكرا ومنفعلا : لو سمحتولى أول نخب نشربه •• فى صحة الست العظيمة اللى وهبتنى القلب اللى عشت به ••

انفعل الجميع بصوته أكثر مما انفعلوا بأى شىء آخر • وحل على الموقف نوع من المهابة • ورفعوا أكوابهم يشربون النخب • أما سناء ، فقد أحست وهى تشاركهم شرب نخب المرأة الأخرى ، بقلبها يسقط ويغوص ؟!

ولاح لها وجه الصحفى ، مقهقها •• ساخرا •

وأحست بحلقها متخشبا ، غير قادر على أن يبتلع قطرة •• والتجأت الى الطبيب تستحضر صورته • تحتمى به ، وبكلماته •

ـ أنت أكبر من كده يامدام • ده كلام جهل • خرافة !!

ـ لا يادكتور • ليس خرافة • فى عز فرحته تذكرها • صوته يادكتور وهو يتكلم عنها • فماذا سيحدث حين يذهب الى البيت •• ويزورها •• ليشكرها • ماذا كان قصدها حين وهبته قلب زوجها • •• و •• ولكنها لم تكن رأت كمال •• ولا عرفته من قبل ••

وأحست فجأة بالعذاب اذ وصل بها الفكر الى هذا الحد •• وأنقذها من خواطرها أن سمعت كمال يقول فى انفعال :

ـ وفى صحة الدكتور العظيم •

وكالغريق يتعلق بطوق النجاة ، أشـــرق وجهها • لقد تذكر الطبيب ، كما تذكر المرأة الأخرى • رفعت يدها بكوبها فى حماس ،

وصاحت حتى علا صوتها على جميع الأصوات ، وبشكل يقترب من الهستيريا •

ـ فى صحة الدكتور العظيم •• أعظم دكتور فى بلدنا وفى العالم كله •

قال « يحيى » منبها بابتسامة جادة •

ـ لا يا سناء • حاسبى شويه من فضلك • فيه الدكتور برنارد •• أول طبيب فى العالم عمل العملية بنجاح (وصاح ملوحا بكوبه) :

ـ يجب ألا ننسى الرواد •• •

ـ فى صحة الدكتور برنارد ••

صاحوا مرددين فى سعادة •

ـ فى صحة الدكتور برنارد •

وشرب الجميع النخب ضاحكين مرحين •

كانت سناء قد قررت بينها وبين نفسها الا تسقط مرة اخرى فى هذا الوهم الكريه • يجب أن تعطيه الحق فى الاحساس بالجميل •• يجب أن تخجل من نفسها لو استسلمت مرة أخرى لهذا الشعور •

فما القلب ؟!

نعم • ليس للقلوب صلة بما يسمى الحب • لو كان الانسان لا يحب الا بقلبه ، فكيف •• كيف يحب كمال بقلب رجل آخر ، كلبه ركس ، كل هذا الحب من أول لحظة رآه فيها ؟• ان الحب يستيقظ فيه أول ما يرى الأشياء القديمة • من أين اذن يستيقظ الحب فيه • الحب ينبع فيه من مكان لم يمس • لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل • الحب ليس من القلب • من أين ؟! من أين ؟!

من أين ينبع الحب فيك ·· أيها الانسان ؟!

وحين نهض الجميع مستاذنين تهدج صوت كمال وهو يقبلهم من جديد ، ويشكرهم بانفعال · وأوصلهم الى الباب ·

ونزلوا ··

قفلت سناء الباب ·

أصبحا وحدهما فى الشقة ·

الاثنان · لأول مرة بعد الغياب ·

ليلتنا الأولى ياكمال · (والتقت النظرات) · يداك فى يدى ·

غير أنها فوجئت بالكلب ركس يهز ذيله ، ثم يشب بين ذراعى كمال ·

كان الغريم الصغير الأسود ، يقف لهما بالمرصاد ·

انها ليلته الأولى ــ هو الآخر ــ مع صاحبه الذى عاد الى الحياة ·

- ٥ -

اثبت (ركس) أنه كلب حساس ، وذكى ، ويعرف الأصول ٠ نزل من بين ذراعى كمال ، تاركا الفرصة لسناء ، وتوجه الى مكانه تحت أحد المقاعد ، وراح ينظر الى الاثنين فى هدوء ٠

وابتسم كمال لسناء وقال :

ـ شايفة عنده ذوق ازاى ٠

وضحكت ، ولم ترد ٠

كانت تتأمله كله ، من شعره ، الى قدميه ، تقنع نفسها أنه عاد فعلا ، وأصبح معها فى بيته ٠ يملأ الفراغ بهيكله ، وبانفاسه ، وبحركاته ٠ كان البيت ، بل والحياة كلها ، بدونه خرابا وقتامة ٠

مرة أخرى ، وكأنما هى لحظة اللقاء الأولى بعد الغياب ، وبكل ذرة فيها :

ـ حمدالله على السلامة ياحبيبى ٠٠

ولم يجد الكلمات · جرفه الحنين اليها · مد يده بكل ذراعيه اليها · مدت يديها هى الأخرى ، بكل ذراعيها اليه · تقدم كل منهما نحو الآخر خطوة · خطوة واحدة لا غير ، تعانقت بفضلها الأيدى ، وبقيت بينهما مسافة · تعطى لكليهما الفرصة أن يرى الآخر · جيدا ! وكانت سناء بتسريحة الشعر التى يحبها ، والتى تكشف عن أحب ما فيها الى عينيه · رقبتها الطويلة الملفوفة ، بأذنيها ، ثم خديها البارزين الملفوفين ايضا فى تناسق مع لفة رقبتها ، و · وهذا البريق من عينيها ، عينيها العسليتين حين تناديه ، نداءها الحى الصامت · كلها ، كلها جميلة ، سناء ببشرتها السمراء ، وحتى بذلك الارهاق الذى يبدو عليها ·

وجذبها فجأة اليه · أخذها فى حضنه ، ومضى يضمها بحنين ويمرغ وجهه فى شعرها ويتشمم بعمق · الرائحة الجميلة ، لاتزال تهب · تملأ الأنف والصدر ·

وغمغم وقد امتلأ بالرغبة ·

ـ ريحة شعرك اللى باحبها ··

واكتسحتها هى الأخرى رغبة فى أن تلف ذراعيها حوله ، وتضمه بشدة ، تغيب فيه ، تنسى تعب العام · عام الفراق والحرمان واليأس · تروى الأرض التى عطشت طويلا ·

غير أنها كانت واقفة بين ذراعيه بحساب ، حساب أنثوى ذكى ، وحساس ·

كانت حريصة أن يظل عقلها مستيقظا ، ومتنبها تماما · ألا تنسى نفسها · كلمات أبيها الضاحكة الشقية » واحدة · واحدة

ياسناء » . وكلمات الطبيب الجادة « أنا دورى .انتهى يامدام ..
دورك أنت ، من النهارده ، يبتدى » .

كانت قد قررت بينها وبين نفسها ألا يحدث الليلة بينهما شىء . يجب أن تتصرف معه ـ كرجل ـ بحساسية وذكاء . ألا تسمح للدبيب أن يتصاعد الى مرحلة لا يمكن معها التراجع . انها تعرفه . لحظات التوهج والانتفاض . لا . قلبه الجديد لا يحتمل . لن يحدث أى شىء : لمساتك ، أنفاسك التى تتردد ، صوتك الذى يملأ البيت ، هذا هو كل ما أريده .. كل ما أشتهيه .

ومرت بشعرها على ذقنه ، كطفلة ، وبحركة رشيقة ولطيفة ، خرجت من صدره ، وتراجعت الى الوراء خطوة . وتناولته من يديه.

ـ عايزه أفضل شايفك قدامى . كده وبس .

وابتسم لها . مدركا حركتها . كان يقرأ أفكارها . واستراح لتصرفها . كان هو الآخر قد قرر مع نفسه ألا يغامر الليلة بشىء .. يجب أن يكون فوق مستوى النزوات . جميل أن يلتقى الرجل والمرأة فى الفكر ، دون كلام . وأحس باحترام بالغ نحوها . لم تسبب له فى أى يوم من الأيام أية مشكلة جنسية . كانا مثل الصوت والصدى .

وجذبها ، مرة أخرى ، اليه وقال :

ـ مش عارف من غيرك ، كانت حياتى يبقى شكلها ايه .

وضمها بعنف . وأحست بنهديها ينضغطان فى صدره .

الدبيب . الخدر الممتع . تود لو تترك نفسها وتنساب . ذكريات الجسد تثور . كم كان لهما من ليال فى هذه الصالة :. فى كل مكان

من هذا البيت ، وفى كل حجرة ، لهما ذكرى بهجة انتفاضة · أو غيبوبة التحام ·· و ··

العقل ياسناء ·

وانسلت من صدره بلطف ·

وجذبته من كفه ·

ـ تعال بقى نغير هدومنا دى · وحشنى منظرك بالبيجامة ·

ـ وأنت · وحشنى منظرك بقميص النوم · الروز بالذات ·

هزت كتفها فى دلال أنثوى ·

ـ ياخسارة ، مش موجود ·

ـ ليه ··

ـ عند المكوجى··

تروغين يا ·· شقية ··

وضحكا ··

وما ان هما بدخول الحجرة ، حتى أحسا بالكلب ركس ، يأتى وراءهما قفزا · استدار كمال · ولوح بأصبعه محذرا ·

وخاطبه بشكل آمر جاد ·

ـ ركس ·· ارجع مكانك ··

انصاع ركس للأمر · طأطأ رأسه الى الأرض ، واستدار منسحبا الى مكانه فى هدوء ·

كانت سناء قد سبقته الى الدولاب ، وفتحته · واخرجت له

بيجامة • ونظرت اليه • كان يتأمل الحجرة •• حجرة النوم • كأنما يراها لأول مرة • يراها بتفاصيلها • واستقرت عيناه على السرير • هذا السرير دعوة الى الراحة بعد المشوار المجهد الطويل • وراح يتحسس طراوته • كانت سناء قد جددت الحشيتين •

وقال وهو يجلس على طرف السرير •

ـ سريرى العزيز ده • وحشتنى النومة عليه •

وبحركة عفوية ، تمدد عليه •• ببدلته وحذائه • بطول قامته ، وأغمض عينيه :

ـ ياسلام • دانا الليلة حانام نوم •••

ـ حتنام ياحبيبى •

وراحت تفك له رباط حذائه • وبرغم أنه كان يكره أن يتعامل أحد مع حذائه ، الا انه استعذب منها هذا التصرف •• وأحس بقدميه تتحرران •• ووضعت الحذاء أسفل السرير • وحين رفعت قامتها وجدته يمد يده اليها ، وبصوت هادىء خافت :

ـ تعالى جنبى •

ـ واحنا كده •• ؟ (وأشارت على بدلته وفستانها)

ـ معلهش • عايزك جنبى وبس •

طمأنها صوته وأحست بسعادة • لاشىء هذه الليلة غير الحب نشوة الحب • ورأته يمد ذراعه الأيسر بطوله على السرير ، على شكل وسادة •

الحياة تعود من جديد ياسناء • لم ينس نومتنا الحبيبة •• المفضلة •

منذ أول ليلة من زواجهما ، جعل من ذراعه وسادة لرأسها ..

وفى صمت صعدت الى السرير · تمددت بجواره · وألقت برأسها فى هدوء على ذراعه · بجوار صدره · احست بخدر ينتشر فى كل جسدها · وبتعب النهار · بتعب العام · بل تعب الأعوام كلها يتحلل ·

ــ نفسى افضل كده للصبح · من غير أى كلام ·

حل صمت عميق · أغمضت عينيها ، وودت لو تنام · تروح فى النوم ــ هكذا فوق ذراعه ، ملتصقة بصدره كطفلة ، احساس عميق بالأمان تشعر به · واحست بصدره يعلو ويهبط بانتظام .. ووجدت نفسها توحد أنفاسها مع أنفاسه · كيان واحد · نفس واحد .. واستنامت · فجأة ، سمعت صوتا آخر · سمعت قلبه يدق .. اعترتها رجفة · وتنبهت الى أن رأسها على القلب تماما · مكان العملية · وفكرت ، اشفاقا ، أن تنقل رأسها بسرعة · بعيدا · غير أن قوة قاهرة أبقت على رأسها بأذنها فى نفس المكان · لأول مرة تسمع دقات هذا القلب الجديد · القلب الذى ليس هو بقلبه · كيف يدق · ما الفرق بين دقاته ، ودقات القلب القديم الذى فصل عنه ؟'

وبحركة خائفة ومختلسة ، راحت تصيخ السمع ·

أسرعت أنفاسها ..

كانت الدقات تعلو فى سمعها وتعلو ، واستهولت هذا الذى حدث بالفعل · غريبة دقات هذا القلب · ليست دقات قلبه القديم · كان القلب القديم يتألم · احست برغبة عميقة فى البكاء كأنما كان لها طفل صغير · ومات ! كم احتوته أيام الآلام · وهدهدته · لم يضعف الا فى السنوات الأخيرة · وكان كلما ازداد ضعفا ، ازداد التصاقا بها · وطلب مزيدا من الحنان ·

ما الذى تنوى فعله بنا أيها القلب الجديد · قلب الرجل الآخر الذى مات · ؟! ولاحت لها فجأة الزوجة الأخرى · بوجهها الأبيض الشاحب الرقيق الملامح ، وعينيها الحزينتين الواسعتين ، وثياب الحداد السـوداء · أيمكن أن يظل هذا القلب ، وفيا لها · يدق بحبها ·

ـ ايه ياسناء · شلت راسك ليه ؟! · ·

ـ أبدا · مش عايزه أتعبك أكتر من كده ؟!

ـ تتعبينى من ايه ؟!

ـ (وارتبكت) أبدا ـ (وضحكت ضحكة خفيفة بعصبية) أصل سمعت دقات قلبك ·

قال منتبها بلهفة وقلق :

ـ سمعت ايه · قوليلى ·

ـ تك · تك · تك · تك · تك ·

وضم رأسها من جديد الى صدره ·

ـ اسمعى من تانى وقوليلى · ايه الفرق بين دقاته ودقات القلب القديم ·

أحست فى صوته بالحنين ، وبالحزن على شىء عزيز راح ·· مهما كان مصدرا لعذابه ، الا انه كان قلبه ، قطعة من حياته ، عاش بها كل السنين الماضية ·

ارتفعت نبرة الحنين فى صوته · حنين ممتزج بخوف وقلق ·

يا الهى · هل يمكن حقا أن نتذكر بالضبط ، ونقارن ؟! شعت أمام عينيها ذكريات ساطعة لا تنطفىء أبدا : فى الصيف · أحيانا فى

هذه الغرفة البحرية ، وفى عز ضوء النهار · وهما عاريان · كانت تسند رأسها بشعرها على صدره العارى وتتمرغ بخديها ، ثم تقول فجأة منتشية :

ـ كمال · انا سامعه قلبك بيدق ·

وكان يقول لها بابتسامة هادئة ومنتشية :

ـ بيدق بيقول ايه ·

فتقول :

ـ باحبك ·· باحبك ·· باحبك ··

زمان · كان يحدث هذا · هل حدث الآن تغيير ؟! انه يسأل عن الفارق بين الدقات · أم ليس هناك فارق ؟! ينتظر منها الجواب ، بشغف وقلق · ودت لو تقول : مفيش أى فرق !

ولكن كيف · والذى حدث ؟! يجب أن تعطيه اليقين بما حدث · يجب أن يواصل فرحته · يودع عهد الألم !

ـ فيه فرق طبعا ياكمال · فرق كبير كمان ·

وبلهفة أشد ، ودون أن يتململ فى وضعه قيد انملة ·

ـ ايه هو الفرق ، قوليلى · بالظبط ·

ـ قلبك ده دقاته اقوى · ومنتظم اكثر · وأوضح ·

وارتعش صوته تأثرا · وفرحا ·

ـ ازاى ؟! بيقول ايه ؟!

ـ تيكاتك ·· تيكاتك ·· تيكاتك ، (ثم بنفس الايقاع) باحبك ·· باحبك · باحبك · باحبك · زى زمان بالضبط ياكمال · بس بصوت أعلى طبعا ·

ـ ياحبيبتى أنت ياسناء · فعلا · أنا باحس أن حبى لك زاد · وأصبح أقوى !!

وضمها الى صدره · كانت أعماقها تزغرد « تعال أيها الصحفى الخبيث وانظر الينا · بملابسنا ننام · فى حضن بعضنا · أنفاسنا تختلط · تسرع ·

أحبك · أحبك · أحبك ·

القبلات التى يحبها · فى صدرى · فى شعرى · فى رقبتى ·· فى أذنى ·· اليقين · نشوة اليقين · موج هادىء ·· نسبح · ننزلق ·· نغوص ·

انهض ·· لا أنهض ·

أستطيع ·· لا أستطيع ··

العقل يا كمال ··

العقل أنت ياسناء ··

وحين جاء ينتفض ، ضمته الى صدرها · كما تضم الأم طفلها الصغير · تحميه من الفناء ·

· · · · · · · · · · ·

· · · · · · · · · · ·

- ٦ -

في نفس الليلة ، كان قد أعلن الخبر · فبعد أن اطمأن الطبيب لسرية خروج كمال أدهم من المستشفى ، وعودته الى بيته بقلبه الجديد في أمان وطمأنينة ، أعلن الخبر على الصحف اليومية ، فكان ذلك بمثابة الاعلان الحاسم والنهائى لنجاح أول عملية زرع قلب فى بلادنا ··

وكان خليقا بهذا الحدث العلمى الضخم ، أن يكون عنوانا رئيسيا كبيرا لجرائدنا الصباحية ، لولا أن صادفه فى نفس اليوم (ويالله من قدر) حادث ضخم آخر ، كانت البلاد تتأهب له منذ فترة، وهو اعلان موعد بدء انتخابات أول مجلس نيابى يأتى بعد التحرير، فجاءت المانشيتات الحمراء الضخمة كلها تقريبا واحدة :

بدأت أخطر معركة انتخابية ··

واحتلت أخبارها ، والاستعدادات الحامية لها عبر محافظات الجمهورية ، صفحات الجرائد كلها ·

لهذا ٠ جاء خبر خروج كمال ادهم وعودته الى بيته بقلب جديد ٠ خبرا بسيطا متواضعا ٠ ومع هذا فى الصفحات الأولى ٠ مقترنا بصورة صغيرة له ٠ وهكذا غطت السياسة على العلم فى ذلك اليوم بشكل واضح ٠

وربما كان هنـــاك عذر لذلك فى نظر المؤرخـــين والمراقبين والسياسيين القدامى ٠ اذ كانت كل الظواهر تؤكد أنها ستكون معركة انتخابية من نوع جديد لم تشهد لها البلاد من قبل مثيلا طوال تاريخها الطويل ٠ فنحن (بالخيال) بعد سنة ١٩٧٠ ووصمة احتلال سيناء زالت من على الجباه ٠ غير أن الجرح كان قد غار فى النفوس ٠٠ والشعور العام هو التكفير عن الذنب بالعمل ، وبسرعة ، لمحو كل خطايا الماضى ، والا تعود نكسة من جديد ! وكان التنظيم السياسى الكبير الموحد ، الذى انتظم كل المواطنين طوال مرحلة التحرير قد ظل بتناقضاته وعيوبه يقود الجبهة الوطنية ٠ حتى تم الجلاء وخلا البيت على أصحابه ، واذا بالتناقضات والخلافات التى جاهدنا فى اخفائها أو تأجيلها من أجل الهدف الأعظم تبدأ فى الظهـــور وفى الانفجار : مجسدة على شكل سؤال حاسم ومحدد وخطير : ماذا بعد سيناء ! الى أين نمضى ٠ الى أين نسير ؟!(*) ٠

وكان يمكن لهذا السؤال أن يكون غير ذى موضوع لولا أن قيادة التنظيم كانت قد انقسمت الى كتلتين رئيسيتين واضحتين ٠٠ صحيح أن كليهما يحمل شعار الاشتراكية وينادى بتطبيق الميثاق الا أن كليهما كان له — فى التطبيق — تفسيره المختلف تماما عن تفسير الآخر ، مما يؤدى الى نتائج خطيرة ٠ وبدا للكل بتحـــديد موعد الانتخابات ، أن الأوان قد آن لكى يطرح الخلاف علنا وبصراحة أمام

(*) كتبت هذه الرواية قبل تحرير سيناء بخمس سنوات ٠

الشعب ليقول كلمته ويختار هؤلاء الذين سيحملهم مسئولية قيادة المرحلة الجديدة ·

هكذا ، فى ذلك اليوم التاريخى طارت الشـــرارات الأولى للمعركة ، فأخذت اهتمام كل المواطنين ، وغطت على خبر عودة مريض القلب « كمال أدهم » الى بيته بقلب جديد سليم !

كان جالسا يتناول افطاره بشهية مع سناء ، ويطعم كلبه ، ويضحك مع سناء ، ويتحادثان عن تلك الليلة الرائعة الغريبة التى ناماها معا بملابسهما حتى الصباح · كان وجه كمال يشع بالسعادة · كان سعيدا بأنه لم يتأثر صحيا بما حدث · بل العكس هو الصحيح · كان يحس أنه ازداد صحة وانتعاشا · ورجولة ! · كان يقوم ، ويقعد ·· وكل شىء تقع عليه عيناه فى البيت فى ضـــوء النهار ، يتذكر قصته ، ويذكر بها سناء · وكان الجو يميل الى الحرارة ، فتذكر أيضا فكرة المصيف ، وراح يتخيل نفسه مع سناء ، و « ركس » يجرون على البلاج ، ويستحمون · ويشمون الهواء · الهواء المالح ياسناء · ورائحة السمك الطازج فى الهواء ·· آه ·· ما أخف وزن الحياة · أود أن أطير ·

كانا سعيدين · وكانا يضحكان ، حين سمعا فجأة ، حفيف الجرائد وهى تنزلق مندفعة من تحت عقب الباب (وتلك كانت العادة قبل أن يذهب الى المستشفى وأبقت سناء على العادة فى غيبته) · كانت فى جلستها أقرب الى الباب · فنهضت من على كرسيها بسرعة، وتلقفتها · أعطته جريدتين وأبقت معها واحدة وراحا ينظران ·

للوهلة الأولى · لم تلتقط عيونهما شيئا · وبدا على وجهيهما نوع من خيبة الأمل · غير أن سناء صاحت فجأة بفرح ، وهى تلوح بالجريدة :

ـ الحق يا كمال ٠٠ لك صورة ٠٠

اندفع نحوها بلهفة : فين ٠٠ وريني ٠٠

ومد يده ليأخذ منها الجريدة تقهقرت خطوة بجريدتها ، متشبثة بها كطفلة ٠

ـ استنى لما أقرا التعليق اللى تحتها ٠

ومضت تقرأ بصوت سارح ٠٠ كلمة كلمة ٠٠

« الرجل الذى عاد الى الحياة » ٠٠

بقلم مصطفى سيف ٠ أنظر اليوميات ٠

رن اسم الكاتب فى أذنيه على نحو بهيج ٠

ـ مصطفى سيف ٠٠

وأحس بدقات قلبه تسرع ، وأنفاسه أيضا ٠ خطف الجريدة منها ومضى ينظر فى صورته ٠ ورغم أنها كانت صغيرة ، الا أنه سعد جدا بها وود لو يظل ينظر اليها ٠ لكنه كان ملهوفا لأن يقرأ ماذا كتب عنه ٠

كان قد فرح لأن مصطفى سيف بالذات هو الكاتب ٠ وتلقائيا برز له وجه أحمد زهران ٠ عن طريقه تعرف أول ما تعرف بمصطفى سيف ٠ فالاثنان (زهران وسيف) لهما ماض واحد مشترك ، واتجاه فكرى واحد ، الا أن مصطفى سيف ، أديب وفنان أكثر منه سياسى ، وله قصصه ومسرحياته ٠ ثم تطورت علاقتهما (كمال وسيف) حتى استقلت تماما عن زهران ٠

وبلهفة ، قلب على « اليوميات » ومضى يقرأ فى سره بشغف ٠

كانت سناء ترقب التموجات التى تترى على وجهه وهو يقرأ ، وتذكرت فجأة وجه الصحفى محرر مجلة أضواء الليل ٠

أيمكن أن يكون مصطفى سيف ، قد تناول عملية نقل القلب ، بنفس الطريقة السخيفة الشريرة ؟!

أن يضربها بالزوجة الأخرى ؟

لا ٠٠ مصطفى سيف انسان جاد ٠ يوثق فيه ٠ قرأت له من قبل بعض المقالات ٠ وشاهدت احدى مســـرحياته فى التليفزيون ٠ أفكاره على مستوى راق ٠ ونظرته للمرأة فى تلك المسرحية بالذات ، كانت راقية ، حتى أنها طلبت ليلتها من كمال ان تراه ٠ لكن الظروف لم تساعد ٠

ترى ٠٠ من أى زاوية تناول الموضوع ؟ ٠

كان قد انتهى من قراءة الكلمة ، وناولها الجريدة ٠ قال بصوت منفعل ٠

ـ كلمة غريبة وخطيرة ٠ اقريها ، وبعدين نتكلم فيها ٠٠

وعقد ذراعيه خلف ظهره وراح يتمشى سارحا ، فى الصالة ٠

كان وقع الكلمة على نفسه مزيجا من الفرح والقلق والخوف والرهبة ٠

كانت الكلمة أشبه بحجر ألقى على سطح بحيرة رقراقة صافية وادعة ، فاضطربت حركتها ، وقفزت الى السطح أشياء وأجسام كانت قد استكنت فى القاع ، وبدت وكأنها قد نسيت للأبد !

كان مصطفى سيف قد ربط بين نجاح عملية نقل القلب ، وبين عملية انتخاب أول مجلس للشعب يأتى بعد التحرير ٠ قائلا : ان هذه

العملية الأخيرة ، يجب أن تكون بمثابة نقل قلب جديد من نوع آخر ، الى الأمة جمعاء ، لنواجه به مرحلتنا الجديدة الخطيرة : مرحلة ما بعد التحرير · وأنه اذا كنا قد نجحنا فى هذا ، فى مجال العلم ، فخليق بنا أن ننجح فيه أيضا فى مجال السياسة ! · أن نجاح هذه المعجزة ، مجسدة فى شخص المواطن والصديق كمال أدهم ، يجب أن يكون فاصلا بين عهدين : عهد غلب عليه طابع الفردية والتواكل والسلبية والتهرب من مواجهة الحقيقة ، وعهد يغلب عليه طابع الفكر العلمى ، والروح الجماعية والقومية ، والصراع الحر المفتوح ، مع الثقة بقدرات الانسان الذى أصبح حلمه اليوم ســـكنى الكواكب والنجوم ·

ان تحرير سيناء لم يكن فى يوم من الأيام هو الهدف النهائى ، وأذن بتحققه انتهت كل المشاكل والهموم · بالعكس: ان مشاكل خطيرة ومصيرية تعلن عن نفسها ، وتطالب بمواجهتها بشكل سريع وواضح وصريح ·

ان الاستعمار لن يتركنا فى حالنا ، الا اذا جمدنا الثورة واكتفينا بهذا الشوط · فهل نكتفى ؟! أم نمضى فى الطريق ؟! هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه فى الانتخابات القادمة · غير أن المجتمع الذى نجحت فيه عملية نقل القلب وتفتحت عيناه على أعظم الآمال ، لن يرضى بالرجوع ! · ان كل من يعرف قصة مرض المواطن كمال أدهم ثم شفائه ، يعرف أنها قصة مرحلة مثيرة من مراحل الوطن ·· والثورة ··

أتمنى أن أكتبها · فى يوم من الأيام ·

صديقى كمال ·

لقد اختارك القدر لكى تكون رمزا لبدء عصر جديد فى حياتنا • حافظ لنا على قلبك المقدس • وتهانينا القلبية • ليس لك وحدك أنت وزوجتك الطيبة . بل للوطن كله • العالم كله يهنىء نفسه • عالم الأخيار وليس عالم الأشرار • أنحنى احتراما للطبيب العظيم • هذا هو نوع الرجال الذى يجب أن نتذكرهم ونحن نختار للمجلس القادم • والى اللقاء أيها الصديق العزيز •• امضاء •• « مصطفى سيف » •

كان الوقع العام للكلمة عليه مفرحا بقسوة ، مثيرا للزهو الى حد طاغ • وكانت أنفاسه تتلاحق رغما عنه • وتشابكت فى رأسه الأفكار والمعانى • وأحس فجأة برأسه يثقل واختلطت الرؤية فى عينيه • وتملكه خوف شديد : لا • لا يامصطفى ياسيف ، وأنت أيضا يا أحمد يازهران ، قلت لى مرة أن قلبى هذا هو قلب الشعب • لا • أرجوكما • ابعدا السياسة عنى • أنا لست رمزا لشىء ولا يحزنون • أنا رجل أريد الهدوء • لم أعد أريد فى العالم غير الصحة •أتنفس الهواء براحة •• وعمق •• مجرد الاحساس بأنى أعيش ، وأرى الدنيا ، هذا يكفى • لا أريد من الدنيا غير صحتى • ومصنعى •• و •

غير أنه وجد عينى مصطفى سيف ، بخضرتهما الغامقة البراقة، ككشاف يكشف عما فى النفوس وينظر له فى عتاب •

ـ هل نسيت ياكمال ، ذلك الصباح الأغبر بالذات ؟!

وانقشعت عن عينى كمال غمامة •

رأى نفسه يندفع اليه فى مكتبه بالجريدة • كانت العاشـــرة والنصف صباحا • عقب ضربة يونيو مباشرة ، وكل شىء يبدو وقد تساقط وانهار • حتى الناس فى الشوارع كانوا يترنحون ، ويكلمون أنفسهم من هول الصدمة • ودخل عليه مكتبه • كان سيف هو الآخر شاحبا زائغ العينين • قال له وهو يلهث :

ـ البلد حتحصل فيها مجاعة يامصطفى ·

وبابتسامة جادة ، لكنها تنضح مرارة ·

ـ بلاش تتشاءم للدرجة دى يا كمال ؟!

وأوشك أن يصرخ فيه : على أى أساس ماتشائمش ؟!

ـ عشان مش واقفين لوحدنا · فيه لنا أصـــدقاء كتير ، مخلصين ، وبالذات الدول الاشتراكية ، مش ممكن حيسيبونا لوحدنا فى المحنة · مش ممكن يسيبوا المنطقة كلها ترجع فى غمضة عين للاستعمار · وتبقى قواعد عسكرية ضدها · مش ممكن !

فى تلك الأيام · كانت حركة السوق ، والتجارة ، قد كسدت الى حد كبير ، ولم يعد ثمة بيع أو شراء · وكان يلوح لكمال ـ ليل نهار ـ شبح مروع مخيف · قفل المصنع ، وتسريح العمال ، واشهار الافلاس، والعودة الى أيام البؤس والضياع !

وبدأت أزمة قلبه ، تتقلب عليه ، وتزداد !

غير أن مصطفى سيف كان دائما يمثل له الأمل · والأمان كان الاحساس بالأمل فى تلك الفترة فوق طاقة البشر ! ولهذا ، كان يجد نفسه كل ليلة ، مدفوعا لأن يمر بعربته على مصطفى فى جريدته ثم ينطلقا وحدهما ، أو مع صديقين آخرين من أصحاب المصانع ، ليتكلموا فى النكسة ، وأســبابها ، وكيف ، كيف لابد أن نتلاحم ونتراص ، حتى نقف على أقدامنا من جديد : كلنا · كانا · انها مسألة موت أو حياة للجميع ··

وخرجا من أيام النكسة ، صديقين حميمين · كاتب تقدمى وصاحب مصنع نسيج !

غير أن كمال أدهم كان قد خرج أيضا من النكسة بأزمة قلبية عنيفة ، راحت آلامها تتصاعد وتتصاعد ، حتى لم يعد يتخيل الراحة الا فى الموت ، وحين لاحت له فرصة العملية ، قبل فورا بالمجازفة ، وكانت المعجزة ، معجزة الشفاء بقلب جديد سليم · وكان بطلها الأول علم الطبيب المتكامل الدقيق !

فى غمرة الفرح بالشفاء والعودة الى الحياة كان قد نسى كل هذا ·· ! ها هو مصطفى سيف يفجر الماضى ، ويعطى أزمة قلبه ثم شفائه نوعا من الرمز ·· يا له من تفسير ضخم وخطير ؟! · وأحس بميل عميق للاقتناع بهذا التفسير ، وانتابه احساس عميق بعظمة الذات ، وداعبه ــ على نحو ما ــ حلم غامض سعيد !

وقال منفعلا لسناء ، وقد انتهت لتوها من قراءة الكلمة ··

ــ هيه ايه رأيك ؟!

وردت على الفور :

ــ كلمة كويسة طبعا · (وابتسمت باعتزاز وثقة) وبيهنينى أنا كمان ·· مصطفى سيف كاتب ممتاز · وأفكاره راقية ·

وفكر فى نفسه : لو أن سيف نسى أن يهنئها ، هل كان رأيها فى كلمته سيتغير · لكنها تتكلم عن أفكاره الراقية · على كل حال · هى لا تفهم كثيرا فى السياسة ·

قالت : بس ليه محمل كلمته حاجات كثيرة ؟

ــ ازاى ؟! ·

ـ حكاية انك رمز للخروج من النكسة (وابتسمت كأنما تعتذر) لأ ياسى كمال ، لازم يحاسبوا عليك شوية ٠

ضحك عاليا بفرح ٠

ـ مانت عارفة مصطفى سيف ٠ راجل بتاع قصص ومسرحيات، وخياله واسع ٠ نفسه يكتب قصتى ٠ (وهدأ صوته) كانت بيننا أيام لا تنسى !

وفرحت بفرحته : ياالله كمل فطارك ٠

ـ خلاص ٠٠ شبعت ٠

ـ لا ياسى كمال ، لازم تتغذى كويس ٠ أنت فاكر الدكتور موصينى عليك ازاى ٠

ونظر فى عينيها مداعبا :

ـ واذا ما كانش الدكتور ، ماكنتيش حتسألى فى ٠

اندفعت اليه بفيض من حنان وشوق ٠

ـ ياخبر ٠٠ دانت حياتى ٠٠

وقبلها فى خدها ٠٠

ـ أنزل بقى أشتريلك حاجة طازة تتغدى بها ٠ حا أكلك النهارده فراخ ايه رأيك ٠ ؟

عظيم ٠٠ عظيم ٠٠ ندن فى الانتظار ٠٠

وكأسعد زوجة فى العالم . مضت بخطوات مرحة الى حجرتها لترتدى ثوب الخروج وبقى جالسا وحده فى الصالة ٠ وجد نفسه مجذوبا لنفس الجريدة ، وراح ينظر الى صورته ٠ يتأملها على مهل وفرح بنفسه ٠ وضحك اذ ضبط نفسه يعقد مقارنة بين صورته .

وصورة لوزير التموين كانت منشورة فى نفس الصفحة : نعم · لست اقل منه وجاهة · واحتراما ! كم ألفا رأوا اليوم هذه الصورة · ؟

وصعدت عيناه الى المانشيت الأحمر الكبير · « بدأت معركة الانتخابات » ودار رأسه ·

ماذا لو دخل الانتخابات · يدخل بهذا الشعار « الرجل الذى عاد الى الحياة » عنوان كلمة مصطفى سيف · انتخبوا كمال أدهم ، ليناضل معكم،من اجل حياة افضل·سيتحمس سيف بالتأكيد لترشيحه أيضا سيساعده احمد زهران · سيكون شعار زهران فى الدعاية له « قلب الشعب » · انتخبوا الرجل الذى عاش بفضل قلب رجل من ابناء الشعب ، ليحقق آمال الشعب ·

وأحس بارتعاشة ·

لن ينجح فقط ، بل سيكتسح · سيكون لدخوله الانتخابات وقع السحر والخيال · وهذا الشعب مغرم بالخيالات والسحر والأوهام ·· و ·· ولكنى لن أضحك عليه · سأكون مخلصا جدا ! ورأى نفسه نائبا فى المجلس · يقف على المنصة ويقول : ماذا ستقول ياكمال ·· ماذا سيقول قلب الشعب ؟! ·

ومضى يقلب فى الجرايد التى لم يكن قد فتحها : كيف تسير السياسة فى البلد ، وفى العالم · فجأة ، وجد نفسه مجذوبا لقراءة عمود صغير تحت عنوان « رأى » ·

ومن أول سطر ، وجد أنفاسه تكاد تنسحب منه ، ودقات قلبه تسرع وجبهته تتفصد عرقا : لا ·· لا ··

كيف يحدث هذا ·· ؟! كيف يسمح بنشر هذا الكلام ؟! واربد وجهه وانتابته ارتعاشة غضب ·

كانت الكلمة صغيرة حقا ، وليس فيها اسم كمال أدهم بالذات ٠ الا أنها بالطبع تقصده : ان عملية زرع القلب ، ليست سوى عملية تحد من الانسان للاله ٠ ان لكل أجل كتابا كما هو معروف ٠ وأفاقون كافرون من يدعون لأنفسهم صفة من أهم صفات الله تعالى جل جلاله ، فينسبون الى أنفسهم القدرة على اطالة عمر الانسان ٠ !

ان التحدى الحقيقى لهؤلاء « العلماء » المغرورين أن يطيلوا عمر الانسان المريض بقلبه هو نفسه ٠ لا بقلب انسان آخر ضحية ! ان الذين يقبلون العيش على حساب الآخرين لا يصح أن يعتبروا أنفسهم أحياء ٠ ويوما سيكون فى انتظارهم الحساب ، هول الحساب !

« فهمى عبد الغفار »

هزته الكلمة حتى النخاع ، وانتابه شعور بالرهبة والخوف والسوداوية ٠

ورأى ثمة قاتل خفى ينهال عليه طعنا ٠ ما هذا الذى يحدث، منذ لحظة كان رمزا للخروج من النكسة ٠ أما الآن ٠٠

وأوشك أن يصيح على سناء ٠ لكنه رآها فى نفس اللحظة تدخل عليه وهى تمشط شعرها ٠ لمحت التغيير الذى طرأ عليه ٠

— ايه يا كمال ٠ مالك ؟! فيه ايه ؟!

مد يده اليها بالجريدة ٠ كانت الجريدة ترتعش فى يده ٠

— شوفى كاتبين عنى ايه ٠

هبط قلبها ٠ أيمكن أن يكون الصحفى اياه ، لايزال متربصا بها ٠

وأسرعت تقرأ ٠ هبط قلبها أكثر شىء فظيع حقا ومخيف ٠

ولكن · لا · فى لحظة مثل هذه ، يجب أن يكون لها موقف آخر ·· تحميه ··

ونظرت اليه بابتسامة ··

ــ أنت بتضحكى ؟

وتولاه الغضب ··

ــ وما اضحكش ليه ·· ؟! كلمتين فارغين ومكتوبين ·· ايه يعنى · ياما كلام ياسيدى ··

وبعدين كلمة قصاد كلمة ··

ــ يعنى ايه ؟!

ــ يعنى زى ما مصطفى سيف كتب عنك بشكل كويس ، جه واحد ثانى ماحدش سمع اسمه قبل كده ، كتب بشكل سيىء ·· ثم مين فى الدنيا يقتنع بالكلام اللى بيقوله ده ؟! ·· الناس زمانهم بيضحكوا عليه ·

وبد أنه يميل الى الاقتناع بهذا المنطق ·

ــ اســـمع ياكمال ياحبيبى · انت ماتفكرش الوقت الا فى الحاجات الحلوة · فكر فى المصيف اللى حنروحه بعد كام يوم · فكر فى نفسك · فى صحتك · قوللى (وضحكت) عايز الفراخ مشوية · والا محمرة ؟! هيه · قول · اضحك بقى ياالله ··

واغتصب ابتسامة · وجاءه صوت الطبيب « الانفعال » الانفعال هو عدوك الوحيد ياسيد كمال · لحظة الانفعال تذكر آلامك الماضية ، واحمد ربك ! »

وزفر ·· الحمد لله ··

وقال لها فى صوت هادىء · وقد مال على كلبه ركس وراح يربت عليه : اتفضلى انت انزلى · وأنا قاعد فى انتظارك ·

فجأة ، دق جرس الشقة ، أسرعت سناء الى الباب · وفرحت جدا حين وجدته أخاها يحيى · وحين سمع كمال صوته اندفع نحوه يعانقه كطوق نجاة يتعلق به · وفرح حين لمح فى يده جريدة قال له على الفور وبلهجة حاول ألا تكون متوترة ·

وبلهجة هادئة : آه · قريته · مش كلام مصطفى سيف ؟!

ـ آه ·· وفيه كلمة تانية ··

وأشار له على الكلمة ، فانكب عليها « يحيى » بفضول · وما ان انتهى من قراءتها ، حتى قال وهو يقذف بالجريدة على أحد المقاعد فى هدوء :

ـ دى شىء طبيعى ، على كل حال ··

ـ قال كمال بغضب : ايه هو اللى طبيعى ؟

ـ الكلام ده ، والكلام ده ·

ـ مش فاهم · انت رأيك ايه فى المكتوب ده ؟!

ـ عايز رأيى بصراحة ؟!

ـ طبعا ··

ـ رأيى : لا الكلمة دى عاجبانى · ولا دى كمان عاجبانى ·

ـ (وبدهشة) كلمة مصطفى سيف مش عاجباك ؟!

وبلهجة جادة ، ومحذرة : اسمع يا كمال يا أدهم ، خد بالك

من نفسك ·· افتكر أنت كنت فين من يومين · سيبك من أى كلام انكتب، أى حينكتب عنك · دول بيملوا ورق ، وبياكلوا عيش منه · سواء دول أو دول ··

ـ حتى مصطفى سيف ؟!

ـ أيوه ، حتى مصطفى سيف ، بس مش وقته الكلام ده ·· ياما ياسيدى حنتكلم بعدين · (وتحمس) ياراجل ·· أنت حنت فين ، وأصبحت فين · عايز ندخل لى فى ·زامة من دلوقت ؟! قوم ياالله ألبس وتعال معاى شوف مصنعك · الناس نفسهم يشوفوك ·

ولاح لكمال فجأة ، قبس من نور · قال بلهجة حاسمة ثابتة :

ـ ايوه حاقوم البس . وآجى معاك ··

ونهض يحيى منتشيا وقال : هى ده الكلام · ياسلام · دى حتبقى مفاجأة عظيمة للعمال ·

وارتجف قلب سناء ، لكنها · لم تعترض !!

- ٧ -

وركب الاثنان العربة : كمال أدهم ويحيى البدرى ٠

كان الاثنان قد سيطرت عليهما فجأة حالة نشوة ، وكان كمال قد تخلص من احساسه المؤلم بالمقالة التى هاجمت عمليته ، وتنبه فجأة ، بمجرد أن دخل العربة وجلس ، تنبه على حقيقة مدهشة رائعة ٠٠ انه الآن ذاهب الى مصنعه : لأول مرة بعد غياب عام ٠ حقيقة ما كان يحلم بها ٠ كل حلمه كان أن يعيش ـ مجرد الحياة بلا ألم ٠ اليوم ، هذا الصباح لا يحيا فقط وبقلب سليم ، بل يغادر بيته ، ويركب عربته ٠ ويرى المصنع ٠٠ والعمال ٠٠ و ٠٠

كان يبذل جهدا كبيرا ليقاوم انفعاله ٠ وفرحته ٠٠

وكان « يحيى » على نحو آخر من النشوة ، يجلس الى عجلة القيادة ، مفرود الصدر ، مشمر الأكمام ، واثقا من نفسه ، ومن عجلة القيادة بين يديه ٠ كان يحس أن اللحظة لحظته ٠ اليوم يومه ٠

يوم انتصاره أمام الناس · كانت حركاته المنتشية الحية تقول : ها أنت تعود ياكمال يا أدهم بعد غياب عام ، لتجد مصنعك فى انتظارك ، كما كان وأحسن · دعك من المتاعب التى لقيتها طوال العام · تفضل معى أسلمك الأمانة ·

وفى اللحظة التى تحركت فيها العربة منطلقة فى اتجاه المصنع ، أحس كمال بطبقة من الدموع تكسو حلقه · ولم ينتظر حتى تصل العربة ، بل سبقها بالخيال · ورأى نفسه وقد اقترب من مصنعه ، ذلك المبنى الرمادى الصغير ، من دورين ، والقائم على طريق الدراسة الواسع الطويل ، ومضى يقرأ اللافتة « مصنع القاهرة للنسيج » لصاحبه كمال أدهم · وقاوم انفعاله المتصاعد ، وهو يتخيل العمال ، بأشكالهم المختلفة وقد اندفعوا نحوه ، بملابس الشـــغل ، يأخذونه بالأحضان ، ويقبلونه ، ويقبلهم أيضا · ثم الماكينات ، وهو يمر عليها، ويتحسسها ، واحدة واحدة · ويمر بيده على خيوط الغزل ·· و ·· ومكتبه فى الدور الثانى ، حيث التليفون ، والعملاء ، والدوسيهات والأوراق ، وحيث يستطيع ـ من خلال حاجز زجاجى ، أن يراقب سير العمل فى العنبر ، وهو جالس مكانه ، ويرى الأنوال وهى تعمل ، وصوتها فى أذنيه كأنه موسيقى ·

وقاوم انفعاله · كانت العربة قد اقتربت من منطقة النفق ، وميدان العباسية · وعند أشارة المرور توقفت ··

زحام وأصوات ونداءات · أول صباح له فى الشوارع !

فى هذه المنطقة بالذات ، فى الصباح ، توجد دائما خلطة بشرية وطنية ، نادرا ما تكتمل بهذه الصورة فى مكان آخر فى القاهرة ، فهى بجوار ثكنات الجيش ، وجامعة عين شمس ، وموقف أتوبيسات العباسية : عمال وموظفون وموظفات وطلبة وطالبات وجنود وضباط ،

وعربات جيش وأتوبيسات مكتظة ، والكل يكافح ويزاحم ويتدافع ٠ كان الجو جو كفاح ونشاط وعمل ٠ وأحس فى داخله بطاقة تتدفق ٠

العمل ٠ أن يكون الانسان قادرا على العمل ٠ ويعمل ــ هذا هو معنى الشفاء الحقيقى ٠ أما هذا الكلام الذى كتب عنى ، سواء لى ، أو على فكلام فى الهواء ٠ لن أبالى به ٠ أنا أعيش ، أنا أحيا ، أعود الى مصنعى ، هذا هو المهم كما قال يحيى !

وأحس فجأة بحب دافق ليحيى ، لو لم يكن « يحيى » موجودا ، ما الذى كان سيحدث للمصنع أثناء عام المحنة ؟! واختلس منه نظرة . ولاحظ ، كأنما لأول مرة أن شعرات بيضاء بدأت تخط شعره الأسود الفاحم الناعم ٠ وود لو يعانقه ، ويحتضنه ٠

غير أن اشارة المرور الخضراء كانت قد أضاءت ، وفوجىء بيحيى يأخذ يمينه ، مندفعا فى شارع العباسية ٠٠

قال كمال معترضا : ليه كده ، كان من شارع الدراسة أحسن ٠ هادى ومختصر ٠

وقال يحيى وعيناه متحفزتان على الطريق ، وعلى سيل العربات المنهمر :

ــ شارع الدراسة فيه تصليحات من كام يوم ، نروح عن طريق شارع بورسعيد والأزهر ٠

وجم كمال لبرهة ٠ غير أن منظر الشارعين لم يلبثا أن شما فجأة فى خياله :

فى هذين الشارعين بالذات ، كم له من ذكريات ٠ ذكريات البداية المرة ، ثم الصعود ، صعود الجبل بالأظافر ٠ والدماء التى سالت ،

ثم الوصول الى ما وصل اليه ، خاتمة المطاف : مصنعه القائم فى الدراسة • وتوالت أمامه وجوه • وسحن ••

وصاح بلهجة فيها الحنين :

ــ ياترى سيد عبد القادر ازيه • ورجب • ومحمد حنفى • وابراهيم متكيس • وصلاح عبد الهادى • عاملين ايه مع السوق • شغلهم ماشى كويس ؟!

ــ كلهم كويسين •• حنفوت عليهم دلوقت ، بس ياريت تمر على صلاح عبد الهادى بالذات الأول ، وتسلم عليه !

واستغرب كمال • ان صلاح عبد الهادى ، لم يصل فى علاقته به الى درجة الصداقة • كانت مجرد معاملات تجارية ، وعلى خفيف • وصلاح عبد الهادى يعتبر طبقة اخرى غير طبقة كمال • ان صلاح يعمل بمئات الألوف بينما كمال يعمل بالعشرات •

ــ اشمعنى صلاح عبد الهادى عايزنى افوت عليه الأول •

ــ لأنه أخذ موقف عظيم منا ، أو منك أنت بالذات ، وانت ق المستشفى !

ــ ازاى •• عمل ايه ؟!

قالها بلهفة ، وقد فرح لأن تاجرا كبيرا ، مثل صلاح عبد الهادى ، يحمل له عواطف طيبة وهو فى المستشفى وارتسم أمامه على الفور وجه صلاح الأسمر ، بملامحه الهادئة اللطيفة ، وعينيه الواسعتين السوداوين اللتين تشعان ذكاء وطيبة • دائما كان يجده جالسا على مكتبه فى أقصى محله الكبير • ورغم أنه لم يتجاوز الثلاثين الا بقليل، الا أنه يشع احتراما ونفوذا على مئات التجار ، لا فى منطقة الموسكى والأزهر فقط ، بل فى الجمهورية كلها • ان كمال أدهم بالنسبة له ، مجرد صاحب مصنع صغير ، يمكن نسيانه ببساطة •

أى موقف عظيم هذا الذى أخذه منه وهو فى عام المحنة ؟!

وراح « يحيى » يحكى له ، باختصار ، ودون أن يشرد لحظة عن حركة الطريق ··

« كانت فترة سودة ، عمرى ما حانساها · السوق واقف ·· مفيش شغل · الغزل اللى كان فى المصنع كله خلص · لكن فيه بضاعة مش عارفين نصرفها ·· اتقفل المصنع أسبوع · انت عارف المصنع لما يتقفل بيحصل ايه · العمال ·· والتجار · والمصانع اللى حوالينا · ! كانت أسود فترة فى حياتى · بقيت ماشى فى الشوارع زى التايه · أروح لده مفيش وده مفيش · وفى يوم فايت من قدام صلاح عبد الهادى ، نادى لى ·

ـ ايه يايحيى · انتم قافلينليه المصنع بقالكم أسبوع ؟! قلت له الغزل اللى كان عندنا خلص · وانت عارف السوق وحش ·· والبضاعة فى المخزن ··

قال لى أد ايه البضاعة الموجودة ، قلت له بحوالى ثلاث أربع آلاف جنيه ··

قال لى : خد الفلوس أهى · عشان تروح تشترى غزل وتفتح المصنع للعمال · وابعت البضاعة اللى عندك · وبعد كده أى بضاعة ما تقدرش تبيعها ، ابعتها ، لغاية مايخرج جوز أختك من المستشفى ·

هز الموقف كمال من الأعماق ، كان يستمع للقصة ، وأنفاسه تتتابع ، ومع حلقاتها ، كانت مشاعره تعلو وتنخفض ، وتصور المصنع مقفولا · والعمال · والانهيار · ورأى نفسه أيضا خارجا من المستشفى · ليجد مصنعه فى خبر كان لا يمتلك من الدنيا أى شىء ماذا كان يفعل · ولاح له صلاح عبد الهادى من جديد ، كملاك انقاذ ، قال مهتزا بالجميل : فعلا موقف عظيـــم · لازم نمر عليـــه ·· وأشكره ·

وقال يحيى : انسان أكثر منه تاجر ٠ صلاح ٠ ماكنتش أعرف انه انسان بالشكل ده ٠ (وندت عنه ضحكة صغيرة) زمان كنت لا أتصور أن فيه رأسمالى ممكن يبقى عنده شهامة وانسانية ٠٠ الشيوعيين بس هم اللى انسانيين ٠ دلوقت أقدر أقول لك ان راجل زى ده ، أحسن من بعض شيوعيين عرفتهم ٠

هل يقصد أحمد زهران ، ومصطفى سيف ؟!

أيمكن أن يكون فى هذا جزء من تفسير عدم اعجابه بمقالة مصطفى سيف عنه ؟!

مهما يكن ٠ ان صلاح عبد الهادى الآن هو بطل الموقف ٠٠ موقفه هذا يعادل عواطف مصطفى سيف وأحمد زهران عشرات بل ومئات المرات ٠ ماذا تفيد العواطف فى موقف مثل هذا ٠ كان المصنع سينهار ٠ وهو الذى أنقذه ٠ أنقذه وهو فى المحنة ٠٠

قال مغمغما ، ومعمقا فى قلبه الحب لصلاح : راجل عظيم ٠٠

طول عمرى ، من يوم مادخلت السوق ، أسـمع عن تجار فى أزمات ، وصلاح عبد الهادى يحلها لهم ، ويساعدهم على الاستمرار (ووصل انفعاله الى القمة) أرجو ييجى اليوم اللى أقدر فيه أرد له الجميل ٠

كانت العربة قد اقتربت من منطقة الموسكى والأزهر ٠ وتفتحت روح كمال بالفرح ٠ فى هذا المربع الصغير ، يعرف المئات والمئات من الناس ، ويعرفونه ، كانت الدنيا زحاما كالعادة ٠ حتى بدت الأجسام ، والرءوس متلاحمة ، منطقة بيع وشراء ٠ لغط شديد ٠

والناس لاهون ·وشدب بقامته الى أعلى وهو جالس ، حتى لايرى وجهه أحد ممن يعرفونه · وكانت حرارة الجو بدأت تزداد ·

وقال ليحيى : انا عطشت ·

قال يحيى ، وكان يستدير ليدخل شارع الأزهر ·

ـ تشرب ميه ساقعة عندصلاح عبدالهادى · دى حتبقى مفاجأة له · حيفرح جدا بك !

ولم تمض دقيقة ، حتى كانت العربة تقف امام محل صلاح · وكمال يدخل المحل الكبير الفسيح ·يتبعه « يحيى » · كان المحل ، رغم اننا فىالنهار ،مضاء بالكهرباء ، ولمحه صلاح عبد الهادى · وبدا للحظة ، ساكنا ، يتفرس فى هذا الداخل ، وخلفه « يحيى البدرى » وما ان اكتشف انهكمال ادهم ، حتى هب منعلى كرسيه صائحا وفاردا له كل ذراعيه ·

ـ كمال ادهم · اهلا · اهلا · يادى النور ·يادى النور ـ حمد لله على السلامة ·

وتعانق الاثنان ، كصديقين حميمين قديمين ، وليس أبدا كصاحب مصنع نسيج صغير وتاجر جملة كبير · شعور غريب بالأمان داخل كمال ادهم وهو يرى صلاح عبد الهادى يأخذه فىصدره ويربت عليه ، مفاجأة عظيمة من صنع القدر كانت فى انتظاره بعد خروجه من المستشفى ونجاح العملية ·وأحس بالسوق ، لأول مرة فى حياته ، امنا وسلاما عليه · لا خطر من السوق وصلاح عبدالهادى معه ·

ـ انا متشكر جدا ياحاج صلاح ـ متشكر جدا جداً ـ على الموقف بتاعك ·

ـ موقف ايه يا راجل · تعال تعال (واصطحبه من ذراعه

متجها به الى مكتبه) انت تستاهل اكتر من كده بكتير • إنت عارف رأيى فيك من زمان !

— وأنت كمان ياحاج • عارف رأيى فيك • مش رأيى أنا بس • رأى كل الناس • انت انسان كبير •

وتنبه فجأة على أصوات فى المحل تصيح به وترحب ••

— اهلا يامحروس • ازيك ياشاكر •• و ••

ووجد نفسه ينهض منعلى مقعده متجها اليهم ليسلم ، غير أن صلاح قال معترضا وبحسم :

— لأ ياكمال • أقعد مطرحك ارجوك •• ماتتعبش نفسك (وأشار على العمال بحركة هادئة) تعالوا يا جماعة •• واحد •• واحد • بس حاسبوا عليه • فاهمين !

لولا وجود صلاح عبد الهادى ، لأخذ اللقاء بين كمال أدهم والعمال شكلا آخر بالمرة ، ولعبروا عن تلك الدهشة التى تطل من عيونهم •• دهشة تختلط بالرهبة والتعجب والفرح ، الى حد عدم التصديق • اندفع الكل يعانقونه •ويهنئونه بالشفاء وسلامة العودة •

كانت تهنئة هادئة • نظمها صلاح، وكان كمال يحس بدقات قلبه تسرع • وتتواثب •

فرح • الدنيا فرح • أيمكن أن يكون ذلك بداية عهد جديد ••

واحس فجأة بجفاف فى زوره • قال لصلاح :

— عايز أشرب شوية ميه •

وصاح صلاح فورا على أحد عماله :

— حاجة ساقعة بسرعة يامحروس ••

وقال كمال معتذرا بابتسامة :

ـ لا ·· عايز أشرب ميه بالذات ··

ـ وميه ساقعة كمان يامدروس ··

فى تلك اللحظة ، وبالمصدفة ، دخل القهوجى .

قال له صلاح بنفسه ، مكرما كمال :

ـ ميه ساقعه يابنى للأستاذ كمال أدهم ·

كان القهوجى يعرف كمال من قبل ، ويعرف قصة القلب الذى يقولون انه انتقل اليه · وبلا قيود أو حدود ، صاح فجأة وقد جحظت عيناه ، وهو يحملق فيه غير مصدق ·

ـ عم كمال أدهم ؟! بصحيح ؟ دى الحكاية بصحيح يا أولاد ··

(وكالمجاذيب راح يصرخ) ·

حى · حى · حى · (وهجم على كمال يعانقه · وخرجت منه كلمات التهنئة ، أشبه برشاش ساذج وعبيط ومؤثر ·

ثم مضى الى الشارع وهو يصيح صيحته :

ـ حى · حى · حى ··

وبدا منظره مثيرا · لم يكن قادرا على أن يتمالك نفسه ·

ايه يامدبولى ·· الحكاية ··

ـ حى · حى · حى · يا ناس حى ·

تجمع حوله الناس ·· عابرو سبيل ·· وتجار ·· وعمال ·· ومشردون ، وسائقو تاكسى · وفيهم من يعرف كمال أدهم شخصيا ومن لا يعرف غير حكايته الشهيرة ··

ـ ما تنطق يامدبولى ٠ فيه ايه ؟

ـ كمال أدهم ٠ اللى اتركب له قلب جديد ٠٠

ـ فين ؟!

ـ عند الحاج صلاح عبد الهادى ٠٠ (وأشار الى المحل) حى ٠٠ حى ٠٠ (وانتقلت الكلمة من فم الى فم) ٠

ـ الراجل اللى اتركب له قلب جديد ٠٠

ـ فين ؟!

ـ هنا ٠٠ جوه ٠٠

ـ صحيح ؟! مش معقول ٠٠

ـ بلحمه ٠٠ ودمه ٠٠

ـ يا راجل دى اشاعة ٠٠

ـ ليه ٠ الجرايد كتبت عنه النهارده ٠ انه خرج سليم لبيته ومراته ٠٠

ـ دى علامة الساعة يا أولاد !

ـ ده العلم يامغفل ٠٠

ـ والنبى بلدنا دى حتبقى عال ٠٠

ـ القيامة حتقوم ٠٠ خلاص ٠٠

ـ آه ياشعب جاهل ٠ ده العلم والتكنولوجيا ٠

ـ ربنا يعطيه طولة العمر ٠ هو فين ؟

ـ جـــوه ٠٠

فى لحظة واحدة . فوجىء صلاح عبد الهادى وكمال ادهم ويحيى والعمال ، بكتلة ضخمة من الرؤوس والعيون تسد باب المحل وتطل عليهم .ثم اذا بالكتلة ، بفعل الضغط من الخارج ، تندفع الى داخل المحل . وأحس صلاح بالخطر ، الخطر على كمال وعلى البضاعة فى المحل . صرخ :

ـ اخرج انت وهو . عايزين ايه ..

ضاع الصوت فى الهواء . وتجمع الناس حول كمال ادهم .. وراحوا يتدافعون بالمناكب . كل منهم يريد ان يراه جيدا ويتحسسه ، ويقبله . ارتعب كمال ادهم للمفاجأة ، ولم يدر كيف يتصرف .. التصقت به الأجساد . واحس بانفاسه تكاد تختنق . وصرخ يحيى ، وقد هجم على الناس يضرب فيهم بوحشية وجنون : حاسبوا على الراجل . ياوحوش .. ياهمج ! . واحس بقوة الضغط تدفع به بعيدا عن الحلقة ..

صرخ مرة اخرى :

ـ اضرب تليفون ياحاج صلاح . هات بوليس النجدة . الراجل حيموت فى ايديهم ..

واحس كمال ادهم بدوار . انه يشعر بالاختناق .

ـ عايز اشرب ميه .. عايز اشرب ميه .. ميه .. ميه ..

ومثلما يحدث الجذر فى بحر صاخب ، انحسـرت موجة الناس . شيئا فشيئا وبالتدريج . واصبح المحيطون به حلقة دفاع تبعد الزحام عنه . وجاء مدبولى يجرى ويصيح :

ـ حى .. حى .. الميه الساقعة يا أستاذ كمال ..

وتناول منه صلاح الكوب ٠ وأعطاه لكمال ٠ كان كمال مصفر الوجه ، لاهث الأنفاس ، ومع ذلك ، يبتسم ٠

ـ حصل خير ٠٠ حصل خير ٠٠ الحمد لله ٠٠

وراح يشـــرب ٠ بينما راح عمال المحل يدفعون الناس الى الخارج ٠ حتى عاد الهدوء الى المكان ٠٠

كانت المشكلة بعد ذلك ، كيف يخرج ؟! كان مجهدا ٠ ولكنه كان فى نفس الوقت فرحا ٠ فرحا من نوع غامض وغريب ٠ ونهض صلاح عبد الهادى ووضع يده فى يده ، مصمما أن يوصله حتى عربته ٠ وزيادة فى الضمان والأمان خرج العمال جميعا وأحاطوا به فى شكل دائرة محكمة ، حتى أركبوه العربة ٠ وأغلق يحيى نوافذ السيارة جيدا ، وانطلق بالعربة ٠ ومع ذلك رأيا البعض يجرون وراء العربة ، ويشيرون عليه بفضول ودهشة وفرح ، وعدم تصديق ٠٠ وزاد يحيى من سرعة العربة ، حتى خرج من منطقة الخطر تماما ٠٠

حل صمت عميق ، وأخذ نظرة سريعة من كمال ليطمئن عليه ٠ وجده سارحا أشبه ما يكون فى غيبوبة ٠ قال ضاحكا ليبدل من حالته :

ـ شايف الناس بتحبك أد أيه ؟! ومع ذلك ، كان ممكن يموتوك، من كتر فرحتهم بك ! تعرف انى افتكرت على طول يوم ما طلعت اشاعة أن مريم العذراء ظهرت فى كنيسة الزيتون ؟!

لم يرد كمال بكلمة ٠٠

كانت العربة ترتفع مع شارع الأزهر الصاعد نحو الدراسة ٠ ولاحت مآذن جامع الأزهر والحسين وأحس يحيى بالقلق لصمت كمال المطبق ٠٠

ـ ايه رأيك يا كمال ٠ بلاش نروح المصنع دلوقت ٠٠ نروح نقعد فى أى حته ٠٠

ـ قال كمال مغمغما :

ـ دخلنى سيدنا الحسين شوية ٠٠

ولم يكمل ٠٠

أحس يحيى بقلبه يهبط ٠ امتثل للطلب ٠ أدار العربة ٠ وعند باب الجامع توقف ٠ وهبطا ٠ خلعا حذاءيوما ودخلا ٠٠

كان المسجد رحيبا وظليلا ٠ وثمة نسمة معطرة ورطبة تسبح فى الجو ، وأناس قلائل راقدون متناثرون فى شبه غفوة ٠

أحس بحاجة للجلوس ٠ لأن يغفو ولو للحظات ٠ ويلغى من فكره كل ما حدث ٠ جلس على السجادة الخضراء الوثيرة ، مستندا على أحد الأعمدة الرخامية ، وأغفى ٠٠

أغفى للحظات ٠ ثم فتحهما ٠ وجد نفسه يقرأ على لوحة رخامية فى الحائط ٠

« وانك لعلى خلق عظيم » ٠

وتمتم فى سره بكلمات فى خشوع ٠ ونهض واقفا ، وقال ليحيى بصوت خافت :

ـ حاصلى ٠ ركعتين لله ٠٠

ورفع يديه فى خشوع ، للسماء ٠ مبتهلا ٠ لله ٠ ومضى يصلى ٠٠ بينما « يحيى » ظل جالسا فى مكانه ، مطرقا برأسه فى اكتئاب دون صلاة ٠٠

ـ من أنا ؟! أنا المضيع فى هذه الحياة ٠٠

- ٨ -

هكذا فجأة ، وبسرعة غير متوقعة على الاطلاق ، تبدل حال « يحيى البدرى » من فتى ضاحك واثق وسعيد ، يملك كل الموقف بين يديه ، ويمارس لحظة انتصاره ، الى انسان مكتئب حزين ، يرى الأشياء كلها تتسرب فجأة من بين يديه ، ولا يبقى له غير ثمار الحزن القديمة ، يمضغ فيها ، ويأكل من مرارتها على مهل !

فبينما كان يرى كمال واقفا بجواره يصلى ، بملء نفسه ، رأى نفسه يهوى فجأة الى قرار عميق ، كلما لمست قدماه أرضا ، وجدها تنسحب من تحته ، ارضا بعد أرض · وهاجمته نوبة حزن لاذعة وثقيلة الوقع ، احس معها فى الرغبة فى التلاشى · بل وتاقت نفسه للموت · الموت هو الأرض التى يستند عليها الانسان ويستريح عليها ،راحته الأبدية ·· !

لم تكن هذه النوبة غريبة على «يحيى البدرى» · كانت تعتريه كثيرا من قبل · غير انها فى هذه المرة كانت أشد وضوحا وثقلا ··

وبدا وهو جالس مستندا بظهره على عمود الجامع الرخامى البارد ، بدا مرحبا بها ، داعيا لأن يتم الاعلان عنها · أن ترفع الراية السوداء، ينتهى كل شىء بهدوء وبساطة ·

واغمض عينيه ، ملقيا بظهر رأسه على العمود الرخامى ، مسلما نفسه للغور العميق ··

أجل ··

لماذا تعيش الآن يا يحيى ؟!

عاد كمال الى سيناء · ولم تعد سناء أختك بحاجة اليك !

عاد كمال الى المصنع ، ويمكن للمصنع أن يسير بدونك من اليوم ··

انتهى الدور · ليس هذا هو أول دور لك · كل الأدوار من قبل كانت تنتهى أيضا وبسرعة ، دورا بعد دور ·

وفيم هو يناقش قضية تلاشيه من الوجود ، كانت حلقات من حياته تعاوده : أحداث وصور · حلقات ناقصة ، دائما كانت حياته ، ودائما فى النهاية خارج الحلقة ··

الآن · خارج حلقة الحياة كلها ··

ورأى قبة الجامعة ، ومدرج المحاضرات ، كان يوما طالبا مجدا فى الجامعة ، وخرج منها دون أن يكمل ويأخذ ليسانس الحقوق ·· الأولاد الصغار يحملون الآن الليسانسات !

ورأى نفسه فى احدى زنازين سجن مصر · يضحك للحياة رغم سجنه · وينشد أناشيد الرفاق ·

كان يوما مناضلا فى احدى المنظمات الشيوعية السرية ، وهو الآن مرتبط بعالم التجارة والرأسمالية : عالم كان يكافح ضده ٠

وكان يوما له حب عظيم ، وجاءه نعى هذا الحب وهو فى السجن ٠ وحين خرج ، وجد خطيبته تزوجت من انسان آخر ٠

كل الأدوار كانت تنتهى ، وبسرعة ٠ دائما يجد نفسه خارج الحلقة ٠

قرأت مرة قصة اسمها « بئر الأحزان » ، حزنا بعد حزن ٠ كل الأحزان كان من الممكن أن تهون ، لولا حزن واحد ، جاء فأكد كل الأحزان ٠ سقط فى القرار ٠٠ كحجر ثقيل ٠ جاثم على النفس ٠ كيف يمكن رفعه ؟! ٠ كيف حدث هذا ؟! للمرة الألف ، من يومها أتساءل ، لا أريد أن أصدق ٠ كل الذى كان بيننا يانبيلة ، لم يكن حبا ؟!

أم أنك اكتشفت الحقيقة فجأة ، أنى لا أستحق عناء الانتظار ٠ وقصص الوفاء التى كنا نتحاكى بها ٠ وقراءاتى لك عن زوجات وحبيبات الأبطال : أكانت تسلية فراغ ، أم كان نوعا من الخداع ، نخدع به لحظات لقائنا على انفراد ٠ لكى نعطى لما كان بيننا ٠ شرعية الحدوث ، والاستمتاع ٠ كنت أغمر وجهك ٠ خديك ٠ شفتيك ٠ جبينك ، أنفك ، بالقبلات ٠ وكان للحم جسدك ملمس خاص ٠ هذا الملمس يتذوقه الآن رجل غيرى ٠ كيف تقبلين على نفسك ؟!

٠ أبوك ضغط عليك ؟! بكى بين يديك ؟! ، غير مقتنع يانبيلة ٠ كان يجب أن تكونى باسم آخر غير نبيلة ، بارادتك تزوجت ٠ فرحت بأضواء شاب فى السلك الدبلوماسى يطوف بك من يومها بلاد العالم ٠

انتهى الدور ، كل الأدوار انتهت ٠ حتى عام التحدى والانتصار سرعان ما انتهى : عاد الى المصنع صاحبه ، عاد ليحتل منطقة

الضوء ، ليس فى المصنع فقط ، بل فى الشارع ، الناس فى الشارع كانوا كالمجانين لرؤيته ، كأنما كانوا يريدون رفعه والهتاف باسمه ، كزعيم من نوع فريد • كيف تسير الأمور فى هذه الدنيا ؟! وفى الجرائد ، بدأت الصحف تجعل منه قضية : أناس مع عمليته ، وآخرون ضدها • عاد الى الحياة ، الى أكثر من الحياة • أما أنا • فأتراجع • رغما عنى أتراجع ، فى هدوء الى منطقة الظل ، حيث كنت • بل ان الظل عتمة • لم يعد فى المستقبل ، كما فى الماضى ، شىء يرى ، يستحق النظر • الموت • هو القوة الوحيدة التى تمنع الانسان من أن يفكر ، ويتأسى على حاله •

الموت ••

التلاشى ••

قاع البئر يقترب ••

وفى هدوء شديد ، مال بجسده على سجادة الجامع الخضراء ، وتمدد • النوم أحيانا معادل للموت ••

أسند رأسه على ذراعه ••

واحتوت يحيى البدرى غيبوبة ••

* * *

حين انتهى كمال أدهم من صلاة شكره ، وأخذ يلقى سلام الختام ، الى اليمين والى اليسار فوجىء بيحيى ممددا ، ومغمضا عينيه ، وأدرك بسرعة ، وبدهشة ، من انتظام أنفاسه أنه راح فى النوم ••

انتابته رغبة دافقة فى أن يميل عليه ويقبله • ياطفلى العزيز المفتقد • ولدى الكبير أنت ••

وحلا له أن يتأمل وجهه ، ورأى فيه شبها كبيرا بأخته سناء · زوجته · السمرة والشعر الأسود الناعم · والشفتين الغليظتين ·· ولاحظ لأول مرة أن شعرات بيضاء بدأت تتخلل شعره الأسود · ولمح أيضا ظلا حزينا مع اطباقة الشفتين ، بل ورغبة فى البكاء ·

وأحس بقلبه يتقلص من أجله · وانتابته رغبة دافقة فى أن يميل عليه ، ويقبله ··

شبت مبكرا يايحيى ، لا تزيد عن الخامسة أو السادسة والعشرين ، ومع ذلك ··

تراءت له صورة شاب حزين · ووحيد · أنا أعرف يا يحيى سر حزنك ·

لو لم تكن نبيلة قد تركتك ، لربما سارت حياتك على نحو آخر بالمرة ··

لو لم تكن سجنت · لكنتما الآن معا ··

وناوشه الاحساس بالذنب ··

ربما لو لم أكن قد عرفتك بأحمد زهران ، لما دخلت عالم السياسة ، ولما سجنت ولانتهيت من كليتك ، ولتزوجت من نبيلة ، ولكان مصيرك مغايرا تماما لما أنت عليه الآن ؟!

كأنما القدر رسم مصيرك هكذا من أجلى ، من أجل مصنعى وأنا فى المحنة ، فلولاك ، لولا تفرغك الكامل فى المصنع ، لانهار بالتأكيد · كيف أستطيع أن أكافئك يايحيى · كيف يمكن أن أمسح الأحزان عنك · أزيد من مرتبك ؟! لا · ليس هذا بكاف ·

أزوجك ! ··

نعم ياسناء • أخوك يحيى يجب أن يتزوج • يصبح له بيت • • ى • • وأشركه معى فى ملكية المصنع • هو يستحق هذا وأكثر • يجب أن أفعل لك شيئا ياولدى الكبير • • العزيز • •

تعب العام ، عام مرضى ، بدأ يحل عليك ، فنمت وأنت فى الجامع • فضلت النوم على الصلاة • • (وابتسم له من قبله) أيها الشيوعى العنيد ، رغم أنك لم تعد شيوعيا ولا أى شىء ، ترفض الصلاة كبقايا موقف قديم • لسوف أجعلك تصلى يايحيى من جديد ـ بدأت تقترب من الاقتناع • قلت عن الحاج صلاح عبد الهادى ، تاجر الجملة ، انه أحسن فى نظرك من بعض الشيوعيين • •

سنصلى ذات يوم ، ثلاثتنا ، انا وأنت وصلاح عبد الهادى ـ صلاح أصبح صديقا يايحيى ، ستزدهر الأحوال ، اننى أتخيلك • • أتمنى • أن أفتح لك مصنعا صغيرا • مصنعا لألوان الصبغة • • نصبح نسيجا ، وصبغة • ما رأيك ؟!

انى أفكر أيضا أن أشترى لك عربة صغيرة •

ابتسم يايحيى • لا تحزن هكذا فى نومك •

(وود لو يربت على خديه • ويمسح على شعره • •) لو أنك بقيت هكذا نائما فى الجامع حتى الليل ، فلن أوقظك • سأظل بجانبك •

ق تلك اللحظة ، رأى « يحيى » يفتح عينيه ثم ينتفض جالسا وعلى شفتيه ابتسامة خجلة مرتبكة •

ـ الله • دأنا نمت من غير ما احس ، (وهز رأسه يفيق) والظاهر أنى حلمت كمان •

ـ حلمت بايه •

– هه ؟! مش فاكر (وعاودت وجهه سحابة حزن نفضها بسرعة عنه) وقال وهو ينهض :

– بنا نركب العربية ، وأروحك البيت ٠

قال له كمال وهو يضع يده فى يده :

– لأ ٠٠ نروح المصنع ٠٠

أوشك يحيى أن يعترض لكنه أومأ برأسه موافقا ٠٠

وخرجا من الجامع ، ثم ركبا العربة ، وانطلقا نحو المصنع فى صمت ٠

- ٩ -

كانت زيارة تاريخية ٠٠

كل ما كان كمال أدهم يحلم به ويتخيله حول هذه الزيارة يتحقق، وأروع ٠

وكان « يحيى » اعتبارا بما حدث فى محل صلاح عبد الهادى بالأزهر ، قد قرر أن يسبق كمال بدقائق ويمهد للزيارة ٠ ودخل على العمال ونادى عليهم جميعا ، وأعلنهم بالخبر ٠ وحين رأى حالة من الفرح والذهول والرغبة فى الصياح بل وهى الرقص أيضا تستولى على عدد منهم ، عاوده الخوف من أن يتكرر ما حدث فى محل صلاح ٠ وحكى لهم الحكاية ٠٠

وقال محذرا ٠٠

ـ يعنى تخليكم فاكرين ٠ قلبه الجديد تحاسبوا عليه ٠ ممنوع الأحضان ٠ سامعين ٠ واللى يسلم عليه ، يرجع على نوله على طول والشغل يمشى طبيعى ٠ هو ده أحسن احتفال به ٠

في تلك اللحظة ، رأوا كمال ادهم يدخل عليهم العنبر · بقامته المديدة وهيكله العريض ، وأنفه الضخم ، وخطواته المتئدة ، ثم يتوقف ناظرا اليهم ، ويبتســـم وعيناه تحتويان كل الأنوال · وكل العنبر · وكل شيء · بنظرة واحدة سريعة وسعيدة وممتنة ··

وفى لحظة ، انفجر اللقاء ··

ندت عنهم جميعا صيحة واحدة جماعية علت على أصـــوات الأنوال ، واندفعوا جميعا نحوه:اثنان وعشرون عاملا ، بعدد الأنوال، غير الصبية والمساعدين الصغار · والتزاما بالاتفاق ، كبحوا الرغبة فى أخذه بالأحضان · ثم لم يلبثوا أن اكتشفوا ، هم وهو ، بديلا رائعا عن الأحضان : القبلات ، وهز الأكف والأكتاف بحنان ··

وبكى « يحيى » الفتى الشيوعى المتقاعد ، وهو يرى منظرا لم يسمع أنه حدث من قبل فى التاريخ : أن يتبادل العمال وصــــاحب العمل مثل هذه القبلات · قبلات تفيض حنانا ومحبة وصفاء ، ورغبة فى الاندماج ·

هل يتناقض هذا مع النظرية ؟!

وقال فى نفسه مبتسما فى سخرية حزينة : موقف انسانى ·· نتيجة ظرف انسانى طارىء وسرعان ما يعود كل باب ليرسو على عقبه ، وتلمع النظرات ·

كانت الأنوال ماضـــية فى عملهـــا ، وبدت وكأنما زادت من سرعتها ، مشاركة فى الاحتفال ·

كان شعور كمال ادهم ، هو الامتنان الممزوج بالخجل · أما هم ، فكان شعورهم الأول والمباشر ، أنهم محظوظون ، اذ أتاح لهم عملهم بهذا المصنع أن يروا الرجل الذى انتقل اليه قلب رجل آخر غير قلبه ·

هذه المعجزة سيرونها تتحرك أمامهم كل يوم · ورأوا - جميعا - فيه شيئا مضيئا ، لابد وأن يحافظوا عليه ، وكان احساسهم وهم يقبلونه ويرتعشون تأثرا وفرحا ، أن عهدا جديدا فى عملهم فى المصنع قد بدأ !

ولأن الاستقبال تم فى العنبر ، كان لابد أن يكون عمليا وبسرعة، واحدا بعد واحد ، كان يسلم ويقبل ، ثم يعود الى موقعه أمام نوله ، سعيدا ، وعيناه لا يبارحان الرجل المعجزة ·

وقال كمال أدهم ، وهو يتحكم فى مشاعره :

- لنا قعدة طويلة مع بعض ياجماعة · قريب · عن اذنكم أطلع المكتب شوية ·

وصعد الى مكتبه فى هدوء · يتبعه يحيى ··

كانت أصوات الأنوال تعلو فى رأسه وتعلو · ياما احتواه الحنين الى هذه الأصوات · والى هذا المكتب · وهذا التليفون ·· ومنظر الخزينة الخضراء ، والدوسيهات وأوراق العملاء ··

اليقين ·· اليقين بأنه شفى · وعاد · فليهدأ من الآن ، ولا يتشكك للحظة ··

وكان « يحيى » يتأمل فرحه بمكتبه · بجلسته التى يستطيع منها أن يرقب العمل فى العنبر من خلال ذلك الحاجز الزجاجى ، والمغطى بستارة ··

وقال يحيى فجأة : أظن خلاص ياكمال · لغاية كده ياعم ، ودورى انتهى · انا سلمتك داوقت مصنعك !

صاح كمال ضاحكا وبخوف : لا ياسى يحيى · انا ماستلمتش

منك حاجة · المرة دى أنا ضيف عليك · انت نسيت انى حاخد لى يومين فى المصيف ؟! ··

قال يحيى بابتسامة واهنة خفيفة :

ـ يبقى لغاية ما ترجع ··

ـ وحتى بعد ما أرجع ، مفيش أى تغيير فى المصنع حيحصل · تسلمنى ايه واسلمك ايه · ده بقى مصنعك يايحيى · ماليش فيه أكتر مالك أنت فيه ··

كلام ياكمال يا ادهم ·· كلام تقوله ·· فيض من الانسانية يطغى عليك هذه الأيام ، ولكن ، حالما تعود الى غابة السوق والتجارة من جديد ، سيتغير كل شىء · سيعود فيك طبع التاجر الأصيل · ولو حدث اى خلاف بينى وبينك ، فستلقى بالحقيقة المرة فى وجهى على الفور : انه مصنعك أنت · وأنا ، ليس لى ريشة أو ترس واحد فيه · ومع هذا ، شكرا على شعورك الطيب · لا تحمل هما · بل ان كانت لديك هموم جديدة ، فهاتها ، وضعها على كتفى · سأواصل معك الدور حتى النهاية · لماذا شردت فجأة ؟ فيم أنت الآن سارح ؟ ·

ـ قل لى يايحيى ··

ـ أيوه يا كمال ··

ـ أنا لى طلب منك ··

ـ الأمر ··

ـ تجيب لى ميعاد من العيلة اللى وهبتنى القلب ·· (ووهن صوته وهو يضع يده على صدره) مش معقول أسافر المصيف من غير ما اشكرهم · أو أروح لهم فجأة من غير ما يكون عندهم خبر !

أحس يحيى بقلبه يسقط منه . أوشك أن يصرخ فيه : لا ٠٠ لا يا كمال يا أدهم ٠ كل الأدوار الا هذا الدور ٠٠ لا أستطيع ٠ أنت الذى أخذت القلب ، فاسع أنت للشكر ٠٠ أعفنى من هذه المهمة ٠

غير أن كمال كان ينظر اليه ، وهو جالس على مكتبه ، نظرات فيها رجاء واستغاثة وتوسل ، حتى ان يحيى أحس بالرثاء لحالته ، ثارت فجأة شهامته المعهودة ٠

قال بحماس :

ــ حاضر يا كمال ٠ حاجيب لك منهم ميعاد ٠ تحب امتى ؟!

قال كمال باضطراب ٠٠

ــ فى أى وقت أنت تشوفه ، أو هم يشوفوه ٠

ــ يوم الأحد الجاى ، احنا قافلين ٠ أروح لهم الصبح « عين شمس » ، وأجيب لك منهم الميعاد ٠٠

ــ متشكر ٠ متشكر جدا يايحيى ٠ ماتتصورش حابقى سعيد ومستريح أد ايه ، لما حاقوم بالزيارة دى ، وانتهى منها ٠ حاسافر راس البر وأنا فى منتهى السعادة وراحة الضمير ٠

- ١٠ -

كان الزمن يمضى متجها بسرعة نحو هدفه : السابعة مساء من ذلك الأحد · الموعد المضروب بين كمال أدهم والعائلة الصغيرة التى وهبته القلب الذى أنقذ حياته ، وعاش به ·

والواقع أن ذهاب « يحيى » المفاجىء اليهم فى بيتهم بعين شمس وتحديده الموعد مع الزوجة ، كا نبمثابة حجر ضخم ألقى على السطح، فاضطربت الأعماق واهتاجت ، وطفت على السطح أشياء كان يظن أنها رقدت وركدت فى القاع ، وبدا كل شىء يريد أن يبرز ويتفجر ويتجسد على حقيقته !

ولم يكن باقيا على الموعد سوى وقت قليل ، والثلاثة : الزوجة، والبنت ، والولد ، فى حالة توتر شديد · يتفادون نظرات بعضهم البعض ، والألسن شبه معقودة ·· كانوا قد اطمأنوا على ترتيب البيت ، ونظافته · وحرصوا بلا أية كلمات ، على أن تكون صورة الأب الذى مات ، معلقة فى صدر الصالة ، فى مكان واضح ، وجلسوا

فى الشرفة الصغيرة صامتين : الأم والبنت فى ثياب الحداد · أما الابن فكان بملابس عادية ـ بنطاون وقميص ـ متجهم الوجه ، يدخن سيجارة فى عصبية ، وخصلة من شعره الأكرت ملقاه على جبهته ··

كان البيت الذى يعيشون فيه من طابق صغير واحد ، حديث البناء ، حوله سور من الطوب النيئ ، مطلى بالطين ، وبه بوابة خشبية قديمة · كان من أحلام الرجل قبل أن يموت ، أن يهدم هذا السور وبوابته ، ويقيمهما من جديد على شكل يلائم منظر البيت ، ويزيل ذلك التنافر الواضح بين حداثة البيت وجهامة السور وبوابته ، وبهذا يكون قد أنجز مشروع حياته · ولكن للأسف !

غير أن ما يعوض ـ بعض الشئ ـ منظر السور والبوابة ، شجرتان زرعهما الرجل من أول يوم رمى فيه أساس البيت ، وكبرتا وأصبحتا تلقيان ظلا واسعا على مدخل البيت ، وعلى الشرفة ··

وجلس الثلاثة فى الشرفة صامتين ، الأم على كنبة ، والبنت والابن على كنبة أخرى مقابلة · كانت عيونهم شاخصة · متوزعة فى صمت على كل الأشياء · كل الأشياء تذكرهم بالميت ··

وهل يعود الميت ؟!

كانت عيونهم ، بشكل تلقائى ، تتوجه نحو البوابة · بعد عشر دقائق ، سيسمعون عليها دقات · ويكون : هو ·· ويدخل البيت ويجلس معهم !

وبدت للفتاة ، وعيناها على البوابة ، رؤية مجسدة ، مفزعة ، هيكل الرجل الناجى من الموت ، يدخل عليهم ، وفى قفصه الصدرى ، قلب أبيها ··

وأصابتها رعدة ··

لا · لاتريد أن تراه · لن تراه · لن تقوى ، بدء الحقيقة المرة· انتفضت واقفة ··

ـ ماما ·· أنا خارجة · ·

التفتت لها الأم فى دهشة ··

ـ خارجة ؟ خارجة فين دلوقت ؟!

تحشرج صوتها مقاومة البكاء ·

ـ مش عايزه أشوفه ياماما ·· مش قادرة أشوفه · قابلوه انتم !

وتحركت بخطواتها فى عزم فى اتجاه البوابة ··

وبدون أن تنهض الأم من جلستها ، صامت فى غضب :

ـ عزة · بلاش التصرفات بتاعتك دى دلوقت من فضلك !

ازداد احساس البنت بالتمزق : تصرفات ايه ياماما · باقول لك مش قادرة · مش قادرة (وانفجرت فجأة فى البكاء) · مش عايزة أشوف حد داخل علينا من الباب ده غير بابا · بابا توفيق ·· حبيبى ·

اهتز قلب الأم لذكر اسم الحبيب ، انفجر حزن الزوجة المكبوت · انفجرت هى الأخرى باكية · واحتوت ابنتها فى صدرها ·

ـ قضا · لازم نستحمله يا بنتى · نعمل ايه ؟!

لم تكن فجيعة الزوجة فى زوجها اقل بأية حال من فجيعة البنت فى أبيها ، وموقفها من حادثة موته ، ثم موافقتها على نزع قلبه الى رجل آخر ، هو فى حد ذاته قصة غريبة ومثيرة ، وتستحق التسجيل على الأقل من أجل التاريخ · غير أننا نجد أنفسنا الآن مضطرين ··

لكى نتوقف قليلاً عند البنت ، اكثر مما نقف عند الأم أو الولد · لقد بدا أن حركة الأحداث فى ذلك اليوم تنطلق منها · الى أين · لا أحد يدرى !

كانت عزة ، حتى ذلك اليوم ، لاتزال رافضة أن تصدق أن أباها قد مات ·

ففى آخر يوم له فى الحياة · يوم أن جاءهم الخبر المشئوم بأنه أصيب فى عمله ــ وهو فى العنابر ــ اصابة قاتلة ، صباح ذلك اليوم ، كان قد قبلها كالعادة قبل أن يخرج الى عمله · وكانت ترتدى ملابسها استعدادا لأن تذهب الى الكلية · كان عاديا جدا · مبتسم الوجه · وربما كان اكثر مرحا من أى يوم آخر · (وتهز رأسها رافضة) : لا ·· لم يمت ·· لايمكن أن يكون قد مات · ورحل عنها الى الأبد ! كثيرا ما كانت تجد نفسها فى حلم يقظة ، وهى تمشى ــ عائدة من الكلية ــ فى شوارع عين شمس ، وتتخيل · ستدخل البيت فتجده يزرع فى المساحة الصغيرة التى تفصل بين السور وبين الشرفة ·· أو ·· (وهذا ما حدث لها منذ أيام قليلة فقط) تتخيله هو الآخر عائداً من عمله ، فى نفس موعد عودتها من الكلية ، كما كان يحدث فى بعض الأحيان ، ويأخذها بالحضن · ويقبلها فى الجبين · وفى العينين ، ويحتضنها بحنان شديد ، ويقول لها :

ــ ازيك ياعزة · عاملة ايه فى الكلية ؟! · مش أنت بتحبينى عشان حققت لك رغبتك تدخلى كلية الفنون ، قسم الرسم ، وحتبقى أعظم رسامة فى الجمهورية ، ويحتضن ذراعها ، ويمضيان سويا فى فرح الى البيت · غير أنها لا تلبث أن تكتشف فجاة أنها وحيدة · كل ما حولها فراغ ورمال · وطائرات منطلقة من مطار القاهرة الدولى القريب ، مسافرة الى عالم مجهول · فتبكى بمرارة · مات · سافر فى رحلته الأبدية ، ولن يعود ··

وتجهش وحدها بالبكاء ..

الآن . بدخول هذا الرجل الغريب ، سينتهى الأمل نهائيا .

ـ قتلوك يا بابا .. قتلوك . وأنا الأخرى اشتركت فى قتلك !

كانت الفكرة المروعة التى استبدت بها ، أنه مات مقتولا .. بيد الطبيب ، وبيد أمها وبيد أخيها اللذين وافقا الطبيب على طلبه . غير أن التأنيب كانت تصبه كله على نفسها ، بموقفها السلبى المشين ، فبعد أن نجح الطبيب فى الحصول على موافقة أمها وأخيها ، جاءها بنفس الملامح المتوسلة الراجية ، وبمنطقة الخادع الرهيب ، يناشدها الانسانية . يناشـــدها موقفا لا يقدر عليه الا العظماء . أن تنقذ ـ بكلمة واحدة منها ـ حياة انسان يتعذب ويوشك أن يلفظ أنفاسه : حولى فجيعة الموت الى حياة !

لحظتها أغمضت عينيها مرتاعة ، ثم انفجرت باكية ، وجرت تاركة الطبيب وهى تجهش « مش عايزة بابا يموت » .

لكن اباها كان قد مات . فاعتبر ذلك منها موافقة ضمنية .. لم تعترض صراحة . كان فى امكانها أن تصرخ فى الطبيب وتمزق وجهه : لا . لن يمس أحد قلب بابا وجسمه ..

ولكن ..

لم يكن كل ذلك يجدى فى شىء ..

قتلناه . كلنا قتلناه . والرجل الذى سيزورهم بعد قليل ، هو الآخر قاتل .. سأشاركهم ـ مرة أخرى ـ فى استقبال القاتل .

ـ مستحيل يا ماما أقدر أشوفه ، مستحيل .

واتجهت بخطواتها فى عزم لتخرج ، غير أن أخاها « شوقى » الذى كان يجذب آخر أنفاس سيجارته فى ضيق وعصـــبية ، خطا

مسرعا واعترض طريقها ، ورغم انه كان يصغرها بعامين ، الا انه كان أطول منها بعض الشيء ، وأقوى ، وفيه ميل الى العنف ، لكنه كان يقبض على أعصابه بشدة ، حاسبا حساب الموقف ··

ـ ياعزة يا أختى مش معقول اللى بتعمليه ده ·· مش كويس أبدا ··

ـ اعملوا أنتم المعقول ·· الكويس اعملوه أنتم ··

احتلت وجهه وجسمه رجفة عصبية ، قال بتحد لا يخلو من ازدراء :

ـ يعنى ايه · عايزة تفهمينا انك الوحيدة اللى زعلانة على موت بابا · ما احنا كمان زعلانين يا ست عزة ، وأكتر منك كمان ، انما مش وقته اللى بتعمليه ده ·· لا من الذوق ، ولا من الانسانية ·

أحست بالاهانة · استفزها ما فى لهجته من طعن وازدراء ، وأوشكت أن تصرخ فيه وتصفعه بالرد المباشر : أى انسانية هذه التى تتحدث عنها · انا أعرف ما يدور فى فكرك ·· ترسم الآن على استغلال الرجل · لن تتركه دون أن تستفيد منه · ستأخذ منه ثمن قلب أبيك · حين وافقت على نقل القلب ، كنت تعرف أن الرجل صاحب مصنع وغنى · كل يوم ستطلع عليه بحيلة وتأخذ منه نقودا تدخن بها الحشيش وتلعب الورق وتسهر كعادتك ·· تنتحر كما تنتحر كل ليلة · هذه هى انسانيتك ·

ـ خليكم أنتم الانسانيين ياسى شوقى · ما أنتم من أول يوم انسانيين معاه ·

ـ قصدك ايه ·· ؟!

ـ ماقصديش حاجة ·· أنا خارجة ·· قابلوه أنتم ··

ـ لا · أنا عارف قصدك · عايزة تفضلى باستمرار محسسانا بالذنب · كأننا احنا اللى موتناه ·· تقدرى تقوليلى ليه وافقت معانا يومها · على أننا نعطى له قلب بابا ، وننقذه من الموت ؟!

ـ أنا ماباحسسكوش بالذنب ولا حاجة · أنا المذنبة قبلكم (وأجهشت) · كان لازم قلت لا ·· لا ·· كنت متوحشة ، كل ما أتخيل الصورة ما أقدرش ··

ـ صورة ايه ؟!

ـ فتحوا صدر بابا ·· شقوه ·· وأخذوا قلبه ·· دفنوه ·· جثة من غير قلب ··

صرخت الأم فيها وقد اقشعر جسدها من الصورة :

ـ اسمعى بقى ·· أنت قصدك ايه ·· انت مش حتستريحى الا اذا عملت فى نفسى حاجة وخلصت من العيشة كلها ، أو أسيب لكم البيت وامشى (ثم بتحد اكثر) أنت ماكانش لك فيه ، ربع ما لى أنا فيه ، أنا لو على أموت ·· أنا مش عايشة الا علشانكم ، وعلشانك أنت بالذات · لغاية ما تاخدى شهادتك وتخلصى ··

اقترب الأخ من الأخت ·· مهدئا :

ـ ياعزة يا أختى أنا مقدر شعورك كويس · والاحساس بالذنب ده لو سبنا نفسنا له · حيخلص علينا ·· بابا مات · الخمس دكاترة أجمعوا على أنه مات · ومع ذلك ، فالحمد لله أنه ماماتش موته « ستروبية » « بابا مات موتة عظيمة · قلبه أنقذ انسان تانى من الموت ·· يعنى ·· يعنى هو ما ماتش كله · فيه جزء منه · لسه صاحى ·· وحى ·· وبيدق ·· والجزء ده لازم نحافظ عليه ·· و ··

ارتاعت البنت للصورة · وأن يقولها هكذا ، بهذه البساطة ، مثل قصة أو مسرحية من مسرحياته الفاشلة التى يكتبها ·

ـ ماما · قوليله مايقولش الكلام ده تانى ·

قال مؤكدا ·· « هى دى الحقيقة » ·

تصدت له الأم بصوت حاسم : لا ياشوقى ·· الكلام ده مش عايزه أسمعه منك تانى ·· بابا مات · مات وانتهى الأمر ، واللى راح عمره ما بيرجع · لازم تفهم ده كويس ·

وغلبها التأثر · ارتعشت شفتاها · وسقطت من عينيها دموع · أحس الابن بالحرج وبالضيق ، أحيانا كانت تنتابه نوبات تكتم أنفاسه، تهيب به لأن يدمر نفسه ويدمر العالم من حوله ·· صرخ :

ـ عايزين تحسسونى انى ماكنتش باحب بابا زيكم ؟! ·· لا ·· أنا كنت باحبه اكتر منكم · أيوه ·· ولو انه مادخلنيش كلية زيك ياست عزة ··

وتحشرج صوته لأول مرة بالبكاء ، وأخرج علبة سـجائره الصغيرة ، وبحث فى جيبه عن ثقاب ليشعل السيجارة · فلم يجد ··

ترك الشرفة ودخل ليبحث عن الكبريت · أسرعت الأم نحو عزة · أمسكتها من كتفيها · نظرت فى عينيها بتوسل ورجاء ، وهى تهز كتفيها · وهمست :

ـ ازاى يابنتى تقولى انك حتخرجى · والراجل ، ييجى يقابل مين ؟! انت تايهة عن أخوك شوقى · احنا مش ناقصين مشاكل ياعزة ·· (ورفعت من صوتها بسرعة) وكلها خمس دقايق ، وتنتهى الزيارة · نستحمل يا بنتى · فى أى لحظة دلوقت ، حنلاقيه بيخبط على الباب ·

وعاد شوقى على الجملة الأخيرة ، فقال مكملاً :

ـ وجايز جدا تكون الصحافة جاية معاه ··

قالت البنت مستنكرة ··

ـ تيجى تعمل ايه ··

ـ يوصفوا المقابلة · أول مقابلة بيننا وبينه · دى مقابلة تاريخية ياعزة ·

وقاطعته صارخة · لو أى حد منهم حييجى هنا حاطرده ·· (وتولتها رعشة) انا · انا مش قاعدة ياماما ·· مش حاستنى ·· انا حاخرج · قابلوه أنتم ··

وأسرعت بخطواتها وهبطت الدرجات الثلاث للشرفة · غير أنها توقفت فجأة على صيحة من أخيها ·

ـ عزة : لو خرجت ، حتحصل نتائج خطيرة ·

رنت الكلمة فى رأسها · ومع ذلك لم تسأل عن هذه النتائج · ستخرج ، وليكن ما يكون ·

وسألت الأم ابنها فى قلق :

ـ نتائج ايه يا ابنى ؟!

ـ طبعا ياماما ، لو الراجل ده حس اننا زعلانين ومقاطعينه حيتأثر جدا · حيجيله احساس بالذنب · وده يتعب قلبه الجديد ·· اللى هو قلب بابا ياعزة ·

أشاحت البنت بوجهها متألمة ومتمزقة · ودون أن تدرى ، وجدت نفسها تندفع نحو البوابة ، لتخرج هاربة ·

غير أنها ما كادت تقترب من الباب لتفتحه حتى سمعت دقات خفيضة على الباب • دقات ثلاث • تسمرت فى مكانها • وعيناها شاخصتان على البوابة ••

لابد انه هو ••

ودون وعى ، التفتت نحو الأم والأخ ، والتقت نظراتهم • ثم توجهت النظرات نحو البوابة الخشبية القديمة •

ـ قالت الأم فى هدوء وتماسك ••

ـ افتحى يا عزة ••

وكتمثال فاقد الارادة ، مدت يدها ، ورفعت المزلاج ••

وانفتح الباب ••

كان كمال أدهم ••

الرجل الذى يحمل داخل صدره • قلب أبيها • الذى مات •

- ١٩ -

للحظة خاطفة ، توهج شىء مثل البرق ، سرعان ما انطفأ ··

تلاقت عينا « عزة » بعينى « كمال أدهم » وجدت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وبدا أنيقا وسيما لولا أنفه المتكور الضخم ، وكان يحمل فى يده اليسرى علبة مستطيلة فاخرة أنيقة · انحنى لها انحناءة خفيفة وقال يرتجى الود وقد اتسعت ابتسامته :

ـ الآنسة عزة ؟

أشاحت بوجهها عنه بسرعة وغضب · حركتها صريحة واضحة : لا أريد منك سلاما أو كلاما · بل لماذا جئت أصلا الى هذا البيت ؟ !

ارتبك كمال أدهم · داهمته انقباضة · وأحس بقلبه يهبط ·· أوشك أن يصيح بها متوسلا : لا ·· لا ياعزة · أرجوك ·· يجب الا تكون البداية هكذا ·

. ورأى الزوجة والابن يهبطان درجات الشرفة لاستقباله · توجه اليهما ببصره · قال من كل قلبه ، يرتجي موقفا آخر ··

ـ السلام عليكم ··

رد الاثنان ، الزوجة والابن ، في نفس واحد ·

ـ عليك السلام ورحمة الله (واضافت الزوجة وحدها تكمل السلام) وبركاته ·· مسته لهجة الاثنين المرحبة · ومسه أكثر انفراد الزوجة بكلمة السلام الأخيرة (وبركاته) أشاعت في نفسه احساسا بالأمن وبالسلام ··

هذه اذن هي التي وهبته القلب · واختطف نظرة سريعة من عينيها ليتأكد ··

اجل ·· فيهما حزن عميق ، ولكن لا ندم ، ولا من · انما تجمل عظيم بالصبر ··

وبدا وجهها الأبيض ، وسط الطرحة السوداء التي اتشحت بها ، مشعا ومضيئا ·

وانحنى يحييها في خشوع واحترام ··

قال الابن وهو يقترب منه بخطوات طويلة ، متقدما أمه ، باسطا له كفه في حماس وود قلبيين ··

ـ أهلا أهلا ·· أستاذ كمال ·· اتفضل ··

اهتز فرحا لسماع اسمه يجري على لسان الابن ·· أحس بقربى شديدة منه · قال وهو يسلم عليه بحب وحرارة وامتنان :

ـ الف شكر ·· الف شكر ·· حضرتك ·· الأستاذ شوقي ··

ـ مضبوط ··

كانت الزوجة قد اقتربت منه • خطا نحوها بسرعة ، متجاوزا البنت والولد • مد لها يده • مدت يدها اليه • احتوى كفها الصغير في يده • قال مجاهدا ليتحكم في انفعاله :

ـ أنا •• أنا مش عارف اقول لحضرتك ايه ؟ أعبر عن شكرى ازاى ؟

كان ينظر فى عينيها الواسعتين ، متوسلا •• باحثا ••

أرخت عينيها •• طأطأت برأسها قليلا ، وهى تسحب كفها من كفه فى هدوء ••

ـ الشكر لله يا أستاذ ••• (وبزفرة) حمدالله على سلامتك !

ود لو يمسك كفها من جديد ، ويغمره ، بقبلات الشكر والعرفان•

ـ الله يسلمك ، ويسلمكم جميعا • (وتنهد رغما عنه) ياريت •• ياريت اقدر أوفى ، ولو جزء بسيط من الدين ••

ـ احنا ماعملناش حاجة •• ربنا هو اللى عمل ••

صاح ممسوسا بالعبارة :

ـ ونعم بالله •• أحمده طبعا وأشكر فضله •• انما •• برضه ، ربنا بيسبب الأسباب وانتم ••

ندت عن « عزة » فى وقفتها حركة رفض واضحة • « لا أريدك أن تواصل هذا الكلام » • « هل اخطأت فى شىء ياعزة ؟! ربما •• ليس من الحكمة ، الدخول بسرعة فى الموضوع • ولكن •• لابد أن يقول الانسان أى شىء • أى شىء ياعزة • ماذا يمكن أن اقول •• أم أستدير وأخرج ، وينتهى الأمر ؟!

قال له الابن ، مشيرا بيده علي مقاعد الشرفة :

ـ اتفضل حضرتك استريح ٠٠

تشبث بكلماته ولهجته ٠ قال مشيرا اليهم جميعا ليتقدموه ـ اتفضلوا ٠٠ (وحانت منه نظرة للبنت) واضح أن الآنسة عزة كانت خارجة ٠٠ آسف اذ كنت عطلتك ٠٠

غمغمت دون أن تنظر اليه بكلمات لم يسمعها ٠

وناوشه الأمل من جديد ، أن ترد عليه ، أو على الأقل ترفع عينيها اليه ٠٠

ـ على كل حال حظى سعيد انى لحقتك وشفتك (وابتسم ابتسامة ، يختلط فيها العتاب بالاستعطاف) على فكرة ، احنا ما سلمناش !

ومد لها يده ٠٠

اضطربت البنت ، ودون أن ترفع اليه عينيها ، ومدت له يدها بالسلام ، للحظة خاطفة ، ثم سحبت كفها من كفه ، وأشاحت مرة أخرى بوجهها عنه ، وقد ازدادت ملامحها جهامة ٠٠

عاودته الانقباضة ٠ غير أنه تماسك ٠ يجب أن ينجح فى المهمة ٠٠

قال الأخ مسرعا ليزيل الحرج :

ـ أصلها كانت رايحة تذاكر مع بنت خالتها ، هنا فى عين شمس ، الامتحانات قربت زى ما حضرتك عارف ٠

حاول أن يقنع نفسه بالعذر ٠٠ قال بحماس :

ـ آه عارف طبعا ٠ وان شاء الله تنجحى ونهنيكى ـ آسف اذا كنت أخذت من وقتك شوية ٠

كانت نظراتها متجهة الى البوابة ..

نظر الى العلبة التى فى يده . جمع شجاعته . وأوشك أن يمد لها يده بالهدية .. خانته ارادته ..

عاود الابن دعوته :

ـ اتفضل يا أستاذ كمال .. نقعد فى الفراندة ..

ندت عنه زفرة : اتفضلوا ..

وخطا بهدوء نحو الشرفة . كان شوقى يتقدمه بخطوتين ، مخليا له الطريق ، بحفاوة هادئة . أما الزوجة والبنت ، فكانتا خلفه .. تتبعانه .. وأحس بنظراتهما تخترقان ظهره ، وتصلان الى قلبه . وأحس أنه يكاد يترنح . شمله اضطراب عظيم ، وجاهد لتكون مشيته ثابتة . واستعاد نظرات الزوجة ، الأم ، يستعين بها على نظرات البنت . لماذا هذا الاختلاف فى الموقف ؟! لماذا ياعزة ؟ لا تشوهى الموقف .. أرجوك .. أنت لم تعرفينى بعد . بعد قليل ستعرفيننى .. سأنسيك حزنك على أبيك ، فقط لا تغضبى منى . أنا لم أفعل الا أنى حافظت لك على قلب أبيك . كان يمكن أن يضيع كل شىء .

وصعد درجات الفراندة الثلاث ، وأشار له الابن على أحد المقاعد .

ـ استريح حضرتك ..

ـ متشكر جدا .

وجلس . وجلسوا ..

حل صمت ثقيل عميق .

رغم الارتباكة الكبرى ، الا أن احساسا عميقا بالأمن والتفاؤل بدأ يشمله • وأخذ نظرة سريعة من المكان : البوابة الخشبية القديمة ، والسور المطلى بالطين ، وتكعيبة العنب ، وجذع الشجرتين ، وظلهما • واستوقفته أحواض الزهور • وعقد مقابلة تلقائية بين ألوان الزهور ، وثياب الحداد السوداء التى ترتديها كل من الأم والبنت • غريب أن تتفتح فى هذا البيت زهور • الحياة مستمرة • وتذكر أحمد زهران « مادام فيه تجدد • يبقى مفيش موت » •

ليت كلامك يتحقق هنا يازهران ، وأراهما ، الاثنتين وقد خلعا ثياب الحداد •

وأنت ياعزة (واختلس نظرة منها) كنت أتخيلك أصغر من هذا بكثير • ها أنت فتاة ناضجة • صدرك بارز وملىء ، وشفتاك رغم الحزن مليئتان ، شهيتان • لسوف يأتيك العريس • قريبا ــ أنا واثق، وستفرحين ، وتنسين ، أعدك ياعزة ، ومهما كانت الظروف ، أنا الذى سأقيم لك فرحك • فرحا يتحدث به كل الناس • سأزفك الى عريسك الموعود • (ولاح له تلقائيا وجه « يحيى البدرى » واختلج قلبه بالفرح) ماذا لو زوجتك من يحيى • يحيى شاب كفء • وعظيم • وفى حاجة لانسانة مثلك لولا أمه التى مرضت فجأة لكان معنا الآن ، هو وزوجتى سناء • لكنه سيزوركم قريبا على أية حال •• لابد سيراك ••

وابتسم فى نفسه ، وقد نما فيه شعور التفاؤل والأمل •• آه •• يجب الا أسترسل فى الخيال ••

وجذب من صدره نفسا عميقا • وأحس بحب غامر للمكان •• ود لو يظل جالسا فى هذه الشرفة • وتذكر اسم الضاحية « عين شمس » تذكره بحب : يقولون انه كانت هنا مدينة مصرية قديمة ••

يذكر ، قبل العملية أنه قرأ فى احدى الجرائد عن آثار اكتشفوها هنا ·· سوف يسأل مصطفى سيف عن تاريخ هذه البلدة · وخيل اليه أنه عثر على التفسير · تفسير الموقف العظيم : لماذا هذا المكان بالذات ؟! ولماذا هؤلاء الناس بالذات ، هم الذين وهبوه القلب الذى أعاد اليه الحياة ؟! غير أن منظر البنت كان له بالمرصاد : كان بين الحين والحين ، يختلس منها النظرات ، على أمل أن تغير الموقف · لابد أن يجتاز الموقف وبحث عن كلام ، أى كلام يخاطبها به ·

ــ أنا · حاسس أنى معطل حضرتك ·· ممكن حضرتك تــ ··· (ولم يكمل) ·

قال شوقى محاولا تليين الموقف ، وتبسيطه ·

ــ يعنى مش للدرجة دى · المذاكرة مش واخدة حدها أوى ··

قال أدهم ، محاولا أن يأخذ جانب البنت · ·

ــ لا ازاى ·· لازم تاخد حدها تمام ·· الامتحانات قربت جدا ·· وما عادش فيه وقت · حضرتك تتفضلى يا آنسة عزة ·· (وأشار بيده الى البوابة) بدون أى احراج !

واستلهم من نفسه الشجاعة والارادة · نهض من على مقعده ، واقترب من البنت · مد لها ذراعه بالعلبة ·

ــ ممكن تقبليها منى ؟ رمز بسيط مش أكتر ··

للوهلة الأولى ، لم تبدر منها أى استجابة · لكنها أحســـت بالنظرات كلها تتجمع عليها ، تدفعها ألا تترك يد الرجل معلقة هكذا فى الهواء ·· وواصل الرجل :

ــ أرجو ماتكسفينيش ·

دون أن ترفع عينيها من الأرض ، مدت يدها بحـــركة آلية ، وأخذت العلبة ··

كان يراقب أدق خلجات وجهها ، مستجديا شعاع أمل واحد ، غير أنها أشاحت عنه بسرعة · وفجأة ، أحست برغبة تخنقها بالبكاء فاندفعت جريا ، والعلبة بيدها ، الى داخل الشقة ، وما ان اختفت داخلها حتى انفجرت فى البكاء ··

اضطرب الرجل ·· نظر الى الزوجة والابن نظرة استغاثة ، واعتذار : أنا ·· أنا آسف جدا ياجماعة ·· مش عارف أعمل ايه ·

ورأى الأم تغمض عينيها ، وتزفر ، زفرة هزت أعماقه ·· ثم نهضت فى صمت ، وشفتاها ترتعشان بشكل واضح ، كانت هى الأخرى تقاوم البكاء وانسحبت فى هدوء خلف ابنتها ··

وكالغريق المتعلق بحبل النجاة ، التفت الى الابن ··

ـ قوللى يا أستاذ شوقى ·· أنا غلطت انى جيت ؟!

قال الابن متأثرا بأزمة الرجل ، مبديا سخطه على ما حدث :

ـ ازاى يا أستاذ كمال تقول كلام زى ده · بالعكس · احنا كنا فى انتظارك من الصبح · وكنا كويسين كلنا ··

ـ أمال ليه « عزة » عملت كده ·· ؟!

زفر شوقى :

ـ ده شىء طبيعى ·· حضرتك مقدر الظرف طبعا ··

قال متلجلجا :

ـ طبعا · شىء طبيعى طبعا ·· انما ·· (ولم يعرف بماذا يكمل) ·

ـ واصلها كانت غالية أوى عند بابا ٠٠

قال وقد التقط خيطا قد يوصله لمعرفة الحقيقة ، حقيقة الأرض المجهولة التى يقف فيها ٠٠

ـ وانت ٠٠ ماكنتش غالى عنده كمان ؟! ضرورى طبعا كنت غالى ٠٠

وبصوت شارد ، أحس فيه كمال رنة أسى بعيدة ٠

ـ طبعا كنت غالى عنده ٠٠ بس هى الحقيقة كانت شىء تانى ٠٠ خصوصا بعد مادخلت الكلية ٠٠ كان نفسه يشوفها واخدة شهادة عالية ٠٠

أدرك على الفور انه بدأ يضع يده على طرف جرح ٠

ـ وانت مادخلتش الجامعة ٠٠ ؟ !

ـ انا دبلوم صنايع ٠٠ اتخرجت من سنتين ٠٠

قالها شوقى ثم أرخى عينيه خجلا ٠

ياصغيرى العزيز ٠٠ هذا هو اذن جرحك ٠ وأوشك أن يصيح ضاحكا ومشجعا : ولا يهمك ٠ انا أيضا دبلوم صنايع ٠٠ مررت بأزمتك هذه ٠ الحياة بلا مستقبل شىء بشع لكنى غيرت حياتى ٠٠ غامرت ٠٠ تركت الوظيفة ودخلت بنفسى عالم السوق ، وأصبحت املك مصنعا وعربة ٠ انت الآخر ياشوقى ٠٠ يمكنك أن تغير حياتك ٠ يحيى البدرى غير حياته ٠ يمكننى أن أساعدك أيضا ٠ بأى شكل تريد ، لو تريد ٠ كلمة واحدة منك أبذل المستحيل ٠ أسدد جزءا من الدين ، وتصفو الحياة !

غير أن نحيب البنت تناهى الى سمعه من داخل البيت ، خافتا مكتوما ، وأحيانا بشهقات ٠٠

لا ٠٠ لا ياعزة ، ارجوك ٠ أنظرى الى الموضوع نظرة اخرى ؛ أنت طالبة فى الجامعة ، ومثقفة ، وقد وافقت معهما على أن تهبينى القلب ٠ الطبيب قال لى أن الموافقة كانت اجماعية ٠٠ أرجوك ٠٠ لا تندمى ٠ ومع هذا ، أنا آسف ٠ فمن حقك أن تبكى ٠ وحتى لو كنت قد نسيت ، الى حد أن تفتحت الزهور ، فظهورى لابد يحرك الذكرى ٠ أبكى ياعزيزتى ، ولكن فقط لا تغضبى على ــ سأمسح عنك كل حزن ٠ سأبحث عن أفراح الدنيا وأقدمها لك ٠٠ و ٠٠

ورآها مقبلة مع امها ، مطأطأة الرأس ، مجهدة الخطوات ، والعيون محمرة ، عيون الاثنتين ٠ وبدلا من الطبة ، كانت البنت تحمل بعض الكراسات والكتب ٠

زادت ارتباكته ، وفوجىء بالأم تقوم لها :

ــ يالله ياحبيبتى ، روحى انت لمذاكرتك ٠ والساعة عشرة شوقى اخوك حيمر عليك ياخدك من عند « هالة »

اعتدل كمال فى وقفته ٠ تهيأ لأن تسلم عليه وهى خارجة ٠٠ كانت دقات قلبه تسرع : « ولو بنظرة ياعزة ويتم الصلح » ٠

غير أنه فوجىء بها تأخذ طريقها مباشرة الى « البوابة » دون اية كلمة ــ ورأى الموقف يفلت منه ٠ أوشك أن يصيح عليها ٠ لا ٠ لا ياعزة ستتركين الموقف بيننا هكذا معلقا ٠ انتظرى ٠ نتكلم سويا قليلا ٠ لاداعى للعذاب ٠

غير أن الفتاة كانت قد فتحت البوابة ، ثم خرجت وأغلقتها خلفها فى هدوء ٠

تولاه احساس بالهزيمة ٠ وهبط عليه وجوم ثقيل ، لولا أنه فوجىء بالأم تزفر زفرة حارة ، وتقول معتذرة ٠

ـ معلهش يا أستاذ كمال • أنت عارف البنات • وبالذات عزة (ولم تكمل) •

تعلقت روحه بجرس صوتها وهى تخاطبه باسمه • (يا أستاذ كمال) ما أجمل اسمه على لسانها تنطقه باخلاص ، ونظر اليها ، الى وجهها ، بملامحها الصغيرة الدقيقة البيضاء وسط الطرحة السوداء • أحيانا يعطى الحزن والشحوب جمالا للانسان فوق جماله • ورغم أنها كانت من النوع البسيط الحجم • الا أنه رآها ، مرتفعة جدا ، وتمنى لو يصـــعد اليها • هذه اذن هى المرأة العظيمة التى أخذت الموقف العظيم • نعم • هى بطلة الموقف • وليست البنت • كل ما يهمنى الآن هو أنت •

وتوجه اليها بكل روحه ، طالبا منها الخلاص •

ـ أنا آسف جدا يامدام ، اذا كنت سببت لكم ازعاج أو ألم • أنا مقدر كل شىء • لكن كان لازم آجى وأشكركم • أنا مهما عملت ، ومهما سمحتولى أعمل ، لايمكن حاقدر أوفى جزء من الدين الكبير اللى على •

وبنفس النظرات المطأطأة فى الأرض •

ـ لا دين ولا حاجة يا أستاذ • الحمد لله أنها جت بنتيجة •

ـ لا يامدام • ده دين كبير • كبير جدا ، لآخر يوم من عمرى حافضل أسد فيه • أنتم لكم الفضل فى أنى عايش دلوقت (ونظر الى شوقى) أنا حياتى كانت عذاب وآلام • كنت باطلب الموت عشان أخلص من العذاب اللى أنا فيه •

وقال شوقى مخففا عنه توتره وانفعاله ، مشيرا على مقعده •

ـ أستاذ كمال • أرجوك ماترهقش نفسك • اتفضل استريح •

وجلس · توقع من الزوجة ان تجلس · غير أنه فوجىء بها تسأله ·

ـ حضرتك تشرب حاجة ساقعة ، والا سخنة ؟!

قال معترضا بشدة على تركها المكان :

ـ لا ·· لا متشكر ·· متشكر جدا · مش عايز حاجة ابدا · خليكى مستريحة ·

بدا عليها الاصرار ··

ـ معلهش ·· لازم تشرب حاجة ··

لماذا ترخين عينيك عن عينى ، هكذا بسرعة · بحر حزنك واصطبارك · أريد ان أغرق فيه ، أم أنك أنت أيضا ـ مثلها ـ تستعجلين قيامى ·

ـ أشرب أى حاجة ·· ساقعة ·· سخنة ·· زى بعضه ··

استدارت فى هدوء لتدخل الشقة · ووجد نفسه يتبعها بنظراته· كانت ترتدى فى قدميها البيضاوين خفا صغير أسود · واسترعى انتباهه ساقاها ، بطن ساقيها ، كانا بيضاوين مليئين ومشدودين ، فى تناقض مع الوجه الشاحب والعينين الحزينتين ، وأحس فيهما بلحم امرأة ·· لحم شهى الملمس · واضطرب فجأة اذ ضبط نفسه متلبسا بهذا الخاطر ، وخشى ان يكون شوقى قد فهم فكره ، غير أنه تنبه على حركته وهو يشعل سيجار ، ويقول :

ـ حضرتك مابتشربش سجاير طبعا ·

قال مسرعا وشاكرا :

ـ بطلتها خلاص ··

ـ من قبل العملية ، ولا بعدها ·· ؟!

ـ الحقيقة قبلها بكتير · ولو أن الدكتور سامح لى أشرب ، مش كتير ، لو أعوز ·

قال الولد معترضا بشدة :

ـ ازاى الدكتور يسمح لك بشرب سجاير · لا يا أستاذ · مش معقول · مايصحش تشرب سجاير اطلاقا ·· عشان ··

وتردد فى أن يكمل ·

قال كمال مبتسما :

ـ عشان قلبى · اللى هوقلب باباك ·· (وانفعل فجأة الى حد الرغبة فى البكاء) ياريت ياشوقى ·· ياريت ··

نظر اليه الابن مستفسرا :

ـ ياريت تعتبرنى باباك ·· أو زى باباك ·· أنا فى جزء من باباك فعلا ياشوقى · أعظم جزء فيه ·· قلبه · وعايش به · أبوك ما ماتش ياشوقى ·

ارتعشت شفتا الولد ·· واختلجت كل ملامح وجهه · سقطت فجأة من عينيه دمعتان ··

أوشك كمال أدهم أن يصرخ · لا · لا · ياشوقى · لم أقصد شيئا · غير أنه فوجىء به يقول وهو يتحكم فى دموعه ·

ـ شوف يا أستاذ كمال · بصرف النظر لازم أى انسان يفرح بنجاح عمليتك · دى قضية تهم البلد كلها · الانسانية كلها · أما الاعتبارات الشخصية ، ففى يوم من الأيام حتروخ وحتتنسى ·

فرح بكلامه . تذكر مقالة مصطفى سيف عنه . احيانا يبدو هذا الولد أكبر من سنه . وأكبر من دبلوم صنايع . الحزن يعلم الصغار الفلسفة . تماما مثل يحيى البدرى . قل لى ياشوقى ما هى أحزانك .

ـ أنت انسان ممتاز يا استاذ شوقى ..

ـ ولا ممتازولا حاجة ..

ـ يجد . وياريت نبقى نشوف بعض باستمرار . تيجى تزورنى فى المصنع ، وتتفرج عليه . ونقعد مع بعض ونتكلم .

ـ باذن الله ..

جلت لحظة صمت ، داعبه احساس بالأمل ، وبالرضا عن النفس . سأساعده ، سأدفعه لكى يغير حياته . غير معقول ان يظل هكذا الى الأبد دبلوم صنايع .

ـ قوللى ياأستاذ شوقى . أنت بتشتغل فين دلوقت ؟

ـ فى وزارة الاسكان .

قال كمال مبديا دهشته :

ـ وزارة الاسكان ازاى ، وانت دبلوم صنايع ـ مش ماشيين مع بعض .

ـ (وعلق بابتسامة ساخرة ، يشيع فيها السخط والمرارة ثم وهو يشوح بيده لا مباليا) على كل حال مش ده الطريق اللى أنا عايزه لحياتى !

ـ أمال ايه الطريق اللى انت عايزه ؟

قال باعتزاز وثقة :

ـ أنا بأكتب قصص ومسرحيات ، واتنشر لى قصتين ٠

فرح كمال بالمفاجأة ، وتذكر على الفور صديقه مصطفى سيف٠ فساله بشغف :

ـ تعرف مصطفى سيف ؟!

ـ طبعا ٠ قريت له كتير ٠٠

وأوشك أن يسأله اذا كان قد قرأ مقالته الأخيرة التى كتباه عنه بمناسبة نجاح العملية وخروجه من المستشفى ، لكنه تذكر فى نفس اللحظة ، المقالة الأخرى التى هاجمت العملية واتهمت الطبيب بالكفر والاعتداء على حرمة أجساد الموتى ، واقشعر جسده ٠ آثر البعد عن المقالتين ٠ غير أنه وجد نفسه يربط بين موقف عزة ، وهذه المقالة الأخيرة ٠٠ أيمكن أن يكون هناك نوع من الربط بين الاثنين ؟! ونشل نفسه بسرعة من الدوامة التى أوشك أن يغرق فيها ٠ كنا نتكلم فى ماذا ؟ ٠ آه ٠ انه يكتب ٠ وعاودته الابتسامة ٠

ـ على فكرة ٠ مصطفى سيف صديقى جدا ، وممكن أعرفك به ٠ فى أى وقت تحب ٠

ارتسمت على شفتى شوقى ابتسامة ساخرة ٠

ـ وافرض حضرتك عرفتنى به ٠ حيحصل ايه ؟!

ـ يساعدك فى النشر ٠ ويقرأ القصص اللى بتكتبها ٠

قال شوقى بهدوء :

ـ مصطفى سيف مابيساعدش حد ٠ لا هو ولا كل الجيل بتاعه ٠ كلهم ما بيعملوش الا لحساب نفسهم وبس ٠ انما يعطوا فرصة لموهبة جديدة طالعة ٠٠ لا ٠ بالعكس ٠ أى موهبة يلاقوها ، يموتوها ٠٠

أوشك أن يتبسم . وتذكر عدم أعجاب « يحيى البدرى » بمقالة مصطفى سيف عنه . أهو صراع الأجيال ؟!

قال مدافعا عن مصطفى سيف ، واصلا الجسر بين الاثنين .

ـ بس مصطفى سيف بالذات انسان كويس . أعتقد لما حتتعرف به شخصيا ، حتغير رأيك فيه .

ـ جــــايز ..

ـ مش جايز ، أكيد . أنا واثق انه حيفتح لك الطريق .

قال شوقى وقد لمعت عيناه بأمل غامض :

ـ حضرتك تعرفه من زمان .. ؟!

ـ طبعا . كانت بيننا أيام . وذكريات لا تنسى . بعـــدين حاحكيها لك .

وخف فجأة حماسه ، عاوده وجه عزة . الغضب ، والرفض ، بل وربما الكراهية ..

« لو تساعدنى ياشوقى « لو توضح لى الموقف . لو تشير على على بماذا أفعل ؟!

ـ قوللى يا أستاذ شوقى ، وأرجوك تكلمنى بصراحة .

ـ اتفضل ..

ـ ليه عزة واخدة منى الموقف ده ؟!

ـ ولا موقف ولا حاجة .. شوية كده وتروق ..

ـ لا يا أستاذ شوقى . دى رافضة تشوفنى ، أو تقعد معاى فى مكان واحد . أرجوك تقوللى . هى بتفكر ازاى فى الموضوع ؟

بدأ التردد واضحاً على الابن ، تململ في جلسته ، وأشعل سيجارة أخرى .

ـ أرجوك يا أستاذ شوقى . عشان أصفى الموقف اللى بيننا

قال شوقى وقدنهض فجأة من على مقعده ، متهربا من مواجهة الرجل ، وتوسله :

ـ ولا موقف ولاحاجة . هى اللى انسانة تفكيرها غريب .

نهض الرجل . واجهه مرة أخرى ، برجاء :

ـ تفكيرها غريب ازاى . قوللى . هوده اللى عايز أعرفه .

نظر شوقى فى عينيه طويلا . ثم قال :

ـ عزة يا أستاذ كمال بتعتقد أن باباها ما ماتشى موتة طبيعية . عزة بتعتقد أن بابا مات مقتـــول ! واللى قتلته العملية . وان لو ماكانش الدكتور أخد قلبه ، كان ممكن عاش ، زى ما أنت عشت به .

- ١٢ -

وهكذا بدأ الزلزال ..

فى لحظة واحدة تبدد عن النفس كل الأمان ، كل الأمل ـ وبدا الرجل مترنحا من هول الصدمة . وكان فمه مفتوحا وعيناه فاغرتين ، غير قادر ولاواثق من أن ينطق بكلمة . وقد اتضحت فى تلك اللحظة نقطة مأساوية فى شخصية كمال ادهم ، إذ أحس باستجابة كامنة فى أعماقه لهذا الاتهام الخطير وميل الى التسليم به . ورأى نفسه فجأة كأنما سيسقط برأسه فى ظلام هاوية عميقة ، صاح فى وجه الابن ، دافعا عن نفسه الاتهام الرهيب :

ـ مش معقول ـ مش معقول . انا واثق أن بابا كان مات ، من الصدمة ، انا متأكد .

قال الابن مؤكدا نفس الدفاع وقد داخله نوع من الفزع .

ـ وأنا كمان ، واثق انه كان مات · وماما ، متأكدة انه مات ، مستحيل انها كانت توافق على نقل قلب بابا ، من غير ما يكون مات ··

ولاح ضوء بعيد فى بحر مظلم · الوجه الأبيض الجميل المهيب الصابر داخل اطار من سواد الحداد ·

قال كمال ادهم مواصلا دفاعه باستماتة : طبعا ، مش معقول زوجة توافق على نقل قلب زوجها من غير ما يكون مات فعلا ·· والدكتور ·· والدكاترة اللى قرروا انه مات · يبقى ليه عزة تتصور كده ؟!

ـ قلت لها هذا الكلام وأكتر ، ومع ذلك ، رافضة أنها تقتنع ·· مش راضية تصدق أصلا أنه مات ·

ـ على أى أساس ؟! دى مسألة نتائجها خطيرة ·· و ·· حرام عليها لازم أواجهها يا أستاذ شوقى · والدكتور كمان ، لازم حاخليه يواجهها ، ويقنعها ·

قال شوقى رافضا أن يأخذ الموضوع هذا الاتجاه ·

ـ أستاذ كمال · عشان كده ماكنتش عايز أقول لك حاجة ، حضرتك اللى أصريت·أرجوك،مالوش داعى تقليب الموضوع·وعلى أى الأحوال ، ومهما كان اللى حصل ، عمر بابا ما حيرجع يصحى تانى ·· خلاص ، انتهى الأمر !

عاودته الزلزلة · أيمكن أن يكون الابن هو الآخر عنده شك فى وفاة أبيه ؟ قال بفزع :

ـ يعنى ايه ؟! فيه احتمال ان ما يكونش بابا مات فعلا · وان الصدمة اللى حصلت له ، مش هى اللى موتته ؟!

ـ أرجوك يا أستاذ كمال ـ انت بالشكل ده حتخلينى أشك من تانى ـ مش ممكن · انا خلصت من المرحلة دى ·

ورأى امه قادمة بخطوات هادئة خفيفة ، تحمل صينية عليها فناجين من القهوة · قال مسرعا بصوت خافت : سبنا من الموضوع ده دلوقت · عشان خاطر ماما · أرجوك ··

قال ووجهه يطفح بالألم ، وخيبة الأمل ·

ـ أسيبه ازاى · مش معقول يا استاذ شوقى دى مسألة مش بسيطة · لازم اتأكد ··

لمحت الأم عذابه ، وانفعاله ، نظرت الى الابن مستفسرة وقد تولاها القلق :

ـ فيه ايه ياشوقى ؟!

ـ ابدا ياماما · مفيش حاجة ··

واسرع اليها يحمل عنها الصينية · رفعت فنجانا فى هدوء ، وقدمته الى الرجل وبابتسامة قلقة حزينة :

ـ اتفضل ··

ـ ألف شكر ·· الف شكر ··

ورأى فى عينيها جلال الحزن · لكنه حزن شامخ صابر ومهيب ·· فاندفع يرتجى منها الخلاص وأمن النفس ·

ـ قوليلى يامدام لو سمحت · ايه اللى خللى « عزة » تفكر التفكير ده ؟!

ـ تفكر ايه ؟!

– ان المرحوم ماكانش مات فعلا قبل العملية !

– مين اللى قال لك الكلام ده ؟!

قالتها مروعة ، ونظرت الى الابن نظرة غضب وعتاب مريرين ٠ ارتبك الفتى الصغير ، وبان عليه الخجل والضيق الممتزج بالتحدى قال كمال أدهم مدافعا عنه ، ماضيا فى تقصى الحقيقة ٠

– أنا اللى رجيته يقوللى ليه « عزة » واخدة الموقف ده منى ٠ قوليلى الحقيقة يامدام أرجوك ٠

ونظر فى عينيها ، واذا بنظرة غضب رهيبة تطل منهما ، قالت وقد شدت جسمها بوجهها ، وغرست عينيها فى عينيه ، وبلهجة هادئة حاسمة ٠

– أستاذ كمال ٠ ماتخليش كلام عزة يؤثر فيك ، وأنا عاطياها العذر على كل حال ٠

– ازاى يامدام ٠ ده اتهام خطير ٠ مش بسيط أبدا ٠٠

– مش متهماك أنت بس ٠ ده متهمانى أنا كمان ٠ عايزانى أعيش فى ندم ٠ ليلى ونهارى فى ندم ٠ ومع ذلك ، عاطياها العذر ٠ ومستدملاها ٠ كانت متعلقة جدا بأبوها ٠ مسيرها تروق وتهدا ، وتقتنع انه مات ٠ (وارتعشت شفتاها) لأنه كان مات فعلا ٠٠ وآخر نفس له كان بين ايدى دول !

وانفجرت فجأة فى البكاء ٠٠

ارتبك الرجل ٠٠

– مش معقول يامدام ٠ أنا ٠ أنا متأسف جدا ٠ ما كانش قصدى ٠

وفوجىء بشوقى يبكى هو الآخر فى هدوء ٠٠

انخرط هو أيضا فى البكاء ٠٠ « مش معقول ٠ مش معقول » وفجأة دق على صدره مكان القلب ، وصاح ودموعه تنهمر من عينيه :

ــ على كل حال أنا مستعد انه ينشال منى تانى ، اذا كانت عايزه واموت واستريح ٠٠

قالت الزوجة :

ــ تبقى بتسلم بالتهمة ٠ ولو ده صحيح ، أبقى أنا اللى قتلته ، مش أنت ٠٠

ــ لا أنت ، ولا أنا ، يبقى الدكتور هو المسئول ٠ هو اللى خدعنا ٠٠

قال شوقى فى شبه صرخة :

ــ تبقى بالشكل ده انتصرت علينا ٠ نعيش ونموت فى الندم ٠ وهو ده اللى عايزاه ٠ انا باكرهها الانسانة دى ٠ باكرهها ٠٠ وأنا بأحذرك منها ٠ يا أستاذ كمال ٠ لو استسلمنا لأفكارها يبقى بنحول الموقف العظيم لجريمة ٠ وأنا أرفض ان حضرتك تقبل الوضع ده !

داخله ارتياح عميق ٠ لو أنه كانت هناك جريمة بالفعل ، فليس هو وحده المطالب بالدفاع : الزوجة والابن ٠ والطبيب ٠ ٠

لا ، بل الطبيب وحده المسئول ٠ المسئول الأول ٠ كيف يمكن تصور حدوث الجريمة ؟! ٠ لم يكن الرجل قد مات ، ولكنه استعجل اجراء العملية ليضمن نجاحها ، وليخرج على العالم بمجده العلمى العظيم ٠ ما أبشع المجد لو قام على المؤامرة وعلى القتل ٠ ورأى مشرط الجراح سكينا فى يد جزار ٠ وأحس بقلبه داخل صدره وتتابعت

أنفاسه حتى كادت تتحول الى لهاث · أيمكن أن يكون هذا القلب ثمرة جريمة ؟! ورأى الطبيب يتهاوى من قمة العظمة الى أرض الخديعة والمؤامرة · خدعنا جميعا ! وتذكر مقالة « فهمى عبد الغفار » الذى هاجم العملية من الناحية الدينية ، وهدد كل من اشترك أو ساهم فيها بيوم الحساب · هول الحساب ؟

لا · لا · يجب الا تجرفنى الأفكار الخبيثة السوداء · هناك مصطفى سيف ، الذى هنأ الانسانية كلها على نجاح العملية · نعم ، لن أتشكك ياشوقى أكثر من هذا · ونظر الى الفتى · كان قد جفت دموعه ، وأحس به سندا قويا يستند اليه · وود لو يضمه بحنان ·· لسوف أساعدك ياشوقى ، حتى لو لم أعد الى هذا البيت مرة أخرى ، فسآخذ وعدا من مصطفى سيف ليساعدك على النشر · ونظر الى الزوجة ، كانت دموعها قد كفت عن السقوط · وعاودها شموخ الحزن · عيناها بحران من الحزن العميق ، ولكن منهما أيضا يمكن أن تهب العواصف ، فتغرق السفن والمراكب وتهوى الى ظلمة القيعان ·

« من أنت · قولى بربك من أنت · كيف تزوجته · وكيف كانت حياتكما معا ؟!

و ·· وكيف فعلا طاوعك قلبك على أن توافقى الطبيب على نقل قلب زوجك ؟! الى رجل غريب لا تعرفينه ؟! · لو أن سناء زوجتي كانت قد وضعت فى نفس الموقف ، وطلب منها نفس الطبيب أن توافق على نزع قلبى لتمنحه لرجل آخر · أى رجل · أكانت ستقبل ؟! لا · سناء لا تفعلها ولا أى امرأة أخرى · أمن هنا ينبع الشك ؟! أم فى المسألة سر لا يعرفه غير البنت ؟!

لا ·· لا ·· هذا الملاك الأبيض لا يمكن أن يفيض عنه غير الحب، وتملكه حنين جارف اليها ، أن يمسح من على خديها آثار الدموع ·

أنت · يا أنت · يامن لا مثيل لك وسط النساء على الاطلاق ، ولا حتى بين الرجال · وتنبه الى فنجان القهوة ·

كان قد برد تماما ··

يجب أن يشربه · يجب أن تراه وهو يشرب مشروبها ، قال بصوت واهن مرهق :

ــ متشكر يامدام على القهوة ··

وجاهدت لتبتسم له ·

وشرب الفنجان البارد دفعة واحدة ·

وكرر · ·

ــ الف شكر ·· الف شكر ··

واسرع شوقى وتناول منه الفنجان ، وحل على الثلاثة وعلى الشرفة صمت عميق ، ثقيل · اى كلام يمكن أن يقال · واحس ببوادر الدوامة · فجأة ، امتلأ الجو بصوت طائرة كانت تمر من فوق المنزل · واصابه اضطراب عظيم · واختلس نظرة من الاثنين · لم يبد على وجهيهما اى أثر لصوت الطائرة · وتذكر بسرعة أن مطار القاهرة الدولى قريب · وتخيل الطائرة ، مع ابتعاد صوتها ، راحلة بمن فيها الى بلاد مجهولة · الرحيل · الفراق · الموت · الدوامة تعود · لا · ·· لا لم أعد قادرا ·

واستجمع كل شجاعته · ومد يده بالسلام · وحين أخذ يدها فى يده للحظة ، احس أنه لابد من عودة الى هذا البيت · هذا البيت يجب أن يتبدد عنه الحزن · فهل أستطيع ؟! وعاوده وجه « عزة » · فاسرع كالهارب بالخروج ··

- ١٣ -

وهكذا ، لم تطل مرحلة الطفولة البكر السعيدة فى عمر الرجل الذى عاد الى الحياة بقلب سليم·كانت الشوارع قد شرع يحل عليها الظلام ، حين ركب عربته وانطلق بها مغادرا « عين شمس » ·

لم يكن يدرى الى أين ينطلق · وخطر له أن يذهب الى زوجته سناء ويحيى البدرى عند أمهما لكنه أحس بنفور من جو البيت ·· فضلا عن أنه لم يحدد بعد ، اذا كان سيقول لسناء ما حدث فى هذه الزيارة أم يؤجل الكلام الى وقت آخر · كان يقود العربة بسرعة ، والمرئيات أمامه فى العتمة مهتزة وغير واضحة بالتحديد · وقال فى نفسه : لو كان معى الآن يحيى البدرى ، لقاد هو العربة ، وتفرغت انا للتفكير فيما يجب ان افعله · ولكن لا · يجب ان أعتمد على نفسي من الآن · ثم اننى لا يصح أن أشغل « يحيى » فى موضوع كهذا ·· يجب ان يتفرغ هو للمصنع · لقد أعطانى فرصة الذهاب الى المصيف· اى اصطياف وأنا في هذا الهم الشديد · لن أترك القاهرة الا بعد

أن أنتهى من هذه المشكلة ٠ ولكن كيف سأنتهى منها ؟ ليس أمامى غير الطبيب ٠ ولكن ، هل أنا حقا قادر على مواجهة الطبيب ٠ أن ألقى فى وجهه بالاتهام الرهيب « لست طبيبا ٠ أنت قاتل » ٠ أهذا هو الجزاء ٠ وأحس بالتضاؤل أمام الطبيب ٠ وافترض أنه قال لك « نعم ٠ لم يكن الرجل قد مات نهائيا ٠ هل هذا يؤذيك ؟ ارقد اذن لأنزع عنك قلبه ، وأعيد لك القلب القديم ! » ٠

وأحس بدوار ٠ حدثت فى عينيه زغللة شديدة ، وفجأة ، وجد نفسه ــ بسرعة غريزية ، وبكل ما أوتى من قوة ، يضغط على الفرملة حتى ان السيارة انحرفت برد الفعل الى اليمين وكادت تدخل فى الرصيف ٠ ومرقت العربة الضخمة القادمة بسرعة مجنونة ٠ وبدا للحظة كالمذهول ٠ تفادى اصطداما مروعا كان سيطيح بالعربتين ٠ وأحس والعربة واقفة بدقات قلبه تعلو كالطبل وبدمائه وقد هربت منه ٠ نجا من الموت بأعجوبة ورأى بعض الناس وقد هرعوا جريا فى اتجاه عربته ، ليروا هذا الرجل الذى نجا من الموت بأعجوبة ٠٠ وداخله الخوف ، أن يعرفه أحد ، ويتكرر بشكل آخر ما حدث فى شارع الأزهر ٠ وانطلق بعربته وقد انتابه شعور جارف بالخطر ٠٠ وتمثل وجه « عزة » أحس بكره شديد لها ٠ كانت هذه البنت ستكون سببا فى قتلى ٠ أهذا هو لون العقاب الذى يرضيها ، انتقاما لأبيها ، اقتل أنا الآخر ؟! ٠ لا ٠٠ ٠(وتنبه جيداً للطريق ولحركة المرور) أنا لم أعد للحياة لكى أجد فى انتظارى الآلام والعذاب ٠ لن أذهب الى هذا البيت مرة أخرى ٠ قمت بالواجب ٠ شكرتهم وانتهى الأمر ٠

ولاح الوجه الأبيض وسط طرحة الحداد السوداء ٠ « هكذا تهرب بنفسك بسرعة ٠ تتركنى وحدى أحمل عبء الاتهام ٠٠ ؟ ! » وانضم الى وجهها وجه الابن ٠ لقد استقبله شوقى استقبالا لم يكن

يحلم به · أهكذا يتخلى بسرعة عنه · ووعده بمساعدته عند مصطفى سيف ؟! أذهب الى مصطفى سيف · وأحكى له ما حدث ، ويعطينى رأيه ·· و ·· ولكن من يضمن أن مصطفى سيف عاد من الاسكندرية طلبته لأشكره على مقالته عنى · فقالوا : انه فى الاسكندرية · ماذا سيقول مصطفى سيف حين يسمع ما حدث ·· ؟! لقد اعتبرنى رمزا لاجتياز النكسة · وأحمد زهران ـ كان يهنئنى باعتبار القلب الذى بداخلى هو قلب الشعب · كل هذا سينهار لو كان قائما على مؤامرة قتل ·

أفتيانى يا أساتذة السياسة · قل لى يا أحمد يازهران · كيف أتصرف فى هذا الموقف ؟! كيف يتصرف قلب الشعب اذا أدرك أنه انتقل من صاحبه على أساس جريمة قتل · هل يظل كما هو ، قلب الشعب ؟! ··

وتوهج فى عينيه ضوء كشاف لعربة ضخمة · ركز كل أعصابه على عجلة القيادة وعلى الطريق · ومرقت العربة · كان نهر من العربات رائحة غادية · وكان قد دخل القاهرة · ظل ماضيا ·· وقال فى نفسه · لو أننا بالنهار ، لكنت قد مررت على صلاح عبد الهادى فى محله · ولكن ، هل علاقتى بالحاج صلاح تسمح بأن أقول له هذا الموضوع ؟ ! لنفترض أن الرجل فتح لى صدره · ماذا سيكون حكمه ؟! انه مثقف ، والتاجر الوحيد فى الأزهر الذى يحمل ليسانس حقوق ومع ذلك ، فأنا أخشى ـ بميوله الدينية ، أن يبذر فى نفسى بذور الشك فى المعجزة العلمية !

أذهب الى أحمد زهران ، فى مكتبه · وحتى ان وجدته مشغولا فسأجلس فى صمت وهدوء ، حتى يفرغ من عمله ·

كان يحس بالحاجة الى انسان يحتمى فيه ·

* * *

بعد قليل ، وجد نفسه يقف بعربته أمام العمارة التى بها مكتب أحمد زهران · ورأى حجرة المكتب مضاءة ففرح جدا · وتفاءل · قفل العربة ، وصعد بالأسانسير الى الدور الرابع واستراح الى أنه وحيد فى الأسانسير ، هذا المصعد ياما ركبه كثيرا · كان يود أن تكون أول زيارة لزهران بعد العملية ، مبهجة وخفيفة على النفس · على كل حال ، لن يلقى عليه بهمه الا فى الوقت المناسب ·

وتوقف المصعد · كان الباب مفتوحا · ودخل الى الصالة ·· نفس الأثاث القديم·خطوتان ثم توقف·هل يدخل مباشرةعلىزهران فى المكتب ام ينتظر حتى يظهر الفراش ويطلب ابلاغه بوجوده ؟ وسمع فجأة صوت أحمد زهران · عاليا يتكلم باحتداد وحرارة ·

ـ هى دى القضية النهارده يامصطفى ياسيف ··

مصطفى سيف ·· ؟ وأوشك أن يقفز من الفرح · لكنه تمالك نفسه وراح يصغى فى انتظار أن يسمع صوت مصطفى سيف ، لكن زهران كان ماضيا فى الكلام بنفس الحماس ، ونفس الانفعال « صحيح أنت تعرضت لها فى مقالتك عن عملية نقل القلب ، لكن من بعيد وبشكل رمزى : ان الأمة عايزة قلب جديد ·· كلام جميل ، لكنه فى النهاية تعبير فنان · اسمح لى أكلمك بصراحة يامصطفى · زمن الكتابة بالرمزيات انتهى ·· لازم من النهارده النقط تتحط على الحروف بشجاعة وصراحة ووضوح · الاشتراكية النهاردة عشان تستمر لابد لها من حزب ·· حزب ثورى بأفراد مؤمنين عقائديين ، مناضلين ، هو ده التجسـيد الحقيقى للقلب الجديد اللى محتاجاه مصـر ·

دى العملية الكبيرة اللى عايزينها تنجح بصحيح (اذا فهو لا يهتم بعمليتى ٠٠)

ـ سيف يسأل بجدية : قصدك حزب شيوعى ؟!

ـ ليه لا ٠ ومع ذلك مش مهم الاسم ٠٠

ـ وافرض الاخوان طلعوا وقالوا لك احنا كمان عـــايزين حزب ؟!

ـ يعملوا حزب ٠٠ أحسن للبلد أنهم يطلعوا من تحت الأرض والناس تعرفهم على حقيقتهم ٠ أنا واثق أن التطور تجاوزهم من زمان ٠

ـ أنت بتبالغ يازهران ٠ أنا ضد اعطاء الحرية النهاردة لأى عناصر يمينية باســـم الديمقراطية ٠ ومع ذلك اذا كانت اليمينية النهارده خطر ، فاليسارية أخطر وأخطر ٠٠ التجمع النهاردة لازم يبقى الشعار ، بس تجمع مين ؟؟ كل الاشـــتراكيين والديمقراطيين الثوريين ٠٠

ما الحكاية ؟!

كان ثمة دوار يزحف رويدا رويدا الى رأس كمال أدهم ٠ وهو يستمع الى حوار صديقيه ، ثم بعد قليل لم يعد يسمع غير كلمات متناثرة ، لقد كانت ثمة غمامة تغشى فكره وعينيه بالتدريج ٠ وقال فى نفسه : أى عالم هذا الذى يتحدثون فيه ؟؟ ٠ لا ٠ لن أبوح لهم

بمشكلتى . لسوف يصفها احمد زهران بانها مشكلة فردية تافهة . انهم يتكلمون على نطاق البلد كلها والمستقبل . أما أنا . أنا غريب . وحيد . انا دائخ . أنفاسى تضيق . سأخرج من غير أن يحسوا بى . واستدار ليخرج ، لكنه أحس بنفسه يكاد يترنح . أسرع يمسك بأحد المقاعد .

وفجأة سقط مغشيا عليه ..

- ١٤ -

شيء صغير جدا ، لكنه منشع وثاقب وعنيد ، ظل يقظا فى كمال أدهم ·

وبجزء الحياة هذا ، الصغير جدا ، كان كمال يقاوم الاحساس بالموت ببسالة ، وكان يقول فى نفسه وهو يصارع : لا · لن أموت · يجب أن أظل حيا ، كيف فكرت لحظة فى طلب الموت · الحياة شيء عظيم · أيها القلب الذى أعاد الى الحياة ، أحفظها لى · أم أنك ستكون سببا فى الموت ، كما كنت سببا فى الحياة ·

وكانت مناقشات أحمد زهران ومصطفى سيف لاتزال دائرة ، يتكلمان بحماس ، وأصواتهما تصل الى سمعه من داخل حجرة مكتب زهران · يسمعها كمن كان فى حلم سحيق ، وكان يتشبث بأنه يسمع وكان يجعل من قدرته على السمع والتقاط الكلمات مقياسا لاستمراره فى الحياة · وكانت بعض الكلمات تأتيه أحيانا واضحة ، فيدرك أنهما لايزالان يتكلمان فى نفس الموضوع · ثم تلوح الغيوم من جديد،

زاحفة لتحجب الجزء المشع فيه ، وتتحول الكلمات فى سمعه الى همهمات ، فيصرخ عليهما مناديا : أحمد زهران · مصطفى ياسيف · كفا عن النقاش الآن ، بجانبكما انسان يموت ، القلب الجديد ياسيف ، القلب الذى اعتبرته رمزا لاجتياز النكسة ، سينتكس · القلب الجديد سينتهى · سيموت · أسمعانى : ياسيف ·· يازهران ·

لكن نداءاته كانت خرساء بلا صوت ، مثل الواقع تحت ضغط كابوس ، ويتشبث بمسند المقعد الملقى عليه · يرتفع وينخفض ، لكن الجزء المشع فيه ، كان يواصل المقاومة : يجب أن أعيش · لابد أن أعيش ··

وكان جزء اليقظة الواعى فيه يكبر ويكبر ، ويمضى مشعا على مهل ، وكلام زهران وسيف يأتيه أكثر وضوحا وترابطا : تكلم ياسيف تكلم يازهران · أى كلام · يكفى أنى أسمعكما ·

مصطفى سيف يتكلم ·

ـ الطريق الوحيد يازهران هو التجمع الثورى · كل الذين ساهموا فى المعركة · الذين شككوا فى اجتياز النكسة ، لا · يجب كشفهم من الآن وبقوة ·

أحمد زهران يقول :

ـ لابد من تقرير حق سحب الثقة من اى مرشح تثبت عدم كفاءته ، حتى لو نجح فى الانتخابات ، هذا هو الضمان ·

أى عالم هذا الذى تتحدثون عنه ·

من الذى يحلم ؟! أنا · أم أنتم ؟! ريقى جاف · قليل من الماء يازهران · لو أستطيع الوقوف · فلأجرب ·

وأحس بأنفاسه تهدأ وتنتظم ، والدوار يخف وينقشع · وجرب النهوض من على المقعد ووجد نفسه يقف ببساطة · راح الدوار ·· وأحس بسعادة تغمره · وداخلته ثقة كبيرة فى النفس انه قاوم وحده ، وانتصر وحده · وراح يمسح على وجهه بكلتا يديه · « ما هذا الذى حدث لى ؟ أزمـة قلبية ؟ لا ·· أنا أعرف أزمة القلب · لم يكن ثمة اختناق · كان دوارا · ووضع يده على قلبه · دقاته عادية · ربما هى مسرعة بعض الشىء · هذا طبيعى نتيجة لما حدث · كان القلب يقاوم معى · قلبك سليم يا كمال · لم يعد سببا فى الأزمات · بل أصبح عنصر مقاومة · لا يزالا يتناقشان · حمدا لله أنكما لم تريانى مرميا على المقعد · أنا الآن أجلس بارادتى · أستريح أم أفر بسرعة قبل أن يرانى أحد ؟

وخاف من الخروج وحده ، ومن البقاء وحده · فلأدخل عليهما ·· على الأقل أرى مصطفى سيف · لن أخبرهما بما حدث ·

وسار بثبات الى الحجرة ·

ما ان رآه الاثنان ، حتى صاحا بدهشة وفى نفس واحد ··

ــ كمال أدهم · مش معقول ·

وقفز نحوه مصطفى سيف · بكلتا ذراعيه أهلا · أهلا · ومضى يحتضنه ويقبله بحب وحنان · ويقول معتذرا عن عدم لقائه حتى الآن ··

ــ على فكرة أنا كنت مسافر لسه جاى النهاردة من اسكندرية · وأول ما وصلت كلمتك فى البيت ، مالقيتش حد على الاطلاق ··

لازلت رقيقا ·· وانسانا طيبا ياسيف ، زاد الشيب فى شعرك ·

وقال كمال :

ـ آه فعلا ٠٠ كنا فى مشوار ٠٠ ازيك يامصطفى ٠٠ انا متشكر جدا على المقالة بتاعتك ٠٠ جميلة جدا ٠

ـ ولا جميلة ولا حاجة ٠ تصور كنا بنتناقش فيها انا واحمد زهران من شوية ٠٠

وغمغم كمال : آه ٠٠

وقال زهران وهو يشد على يده وقد لاحظ شروده ، وارهاق وجهه ٠٠

ـ ايه ياكمال ٠٠ مالك ؟ ٠٠

ـ ابدا ٠٠ ولا حاجة ٠٠ كنت فايت لقيت نورك مولع قلت أطلع اشوفك ٠ (ونظر الى سيف) مفاجأة عظيمة انى لقيتك ٠٠

وقال سيف : وهو يحتضن كفه بحرارة :

ـ انا اللى سعيد جدا بالمفاجأة دى يا كمال .(وجذبه من ذراعه) تعال هنا جنبى ٠ واحشنى ما تتصورش أد ايه ٠٠

وجلس بجواره ٠٠

كان سيف يتأمله جيدا ، فى فرح طفلى ٠ وقال له زهران باسما وهو يضع يده على قلبه ٠٠

ـ ازيك ؟ حديد ؟ ٠

ـ الحمد لله ٠٠

كان يقاوم انفعالاته بشدة ٠ وقال لزهران ٠٠

ـ عايز كوباية ميه لو سمحت ٠٠

ـ بس كده ٠ ياسلام ٠٠

ونهض مسرعا الى الخارج ··

وعاد مصطفى سيف يربت عليه بحنان ··

ـ قوللى · ايه أخبارك ياكمال ؟ ··

أخبارى لا تسر ياسيف · لن تسرك أنت بالذات · قد تجعلك تتراجع في مقالك ·

وتنهد :

ـ الحمد لله ·· أخبارى مش بطالة · كنت عايز أقعد معاك شوية ·· ضرورى ··

ـ وأنا كمان · نفسى أقعد قعدة معاك طويلة ·· طويلة ·· وتحكى لى ··

وأسرع كمال :

ـ بس مش الليلة ·· الليلة مش حاقدر أسهر ··

ـ وأنا كمان · عند مقالة عايز اكتبها الليلة · نتقابل بكرة زى دلوقت ، عندك فى البيت « وابتسم » مازرتكش فى البيت بعد ما خرجت من المستشفى ··

ـ اتفقنا ··

ـ وأحمد ييجى معاك ··

كان زهران لحظتها داخلا بكوب الماء ، بقامته الطويلة ، حذرا من أن ينسكب منه الماء ، ومعتذرا عن عدم وجود الفراش ··

وقال مصطفى ضاحكا ، ومبسطا الوضع ·

ـ ياسيدى هو كمال ادهم غريب ·· ايه رأيك تيجى معايا بكرة زى دلوقت ، نزور كمال فى بيته ··

قال زهران وهو يمد يده بالكوب لكمال ··

ـ ما أنا قايل لك ·· بكرة زى دلوقت حابقى مشغول · عندى اجتماع فى النقابة عشان موضوع الترشيح ·· (ونظر الى كمال معتـــذرا) كان ياريت ، انا نفسى أبقى مع كمال اليومــين دول باستمرار ··

وقال كمال متأثرا بكلماته وعواطفه :

ـ معلهش يا أحمد · ما أنت قمت بالواجب وأكتر ·· أشوفك وقت تانى · تيجى أنت لوحدك يامصطفى · منتظرك بكرة زى دلوقت ·

ـ ماشى كلامك ··

وشرب كوب الماء دفعة واحدة · أحس بالانتعاش والارتواء · يستطيع الآن أن يجلس على راحته · أو ينصرف · أجمل مكان الآن فى العالم ، هو سريرى ، اخلع ملابسى · وأتمدد وأنام · دون أى كلام ·

وقال مصطفى سيف وهو يربت على ظهره :

ـ والله لك وحشة يا كمال يا ادهم ··

قال زهران متحمسا : على فكرة كويس انك جيت دلوقت ياكمال ·· فيه شوية ناس جايين دلوقت عشان الانتخابات · فرصة تشوف الجو ده وتتفرج عليه ··

بسط كمال يده معترضا على الفور « لا يا أحمد ·· ارجوك مش عايز اقابل حد الليلة · انا لسه مافقتش ·· و ··

، وأعفاه مصطفى سيف من أن يكمل ..

ـ صحيح يازهران . الراجل لسه مافتحش عينيه على الدنيا (وضحك) رفقا .. رفقا بالقلب الجديد !!

قال زهران موافقا وضاحكا :

ـ رفقا بالقوارير ..

ـ أستأذن بقى ..

قالها كمال فجأة وبشكل حاسم ، ومد يده للاثنين ..

قال زهران مسترسلا فى ضحكته ، ومداعبته :

ـ الله .. ومالك خايف كده ليه من الناس . بيجوا وقت ما بيجوا . وتنزل وقت ما تحب تنزل .. مالكش شأن بهم ..

قال كمال ولم يستطع أن يشارك فى المداعبة :

ـ لأ معلهش . وأصلى كمان عايز أنام بدرى . عشان أستريح .

ـ خلاص يازهران . سيبه ينزل .. ايه رأيك يا كمال ، آجى أوصلك لغاية البيت ؟ أوشك أن يقول له نعم « « ياريت » .

لكنه تذكر هم المقالة التى تنتظره ، ولابد أن يكتبها . فضلا عن انه يريد أن يخلو لنفسه ..

ـ متشكر أوى يا مصطفى .. (مد يده يسلم) المشوار بسيط مش مستاهل . بكرة زى دلوقت فى انتظارك .. وانت يا أحمد .. اشوفك قريب باذن الله ..

وخرج الى الشارع .

كانت مغامرة منه أن يقود العربة وحده من جديد · لكنه وجد نفسه بعد قليل يقترب من بيته · وحين توقف بالعربة أمام البيت ·· وجد أن نوافذ شقته لاتزال مغلقة لا يصدر عنها أى ضوء · فأدرك أن سناء لم تعد بعد من بيت أمها · وأحس بارتياح شديد ·· الوحدة هى أمنيته الوحيدة الآن · أن يستلقى على سريره ، ولو بملابسه · ويأخذه النوم ··

وحـــين فتح الباب ، وجد ركس يندفع نحوه فرحا · أخذه بالحضن ، وقبله فى فتور · ثم تركه ومضى بخطوات واهنة نحو حجرة النوم ·

الكلب يتبعـــه ويشـــب عليه · يريد أن يلعب معه لعبة اللقاء المعهودة ··

وتوقف ، وراح يربت عليه ·· معتذرا ··

ـ لا يا ركس ·· ليس الليلة ·· أنا متعب ·· أنا مهموم ·· أريد أن أنسى همى ، وأنام · تريد أن تعرف همى ··لو أنك تفهم الكلام ، لكنت أنت الوحيد الذى بحت له · هل تذكر ياركس ليلة لقائنا الأولى ، بعد الخروج من المستشفى · كنا فرحين بمعجزة العودة الى الحياة كنا كطفلين صغيرين · لم أكن أعرف ليلتها ما يعده لى القدر ، هكذا بسرعة ؟! هل تتصور ياركس ، أن الرجل لم يكن قد مات · وأن شفائى بهذا القلب ،جاء نتيجة جريمة قتل ؟! عزة تقول هذا يا ركس ·· كيف أقنعها · وبأى شىء أقنعها · أنا لست واثقا من أى شىء ·· أنا متعب ياركس ·· متعب وأريد أن أنام · قبل أن تأتى سناء · وتسألنى » ·

وكأنما الكلب قد أحس بنغمة الحزن فى صوته ،فراح يزوم هو الآخر بصوت حزين · لن يريحني ياركس غير الطبيب · ولكن ياركس

افترض أنه يعرف أن الرجل لم يكن قد مات ، هل سيقول لى الحقيقة ٠ وافرض أنه قال الحقيقة : نعم ٠ مات مقتولا ٠ ما الذى تنوى عمله ٠٠ ماذا سيكون الموقف ياركس ؟!

وهز راسه بشدة ٠ أحس بغشاوة توشك أن تحتل عقله ٠٠ لا ٠ لا ٠٠ لن أفكر فى أى شىء الليلة ٠ أنا متعب ٠٠ متعب ٠٠ قلبى تسرع دقاته ٠ وتنبه الى أنه ٠٠ كأنما يلهث ٠ أهى بداية نوبة ؟ وأسرعت أنفاسه ٠٠

وخلع حذاءه وبدلته ٠ وصعد الى سريره وتمدد ٠ أحس باجهاد اليوم يحل فى جسده وأطرافه ٠ لو يسرقنى النوم من نفسى فى لحظة ٠٠

سمع فجأة صوت المفتاح يدور فى باب الشقة ، جاءت سناء ٠٠

ـ انا نائم ٠٠ مستغرق فى النوم ٠٠

واغمض عينيه ٠٠

وسمع دقات كعب حذائها تقترب ، وتعلو ٠ وتخيلها تجرى نحو الحجرة ملهوفة عليه ٠٠

ـ مساء الخير ياكمال ٠٠

ولم يرد ٠٠ جاهد الا تصدر عن جسمه أى حركة ٠٠

وعاودت النداء بصوت أقل خفوتا ، وقد فوجئت بالوضع ٠

ـ كمال ٠٠ كمال ٠٠ ٠

انا غارق فى النوم ياسناء ٠٠ غارق ٠٠ من حقى أنا انام ليلة دون أن أجلس أو اتحدث معك ٠٠ ارحمينى ٠٠ ارجوك ٠٠

وبان على وجهها خيبة أمل ..

ووجدت نفسها وحيدة ، برغم وجوده معها . هل ستقضى بقية الليلة هكذا وحدها ..كانت واقفة متسمرة فى مكانها ، وراحت ترقب وجهه ، وأنفاسه . وراعها فجاة ، صفرة وجهه ، وثمة هالة داكنة حول العينين . وأسرعت أنفاسها . ترى ، ماذا حدث فى الزيارة ؟! كان لابد أن ينتظرنى . أو على الأقل يتصل بى عند أمى . يسأل عنها ، ويحكى لى ما حدث . أو .. يقول لى انه عاد ؟

وصدرت عنه حركة لا ارادية ، فأسرعت تنادى بصوت خافت ، على أمل ..

ـ كمال .. كمال ..

ـ وغمغم : هه ؟

ـ اصح يا كمال .. انا جيت ..

ـ وصدرت عنه همهمات ...

اصرت .. قالت بصوت عال ومتوتر :

ـ قوم اقعد معاى شوية .. احنا لسه بدرى .

ـ مش قادر .. عايز أنام .. تعبان .. تعبان ..

قالها بصوت مجهد يائس ، مس قلبها فعلا ، غير أنها تأكدت أنه لم يكن قد ذهب فى النوم . انه يتهرب منها . ومصر على الهروب ما الذى حدث .. لابد أن شيئا ما حدث فى الزيارة . وفجأة ، لاح أمامها وجه الزوجة . الوجه الأبيض الغامض الحزين . ما الذى فعلته بزوجي أيتها المرأة ؟!

وعادت تنظر اليه · ترقب انفاسه · صدره الذى يعلو ويهبط هل حركت القلب الذى وهبته له ؟ أم أن القلب هو الذى تحرك من تلقاء نفسه حين رآك ؟! عاد القلب الى صاحبته ؟ وقفز أمامها فجأة وجه الصحفى الشقى · محرر مجلة أضواء الليل · شامتا وساخرا ومقهقها « الم أقل لك ياست سناء · جئت يومها احذرك ، فلممت على الناس · كانوا سيقتلوننى · ها هو القلب يعود الى صاحبته ·· عبثا تحاولين » ··

وأحست برغبة فى البكاء تكاد تخنقها · وودت لو تهجم عليه ، وتشده من ثيابه ، وتوقظه · « قل لى · ما الذى حدث · حرام عليك أن تتركنى هكذا · لن أرى النوم الليلة ، اصح ياكمال » ··

لكن أنفاسه كانت قد ازدادت انتظاما وثباتا ·

استغرقه النوم بالفعل ··

وبقيت وحدها · ليس معها غير « ركس » ·

ـ تعال معى ياركس ، نجلس فى الفراندة ·

واطفأت عليه نور الحجرة ، واتجهت وركس يتبعها فى هدوء الى الشرفة · استندت الى السياج ، وراحت تنظر فى الظلام · كانت أنوار « مصر الجديدة » تبرق من بعيد وتخيلت ضاحية « عين شمس » والبيت كما وصفه لها « يحيى » بعد أن عاد بالموعد : بيت صغير وله سور وفراندة ، وأمام الفراندة تكعيبة عنب وشجرتان · وعاودها وجه المرأة الأبيض : أنا سمراء ، ثياب الحداد تعطيها نفوذا أكثر عليه · وبالطبع بكت أمامه ، فاهتز كمال · اهتز القلب · ورآته ، دون أن يملك نفسه ، يمسح على أحزانها · وجه الصحفي يقهقه ساخرا فى الظلام ··

لا .. لا ..

واستحضرت وجه الطبيب ، وكلماته « مسئوليتك كبيرة.يامدام . أنت أكبر من كده بكثير .. انا كلى ثقة فيك » .

أى ثقة يا دكتور « تخال وانظر حاله من أول زيارة » ..

وتركت الفراندة . هاربة من أشباح الظلام . وراحت تدور حول نفسها فى الصالة . هل تخلع ملابسها وتنام . هل تجلس وتفكر فى هدوء . هل تمسك كتابا وتهرب بالقراءة فيه ؟! ووقعت عيناها على حوض السمك . والأسماك السابحة فى الضوء ..

— رنت فى أذنيها كلماته الملهوفة يوم الخروج من المستشفى ..

— والسمك ياسناء .. ما ولدش ؟!

وزفرت فى مرارة ، مع نفسها ..

— قريبا ياكمال سيلد . أعداد كبيرة منها بطنها منتفخ . كل الناس . كل الكائنات تلد . الا أنا « وأمسكت بطنها بيديها » أيتها الأرض المجدبة . متى تنبتين . متى يخرج منك الزرع ؟!

وسقطت من عينيها الدموع . ورأت « ركس » يقترب منها ويتمسح فيها « لو كان لدينا أولاد . ولد واحد . بنت واحدة . لتغير كل شىء . الى متى سيستطيع الحياة بلا أولاد ؟!

وراحت تربت على ركس فى مرارة وحنان . فجأة لاحت لها المرآة الأخرى ، ومن حولها الأولاد . وكمال أدهم جالس معهم . يشبع حرمانه الطويل ، ويتسامر .. ويضحك ..

أب جديد ، لم لا ؟!

وانتفضت من جلستها فى تعاسة ..

وفى تعاسة أيضا ، خلعت ملابسها ، وارتدت قميص النوم ، وفى هدوء شديد صعدت الى السرير ، وتمددت بجواره · وتسمعت أنفاسه، كان غارقا فى نوم عميق · لا يحس بها ·

ولأول مرة ، منذ أن خرج من المستشفى ، وجدت رأسها تستند على الوسادة ، وليس على ذراعه كما عودها · كيانان منفصلان : لم يحدث هذا ياسناء الا بعد أن ذهب اليها · أمنْ أول لقاء ؟!

وعبثا حاولت أن تقاوم الهواجس · كانت أشواك الشك تنمو وتترعرع فى ظلام الليل وصمته · ولم يوقف نموها سوى أضواء الفجر الأولى ، وديك يؤذن ·

وسقطت فجأة ، من التعب ، فى جب النوم !!

- ١٥ -

رأى كمال ادهم فيما يرى النائم حلما غريبا ٠

رأى نفسه فى المصيف ٠ يمشى على شاطىء البحر ويضرب الماء سعيدا بقدميه ، وفيما هو يضحك فرحا برشاش الماء المتناثر سمع فجاة صرخات تنبعث من قلب البحر ٠ ونظر فاذا بالرجل الذى مات واخذ قلبه هو الذى يصرخ مستغيثا ٠٠

ــ الحقونى ٠٠ نجده ٠٠ انقاذ ٠٠

وروعه منظر وجهه ٠ كان يشخب دما ٠ وكان الرجل يغوص فى الماء لحظة ثم يبرز من جديد ، ويعاود صرخات الاستغاثة ووجهه لايزال ينزف دما ٠ يا الهى : كل مياه البحر ولا تغسل وجهه من الدم ٠٠

ــ الحقونى ٠٠ الحقونى ٠٠ النجدة النجدة ٠

وكان كمال ادهم يقول فى نفسه امام منظر الغريق الذى يستنجد

به : ولكنى لا أعرف العوم جيدا ، لو نزلت لأنقذه سأغرق · الرجل لايزال يصرخ مستغيثا ·

ـ الحقينى ياعزة ·· الحقينى ياعزة ··

والتفت كمال الى يمينه ، فوجد عزة واقفة هى الأخرى على الشاطىء تصرخ :

ـ بابا ·· بابا ·· بابا توفيق بابا توفيق الشريف (وتتوجه بنظرات ضارعة الى كمال) انزل وأنقذه يا أستاذ كمال انزل ·· انزل بسرعة · وقفز كمال · ألقى بنفسه فى البحر وراح يسبح والرجل يصرخ عليه : بسرعة ·· بسرعة ··

وكلما كان يقترب منه ، كان يجد ملامح الوجه ·برغم الدماء النازفة تتغير ، وتأخذ أحيانا شكل الطبيب وتعود صرخات الاستغاثة : النجدة النجدة ··

لا ·· انه الرجل ··

ـ بابا توفيق ·· بابا توفيق ··

وحين اقترب منه لم يجده · لم يجد غير بقعة من الدماء ·· ثابتة برغم اندفاع الأمواج أين أنت ·· أين أنت ··

ولا صوت غير صوت الرياح وصوت الموج · ونظر الى الشاطىء الى عزة ·· فرآها نقطة صغيرة على الشاطىء البعيد ··

كيف سأعود · لن أستطيع العودة · أنا لا أعرف السباحة ··

ورأى بقعة الدم وقد تحولت فجأة الى صخرة ثابتة بارزة فى قلب البحر ، وهو واقف عليها ··

الحمد لله · الحمد لله ، لن أغرق · لن أغرق ــ ولكن ·· (ونظر الى الماء المحيط به من كل جانب · والشاطىء البعيد) كيف سأعود كيف سأقطع كل هذه المسافة · الأمواج تعلو وترتفع (ورأى الليل يقترب · والوحدة والظلام والرعب · ووحوش البحر) ··

ــ النجدة ·· النجدة ·· أنقذينى ياعزة يايحيى ــ النجدة ياسيف ·· يازهران ·· ياصلاح ياعبد الهادى · يا كل الناس ·· الظلام ·· الظلام ·· واستيقظ على حالة شديدة من الروع · وحين وجد نفسه على سريره وسناء بجواره أدرك أنه كان يحلم ، فالتقط أنفاسه ورأى نور النهار يدخل من خصاص النافذة فنهض على أطراف أصابعه ، ودار دورة في الشقة ، قرر بعدها أن يرتدى ملابسه ، ويخرج وبعد دقائق كان فى الشارع ، يمشى على قدميه · كان الحلم الدموى قد زاد من ايمانه بضرورة حسم الموضوع وبسرعة : لابد فعلا من مقابلة الطبيب · اليوم · بأى شكل من الأشكال !! وكان منظر الوجه النازف دما يعاوده ، وتذكر أن وجه الرجل الميت كان يمتزج بوجه الطبيب وكلاهما يشخب دما · مامعنى هذا ؟! من القاتل ومن المقتول ؟! ما الذى سأقوله للطبيب ؟ لا ·· لا تتردد · الق فى وجهه بالاتهام · واتركه يدافع عن نفسه · عن معجزته ·· آه لو تصفو المعجزة ، وتكون قد خرجت الى العالم غير مشوبة بالدم !

ونظر فى ساعته :

السابعة والنصف صباحا ، قبل التاسعة أو العاشرة لا يمكن الاتصال به · اين أذهب هذه الفترة ! يحيى البدر ى؟! الآن فى بيته البيوت الآن لا · أذهب الى المصنع ؟! لا أريد للعمال أن يرونى بهذا الهم الكبير ··

ومر به تاكسى ، فنادى عليه ركبه ··

ـ لمصر الجديدة يا اسطى ٠

وانطلق به التاكسى ٠ وتنبه الى أن الطريق ، هو نفسه الذى سار فيه بعربته بالأمس ، وهو ذاهب الى الزيارة ٠ وود لو يقول للسائق :

ـ على عين شمس ٠٠

غير أن وجه « عزة » ارتسم له ٠٠ كما رآه فى الحلم ٠ تطلب منه أن ينقذ اباها وعاودته صرخاتها : بابا توفيق ٠٠ بابا توفيق ٠٠ أستاذ كمال ٠٠ انزل بسرعة ٠٠ وأنقذه ٠

وتذكر انه امتثل لرجائها ، وألقى بنفسه فى البحر ، دون أن يعرف العوم ٠٠ ولكنه عام ٠

« لقد سمعت كلامك فورا ياعزة ٠ ألقيت بنفسى فى البحر ، برغم أنى لا أعرف العوم ٠ كان ذلك فى الحلم ٠٠ فى اليقظة أيضا أنا مستعد ٠ اطلبى منى أى طلب ، وسأنفذه على الفور ٠ المهم ترضين تثقين فى !

واستبدت به رغبة فى أن يراها ، وحدها ، ويتكلم معها ٠٠ يرجوها ! ولكن فيم يرجوها ؟ أن تغفر الجريمة ؟ وعاودته بقعة الدم التى ظلت على سطح الماء ثابتة برغم الموج ٠ يا الهى ٠ لقد تحول الدم الى صخرة وقفت عليها وأنقذتنى من الغرق ٠ بينما اختفى الرجل ٠٠

هناك جريمة قتل ٠٠ قتل ٠٠ هذا هو تفسير الحلم ٠

لا ٠٠ لن أستطيع مواجهتها ٠

الطبيب ٠٠ الطبيب ٠٠ لا أمل الا فى لقاء الطبيب ٠٠

ونزل من التاكسى ، ودخل احد المقاهى الهادئة ذات التراس ، وجلس ينظر الى الشارع من ركن بعيد ، وقال فى نفسه : أشرب فنجانا من القهوة · وأقرأ الجرائد · ثم أذهب الى يحيى فى المصنع · أريد أن أتكلم مع أحد ·

وطلب فنجانا من القهوة · ورأى الجرائد الثلاث ، وتذكر فجأة أن مصطفى سيف له مقالة ، وتذكر أيضـــا بنوع من الحماس أن مصطفى سيزوره فى الليل : سأبوح له بكل شىء حتى بالحلم ، وأطلب رأيه · سينزعج بالتأكيد من الاتهام الخطير · لو صح هذا الاتهام فمعناه هدم لمقالته التى كتبها يمجد فيها العملية ·

وداخله نوع من الارتياح : هناك أناس غيره ، من مصلحتهم دفع الاتهام ، وتبرئته ·

وأحس بمصطفى سيف سندا قويا له فى المحنة · ترى ماذا كتب فى مقالة اليوم ؟

وقلب الجريدة على الصفحة الأخيرة · ورأى المقالة على الفور ·

كان عنوانا غريبا : « الثوار ·· والغربان » ماذا يقصـــد بالغربان ؟!

ومضى يقرأ ـ وتذكر مع السطور الأولى · تلك المناقشـــة التى سمع بعضها فى مكتب احمد زهران،قبل أن يغمى عليه،والبعض الآخر وهو يعود الى ادراكه ووعيه :

« ·· أجل أيها الأصدقاء · والتجمع الثورى يجب أن يكون هو شعار المرحلة · كل العناصر التى نؤمن أن لها مصلحة فى استمرار الثورة واندفاعها بعد أن تم التحرير يجب أن تتجمع وبسرعة ، ضمن

أطار مجسد ومشروع ، وببرنامج واضح ومحدد تدخل به معركة الانتخابات · قبل التحرير أيها الأصدقاء والصديقات ، كانت الوحدة الوطنية الشاملة · أما الآن ، وبعد أن تم التحرير بكل هذه التضحيات، واصبحنا ـ باجراء هذه الانتخابات ـ على أعتاب مرحلة سياسية جديدة ، الحكم فيها والقيادة للشعب ، يجب أن ننادى بوحدة من نوع جديد ـ جبهة من كل العناصر الثورية ـ حتى مع اختلاف نسب ثوريتهم · جبهة ترفض بشدة أن تحتوى داخلها على عناصر الثورة المضادة ، هؤلاء الذين ترعبهم مسيرتنا نحو الاشتراكية · انه لشىء يدعو للأسف وللحذر فى نفس الوقت ، أن يكون بيننا ولايزأل أناس وصل بهم التحجر الى الحد الذى يهاجمون معه عملية نقل القلب ، متسترين خلف الدين · هذا الاتجاه المريب للتشكيك فى المعجزة العلمية التى أصبحت وجها رائعا من وجوهنا الحضارية ·

هذه الغربان يجب أن تظل خارج الجبهة · يجب الحذر منها ·

لقد قلنا فيما مضى أيها الأصدقاء والصديقات ان تحرير الأرض ليس هو المشكلة الكبرى · وليس هو الأساس · الأساس هو تحرير أنفسنا وحياتنا من كل ··

ولم يكمل كمال المقالة · مر على بقيتها بسرعة · كان الاستشهاد بعمليته قد انتهى ·

وهاهى دقات قلبه تعلو وتسرع · داهمه خوف شديد · لقد أصبح القلب الجديد محل معركة على صفحات الجرائد · « لا يامصطفى ياسيف ·· لا ·· أرجوك أن تتوقف ـ خفف كثيرا من حماسك هذا ـ هناك اتهام خطير لا يخطر على بالك · هذا الاتهام لو تلقفه خصومك ، لو سمع به « فهمى عبد الغفار » لاستعمله أشنع استعمال · لاداعى لأن تفتح الموضوع أكثر من هذا » ·

ورأى « عزة » تنضم الى جبهة فهمى عبد الغفار ورأى نفسه واقفا مع مصطفى ســـيف والمحاكمة العلنية دائرة ، وهما يدفعان الاتهام ٠

وهز راسه بفزع « ما هذا الذى افكر فيه ؟ ٠ لقد اصبحت افكر وأتصرف على أساس أن الرجل لم يكن قد مات بالفعل ٠ يجب أن اتوقف عن التفكير على هذا النحو حتى اقابل الطبيب واتأكد ٠

وأحس بضيق يأخذ بخناقه فنهض فجأة ٠

ـ امر على يحيى البدرى فى المصنع وأجلس معه ٠ اريد أن اتحدث مع أحد ٠ مع انسان أمين ٠ يحبنى ٠ يسمع كلامى ولا يثرثر به ٠٠

وترك المقهى ونادى على تاكسى ٠٠

ـ شارع الدراسة باريس ٠٠ مصنع القاهرة للنسيج ٠

* * *

على غير ما تصور كمال ادهم كان يحيى البدرى فى المصنع من ساعة مبكرة وكان على حالة شديدة من الاضطراب والقلق ، فقد فوجىء بأن المصنع يواجه موقفا خطيرا ٠ كان موعد سداد احدى الكمبيالات الكبيرة للقطاع العام قد حل : لابد اذن من دفع المبلغ على الفور ٠ ولم يكن يحيى يحمل هم سداد هذه الكمبيالة اذ له فى السوق عند أحد العملاء مبلغ يقارب هذا الدين ، وحل موعد الوفاء ايضا ٠ غير انه فوجىء بهذا العميل يخبره بعدم قدرته على الدفع ، ويطلب ارجاع البضاعة ٠ وكان ذلك لا يعنى فقط عدم قدرته على السداد بل يعنى ايضا عدم القدرة على شراء خامات جديدة يعمل بها المصنع ، فضلا عن تراكم البضاعة المخزونة بلا تصريف !

كان يحيى يفكر بشكل قلق وحاد فى الخروج سريعا من هذا المأزق دون أن يزعج به كمال ٠ وفكر أن يذهب الى صلاح عبد الهادى بالأزهر ويطلب منه أن يشترى الكمية المرتجعة ليسد الدين فى الميعاد ٠ غير أنه تذكر أن الحاج صلاح أخذ كميته المعتادة ، وقد يعتذر ، فالسوق راكدة ورديئة هذه الأيام وصلاح تاجر واع يشم نوع الربح فى السوق من بعيد ، وقد يعتذر ، لاداعى للاحراج ، خصوصا وأن الرجل قد قام بالواجب وأكثر أيام أن كان كمال فى المستشفى ! الآن خرج كمال ، سليما معافى ، والمفروض أن يتقدم لحمل مسئوليات مصنعه ٠ لاداعى لحكاية المصيف هذه ٠ وخطر له أن يكلمه فى البيت ، ويخبره بالمأزق ، لكنه عاد فاستكبر على نفسه الموقف : لا ، لن أخبره بأى شىء ، ان خبرا مثل هذا قد يكون صدمة عليه ، فلأحاول ٠ وعدته أن أواصل حمل المسئولية حتى يأخذ راحته بالتمام وبالكمال ويعود من المصيف ٠ سأذهب الى المؤسسة وأطلب منهم تأجيل تقديم الكمبيالة اسبوعا واحدا ، قد تتعدل فيه الأحوال ، ولو رفضوا ، فسأذهب الى صلاح عبد الهادى ، وأعرض عليه المشكلة ، والظروف ، سيقدر صلاح الموقف بالتأكيد ، وسيدفع لى ثمن البضاعة حتى قبل أن يستلمها هو ، وأسرع بسداد الكمبيالة ، وأشترى الخامات للمصنع ٠٠ !

كان يجلس الى مكتب كمال فى الحجرة العليا ينظر للأنوال الدائرة ، والعمال ، وتخيل لو فشلت محاولاته ٠ لو اعتذر صلاح عبد الهادى ، وتوقفت الأنوال عن الحركة ، والعمال عن العمل ، وقفل المصنع أبوابه حتى يتم الفرج ، ستكون الضربة كبيرة لكمال أدهم بعد الشفاء وقد ينتكس ٠٠ لا ٠٠ لن يرفض صلاح عبد الهادى ٠ يجب ألا يرفض ٠ انه يعمل فى مئات الألوف ولو تبرع بقيمة هذه الكمبيالة لن يختل تل نقوده ٠ صلاح عبد الهادى أصبح قوة

فعلية مسيطرة فى السوق · أصبح فوق المفاجآت والأزمات · وتذكر فجاة وبشىء من الحماس وقد انفتحت له طاقة من الأمل ، انه سمع من البعض أن الحاج صلاح سيرشح نفسه فى الانتخابات واذا كان يقدم خدماته قبل الترشيح ، فان خدماته ستتضاعف لو نزل المعركة · سيحل لى المشكلة بالتاكيد · ونفاءل ··

غير أن شعورا بالكآبة سرعان ما انتابه : ماذا لو طلب صلاح عبد الهادى أن أساعده فى الانتخابات : وابتسم لنفسه ابتسامة ساخرة مرة : شيوعى قديم يساعد رأسماليا كبيرا شهيرا · سيكون هذا هو موقفى فى المعركة ـ الاعلان الصريح بأن كل شىء بالنسبة لك يا يحيى قد انتهى ، وصوت زهران وسيف يلعلع بشعارات الشعب ، والتحذير من اليمين ومن الرجعية · والدعوة الى تجميع الثوريين · وأنا ؟ وأحس بالاختناق ··

ضرب المكتب بيده بشدة وبلا وعى : لا · لن أطلب من صلاح عبد الهادى أى شىء · فليطلب لكمال ، وليحل له الاشكال قبل السفر · ولا حتى السفر ، يجب أن يأتى ويستلم مصنعه ، وليتركنى · أمضى · أريد أن أخرج من هنا · أسافر · أهاجر الى أى بلد · ليس لى شىء هنا أرتبط به ، أو أبكى عليه ··

ودق التليفون فجاة ··

وكانت المفاجاة ··

الحاج صلاح يسأل عن كمال ويريد أن يراه ·

أحس بنوع من الراحة · داخله شعور بان كمال سينهى الاشكال بمعونة صلاح وأشعل سيجارة ، ما هذا الاهتمام الشديد من صلاح عبد الهادى بكمال أدهم ؟! الانتخابات ؟ وخطر له خاطر :

ماذا لو طلب صلاح من كمال أن يدعو له فى معركة الانتخابات؟ يستغل حكاية القلب الجديد · المعجزة العلمية ؟ ووجد نفسه يضحك اذ تذكر كلمات احمد زهران عن « قلب الشعب » ·· هاهاها · أين أنت الآن يازهران · يارجل الشعارات · قلب الشعب سيتجه بالضرورة الى الرأسمالية الكبيرة · وأنت يامصطفى سـيف ، ها هو رمز الانطلاقة واجتيـاز النكسة فى ظرف لمن ينقذه منـه غير قـوة الرأسمالية · أين التجمع الثورى الذى تتكلم عنه ينقذ مصنع كمال من ورطته التى لا يدرى عنها شيئا ؟!

وأفاق على التليفون يدق مرة أخرى · وكانت سناء اخته ، تسأل عن كمال بصوت يخنقه الدموع ، وتذكر أن صلاح عبد الهادى قال انه سأل عنه فى البيت ، ولم يجده فأراد أن يتأكد من اهتمام صلاح ·

ـ ايوه الحاج صلاح عبد الهادى سأل عليه من شوية ·· لكن كان خرج من بدرى · كمال يايحيى فيه حاجة ، من ساعة ما رجع من الزيارة وهو مش طبيعى أبدا · يبقى راح فين دلوقت ؟ مش جايز يكون راح يزورهم تانى ؟!

ورفض أن يوافقها على هذا الاحتمال ، بل وسخف منه ، وراح يطمئنها ، ثم وعدها بالاتصال بها « بمجرد أن يحضر أو يسمع صوته · ووضع السماعة ·

وقبل أن يبدأ فى التفكير أين يمكن أن يكون كمال قد ذهب فى هذا الوقت المبكر ، فوجىء به داخل عليه · قفز من على الكرسى مرحبا ومخليا له مكتبه ، وسلم عليه بحرارة ·

ـ ايه يا دم أنت فين · الدنيا كلها بتسأل عليك ·

وقال كمال فى هدوء وفتور :

ــ مين اللى سأل ؟!

ــ سناء لسه دلوقت كانت بتسأل عليك · وقبلها بشوية صغيرين صلاح عبد الهادى · تيقظ على اسم صلاح عبد الهادى ··

ــ كان عايز حاجة صلاح ؟!

ــ ابدا كان عايز يطمئن على صحتك · (وفكر أن يلقى له فورا بالمشكلة التى تواجه المصنع غير أنه لم يستطع · أزعجه تعبير عينيه · وثمة هم يكسو وجهه) وسأل عليك فى البيت برضه مالقكش ·

وندت عنه زفرة :

ــ حاكلمه دلوقت ·· واشكره ··

ــ وسناء لازم تكلمها فورا ·· احسن قلقانة عليك جدا ··

ولم يعلق بشىء · اتجه الى مكتبه بخطوات بطيئة مرهقة · ثم جلس الى مكتبه · وكان يحيى البدرى يراقب انفعالات وجهه ، وحركة اصابع يديه العصبية وهى تعبث بالأشياء الموضوعة على المكتب بلا أى معنى · واقسم فى نفسه أن شيئا ما ، غير سار ، لابد قد حدث فى الزيارة ، أوشك أن يصيح فيه : لا ياعم كمال · أفق لنفسك ولمصنعك · مصنعك تواجهه مشكلة خطيرة ، تتضاءل بجوارها أى مشكلة اخرى ·

غير ان حزنا عميقا كان يطـــل من عينى كمال · ورأى ثمة غضونا فى الوجه · لم تكن موجودة بالأمس ، وخفق قلبه بالعطف عليه ··

ــ ايه يا كمال ·· مالك مش طبيعى ··

وبزفرة حادة لسعت قلب يحيى ..

ـ أنا تعبان يايحيى . تعبان جدا . مش عارف أعمل ايه ..

ـ فى ايه .. ؟!

ووجده يتفرس فيه ، مرة تغيم نظراته ، ومرة تلمع وتبرق ..

ـ قوللى يايحيى .. ايه معلوماتك عن العملية ؟!

ـ بوغت يحيى بالسؤال . قال بدهشة واستغراب :

ـ عملية ايه ؟!

ـ عملية نقل القلب :

نظر اليه يحيى بحذر يخالطه الاشفاق والقلق ماذا حدث للرجل !

ـ مالها العملية ؟!

ـ أنت متأكد من أن الراجل كان مات .. قبل ما ياخذوا قلبه ، ويعطهولى ؟

تلجلج يحيى فى الرد . كان آخر شىء فى العالم يتصوره .. أى منطقة رهيبة ومخيفة يدخل كمال نفسه فيها .. ووجد يحيى نفسه يتوه هو الآخر ..

ـ مابتردش ليه يايحيى ؟

ـ أرد على أيه ياكمال . وده سؤال تسأله .. طبعا كان مات .

ـ شفته بعينك . وهو ميت .. نهائيا ؟!

ـ لا .. ماشفتوش .. ودى مش شغلتى .. شغلة الدكاترة اللى حاولوا ينقذوه فى القصر العينى بعد ما القطر صدمه .. لكن

مفيش فايدة • الصدمة كانت عنيفة •• فى المخ •• تصور قطر لما يضرب انسان • والضربة تيجى فى المخ • وصل القصر وكان ميت !

جذب كمال نفس ارتياح عميق وناوشه الأمل • عاوده وجه « عزة » • وقال يحيى بفضول حاد :

ـ لكن ليه بتسأل السؤال الغريب ده ؟!

ـ لأن عزة مش راضية تقتنع بأنه مات ، قبل العملية •

ـ عزة مين ؟ ••

ـ عزة •• بنته •• بتعتقد ان عملية نقل القلب هى السبب فى موته •• وان لو ما كانش العملية ، كان ممكن عاش • يعنى مات مقتول •

صاح يحيى محتجا بل ومتضايقا من هذا الاستسلام المروع من كمال أدهم للاتهام •

ـ ده كلام فارغ ياكمال • اسمح لى • شغل بنات صغيرين • احنا مش ناقصين دوامات ندخل فيها •• المصنع محتاجك ياكمال •• لازم ••

ولم يتركه كمال يكمل ••

ـ اسمع يايحيى •• أنا ممكن ما اسألش فى الاتهام ده •• ولا فى البنت ، ممكن أعتبرها بتخرف وأعيش حياتى • لكن (وبدا عليه أنه يتمزق) لكن أنا نفسى عايز أعرف • عايز اطمئن ••

ـ تطمئن على ايه ••

ـ انى ماعشتش على حساب حياة انسان تانى •• أيوه يايحيى

٠٠انا ما رجعتش للحياة عشان أعيش بضمير معذب ، وأشوف انسانة بتتعذب ٠ بسببى ٠ عايز أتأكد ٠٠

قال يحيى وقد تذكر بقية العائلة :

ـ والأم ٠٠ والابن ؟! ايه رأيهم فى الموضوع ؟!

ـ رايهم انه مات ٠ الست قالت لى وهى بتميط انه مات بين ايديها !

ـ يبقى خلاص ٠٠

ـ لا يايحيى ٠ مش خلاص ٠ عايز اشوف البراءة فى عينين البنت ٠ أنا النهاردة ها قابل الدكتور عشان أسأله ٠٠

وبغضب واستنكار شديدين :

ـ تسأله فى ايه ؟!

ـ هل الراجل كان مات ، واللا ما ماتش ؟

وبصوت يختلط فيه التحذير بالغضب :

ـ كمال ٠٠ أنا باحذرك تتصرف التصرف ده ٠٠ أنت تعرف أن الدكتور بيستعد لعملية نقل قلب تانية الأيام دى ؟!

صاح كمال جزعا :

ـ عملية ثانيا ؟ مش معقول ٠٠ مش معقول ٠٠

ـ ومش معقول ليه ؟ فاكر أنه حيقعد على عمليتك دى بس ٠٠ عمليتك كانت بداية ٠٠ مجـــرد بداية ، لازم نجـــاح العملية يعم البشرية كلها ٠

ونظر فى عينيه . كان كمال يعانى من حيرة وتمزق شديدين ولا يعرف بماذا يرد ..

قال يحيى :

ـ اسمع ياكمال . أنا باحذرك ارجوك ، ماتتصلش الأيام دى بالدكتور ، أى اتصال . ومن ناحية عزة ، انا حاقنعها ..

ـ تقنعها بايه ..

ـ بانك برىء . بأن تفكيرها غلط . ولازم تغير تفكيرها ده .

ـ ازاى ؟

ـ زى الناس .. ده شغلى أنا .. (ثم لوح بيد موتعشة تعتصر نفسها) ، بس مش ده المهم دلوقت . المهم مصنعك اللى أنت بتعيش منه .. المصنع عايزك .اليومين دول أنت شخصيا ياكمال .. المصنع فى ورطة ولازم يخرج منها بسرعة .. أنا (وتردد) انا .. انا تعبت ياكمال ..

وكان صوته مختنقا بما يشبه البكاء ..

- ١٦ -

كمن يفيق فجأة ، وعلى آخر لحظة ، انه على وشك السقوط فى هوة واسعة مظلمة ، وبلا قرار ، تنبه كمال ادهم ، كالمصدوم الى الوضع · وكانت عيناه وهو يسمع تفاصيل الأزمة من يحيى البدرى ، مفتوحتين ومرتعبتين · حقا انه ليس جديدا على هذه الأزمات ، ولكن احساسه بها كان تقريبا قد انعدم · كان احساسه بأن الخلاص من ازمة القلب ، معناه الخلاص من ازمات الدنيا · اى ازمة سواها لا قيمة لها · غير أنه حين فوجىء باحتمال قفل المصنع ما لم تسدد هذه الكمبيالة بسرعة ، وجد نفسه ، وبغريزة الاحساس بالخطر ، يتحفز فى جلسته أمام يحيى ويسمع منه فى صمت ، وانفاسه شبه لاهثة ·

ورأى الصورة البشعة : المصنع ينهار · والضياع ·· لا ·· لا انتحر ولا يقولون مصنع كمال ادهم اغلق ، والتشـــرد والفقر ·· مستحيل · فليذهب كل شىء الى الجحيم ، ماعدا المصنع : عزة ،

والاتهام ، والبراءة · فيم تفيد البراءة لو وجدتنى هـائما فى الشوارع · بلا مصنع ·· بلا عمل ··

لابد من حل وبسرعة ·

وقفز له على الفور وجه صلاح عبد الهادى ·· أنقذ صلاح المصنع وهو فى المستشفى · فلينقذه الآن مرة أخرى ·· اننى أزال أعانى من آثار العملية · لن يخذلنى ··

ـ والحل يايحيى ؟!

ـ نفكر مع بعض ياكمال ·· انا فكرت أروح المؤسسة واطلب تاجيل الدفع أسبوع ··

صاح كمال معترضا وبشدة :

ـ لا يايحيى · اوع تعملها · دى سمعة سيئة جدا ، ولا يمكن القطاع العام حيثق فينا ، او يعطينا غزل بعد كده ، لازم نسدد فى الميعاد ··

قال يحيى بهدوء :

ـ ده أحسن طبعا ، مفيش شك · بس مين حيعطينا النهارده العشرة الآف جنيه ، مقابل بضاعة مرتجعة ؟

قال كمال ادهم بشكل حاسم وواثق :

ـ مفيش غير صلاح عبد الهادى · أعتقد أنه مش حيرد لى طلب · وبضاعتنا كويسة على أى حال ··

تنهد يحيى :

ـ الحقيقة أنا كنت حاقول لك عليه · لكن قلت أسيبها لك أنت ·

ـ وتسيبها لى ليه ٠٠ مش تقدر أنت كمان تطلب منه ٠٠ بالنيابة عنى ؟

قال يحيى بابتسامة مجهدة :

ـ اذا حضر الماء ، بطل التيمم ٠ مادمت أنت موجود تقابله أنت ٠٠ باعتبارك صاحب المصنع ٠٠

وأوشك أن يقول له : « وأنا متأكد أنه حيعطيك المبلغ » ٠ لكنه خشى أن يطلب كمال منه التفسير ٠ هل يحدثه عن الانتخابات التى سيدخلها صلاح عبد الهادى ، وأنه سينتظر منه المساعدة ؟!

ورفض يحيى الخاطر ٠ لن يشوه موقف صلاح عبد الهادى المنتظر مع كمال ، وليس هذا وقته على أى حال ، فالمصنع لابد أن يجتاز الأزمة ، وبسرعة ، على الأقل ٠ من أجل عدم تسريح هؤلاء العمال ٠ ثم من هو كمال أدهم الذى تضخم من موقفه ودوره فى الانتخابات ٠٠ و ٠٠

وفرجىء بكمال أدهم ينهض من على كرسى مكتبه ، ويقول :

ـ أنا حاروح لصلاح ٠٠ يمكن يكون فيه أمل ٠٠

* * *

من اللحظة الأولى التى رأى فيها صلاح ينهض من على مكتبه ويتقدم اليه مرحبا وبحماس تأكد فى نفسه أن صلاح لن يرد طلبه ٠

ـ أهلا ياكمال ٠ ايه ياراجل أنت فين ٠ سألت عليك فى البيت قالوا خرجت ٠

تأثر بلهجته وحرارة سلامه ٠٠

ـ اهلاً ياحاج ٠٠ انا متشكر جدا على شعورك ده ٠٠

قال صلاح معاتبا فى شكل ضحكة صغيرة هادئة :

ـ متشكر ؟! متشكر ده ايه ؟! احنا بيننا تشكرات ٠ انا كنت عايز اطمئن عليك ٠٠

ـ ألف شكر ٠٠ الف شكر ٠٠

ـ تعال ٠٠ اتفضل ٠٠

وأشار له على بكرسى امام مكتبه ٠ فجلس كمال ، بينما عاد صلاح الى الجلوس الى مكتبه ٠ وتذكر فجأة أنه لم يحيى عمال المحل، انتابه شعور بالخجل ٠ رفع يده بسرعة الى الجميع محييا ٠ وأجابوه التحية عليه بصوت واحد ٠٠ مرحبين ، فرحين ٠

وقال صلاح : تشرب ايه ياكمال ؟!

ـ أشرب حاجة ساقعة ٠٠

صاح صلاح على أحد عماله :

ـ حاجة ساقعة ياسيد (ثم قال له منبها ومحذرا) تجيبها انت بنفسك بلاش الواد القهوجى (وضاحكا لكمال) احسن يعمل معاك زى المرة اللى فاتت : جى !!

ـ ضحك كمال عاليا وقال :

ـ ربنا يستر ٠٠

وتلاشت ضحكته فجأة ٠ كان يفكر بســـرعة ٠ كيف سيبدأ الموضـــوع ٠ هل يبدأ مباشرة ، ام ينتظر قليلا : قد تأتى لحظـــة مناسبة ٠٠ على الأقل بعد أن أشرب المشروب وأبلل ريقى ٠ أحس أن ريقى جاف ٠

قال صلاح مبتسما وهو يلوح بجريدة أمامه على المكتب ، واضح أنه كان يقرأ فيها :

ــ مصطفى سيف يعنى مهتم بك جدا اليومين دول ٠ هى العملية مش انتهت على خير ٠ عايز يعمل منك معركة واللا ايه ؟!

قال كمال معبرا عن حزنه وضيقه :

ــ والله ياحاج أنا متضايق من الحكاية دى جدا ٠ أنا ما عدتش عايز حد يجيب سيرة العملية دى لا بالخير ولا بالشر ٠ تصور ياحاج (وتذكر ميول صلاح عبد الهادى الدينية) فيه ناس بيعتبروا عملية نقل القلب كفر والحاد ؟!

وارتسمت على وجه صلاح ابتسامة طمأنته ٠ ورأى بريقا فى عينيه ، وحماسا :

ــ أنا قريت المقالة دى ٠٠ كاتبها واحد اسمه فهمى عبد الغفار ٠٠ مش كده ؟! ٠٠

سأله كمال بلهفة :

ــ تعرفه ؟!

ــ لا ما اعرفوش ٠٠ بس أول ما قريت كلامه اتضايقت جداً ، ويمكن دى كانت من الأسباب اللى خلتنى أسأل عليك ، عشان أطمئن أنها ما ضايقتكش ٠٠

قال كمال متألما :

ــ ما تضايقش ازاى ياحاج ٠ المسائل ما توصلش للدرجة دى ٠٠ وبعدين مش عارف ٠ جايز تكون فعلا حرام ٠ قوللى أنت ياحاج صلاح رأيك ايه ؟!

قال صلاح بقوة وجدية :

ـ رايى أن دول أكثر ناس بيسيئوا للدين • الدين مش ضد العلم ولا ضد العبقرية • العلم والعبقرية دول ياكمال موهبة • فيض من عند الله جل جلاله • الانسان ما بيجبش حاجة من عنده • كله من عند الخالق الأعظم • المصدر الأوحد للمعرفة • رب الأسرار الكثيرة اللى فى الكون ده ، مالهاش نهاية • بيعطينا سر من أسراره، ومش بيعطينا كلنا ، بيختار ناس منا ويعطيهم ، (وتحمس أكثر) وزى ما بيعطى فى المال • بيعطى المعرفة • واللا ايه • تبقى كفر ازاى ؟! أنا باتضايق جدا من الناس اللى بيصوروا الدين على أنه عدو للعلم •

أحس كمال بارتياح كبير يتسلل الى نفسه وأخذ نفسا طويلا هادئا ، جميل فعلا أن يكون التاجر مثقفا ، وواسع المعرفة •• ان صلاح يحمل ليسانس الحقوق ، وكان يمكن أن يكون محاميا ناجحا (وخطر له خاطر) آه •• هل آخذ رأيه فى موضوع عزة (وطالعته عيناها) •• الاتهام المرير المروع •• لا •• سـنتكلم فى القتل ، والجريمة • وعاوده طشاش من الحلم : الغريق والصخرة والدم •• وأبعد الفكرة عن رأسه بشدة وحزم • الآن أنا فى مشكلة المصنع •• يجب أن أستمر •• أنا مهدد بكارثة • يجب أن أدخل فى الموضوع •

وتنبه على الحاج صلاح يلوح بالجريدة مرة أخرى ، ويواصل الحديث !

ـ ومع ذلك ، أنا باعتبر مقالة مصطفى سيف دى ، أخطر ألف مرة عليك من مقالة فهمى عبد الغفار ••

قال كمال بانزعاج :

ـ أزاى ؟!

ـ طبعا ·· ايه اللى جاب عملية نقل القلب للانتخابات ، والتجمع الثورى ، والاشتراكية والشعارات بتاعتهم دى اللى عايزين يخربوا بها البلد · مش كفاية اللى حصل ؟!

شيوعى عنيد ورأسمالى كبير يتصارعان ··

هل بدأ الصراع الحقيقى كما قال مصطفى سيف فى مقالته الأولى · ازيلت آثار العدوان وبدأ الصراع الحقيقى · انه يمهد له مع احمد زهران بالتجمع الثورى !

وأنا · أين أنا من هذا الصراع ؟!

ـ والله ما أنا عارف ياحاج · أنت عارف دول ناس طول عمرهم بيشتغلوا بالسياسة · (ضحك) · وأنا راجل لسه راجع للدنيا من كام يوم (وأراد أن يقفل الحديث) · مصطفى صديق · وكانسان باحبه · دى كل الحكاية ·

نظر صلاح فى عينيه كأنما يتأكد بالضبط من حقيقة مشاعره ، ثم قال وقد اتسعت ابتسامته :

ـ أنت عارف الناس هنا في السوق بدأوا يقولوا عليك ايه ؟!

ويفضول وانزعاج :

ـ بيقولوا أنك بقيت شيوعى !

ـ أنا · ؟! هاهاهاها ··

انطلقت منه ضحكة مقهقهة عالية ، رنت فى فضاء المحل ، حتى ان العمال نظروا جميعا اليه فى فضول · وبدا على وجوههم السعادة بأنه يضحك ·· العملية اذن تسير سيرا حسنا ·

وفى فضول راح البعض القريبون منه يجهدون آذانهم ليسمعوا الحوار الدائر أو رشاشا منه ..

ـ قال كمال ادهم ، بعد أن انتهت ضحكته :

ـ أنا ؟ شيوعى ؟!

ـ بيقولوا كده !

ـ يقولوا ياسيدى . حاعمل لهم ايه . لكن ازاى ، وبأى مناسبة ؟! (وضحك) يكونش الراجل اللى أخذت قلبه كان شيوعى . فبقيت شيوعى ..

وابتسم صلاح للصورة . وبدا عليه أنه اطمأن للانكار الصادق من كمال ادهم لهذا الاتهام . ورأى سحنته وقد انقبضت فجأة .. وأطلت من عينيه نظرات مجهدة حزينة ..

ـ اوع تكون اتضايقت ياكمال من كلامى ، انت عارف الناس كلامهم كتير واليومين دول بالذات ، انتخابات ، الناس قلقانة ، عايزة تعرف البلد رايحة على فين ؟!

قال وقد تحكم فى رغبته فى الصراخ :

ـ وأنا . رايح على فين . مش من حقى أعرف أنا كمان رايح على فين !

قال صلاح بتشجيع وحماس :

ـ طبعا من حقك . ومش من حقك بس .. ده من واجبك .

ـ يبقى خلاص .. يسيبوا الواحد فى حاله . يشوف المشاكل اللى مواجهاه دى .

وندت عنه تنهيدة ، لمست قلب صلاح ، وأدرك منها أنه يعانى من مشكلة ٠ أى مشكلة ياترى تواجه هذا الرجل الذى أعطاه الله قلبا غير قلبه ، وأنقذ حياته به ؟٠ أنت لو تعرف ثروة كبرى ٠٠ ياكمال يا أدهم ٠٠ ليت مشكلتك تكون خاصة بالمصنع وبالسوق فسأحلها لك على الفور ، كما حللتها لك وأنت فى المستشفى ٠

ـ ايه يا كمال المشاكل اللى مواجهاك دى !؟

أطرق برأسه ٠ آن أوان الدخول فى الموضوع ٠ بان عليه الخجل والضيق ٠ شىء صعب على النفس ، ولكن لا مفر ٠٠

مع صمته وتردده ، ثار فضول صلاح :

ـ قول ياكمال بسرعة ارجوك ٠٠ (واستدرك) الا اذا كانت مشكلة شخصية ، بتعتبرها سر ٠٠؟

ـ لا ٠٠ ولا سر ولا حاجة ٠ هى الحقيقة مشكلة خاصة بالمصنع وربنا يسهل ٠

ـ بالمصنع ؟ تبقى لازم تقولها لى ، وبسرعة أنت بتعتبرنى غريب عنك ياكمال يا أدهم ؟!

تذكر على الفور موقفه منه أثناء العملية ٠

ـ بالعكس ٠٠ أنت راجل أفضـــالك سابقة ٠٠ أنا لا يمكن أنسى ٠٠

وقاطعه صلاح مستنكرا بشدة ٠٠ :

ـ أفضال ايه ياراجل أنت ٠ ان ماكنتش أنا أقف معاك ، وأنت تقف معاى ، وبالذات الأيام دي ، مين حيقف معانا !

رنت فى أذنيه « وبالذات الأيام دي » ماذا يقصد ٠ هل هي

حركة الانتخابات ؟! ما علاقة صلاح بالانتخابات هذه المرة · مهما يكن الأمر فانا لا أعرف شيئا · الشيء الوحيد الذى أعرفه · لابد أن أنقذ مصنعى ··

ـ قول ياكمال ايه المشكلة !

وانتهى عند كمال كل تردد ··

ـ كنا بايعين بضاعة لتاجر فى المحلة · أصناف دهب فى منتهى الجمال · وكنت معتمد على فلوسها فى تسديد كمبيالة استحقاقها بكره · وبعدين فوجئت به بيرجها لى · ومش عارف أعمل ايه !

قال صلاح على الفور ، بلهجة جادة وعملية :

ـ ايه البضاعة دى ؟!

ـ حرير جورجيت وقماش لبيرك أبيض ، وعشرين بالة دمور ·

ببساطة شديدة · وبابتسامة صغير ملأت قلبه طمأنينة وفرحا ·

ـ ابعت لى البضاعة دى ياكمال ، واعمل بها فاتورة ، يلزمك فلوس أد ايه دلوقت ؟

ـ عشرة آلاف · قيمة الكمبيالة بس ·

واستدار صلاح الى عامل الخزينة :

ـ شوف لى الفلوس اللى عندك كلها كام ياعم محمد ·

ـ ٣٠٠٠ جنيه ياحاج ··

ـ طيب هاتهم ··

ثم أخرج من مكتبه دفتر شيكات ··

ـ وادى شيك بـ ٧٠٠٠ جنيه (وابتسم وهو يقدمه له) ولا تحمل هم ‥ تقدر دلوقت تروح تسدد ٠ والبضاعة ابق ابعتها على مهلك ٠

هز كمال الموقف ٠ كان كغريق وانتشل ، أحس برغبة فى أن يحتضنه ويقبله ٠ تحكم فى مشاعره ٠ العمال واقفون ، يرون كل شىء ٠ يجب أن يتماسك ‥

ـ أنا متشكر جدا ياحاج صلاح ٠ جمايلك دى لايمكن الواحد ينساها ، بس ربنا ‥

وقاطعه صلاح ٠ يا راجل بطل حكاية متشكر دى معايا ٠ احنا بيناذ فرق ؟ احنا لبعضنا ياكمال لازم نقف مع بعض ، وبصرف النظر دى مواقف انسانية ٠ كل انسان منا عرضة للمشاكل والأزمات ، أنا النهارده لك ، أنت بكره لى ‥

ـ ياريت ياحاج ، أقدر ٠ أنا متشكر ‥

ـ المهم تشد حيلك ٠ أنت طول عمرك انسان نشيط وذكى ٠ وفيك امكانيات كبيرة كويسة ٠

وقال كمال بخجل :

ـ ولا امكانيات ولا حاجة ٠ الحكاية على الله خالص ٠

ـ كلنا على الله ياكمال ٠ القلب الجديد دهنعمة عليك من الله ٠ وعلشان كده عايزك تصلى ٠ ما تقطعش الصلاة أبدا يا كمال ‥

ـ ان شاء الله ربنا يقدرنى ‥

ـ اذا نويت حيقدرك ‥

ابتسم كمال ابتسامة مرتبكة ، ولم يعرف بماذا يرد ‥

ـ بس انت شد حيلك ٠

ومد كل من الاثنين يده للآخر بالسلام ٠ سلام قوى حار ٠ كأنما هو عهد وميثاق ٠

وخرج كمال ادهم بالمبلغ والشيك ٠

* * *

خرج كمال يملأه الاحساس بالنصر ٠ ونادى على أول تاكسى قابله ،

ـ على الدراسة يا أسطى ٠ مصنع القاهرة للنسيج ٠

كان يحس بوجوده خفيفا ومرحا ٠ ورأى مصنعه يكبر ويكبر ، مادام صلاح عبد الهادى معه سوف يكبر ، المهم يلتفت الى المصنع ٠٠ نعم ٠٠ لا يصح أن يترك كل شىء ليحيى البدرى أكثر من ذلك ٠ فمن يكون يحيى هذا ٠٠ ؟! شاب قليل الخبرة مهما يكن الأمر ٠٠ كان يريد الذهاب الى القطاع العام ويطلب التأجيل ٠ لم يعرف حتى الآن معنى التأجيل بالنسبة لمصنع كمصنعى ٠ كانت ستكون نهايته السمعة السيئة هى البداية ٠ يقول انه تعب ويريد ترك المصنع ٠٠ الى أين يايحيى ستذهب ٠ لو لم يكن المصنع بعد خروجك من السجن لكان حالك حالا ٠ تركت الجامعة وأصبحت غير قادر على أن تواصل المذاكرة ٠ كبرت على المذاكرة ٠

أين تذهب لو تركتنى ٠ لا ٠ أنا أعرف ٠ لن تترك المصنع ، ولن تتركنى ٠ ومع ذلك ، لو مشيت فلن أفزع ٠ حين أخبرتنىبرغبتك في المشي ، ملأني الرعب ٠

لم اتصور أن المصنع يمكن أن يدور بدونك • ها أنا فى اقل من ساعة واحدة حللت المشكلة • اعقل يايحيى • كن واقعيا • وعلى اية حال • أنت شخص طيب •• و •• لقد وعدتنى (وأحس بقلبه يهبط فجأة • وقطرات عرق تتفصد من جبينه) لقد وعدتنى بأن تذهب الى « عزة » لتقنعها بخطأ تفكيرها •• لا •• لن تذهب • وأنا أيضا لن اذهب لهؤلاء الناس بعد اليوم • لن افكر الا فيمصنعى • لن أسمح لأى كائن من كان أن يعيدنى الى الدوامة • أبدا • أبدا •

وحين دخل مصنعه • وجد يحيى البدرى ينتظر فى لهفة وقلق • وأخبره فى زهو هادىء أن المشكلة قد حلت • وأخرج له المبلغ والشيك وأعطاهما له •

– تقدر دلوقت تاخد تاكسى وتروح تسدد الكمبيالة ، أو تستنى لبكره اذا كنت تعبان • على كيفك •

أبتسم يحيى من أعماقه • صحت النبوءة وتلقفه صلاح •

– نسدد على طول • مادام فيه فلوس ، مفيش داعى للتأجيل • واديك قاعد هنا لغاية ما ارجع •

قال كمال ، وقد تصور أن العملية يمكن أن تطول • وأحس فجأة بالارهاق • وتذكر انه لم يتناول الفطور ••

– واللا اقول لك • بلاش النهارده • تصحى بكرة تروح على طول تسدد • أنا حاروح البيت دلوقت أحس تعبان •

وندت عنه زفرة لا ارادية • وبقى لحظة صامتا ثم قال :

– بالحق يايحيى • مفيش داعى تقابل عزة أو تكلمها !

قال يحيى مستغربا :

ـ ليه ؟!

قال بشكل مقتضب وباتر :

ـ كده · مش عايز أدخل فى وجع دماغ أكثر من كده · خلينا فى مصنعنا وبس ·

قال يحيى ممتثلا لرغبته · وقد بدأت ملامح كمال تأخذ فى عينيه شكلا غامضا ·

ـ وهو كذلك · مش حاقابلها · بس عايز أقول لك حاجة ·· قبل ما أنسى ، شوقى الشريف · اتصل بك من شوية ·

قال بنوع من الفزع :

ـ شوقى الشريف مين ؟! (واستدرك بسرعة) أخو عزة ؟ ابن الراجل اللى ·· (ولم يكمل) ··

ـ آه ··

ـ وكان عايز ايه ؟

ـ أبدا · كان عايز يطمئن عليك · بيقول انك خرجت من عندهم امبارح تعبان شوية ·· وحب يطمئن عليك !

يا الهى ·· الدوامة تعود ··

هل هى دوامة ··؟

أم حصـــــار ·· ؟

أغمض عينيه ، وضغط على رأسه بشدة ، خوفا من انفجار ، أو دوار ·

- ١٧ -

وهكذا انطفأ سريعا احساس كمال أدهم بالانتصار · بل وبدت أزمة المصنع ــ وقد انحلت بسرعة وسهولة ــ وكأنها ما كانت أزمة على الاطلاق · انما كانت فرصة للهروب · الهروب من تلك الحقيقة التى اصبحت جاثمة وثابتة · هاهو الوضع يعود كما كان : دقات القلب تسرع · وعيون البنت لاتزال بالمرصاد · ولعب به الوهم فرأى أخاها شوقى فى صورة المتآمر · وأنه بسؤاله فى التليفون عن صحته انما ليستدرجه ليعود به مرة أخرى الى قلب الجحيم · وأوشك أن يصرخ فى وجه يحيى ·

ــ لا ·· ولا حتى شوقى أريد أن أراه ، فليبتعد عنى ·

غير انه رأى شوقى ، بوجهه الأسمر الغاضب المتمرد ، ينظر له فى عتاب ممزوج بالازدراء ·

أهذا هو الجزاء ياسيد كمال ؟! على كل حال ، انا لم اطلب منك شيئا ، أنت الذى أبديت الرغبة فى أن تزكى كتاباتى عند مصطفى

سيف · ومع ذلك لا تنسى قولى لك أنى لا أومن بسيف هذا ، ولا بجيله · وأنت واحد منهم · لا خير فيك · هربت بجلدك بسرعة ·

وشملته رعدة :

اتهام جديد يمكن أن يصوب اليه :

الجحود ··

لا · لا · ليس معك ياشوقى · كنت سندا لى فى الموقف العصيب ·· ويجب أن تظل لى سندا · وبصرف النظر ، ليتنى أستطيع أن اقدم لك شيئا · أرد جزءا من الجميل · سأساعدك فى نشر قصصك · وانتعشت روحه اذ تذكر أن مصطفى سيف سيزوره الليلة فى بيته · أجل سيكلمه عنه ، ويأخذ موعدا قريبا · ولكن ، كيف يتصل به · كيف سيبلغه بالميعاد ؟!

ورأى يحيى البدرى أمامه ·

ـ يحيى سيقوم بالمهمة ··

وهدأت نفسه قليلا · وحانت منه نظرة ليحيى ، كان مطرقا ينفث دخان سيجارته فى شرود ، وبدا على وجهه الاكتئاب والتململ ·· اقلقته ملامحه · وتذكر فجأة ما قال من أنه يريد ترك المصنع ·· لا ·· لا يايحيى · لا يصح لا تتعجل · أنا لم أقف بعد على قدمى ·

واحس فى نفسه بالندم · والخجل · « كيف فكرت وأنا خارج من عند صلاح عبد الهادى أننى يمكننى استغناء عنك ؟ لا يايحيى · انت عصاى التى أتوكأ عليها فى الأزمات · مازلت فى حاجة اليك ·

وبصوت رقيق مخنوق ومجهد ·

ـ قوللى يايحيى ·· انت زعلان منى فى حاجة ؟!

قال يحيى وقد فوجىء بالسؤال وباللهجة ·

ـ انا ؟ زعلان منك ؟ ليه ياكمال لا سمح الله ·· أنت عمرك ما أسأت الى فى حاجة · بالعكس أنت افضالك على كتيرة ياكمال ·· لكن ليه السؤال ده دلوقت ؟

وبصوت عاتب ·· :

ـ لأنك بتقول انك عايز تسيب المصنع وتمشى ·

أثرت فى يحيى لهجة كمال ··

ـ صحيح أنا قلت كده ·· و ·· وحامشى فعلا بس مش دلوقت ·· بعد ما ترجع من المصيف ، واتفقنا على كده ·

شوح كمال أدهم بيده رافضا ومتمزقا :

ـ مصيف ايه واتفاق أيه يايحيى · أسـافر المصيف ازاى ومشكلة زى دى ورايا ؟

ـ مشـكلة ايه ؟

ـ البنت ··

ـ ما للبنت والتصييف ؟!

ازاى يايحيى · أسافر ازاى أو أفرح وأصيف والبنت بالحزن ده ، والتفكير ده ، والاتهام اللى مابيسبنيش لا ليل ولا نهار ؟ انت ما تعرفش ايه اللى خرجنى النهارده من بدرى قبل ما أختك سناء تصحى · حلم يا يحيى · حلم فظيع شفته وحوادثه كانت فى المصيف والبحر · أنا · أنا أخاف أنزل دلوقت البحر !

قال يحيى وقد داخله الخوف والقلق على كمال :

ـ حلم ايه ؟!

ـ ما أقدرش أحكيه لك دلوقت • أنا ما صدقت أنى نسيته : بقى فى الحلم يايحيى والراجل مقتول ، والدم نازل من على وشه مغطى الميه ، وأنا رايح أنقذه ، ولما وصلت عنده ، مالقيتوش ، أعمل ايه ؟!

قال يحيى على الفور ، وقد التقط تفسيرا للحلم •

ـ حلم واضح جدا • مش عايز تفسير •

وبلهفة :

ـ واضح ازاى • قوللى ••

ـ انك بتخلق لنفسك مأساة مالهاش وجود ، وبتحاول تبحث لها عن حل • بتفكر أن فيه جريمة • وبعدين مفيش جريمة •

ـ ازاى يايحيى ، مين يؤكد لى أن الراجل كان مات فعلا ؟! حتى الدكتور لا يمكن حيزيل الشك من نفسى • لأن الدكتور نفسه متهم !

ـ تبقى بتجرى ورا قضية مالهاش جسم •

ـ أبدا يايحيى • لها جسم • والجسم جوايا • هنا (ولامس صدره بأطراف أصابعه) قلبى ده ، هو جسم الجريمة لو صح الاتهام (وارتعش) ابقى عايش وجوايا جريمة بتنبض •• بتدق •

صاح يحيى رافضا منه هذا التصور المرعب •

ـ انا معترض على تفكيرك كله ياكمال فى الموضوع ده • مش معقول • المعجزة العلمية • الخارقة • اللى أول مرة تحصل فى تاريخ البلد • تكون سبب فى شقائك ، بدل ما تكون سبب فى سعادتك

وأفتخارك · أنت ناسى الناس فى شارع الأزهر كانوا عاملين حواليك ازاى · كان ناقص يشيلوك ويهتفوا بحياتك !

أطرق كمال فى حزن ، وقال فى أسى وهو يستعيد الصورة ··

ـ كان نفسى العملية دى تكون نقية وخالصة لوجه الله والعلم ، كنت حافرح بنفسى ـ ويفرح الناس بى · (وعاود ملامحه التألم) أنا أصبحت باهرب من الناس · باخاف منهم · باحس انى باخدعهم بحاجة فى مش صحيحة · أنا · أنا بافكر أشترى نضارة تكون كبيرة تخفى جزء من ملامحى عن الناس ، وأنا فى الشارع ، عشـــان مايعرفونيش !

هنا توقف يحيى عن الكلام · أدرك أن أزمة الرجل قد ملأت عليه نفسه ، حتى أصبحت فوق أى كلام أو مناقشات أو اقناع · ورأى أن كمال أدهم يصبح ـ لحظة بعد لحظة ـ خطرا على نفسه ، ولابد من موقف سريع ، يوقف الموضوع عند حده وبشكل حاسم · ولكن كيف ؟ يجب أن أخلصه من هذا المأزق · ان لم أخلصه أنا ، فمن ذا الذى سيخلصه ؟ ولكن كيف ؟ من الذى رمى ببذرة الشـك الخبيثة هذه فى نفسه ؟!

انها هى · وليس غيرها · البنت · عزة · وليس غيرها أيضا يستطيع أن يعيد الأمان الى نفسه · يجب أن نفعل هذا · يجب ، وإلا فهى متوحشة ·· (ولمعت فى ذهنه فكرة) ·

اندفع قائلا :

ـ تسمح لى أقابلها ؟

ـ تقابل مين ؟!

ـ عزة ··

ـ ليه ؟

ـ واضح أن البنت دى منن بسيطة ياكمال · لازم حد يواجهها وأنا اللى حاواجهها ·

ـ ازاى ··

بسط يحيى كفيه رافضا الجواب ، وبثقة ·

ـ سيبلى الموضوع ده ·· أنا حاتصرف ·

قال كمال ، وقد تفتح وجهه بالأمل ، واحس بجزء من العبء ينزاح عنه ··

ـ ياريت يايحيى ·· ياريت فعلا تقابلها وتتكلم معاها ·· (اوشك أن يقول له : لقد تخيلتكما مرة معا · وتحبها وتحبك) لكنه تذكر وجهها النافر · المشكلة صعبة عليك يايحيى · آنت لا تعرف نوع البنت ، ولا أنا أعرفها · ولكن فلتحاول ايها المكافح القديم ·· لا تتركنى وحدى فى الموضوع ··

وازداد صوته تهدجا بالأمل وبالتمنى :

ـ وياريت يايحيى تتعرف كمان على اخوها شوقى ·· شاب لسه صغير ، وطيب . عنده طموح · لكن مسكين حاسس انه ضايع ، وممكن جدا تفيده · ايه رايك يايحيى ·

هز يحيى رأسه موافقا وزارعا الثقة فى نفس كمال ·

ـ خلاص ·· اتفقنا ··

والتقت عينا يحيى البدرى بعينى كمال ادهم كانما يلتقيان على العهد من جديد وكانت دفعة حياة قد اندفعت فى عـــروق الاثنين ، جددت حماسهما للحياة من جديد :

يحيى البدرى وجه لنفسه معركة بعد طول الركود ٠

وكمال أدهم ، خف عن صدره العبء الثقيل ومن حقه الآن ، ولو قليلا ، أن يهدأ ويستريح ٠

- ١٨ -

كان القدر يضحك ضحكة ساخرة صغيرة ، وهو يرقب كمال أدهم يقترب من بيته • لقد تغيرت ملامح الرجل فجأة ، وعاوده الاكتئاب • ماذا حدث ؟

كان قد تذكر فجأة • اذ لاح له البيت ، أن هناك موقفا صعبا فى انتظاره • كيف سيتصرف مع سناء ؟ لقد تصنع النوم بالأمس متهربا منها ، وفى الصباح ، بعد الحلم غادر البيت قبل ان تصحو ، ولم يترك لها خبرا بمكانه • ولم يخبرها بما حدث فى الزيارة •

هل يحكى لها الآن ••

وما أن بدأ يستعيد الموقف ليحكيه لها ، حتى أصابته ارتعاشة ، وأحس برأسه يدور • لا • مستحيل أفتح هذا الموضوع من جديد • أنا أسعى للتخلص منه ، لا للدخول فيه • وهى ، بماذا ستفيدنى فيه ؟ بالعكس • ستهوى عليهم بالشتائم ، وتشكك فى نواياهم • من أول يوم لا تستريح الى سيرتهم • عيبك الغيرة الفظيعة ياسناء •

(وتذكر فترة كادت الغيرة فيها تحرق البيت والمصنع • كان لك الحق أيامها ياسناء • من أيامها لم أذهب الى الاسكندرية ، ولم أرها ، القطة الاسكندرانية ، وندمت بما فيه الكفاية • أما الآن ، أنا فى اشكال من نوع اخر • اشكال فظيع (غير أنه تذكر اتفاقه مع يحيى) لا •• ولا اشكال ولا يحزنون (ورأى وجه يحيى الأسمر الضاحك بسنته المكسورة ، يمتزج بوجه عزة تبتسم له وترخى عينيها فى حياء ودلال) ليت هذا يتحقق • أجل •• لم يحدث شىء فى الزيارة ياسناء • كانت زيارة عادية لم يحدث فيها ما يستحق أن يقال •• ثم •• ثم منذ متى تحاسبيننى على تصـــرفاتى • وعلى خروجى ودخولى ؟ يجب أن أتصرف معها بحزم من الآن • يجب أن تتركنى فى حالى ••

وقد كان

* * *

على كازينو صغير مطل على النيل – قرب كوبرى الجامعة – جلس الاثنان : كمال أدهم ومصطفى سيف •

كان كمال قد سبقه فى الوصول بدقائق ، واختار مكانا متطلوحا ملاصقا لكورنيش النيل ، وجلس فى الانتظار • كانت ليلة صيفية رائعة والهواء راقص وطرى وجاف • وأضـــواء الكازينو الخافتة المتناثرة ، ومجرى النهر ، ونومة عميقة ومريحة نامها كمال •• وانتعشت روحه • شد أنفاسا عميقة • انه يتنفس من أجل التنفس • كان يحس بالهواء يجلو صدره ورئتيه • وأحس بقلبه داخل صدره قويا • هذا هواء العافية ، وأغمض عينيه وراح يستنشق بهدوء وعمق واستمتاع • وعاد ينظر الى النهر : الذكريات • الأيام تعود ياسيف • جلساتنا التى كانت فى أحلك الأيام • أيام النكسة • كان

البعض يسمونك ساخرين : ملك التفاؤل · وجهك المحدد الملامح ·· الناتيء العظام ، بشعرك الأشيب ، وجبهتك المحددة الجميلة · كل ما فيك كان دائما ينطق بالتفاؤل · وحب الحياة (وزفر) مهما كان الثمن الذى دفعناه ياسيف ، فقد صح تفاؤلك : الأرض تحررت كما كنت تبشر وأزمة القلب انتهت (ووضع كفه على كفه) ولكن هل هذا يكفى يامصطفى ؟! أنت تبشر بالقلب الجديد ولا تدرى أن أزمة جديدة تهدده ··

وانقطعت فجأة خواطره على مصطفى سيف نفسه يميل عليه ويهمس فى أذنه بنغمة ودودة ·

ـ مساء الخير ، على القلب الجديد ··

انتفض فرحا فى جلسته · هزته اللهجة مثلما هزته الكلمات ·

ـ أهلا أهلا ·· يامصطفى ··

ومد له ذراعيه يعانقه ··

ـ تعال ·· ياريت القلب الجديد يقدر ياخدك جواه ··

وفرد مصطفى ذراعيه :

ـ أنا واثق أنى جواه ، من خير ما اكون جواه ··

وتعانق الصديقان ·· ثم جلسا ·

وبشكل ما تذكر كمال جلسته فى الصباح مع صلاح عبد الهادى . وتعليق صلاح على مقالة سيف ، وعاوده تحذيره غير المباشر « أنت عارف الناس بتقول عنك ايه يا كمال · بتقول انك بقيت شيوعى » · وابتسم فى نفسه · هل يحكيها لسيف على أنها نكتة ؟!

لا·لاداعى·فقد توغر الكلمة صدر مصطفى على صلاح عبدالهادى،

والاثنان صديقاى ٠٠ و ٠٠ وصلاح خدمنى ٠ كان يبغى مصلحتى ، من وجهة نظره ٠٠

وتنبه لحقيقة بدت مفـــرحة ومثيرة : اليوم جلس مع قطبين كبيرين ، متناقضين ، دون أن يعرفا بعضيهما شخصيا ، وآه لو كان هنا أيضا أحمد زهران ٠

غريب عالم السياسة ٠ كل يدافع عن منطقه بصدق وحماس وايمان ، حتى ليحتار الانسان مع من يقف ، ويصدق كلامه ٠

وفوجىء بمصطفى سيف يقول : أنت عارف أنى حاكتب تانى عن القلب الجديد ؟

ــ أصابته رجفة : بمناسبة ايه ؟

الراجل اللى هاجم عملية نقل القلب بتاعك فى الجرايد ، وقال عنها انها كفر والحاد ٠

ــ ماله ؟

قال مصطفى بلهجة جادة وخطيرة :

ــ ده مش راجل ياكمال ٠ مش مجرد فرد ٠٠

ــ أمال ايه ٠٠ ؟!

ــ ده تيار !!

أســـرعت دقات قلب كمال أدهم رغما عنه ، وداخله خوف غامض ٠٠

ــ تيار ؟! تيار ايه ؟!

ــ تيار فكرى خطير ياكمال ٠ موجود فى البلد ٠ تيار رجعى

عايز يوقف أى تقدم يحصل فى البلد · وعلشان كده لازم ينكشفوا · أنا قررت أعملها معركة ··

ـ معركة ؟! (وعاوده صوت صلاح عبد الهادى : الاثنين عايزين يعملوا من قلبك معركة · ويكسبوا من وراها) ·· و ·· وتذكر الاتهام · هاجمته نظرات عزة ·

صاح فجأة ، معترضا بكفه بقوة ، ورجاء :

ـ لا يامصطفى ·· أرجوك ·· بلاش ··

قال مصطفى بدهشة وقد فوجىء بموقفه :

ـ بلاش ايه ؟

ـ بلاش تكتب أى حاجة تانى عن العملية ··

ـ ليه ؟

وتردد كمال لبرهة ، ثم أطلقها واضحة صريحة من أعماقه · وهو يضع يده على قلبه ·

ـ عشان مش عايز قلبى ده يبقى ميدان لمعركة · كل الضرب بيجى فيه · مش فيكم أنتم · القلب الجديد مش حيستحمل يامصطفى أرجوكم تسيبوه فى حاله ، لو كنتم بتحبوه ··

وراح على الفور يحكى له اتهام « عزة » الرهيب · غير أن مصطفى انتصب واقفا كالمطعون فى أمل حياته العظيم · صاح بغضب وعنف : مستحيل · ده جحود · جحود منك ياكمال فى حق الدكتور العظيم اللى أنقذك من الموت ، ورجعك للحياة !

قال كمال بسخرية أليمة ··

– رجعنى للحياة ٠٠ أى حياة رجعت لها ، حياة مليئة بالشكوك والاتهامات ٠ وقاطعه مصطفى ٠ وقد تقلص وجهه ٠

– لا ياكمال ٠ ٠أرجوك بلاش تفكر بالطريقة دى ٠٠ مابقتش عمليتك لوحدك ٠ دى عملية البلد كلها ٠ أنا باعتبرها كده ٠ ومؤمن بكده ٠٠

قال كمال مؤكدا :

– ده أدعى لأننا لازم نعرف حقيقة العملية ٠ الانتصار العلمى ٠٠ القلب الجديد ٠٠ اللى أنت بتدافع عنه ، وبتعتبره رمز لبعث جديد جه ازاى ؟ ٠ وعلى أى أساس ٠ لازم تدافع عن حاجة أنت متأكد منها يامصطفى ٠٠

احس مصطفى سيف (الكاتب) بكل كيانه يتزلزل ٠ هل يمكنه بعد ذلك مواصلة الدفاع عن العملية علنا ، فى جريدته ، ويدخل من أجلها معركة ، كما كان يقول منذ لحظات ، مع عبد الغفار أو غيره ؟! هاهو صاحب القلب الجديد نفسه يلقى ببذور الشك حول عمليته ، وبدا كمال أدهم بجلسته أمامه فى أضواء الكازينو الخافتة ، اما شيطانا مريدا ، يقوده معه الى هاوية الشك واليأس ويشوه للوطن كله الرمز العظيم ، واما « نبيا » بوحى من قلبه الجديد عاد الى الحياة ليبشر الناس ويصيح فيهم : أيها الموتى ، لا تفرحوا بعودة الحياة اليكم ٠ الا اذا كانت قائمة فعلا على البراءة ٠ وعلى النقاء ٠ وعلى الأمان ٠

ولكن ، بهذا المنطق ، ماذا ستكون النتيجة ؟ ماذا لو صـــح الاتهام ؟! (وبرقت عيناه) ٠٠

ستتلقف الرجعية الاتهام وستؤكده ، وسنضرب به ٠ ونحن فى انتخابات ٠ كل الأمل فيها ٠ لولا موعدك هذا ، لكنت الآن هناك ٠

التجمع الثورى (وتذكر أحمد زدران • والأصدقاء) انهم الآن يحاولون الوصول الى أحسن العناصر التى سترشح نفسها فى الانتخابات والبرنامج الذى سيدخلون به ، أول بند فيه « اقامة دولة اشتراكية ، ينهض بناؤها على أساس العلم الحديث » لا • ليس هذا بكاف • يجب أن تضاف فقرة أخرى : وعلى أساس من القيم الأخلاقية والروح الانسانية •

ورأى زهران صديقه السياسى . ينظر اليه فى عصبية ونفاد صبر ••

هذا هو عيب الفنانين حين يدخلون السياسة • لا تتلكأ للنظر فى موضوع قدميك • أسرع فى السير يامصطفى • ليس هناك وقت للشك !

الرجعية تتحرك لتضرب •• هذه فترة حاسمة فى تاريخ البلد

لا يا زهران •

كثيرا ما اندفعنا بشكل متشنج أعمى ، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفسنا فى نفس المكان ، وربما على أسوأ مما كان ••

أن يكون كل شىء على أساس يازهران • اليقين • أن أواصل الدفاع عن هذه العملية أو لا أواصل • لقد قلت عنها انها البعث •• فهل كنت مخطئا • هل كنت أضلل ؟

مسئولية الكلمات يازهران ••

وأحس بنصل الحزن يطعنه • الرمز يتهاوى • السحن الصفراوية الكئيبة تكشر عن أنيابها • وتضحك . قال متمزقا ، وكأنما يكلم نفسه :

– لكن ازاى دى تيجى ·· لا ·· لا ياكمال · مش ممكن أصدق، ومش عاير أصدق ··

واكتسى وجهه الشاحب بأسى بالغ ، وتقلصت أصابع قبضته ، كأنما يرثى حياته كلها ·

– كل ما افرح بحاجة جديدة ، واقول هى دى الأمل تطلع سراب · حتى القلب الجديد · مش معقول ·· حرام ··

* * *

بعد قليل ، كانا يغادران الكازينو ، برغبة من الكاتب · قال باكتئاب انه يريد تغيير المكان · فانطلقا فى عربة كمال · وتلقائيا ، أخذ طريق كوبرى الجامعة · ثم الجيزة ثم شارع الهرم ·

كان الصمت ثقيلا بينهما ، وبدا كمال وهو يقود العربة ، راغبا فى سره ، أن يخلق جوا من المرح · أن يجلو صدره بضحكة ·· انزاح العبء عنه · وفكر أن يقول مواسيا ومعتذرا لمصطفى ·· « ولا يهمك · فلنكن فى الهوا سوا ·· لنواجه الاتهام معا · ولتكن النتيجة ما تكون ·· لاداعى للتفكير الآن فلنتحدث · شىء آخر · ما أخبار قصصك ومسرحياتك ··

ورأى عربة مكدسة بالشباب ، تمرق بجواره وتجتازه تاركة خلفها أصواتا ضاحكة ومهرجة · وفكر أن يعلق بكلمة على المنظر ، ويتغير الموضوع ، واختلس نظرة من مصطفى ، ووجد عينيه شاردتين ·· فيم تفكر الآن أيها الكاتب وكيف ·· (وتذكر) ألم تكتب فى مقالتك الأولى وأنت تهنئنى على الشفاء ·· ؟ « أود أن أكتب قصة القلب الجديد » ·· هاهى يامصطفى · قصة لم تحدث من قبل فى

تاريخ بلدنا ٠٠ أكتبها يامصطفى ٠ لو مت فاكتبها واشهد على أنى الذى ذهبت بقدمى الى الاعدام !

وروعته الصورة ٠ لا ٠٠ لا ٠ أيمكن أن تكون هذه هى النهاية ؟! على أى أساس ؟ لا ٠٠ أنا لم أرتكب جرما ٠٠ وان كانت جريمة ٠ فلست أنا ٠ أبدا لست أنا ٠

الآخرون ٠٠

وفوجىء بمصطفى سيف يقطع خواطره ويسأل باهتمام :

قوللى ياكمال ٠٠ ايه معلوماتك عن العلاقة اللى كانت بين المرحوم ومراته ، قبل ما يموت ؟

ـ هه ؟! مش عارف ٠٠ ماعنديش أى فكرة ٠٠ ليه السؤال ده ؟

ـ لا ابدا ٠٠ بأسأل بس ٠٠

ومضى الكاتب فى سرحته ٠٠

وفكر كمال أدهم بسرعة ، وقد انزعج للسؤال ٠ هل يشك مصطفى فى الزوجة ٠٠ يقف مع عزه ؟ هل يحتمل أن ٠٠

ورفض الفكرة بشدة ٠٠

ـ لا يامصطفى ٠ لا ٠ مستحيل تشك فى الست دى انسانة لا يمكن تتخيل طيبتها ٠٠ وعظمتها ونقاءها ٠٠ لو تشوفها وتشوف الحزن اللى فى عينيها ٠٠ دى ٠٠ دى عاملة زى مريم العذراء مستحيل توجه الشك لها ٠

نظر له مصطفى نظرة جادة .لا تخلو من سخرية ٠٠

ـ وليه مستحيل الشك فيها ؟ انت مش لسه بتقول إن كل حاجة لازم تكون على أساس ، وعلى يقين ، هل انت تعرف الست دى قبل كده · تعرف حاجة عن حياتها الماضية ؟!

ـ لا طبعا ··

ـ يبقى خلاص · وعلى كل حال · ده مجرد افتراض يحتمل التفكير ·

هل بدأ الكاتب بحثه ! ؟؟

هل بدأ فى تقصى الحقيقة على طريقته ·· وهو الروائى ؟!

والواقع أن صاحبنا الكاتب كان قد حدث له شىء غريب ·

شىء يسمونه فى عالم المسرح بالتراجيكوميديات ، فبينما هو فى عز أزمته واحتمال فجيعته فى الرمز الوطنى العظيم · واذا بكائن راقد فى أعماقه يستيقظ فجأة بعد رقاد طويل : الفنان ·

ورأى الأحداث والرؤى تلتمع فى عينيه على نحو غريب ، حتى انه هتف مبهورا وفرحا ـ فى سره طبعاـ : هذه قصة · هذا موضوع يصلح لرواية جديدة وخطيرة · دراما عن القلب الجديد ، وهذا هو بطلها يجلس بجانبى · وبقية الشخصيات ·· والأحداث ·· ووجد نفسه يفكر على ضوء ما حكى له كمال عن لقائه العجيب بأفراد العائلة ، وموقف البنت · والأم · والأخ ، ورأى الثالوث الاغريقى فورا أمامه : اليكترا وأورست ، وكليتمنستر : الأم ، والرجل الميت الذى نزعو قلبه ، هو أجاممنون · اليكترا تريد الانتقام ، وأوشك أن يصيح : اليكترا المصرية · مثل اليكترا سارتر ، وأونيل · وجان أنوى ، وأسخيلوس ، ورأى نفسه يقدم عملا ضخما · وعالميا · غير أن حماسه لم يلبث أن انطفأ · وماذا فى هذا ؟ شىء قديم · قديم · دراما القلب الجديد ·· تتحول فى يدى الى موضوع قديم ·· لا ··

وأحس بالخجل من نفسه ، وخشى أن يكون كمال قد قرأ أفكاره : لا · أن أسقط أزمتى الفنية على مأساة الرجل · انها مأساتنا جميعا · ان يخرج النائب الجديد محملا بهذا الاتهام الرهيب · ماذا لو شاع هذا الاتهام · ماذا لو علم به فهمى عبد الغفار · سيهلل به فى الجرائد ·· ستبدأ الانتخابات بضربة من الرجعية فى الصميم · لا يا كمال ، يجب ان يموت هذا الاتهام فى مهده · من أجل الوطن · من أجل البلد ·

ومرت العربة فى تلك اللحظة بأحد الملاهى الليلية · ورأى أنوارا ملونة ، تزغلل العين وصفين طويلين من العربات والتاكسيات ونساء ورجالا فى ثياب السهرة وضحكات وتذكر بقلق ، زهران ، والأصدقاء ، والتجمع الثورى !

وغدا لديه مواعيد ، وحركة لا تكف · هل يلقى بالشعار ، ويتفرغ لقضية كمال أدهم · لا ياكمال · لا · نحن نبحث عن البراءة المستحيلة · نعم مستحيلة · ولو ان هناك جريمة فعلا ، فالجميع متهمون · الكل متهم · أجاممنون ، مثل كليتمنسترا ، على السواء · فلننس منظر الدماء الآن ·

نعم ياكمال · ليس هذا وقته · أول مجلس منتخب بعد اجتياز النكسة يجب أن يأتى على مستوى التضحيات التى قدمتها الأمة ·· لا يصح الآن أن ننشغل فى قضية خاصة ، برغم أنها ليست خاصة ، قلت عنها انها الرمز · ربطت عملية نقل القلب ، وعملية الانتخابات · ويجب أن يظل الربط · يجب أن يستمر الرمز يا كمال · يجب ··

وبقوة وحسم :

– اسمع ياكمال · احنا لازم نفكر فى الموضوع بطريقة جديدة ·

ـ ازاى ٠

ـ ممكن نسيب كل حاجة ، ونفضل ندور على شىء مستحيل !

ـ ايه هو اللى مستحيل !

البراءة ياكمال ٠ ده اذا كان فعلا فيه جريمة (واستدار) واذا فرضنا حتى أن فيه جريمة ده ما يعيبش القلب الجديد ٠ صحيح ثقل عليه ٠ لكن هو ده العالم اللى خرج اليه القلب الجديد ٠ ولازم نكون على مستوى المواجهة لازم نكون واقعيين ٠

يعنى ايه ؟

ازداد اندفاع مصطفى ٠

ـ البلد ياكمال ٠٠ مصر ٠٠ فى مرحلة خطيرة وحساسة ٠٠ المرحلة اللى كنا بنحلم بها من زمان ٠ مش معقول يبقى موقفك كده ، أنت بالذات ٠ أنا عاقد عليك آمال كبيرة ٠ (وبدا كمال مشدوها بكلماته ٠ وانفعالاته) أنت ممكن تعمل حاجات كبيرة ياكمال ممكن بقلبك الجديد تعمل انقلاب فى حياتنا ٠ أيوه ٠ أنا مش بابالغ ٠ أنا عارف معنى كلامى ايه ٠ المهم انك تؤمن بقلبك الجديد ده ٠

ـ وأؤمن به ازاى ٠٠

ـ بالعملية ، كعلم ٠ وكتقدم ٠ وكأخلاق كمان ٠٠

ونظر كمال أدهم فى عينيه :

ـ كأخلاق ازاى ٠٠ ؟!

قال مصطفى بثقة ، مبعدا عنه كل أشـــباح اليأس والفجيعة المحتملة فى الرمز العظيم ٠٠

ـ أيوه كأخلاق · فرضنا ان كان فيه جريمة فعلاً · يبقى هو ده العالم اللى طلع فيه القلب الجديد · ومفيش مفر · يبقى ايه موقف القلب الجديد من العالم ده ؟!

قال كمال : ايه موقفه !

ـ انه يغير منه ياكمال · وساعتها يبقى قلب جديد بصحيح !

ـ ويغير ازاى من العالم ··

ـ دى بقى قضيتك أنت ياكمال · ومع ذلك ممكن نتكلم فيها بعدين ··

وغمغم كمال فى نفسه : أنا ؟! أغير العالم بالقلب الجديد ؟!

وأوشك أن يضحك · لكنه كتم الرغبة فى نفسه · وتنهد ··

ـ أنا لا أريد غير راحة الضمير ··

وسرح فى تفكير عميق ··

ـ أريد أن أستريح ·· أستريح ·· أستريح ··

- ١٩ -

وهكذاتمت صدمة الميلاد · واغتسل الطفل الالهى بماء الألم المقدس · ولم يعد يفزعه ذلك الوجود المفاجىء فى عالمنـــا الغريب والمعقد هذا ·· تلاشت الصرخات ، وحل فى العينين سلام عميق ، ثم لم يلبث أن استسلم لنوم منغم هادىء وطويل ومريح ··

وحينما استيقظ ، كان قد حدث الشىء الغريب ·· لم يعد الطفل طفلا · كان « العقل » قد دخل مرحلة التكوين ·

* * *

ولقد بدا كمال ادهم فى الأيام التالية لانفجار الأزمة ، غريب الملامح ، غريب التصـــرفات على نحو اثار تســـاؤل كل المعارف والأصدقاء ، وأزعج بشكل خاص زوجته سناء : فلا هو بالضاحك ولا هو بالباكى · انما هى عينان واسعتان تحدقان ــ فى صمت ــ فى كل الاشياء · أجل كل الأشياء ، كانما يرأها لأول مرة فى حياته

ويريد أن يعرف ســــرها : كيف ؟ ولماذا ؟ ومن أين ، والى أين المصير ؟ ٠

ولم تعد تواتيه فرصة لأن ينعزل وحده فى حجرة مقفلة ، أو فى احدى الضواحى ، الا ويفعلها على الفور ، ويطلق العنان للتفكير !

ولم يكن معنى هذا ان كمال أدهم تحول فجأة الى زاهد أو الى فيلسوف ٠ أبدا ٠ لقد كان أول قرار اتخذه مع نفسه ، أنه استبعد فكرة المصيف ٠ واهتم بتطوير عمله فى المصنع ، وبدأ يعود الى السوق والى الحياة والى العملاء والى الأسعار يرصد حركة الصعود وحركة الهبوط ٠

وكانت قضية الاتهام قد هدأت فى نفسه الى حد كبير ، مغلبا عنصر العقل على عنصر الانفعال ٠ وبدت رغبته فى الدفاع عن نفسه وكأنها انتهت أو استنفدت ٠

ولم يعد يعبأ الى أى مدى يمكن أن يتطور اليه الاتهام ٠ فلتكن النتيجة ما تكون ٠ أو لم يحدث التكفير ؟!

وهكذا هدأ البركان وران الصمت العميق ٠ وبدا سير الأحداث وكأنه توقف تماما ٠ بل وكان يخيل اليه أحيانا أن « عزة » وأخاها « شوقى » وأمهما ، انما هم شخصيات من الأحلام ٠٠

الى ان كان أحد الأيام ٠٠

كان عائدا بعربته من المصنع بعد الظهر ، فى موعد خروج الموظفين ، وتوقف عند اشارة مرور نفق العباسية ٠ وراح يرقب سيل العربات والأتوبيسات المكدسة بالناس ، وفجأة ، أحس كما لو أن قلبه ينخطف ، وأسرعت أنفاسه ، وأوشك ان يصيح بلا وعى ٠٠

ـ شوقى ·· شوقى الشريف ·· شوقى الشريف ·

رأى الابن يجلس فى أحد الأتوبيسات ، بجوار النافذة ، ساهم النظرات ، لكن ماحدث كان فى لمحة ، فقد مضى الأتوبيس فى انطلاقه بحمله البشرى الرهيب · وبقيت صورة شوقى كما رآها من نافذة الأتوبيس : أحس كمال أدهم بالحنين وبالعطف ·

هل انتهت تماما علاقتهما ؟!

وتذكر ـ خجلا ـ وعده له : ان يكلم له مصطفى سيف ليساعده على النشر ·· لقد نسى الحكاية تماما ·· نسيها حتى برغم أنه التقى بمصطفى سيف ·· « لا ياشوقى أعدك · أنى لازلت عند وعدى ·· أنت ولد تستحق المساعدة · أجل · وبصرف النظر عن أى شىء (وتذكر قلبه ، فأسرعت أنفاسه ، لكنه لم يلبث أن تماسك · وتجهمت ملامحه وأخذت طابع التحدى) · لن أكلم لك أحدا · ستقولون عنه انه الثمن · لن أدفع لك رشوة · أنا لم أرتكب جرما !

وعاوده وجه الابن كما رآه فى نافذة الأتوبيس ، شاحبا ·· « وهل أنا اتهمتك بشىء ؟! من أول لحظة كنت معك » ·

(وأضعفه الحنين) نعم ياشوقى · (وزفر) سأكلمه لك ·· يجب أن أن ننظر الى الموضوع نظرة أوسع وأشمل · المسألة أكبر من أن تحسب على أنها رشوة أو ثمن · اكبر من هذا بكثير · لقد تغير تفكيرى فى الموضوع · ولنفترض أنك انسان غريب وأستطيع مساعدتك ·· لابد أن أفعلها ·

يجب ـ انسانيا على الأقل ـ مساعدتك ··

وأخذ نظرة من الناس وهو يمر عليهم بالعربة « ليتنى أستطيع مساعدة الناس جميعا » · وتذكر ألفاظا لمصطفى سيف ، كلمات

أصبحت تعاوده كثيرا : « أنت بالقلب الجديد ده تقدر تغير من العالم ياكمال » • (وابتسم) أنا لا أريد أن أغير من هذا العالم ياعم مصطفى أريد فقط أن أغير من هذا الولد • فهل نستطيع • هل تساعدنى فى ذلك ؟!

ورأى مصطفى سيف ، يعطيه - برغم انشغاله - كل وجهه ويبتسم : وهل أستطيع أن أرفض طلبا لكمال أدهم يا أستاذ كمال أدهم ؟! •

وشع وجهه بحالة رضى • ومضى بعربته يواصل الطريق الى البيت ••

وفى نفس اليوم ، كانت الفكرة تتحول الى موقف ، اتصل تليفونيا بمصطفى سيف ، وأخذ منه موعدا للابن •

ولكن •• من سيبلغ شوقى بالميعاد ؟!

آه : يحيى •• وسوف يقوم بالمهمة بحماس •

❋ ❋ ❋

هكذا كان كمال أدهم يفكر فى الموضوع • أما يحيى البدرى فقد تلقى طلبه بطريقة مختلفة تماما •

وقد أوشك من الوهلة الأولى ، أن يقول له رافضا بقوة : لا •• لن أقوم بهذه المهمة ، واتركنى فى حالى أرجوك ، الى هذا الحد وكفى ••

غير أن عينى الرجل وهما تنظران اليه فى عشم ، كبتت فى نفسه كل الكلام ، وتذكر يحيى صورة كمال منذ أيام ، وهو يكاد يتمزق من

فرط الاحساس بهول الاتهام ، ثم تطوعه بمواجهة البنت لابادة هذا الاتهام ، من يدرى ، أجل ، ربما هذا الهدوء الغريب الذى حل عليه انما هو نذير بهبوب عاصفة جديدة ، وأن هذا الموعد لشوقى مع مصطفى سيف ، انما هو فى الحقيقة ليس الا تمرغا وتهافتا على أعتاب البنت يلتمس منها الغفران ٠

لايزال الرجل يتعذب فى صمت ، فلأقف بجانبه ٠ سأظل عند وعدى ياكمال ٠ سأذهب ، وسأواجهها ٠

ولكن ٠٠

فليكن هذا هو الدور الأخير لى معك ياكمال ٠ لنكن صرحاء ٠ لم يعد لى هنا مكان على الاطلاق ٠ ألغيت فكرة سفرك الى المصيف ٠٠ أصبحت تأتى بانتظام الى مصنعك ، وتشرف بدقة على كل صغيرة وكبيرة ٠ وجودى فى المصنع معك أمام العمال أصبح مضحكا ٠٠ لا كلمة لى ولا رأى ولا حل لمشكلة ٠٠

صلاح عبد الهادى ، حلال المشاكل ، أصبح معك كل يوم ٠

فليكن هذا هو دورى الأخير معك ٠ ثم بعد هذا ، يكون الوداع ٠

- ٢٠ -

وهكذا انطلق يحيى البدرى ، الى مهمته الغريبة بحماس شديد .. كان الوقت قبل الغروب بقليل . وقد ارتدى أحسن ثيابه الصيفية . واختار أيضا تاكسيا جديدا ومريحا ، فبدا أنيقا ووسيما وعلى مستوى . وأشعل سيجارة . وراح يجذب منها أنفاسا بعمق ، ثم يخرجها من صدره بهدوء وثقة .

ومع كل لحظة كان ينطلقها التاكسى . كان يدرك أنه يقترب من البيت . وبدأ يتوتر .

استيقظ فيه الشعور بالمغامرة ، وتحفز فى جلسته ..

سأل نفسه :

ما الذى سأقوله للبنت ؟! (نسى تماما حكاية تبليغ الموعد لشوقى) كيف يجب أن تبدأ المواجهة ؟!

وبرغم أن يحيى ، منذ أن قرر مواجهة البنت ، كان يقضى الساعات حتى وهو فى المصنع فى عز ضجيج المكن ، يتخيل نفسه

معها ، فى مواجهة يحدثها ويناقشها بعنف ، بل ويهاجمها بقوة ، الا أنه أحس الآن · فجأة ، بأن كل الكلمات وكل المناقشات التى أجراها معها فى الخيال قد طارت من رأسه ، ولم يبق منها أى شىء · لم يبق سوى الواقع المجهول الذى سيجد نفسه فى مواجهته بعد قليل · وداخله الخوف من الفشل · وتحفز أكثر فى جلسته : لقد وضـــع نفسه فى امتحان ، ولابد أن ينجح فيه · سيجعل منه ــ لو اقتضى الأمر ــ معركة ، وينتصر فيها !! ··

غير أنه لم يلبث أن ابتسم وقال ساخرا من نفسه ، ومن البنت ، وتراخى فى جلسته :

ــ أى معركة ؟! المعارك كانت زمان يا عم يحيى · زمن المطاردات وتحدى السلطة والصراعات ، وعذاب الزنازين ، ومجابهة الموت فى كل لحظة · المعارك الحقيقية هى التى يحتمل أن يفقد فيها الانسان حياته · (وندت عنه زفرة حارة) مات منا البعض ياعزة ·

استشهدوا · قليل من الناس هم الذين يعلمون ·· آه لو أحكى لك قصة فترة عظيمة من فترات الكفاح فى تاريخ بلدنا · (واكتسى وجهه بوجوم مفاجىء ، وارتعشت شفته الغليظة السفلى بالغضب) مازلت أعيش ، وسأظل أعيش · هل تسمعين ياست نبيلة ؟

هكذا تذكر خطيبته التى تخلت عنه وهو فى الســـجن ، ورآها تبكى على الحب الذى ضاع · وما فائدة البكاء الآن يامدام ؟! الانسان الحقيقى لا يترك للغير تقرير مصيره حتى ولو كان هذا الغير هو أبوه · اسعدى برحلاتك الدبلوماسية فى بلاد العالم · أما أنا فلا زلت كما أنا ، وعلى أحسن ، وسأتزوج · وسترين زوجتى · يوما سترينها معى · ورأى نفسه يسير فى أحد الشوارع وذراعه فى ذراع زوجته ، ونبيلة تقابلهما صدفة · ويحييها بهزة كبرياء صغير من

راسه ، ويرى الحزن فى عينيها والندم · ثم يلتفت الى زوجته ليحكى لها القصة القديمة ·· و··

فجأة تنبه فى جلسته ، وهز رأسه ليفيق من حلمه الغريب ·· كان قد فوجىء بأن زوجته التى اصطحبها فى الخيال هى « عزة » ورآها صورة مصغرة من أمها حين رآها فى الزيارة الأولى ·· واختلط الحنين فى قلبه بالخوف ، وأسرعت أنفاسه : هل يمكن ؟

واستنكر مع نفسه الخاطر بشدة ، كأنما يعتذر · كيف سمحت لنفسى أن أفكر بهذا الشكل (وعاوده التحفز فى جلسته) أنا ذاهب لمهمة محددة · وقد أواجه بفتاة خطيرة · تلك التى زعزعت حياة رجل مثل كمال ادهم ، من مجرد لقاء · يجب أن أدخل على الموضوع بشكل حاد · أن أساعد الرجل · أن أذكرها على الأقل بانسانيتها · أن تتصرف معه بنبل · أن يعيش الانسان بروح العطاء · أن تعرف المعنى الضخم لنجاح عملية نقل القلب · أن ·· وأن ·· وأن ··

وان لم تقتنع فهى متوحشة ، وليست انسانة · واذن يجب أن تتعرى ، وتبدأ المعركة ·

وجذب نفسا عميقا من سيجارته ·· ولكن · لاداعى لاستباق الأمور ·· المهم أن أجدها هناك · ان لم أرها هذه المرة ، فلن أعود الى هذا البيت أبدا ، وسيكون الرحيل ، الرحيل من البلد كلها ·

كان التاكسى يمضى ··

وفجأة ··

لاحت بيوت عين شمس من بعيد ··

* * *

فى تلك اللحظة ، كانت « عزة » جالسة وحدها فوق السطح تستذكر دروسها · وبين الحين والحين ترفع عينيها عن الكتاب ، وتنظر الى أول الشارع من بعيد ··

وكان يبدو على وجهها الصغير الدقيق القسمات ، الشحوب والاجهاد « وبدا من نظرات عينيها وهى تمد بصرها الى نهاية الشارع الطويل ، أنها تنتظر مجيء انسان ·

انسان ما !

وبرغم أنها كانت تتوقع ظهور « هالة » صديقتها وزميلتها ، فى أى وقت لكى تستذكر معها ، وتشجعان بعضهما فى هذه الأيام العصبية التى تسبق الامتحان ، الا أنها كانت تبحث عند نهاية الشارع عن انسان آخر يظهر ·· انسان ما !!

وكانت عزة قد قد انتهت من فترة تخيل احتمال ظهور أبيها فجأة ويعود اليها والى الحياة · فقد جاءت زيارة « كمال أدهم » لهم فى هذا البيت حيا يسعى على قدميه ، وبقلب أبيها ، بمثابة القضاء النهائى على ذلك الحلم الجميل ، والى الأبد :

أن يعود الميت ··

وقد ساعدها أيضا على التخلص من هذه الرؤية الأليمة ، اقتراب شبح الامتحان ، ولابد أن تنجح · فبدأت تغرق نفسها فى الاستذكار · وكان الموقف الذى انفجر منها يوم الزيارة قد وسع هوة الصمت بينها وبين أمها وأخيها شوقى ، ونادرا ما أصبحت عيناها تلتقى بعيونهما · وأصبحت تتصرف فى البيت كانسانة وحيدة . تلتمس القوة من وحدتها ، بل وتضر عليها غير أن عمرها الغض ، واحساسها الغامر بالحياة ، كان يتحول أحيانا ، خصوصا مع ساعات الغروب

واقتراب الليل ، الى صرخات عذاب تجأر بها أعماقها وتهفو الى انسان ·· انسان ما ، تلقى اليه بهذه الصرخات ويحتويها ، ويهدهدها ، وتصب فى كفيه كل الدموع ·

ولكن أين هذا الانسان ·· ؟

الشارع لايزال خاليا · مصفرا من أثر الرمال ··

فجأة · ظهر تاكسى ··

وتنهدت : ماذا لو يقف هذا التاكسى امام البيت ·· بيتنا ؟!

ومضت عيناها مع التاكسى وهو يقترب من البيت ، وفى الوقت الذى توقعت فيه أن يواصل ويمضى ، توقف · ولدهشتها توقف أمام بيتها · من يكون ؟

ونهضت واقفة ، وراحت تطل من على السور ، ورأت شابا أسمر أنيقا يخرج من التاكسى ··

وأول ما فعل ، حتى قبل أن يدفع للسائق أجرته ، رأته ينظر اليها مبتسما · كأنما يعرفها من زمن طويل · ورأت على شفتيه وفى عينيه كلاما · وارتبكت · اندفعت الى وجهها دماء الخجل ، وأوشكت باللاوعى أن تتراجع وتختفى ، لكن الكلام كان على شفتيه · ما اشفتيه غليظتين هكذا ؟ · وتضايقت من نفسها ، مالى وغلظة شفتيه · غريب أخطأ العنوان ؟

وقالت له بعينيها : من تريد ؟

وجاءها صوته مهذبا وواضحا :

ـ بيت الأستاذ شوقى الشريف ؟

وردت من فوق السطح ، بحماس :

ـ أيوه بيته · (وتحكمت بسرعة فى حماسها وهدأ صوتها) : اتفضل ·

ـ موجـــود ؟

وبهدوء :

ـ أيوه موجـــود ··

ظل واقفا · ناظرا اليها بابتســامة : كيف اتفضـــل والباب مقفول ؟!

ووجدت نفسها تهبط السلالم قفزا وفى يدها الكتاب ، ثم تجتاز ممر الحديقة ·· لتفتح له الباب ··

- ٢١ -

وفى اللحظات التى اختفت فيها « عزة » من على السطح وهبطت السلالم فى لهفة لتفتح الباب لهذا القادم المجهول ٠ كان « يحيى » واقفا أمام السور ٠ دفع للسائق أجره ، وعاد ينظر الى سطح البيت ، حيث كانت تقف عزة ، أول منظر رآها فيه ٠ وقد بدت فى عينيه ، بشعرها النازل على الجانبين ، كالطيف الباسم الحالم فى ضــــوء الغروب ٠ سن العذارى والخيالات والحنين ٠ وتحرك حنينه ٠ وأكد ابتسامتها فى نفسه كأنما يسجلها أو يحفرها فى ذاكرته ٠

وتفاءل ، وفكر بسرعة : أهذه هى عزة : لابد هى عزة ٠ نعم هى عزة : انها أكبر قليلا مما تخيلتها ٠ واكثر وداعة ورقة ، وفيها حياء ٠ وتذكر « كمال أدهم وأزمته ٠ اكان يبالغ ٠٠ ؟ ربما ليست هذه هى عزة ٠٠ !

وفتحت البوابة ٠ ورآها لأول مرة بأكملها ٠ كانت بسيطة جدا ٠ لاشىء فيها نشاز : فستان واسع تركواز من التيل الخفيف

وفى قدميها صندل بسيط ورقيق يكشف عن معظم قدميها ، وشعرها أسود فاحم ، ينسدل على كتفيها فى هدوء ، وفى يدها كتاب ٠

استراح لمنظرها ، بل وفرح به وأحبه ٠

والتقت عيناه بعينيها فى ابتسامة خاطفة ، قالت مرحبة بهدوء :

ـ اهلا وسهلا ٠٠ اتفضل ٠٠

ـ متشكر ٠٠

تهيب الدخول للحظة ٠ لا يريد ان يبدو مقتحما للمكان ٠ كانت واقفة فى انتظار أن يدخل ٠ دخل خطوتين ثم توقف ٠

وهمت عزة بأن تقفل البوابة ، أسرع هو يعفيها من المهمة ٠٠ وقفلها ٠ التقيا فى ضحكة عفوية خفيفة وشكرته ٠

ـ مرسى ٠٠

ـ العفو ٠ على ايه ٠٠

وعاودها الحياء ٠٠ قالت وهى تشير على الفراندة :

ـ اتفضل أستريح ٠ وأنا حادخل أنادى له ٠٠

واتجهت الى الداخل ٠ غير أنها قبل أن تصعد سلالم الفراندة ، توقفت فجأة ، واستدارت اليه ، بابتسامة معتذرة :

ـ أقول له مين ؟!

قال بثقة وهدوء ، وعيناه فى عينيها :

ـ يحيى البدرى ٠٠

ورأى اهتزازة خاطفة تحدث فى العينين العسليتين ، وبدا

عليها أنها تريد أن تتذكر شيئا · هذا الاسم سمعته مرة من قبل : متى ·· متى ··

وفكر أن يقول لها بسرعة : أنا جيت هنا مرة قبل كده ·· وماكنتيش موجودة للأسف ، يوم ما أخذت الميعاد للأستاذ كمال أدهم ، عشان يزوركم ·· و ··

لكنه تردد · أشفق على اللحظة الجميلة اللطيفة من أن تنكسر · وتنبهت عزة الى ان وقفتهما وحدهما هكذا فى الحديقة ربما تكون قد طالت · فاستدارت بسرعة تصعد سلالم الفراندة · وقبل أن تنتهى منها ، رأت شوقى أخاها يخرج الى الفراندة · على وجهه سأم · وما ان رأى شخصا غريبا فى الحديقة ، وأخته معه ، أو كانت لابد معه ، هى التى فتحت له الباب ، حتى اربد وجهه ، ونظر الى يحيى نظرة تحفز وريبة · ونظر الى أخته يستفسر بعينيه · قالت بسرعة :

ـ الأستاذ يحيى البدرى ·· جايلك ··

ما ان سمع شوقى الاسم ، حتى صاح على الفور بحماس :

ـ أهلا أهلا ·· أستاذ ·· اتفضل ··

واندفع يهبط السلالم اليه · وشد على يده بحرارة ·

تسـمرت عزة فى مكانها بالفراندة : ما هذا ؟ انه بالتأكيد يعرفه ··

وقال شوقى مواصلا ترحيبه :

ـ حضرتك اللى رديت على فى التليفون فى المصنع · مش كده ؟!

ـ أه فعلا ·· وبلغت سلامك للأستاذ كمال أدهم ·

ـ ألف شكر ٠٠ وازى صحته ٠٠ وحاله عموما ؟!

ـ بخير والحمد لله ٠٠ أصبح بيروح مصنعه بانتظام ٠٠

ـ كده عال عال ٠٠ الحمد لله ٠٠

كانا قد صعدا الى الفراندة ٠ وكانت عزة لاتزال واقفة ، شبه مسمرة ٠ انما استدارت بوجهها الى الداخل ، كى تخفى الصدمة التى حدثت لها بسماع اسم كمال أدهم ٠ ما الحكاية ؟

وقال شوقى وهو يمسك بأحد المقاعد ويقربه من يحيى :

ـ اتفضل استريح ٠٠

قال يحيى ليبرر مجيئه وجلوسه :

ـ الحقيقة أنا جاى علشان أبلغك ميعاد مع الأستاذ مصطفى سيف ٠٠ الكاتب ، اخد هولك منه الأستاذ كمال أدهم ، عشـــان موضوع قصصك ومسرحياتك والميعاد بكرة الساعة تسعة ٠

قال يحيى هذا ، ورأى فرحة كبرى ، أشبه بفرحة الأطفال تنفجر فى كل كيان شوقى ٠٠

ـ أنا متشكر جدا جدا ٠٠ ليه بس التعب ده ٠٠

ـ ولا تعب ولا حاجة ٠٠

وجلس ٠٠

سرته فرحة شوقى ٠ واختلس وهو يجلس نظرة من عزة : فوجىء بانقلاب يحدث فى ملامحها ، حتى خيل اليه أنها استبدلت بانسانة أخرى ٠ وأحس بالخطر ٠ هذه اذا هى عزة كمال أدهم ٠٠ أكان من الواجب عدم ذكر اسمه أمامها ؟ كيف ؟! وابتسم ساخرا من نفسه ٠ ذلك صلب المهمة التى جئت من أجلها ، وليس الميعاد ٠

من الخير ان تبدأ الحقيقـــة فى الظهور ، وبسرعة · ولتبدأ ـ اذا شاءت ـ المعركة ·

وقال لشوقى بلهجة مهذبة وهو ينظر اليها :

ـ مش حضرتها الآنسة عزة ··

ـ آه ·· أختى عزة · ما تقعدى ياعزة ·· الأستاذ يحيى مش غريب ··

وجلست فى هدوء · مشيحة بوجهها بعيدا · لكن أذنيها كانتا تنصتان بحدة · وكانت تفكر بسرعة ، وثمة بريق غريب يطل من عينيها : ما هذا الذى يحدث ؟ سلامات وتحيات وتليفونات فى المصنع ومواعيد · بدأ الرجل يدفع لك الثمن ياسى شوقى · ثمن قلب أبيك · تعالى يا أمى واسمعى · تحقق كلامى · المتوحشون · يتكتلون ضدى · وهذا الذى أسمه يحيى البدرى · مخادع هو الآخر · خدعنى بمنظره ، وطريقة دخوله · لم أكن أتصور ·

وانتابتها رغبة فى أن تنهض معلنة رفضها لكل هذا · وتعاود جلستها فوق السطح ، حتى تأتى « هالة » وتستذكران · غير أنها وجدت نفسها مربوطة بالمكان ، وقد استيقظ فيها الفضول ، والتحفز ·

وقال يحيى البدرى ·· مواصلا تبليغ الميعاد ، وتأكيده :

ـ والمقابلة حتكون أولا فى المصنع مع الأستاذ كمال · وبعدين تروحوا مع بعض لمصطفى سيف ··

ـ وهو كذلك ··

انتهى تبليغ الميعاد · حلت لحظة صمت قطعها يحيى بسرعة بأن أخرج علبة سجائره · وأوشك أن يعزم بسيجارته على شوقى ·

الا أن هذا انتفض واقفا وقال معترضا بلهجة لطيفة ولكن حاسمة ، معبرا عن شكره وامتنانه :

ــ ولا يمكن ·· السيجارة دى لازم تبقى منى ··

ــ منى أو منك ·· مفيش فرق ··

ــ معلهش ·· أرجوك ·· لحظة واحدة لو سمحت ·· أجيب علبة السجاير ··

ولم يعبأ شوقى باعتراضه الضاحك ، واندفع داخل البيت ··

وهكذا وجد « يحيى » نفسه مرة اخرى ، وحيدا مع عزة ·· ونظر اليها على أمل · لو تعود الى وجهها بسمة اللقاء الأول ·· غير أنها كانت قد أشاحت عنه بوجهها اكثر · وبدا جانب وجهها بخصلات شعرها غريبا بل ومخيفا ·

وتعجب فى نفسه كيف تم هذا الانقلاب فى لحظة · شخصيتان هى عزة !

وود لو يقول لها : لماذا تفسدين جمالك بهذه الطريقة · كنت رائعة الجمال منذ لحظة · انسى ياعزة · وابدئى الحياة · آن الأوان · كلنا · كلنا يجب أن نبدأ الحياة من جديد · بشكل ما يجب أن نبدأ ·

وأحس برغبة شديدة فى أن يقول لها أى شىء يخرجها من صمتها ، ورأى الكتاب فى يدها · قال مجازفا بأى كلام ·

ــ واضح أن الامتحانات قربت ··

ــ آه ··

قالتها مغمغمة · وبلهجة من لا تريد منه أى كلام أكثر من هذا

احس بالاهانة · واستيقظ فيه الشعور بالتحدى · « هل تتصورين أنك ستعذبينني مثلما عذبت كمال أدهم ؟!

لا ياست عزة · أنا غير كمال ·· كمال اصبح رجل سلام ·· ولهذا ، فقد أطاحت به صدمة الاتهام من أول لحظة · أما أنا ، فمستعد للدخول معك فى معركة · وسأبدأ أنا الطلقة الأولى ··

ورأى شوقى يعود مسرعا بعلبة سجائره ، كانت الفرحة لاتزال على وجهه · وقدم ليحيى سيجارة · أسرع يحيى باشعال سيجارته له · وفوجىء الاثنان بعزة تنهض من جلستها دون استئذان ·

صاح شوقى على الفور :

ـ ايه ياعزة ·· رايحه فين ؟!

توقفت · جاءت عيناها فى عينى أخيها « أهكذا ياعزة » ؟ الدنيا تتفتح أمامى · هل تكرهين الخير لى · أم تريدين عاصفة جديدة ؟!

ترددت قليلا ثم غمغمت وقد رسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ·

ـ حاعمل لكم شاى ··

فرح شوقى بالرد · نعم هكذا ياعزة يجب أن نبدأ · كاد الحزن والضياع يقتلنا ·

قال والشكر يطل لها من عينيه :

ـ يعنى حنشرب شاى من ايدك ·· يبقى هايل ··

والتفت الى يحيى البدرى وقال يقدمها :

ـ أختى فى كلية الفنون ·· السنة النهائية ··

صاح يحيى فى دهشة ممزوجة بالفرح الصادق :

ـ فى السنة النهائية ؟! ده يبقى شىء عظيم جدا جدا ·· (وابتسم لها) ويبقى كمان لازم نعفيك من عمايل الشاى ، عشـــان مانعطلكيش ··

لم تعلق على كلمته بشىء · ظل وجهها جامدا كما كان ·· واستدارت ودخلت فى هدوء ··

حلت على الشابين لحظة صمت · احس يحيى البدرى فجاة ، بكآبة ثقيلة تغزو روحه · وبشىء يشبه الظلام يظهر ويتوقف أمـــام عينيه · « ضربات الماضى تلاحقك يايحيى » :

البنت « شهادة عالية » وأنت ؟ ساقط ثانية تجارة · لم تجرؤ على الاعتراف · هل تستطيع أن تقدم نفسك · ماذا تقول ؟ · ورأى البنت شامخة عليه · سيكون هذا أول سلاح ضدك فى المعركة ·· وأحس بكيانه يهتز ·· الهزيمة ·· وانتفضت أعماقه:لا ·· هذه العقدة اللعينة انتهيت منها من زمن · عقدة « الشهادة العالية » خرافة · كذبة كبيرة · زملائى الذين كانوا معى حصلوا على البكالوريوس ، معظمهم بؤساء تعساء بعضهم حتى الآن يقترض منى النقود بانتظام · قبرهم البكالوريوس · وانت ياست عزة · فيم ستفيدك شهادة الفنون العالية · أى فنون هذه التى تأخذيها · الفن الحقيقى هو فن الحياة · أستطيع أن أعلمك فن الحياة ··

وعاودته الثقة بنفسه ، وصفت ملامحه ··

ونظر الى شوقى من جانب وجهه · كان الفتى يجذب أنفاسا من سنيجارته ، ناظرا فى اتجاه السور ويحلم · وبدت عظام وجهه ناتئة · ملامحه جميلة ، لولا صفرة خفيفة فى البشرة · لابد أنك

تتعذب كثيرا من حكاية دبلوم صنايع هذه . لا يهمك .. قال مشجعا وقد لبسته روح الأستاذ .. :

ـ أرجو أنها تكون بداية طيبة لك ككاتب ان شاء الله .

قال شوقى مبتسما فى هدوء :

ـ وأنا كمان أرجو هذا ..

(وبدت عليه انفعالة خفيفة) أنا مش عايز حاجة ، أكثر من أن انتاجى يأخذ فرصته فى النشر .

قال يحيى مشجعا ، باذرا فى نفسه بذور الأمل :

ـ لازم حيتنشر ان شاء الله . مادام عمل جيد تاكد أنه حيتنشر ، وحاتكلم أنا كمان مع مصطفى سيف .

ـ حضرتك تعرفه .. ؟!

ـ أعرفه كويس جدا طبعا . كنا زملاء مع بعض فى السجن فترة ..

بدت الدهشة على شوقى ..

ـ سجن .. ؟!

ضحك يحيى بثقة ، مغلفا ثقته بنوع من المداعبة .. :

ـ سجن سياسى طبعا .. مش حاجة تانية والله ..

(ضحك شوقى للنكتة . وواصـــل يحيى) كنا مع بعض فى زنزانة واحدة ست شهور . كان يكتب وأنا أقرأ .. كانت أحسن فترة له فى الكتابة . كنت تحس فى كتابته بالحرارة ، والمشاعر الانسانية الصادقة ..

رسكت ··

قال شوقى بلهفة :

ـ ودلوقت ·· ايه رأيك فى كتابته ؟!

فوجىء يحيى بالسؤال · وجد نفسه دون أن يقصد ينزلق الى مطب الهجوم على مصطفى سيف · هل هذا وقته ، والفتى ذاهب اليه ليجرب حظه ، ويطلب منه المساعدة ؟! وتردد ··

غير أن عينى شوقى كانتا تحملقان فيه بثبات ، ينتظر الجواب · هل يبدو مترددا جبانا أمام شوقى ؟! · لا · فلنحطم الآلهة · ما الذى تفعله هذه الآلهة الآن · يعيشون فى العسل · يلبســـون الموهير ويركبون العربات ، ويكتبون من المصايف ، ويتشدقون بالاشتراكية ·

ـ أنا رأيى انه فقد حرارته القديمة · صنايعى كويس وبس · لكن روح ، وثورة · ماعدش ·

ـ وليه ماعدش ؟!

ـ عشان أستريح · مش هو بس · كل الجيل بتاعه · مفيش شـــك أنهم لعبوا دور ، وتعبوا جدا فترة ، وبعد ما تعبوا ، جم يستريحوا ، أخذوا على الراحة ، ما قدروش يقوموا تانى ··

أعجبت الصورة شوقى · وضحك لها ··

وقال يحيى :

ـ البركة فيكم أنتم بقى · جيل الكتاب الجدد ··

قال شوقى بحماس ، وقد أشعل كلام يحيى أحلامه وآماله :

ـ المهم بس ناخد الفرصة ··

ـ بالكفاح ياشوقى لازم كل شىء يتحقق · ومادام عندك الموهبة والايمان · الايمان بقضية كبيرة تهم الناس · وده اللى ناقص جيل مصطفى سيف · قضية يؤمن بها من قلبه !

قال شوقى وقد تذكر شيئا ، اراد أن ينصف به مصطفى سيف فى غيابه ··

ـ أنا شايف أن مصطفى سيف بيكتب اليومين دول عن قضية « التجمع الثورى » بمناسبة الانتخابات الجديدة ··

قال يحيى ساخرا ، ولكن بشكل مهذب :

ـ أى تجمع ؟! أنا باعتبره تمييع ، مش تجمع ·

ـ ازاى ·· ؟!

ـ المطلوب دلوقت حزب ·· حزب ثورى ·· مش تجمع ثورى · لازم يبتدى يحصل الاستقطاب ، وفورا ·· كده بكل صراحة ووضوح ·

سرح شوقى · لم يكن للفتى اهتمام كبيرة ومباشر بالسياسة · قال معتذرا بابتسامة : دى قضايا الحقيقة الواحد منا مادرسهاش · انما هى فعلا تستحق الدراسة ·

فرح يحيى بالجملة الأخيرة · هاهو قد بدأ يلعب دورا فى تكوين فكر شوقى · مضى يؤكد دوره ولكن بلطف ·

ـ أنا فى رأيى أن الكاتب الكبير أو الفنان الكبير لازم يبقى عنده وعى سياسى عريض ·

قال شوقى مبديا اقتناعه واحترامه للكلام :

ـ ده حقيقى · بس المهم يعطونا الفرصة · النشر حيخلى

الواحد يحس بالمسئولية قدام القراء ،ويهتم اكتر بثقافته ·· و ·· (وعاد يعبر عن حلمه وهو يضحك) المهم يعطونا الفرصة ·

قال يحيى مؤكدا ·· ومشجعا ··

ــ حتاخدها ·· وحتفتكر القعدة دى ··أول قعدة لنا · وتبقى كاتب كبير مشهور (وابتسم) واجيلك مكتبك واسألك عليك · تقوم تقول : يحيى البدرى ؟ مين يحيى البدرى ؟ آه افتكرت ·

ــ لا ·· مش معقول ·

قالها شوقى وهو يضحك سعيدا بالمداعبة ،وضحك يحيى هو الآخر سعيدا بضحكته وامتزجت الضحكتان · ضحكة سعيدة ·· صافية ·· فيها الرغبة فى التخفف من متاعب الحياة والطيران على أجنحة الأحلام ·

وهما يضحكان · ظهرت الأم فجأة · فىوسط الصالة ، قادمة فى اتجاه الفراندة · وحين رآها يحيى ، كف عن الضحك · ونهض وأقفا فى احترام ··

واذ رأتهما الأم يضحكان ، سمعت رنينا فضـــيا يزغرد فى صدرها · وفكرت لو تعود وتتركهما يضحكان · منذ متى لم تر هذه الفراندة ، وهذه الحديقة ، الضحكات والجلسات · اضحك ياحبيبى · واضحك معه يايحيى البدرى (وكانت قد عرفت من عزة موضوع المقابلة مع الكاتب مصطفى سيف) وربما يكون الأوان قد آن ويزدهر حظك المائل ياولدى · اضحك وافرح · كاد الحزن يقتلنا ·

وتقدمت الى الفراندة فى هدوء · لمينتظر يحيى · تقدم نحوها مسلما باحترام وخشوع · ولمسه ترحيبها الصادق · وأخذ نظرة خاطفة من عينيها · خف منهما حزن المرة السابقة · وثمة ابتسامة

بعيدة على شفتيها تستحى من الظهور · الزمن ملك النسيان كما يقولون · فلمادا لم تنسى أنت أيضا ياعزة ؟!

وقال شوقى لأمه :

ـ حضرتك شفت الأستاذ يحيى قبل كده طبعا · ماكنتش أنا يومها موجود للأسف ··

ـ آه طبعا ·· أهلا وسهلا · خطوة عزيزة ياأستاذ يحيى ·· اتفضل ··

واشارت له بالجلوس · وجلست ، فجلس يحيى ··

ـ وازاى الأستاذ كمال ·

ـ بخير · كويس جدا ·· بيسلم عليكم جميعا ··

ـ الله يسلمه ··

قالتها ، وخرجت منها ـ رغما عنها ـ تنهدة ، هبط لهاقلب يحيى · يبدو أنها لم تنس بعد ·· وكيف · وفكر أن يقول لها أنت أعظم انسانة فى الوجود · أنت خدمت البشرية كلها ، وليس كمال أدهم فقط ·· لكنه أحجم عن الدخول فى الموضوع ·

أصبحت حكاية القلب الجديد فى هذا البيت شيئا رهيبا مرهوبا ·· لم يستقر للقلب الجديد بعد معنى محدد يجتمع حوله أهل هذا البيت ويعيشون · والسبب : هذه البنت · يجب أن تفيق ·

ورآها تظهر فجأة فى الصالة ، تحمل صينية عليها أكواب صغيرة من الشاى · أربعة أكواب · اذن فستجلس معنا ، وتشاركنا الشرب · ربما كانت صدمة وانتهت · وأوحشته ابتسامتها وهى واقفة على السطح ··

واقتربت منه بوجه جامد ٠

ـ اتفضل ٠٠

نهض واقفا يأخذ منها الكوب ٠٠

ـ متشكر جدا ٠٠

وغمغمت

ـ العفو ٠٠

واستدارت لأمها وأخيها ، تعطى لكل منهما كوبه ٠

فجأة ، سمعوا دقات على البوابة ٠ اتجه الجميع بنظراتهم الى الباب ٠٠

قالت عزة بصوت خافت :

ـ يمكن تكون هالة ٠٠

ونهض شوقى وقال :

ـ أشوف مين ٠٠

وقفز بحيويته فوق سلالم الفراندة ، واتجه بخطوات سريعة وطويلة الى البوابة ٠ وفتحها ٠ وقبل أن يظهر أحد للجالسين سمعوه مرحبا بفرح شديد ٠

ـ عزة قالت ان الخبطة دى خبطة هالة ٠٠ أهلا ياهالة ٠٠ تعالى ٠٠

قالت هالة مازحة ، وهى تدخـــل : وأنت ، ماعرفتش أنها خبطتى ؟! طيب !

فجأة ، حبست الكلام فى حلقها · وتضرج وجهها بالخجل ··
رأت شابا غريبا يجلس على الفراندة مع عزة وخالتها ··

وضحك شوقى على الموقف · وقال يشجعها على الدخول :

ـ معلهش · عليك واحد ·· الأستاذ يحيى مش غريب ·

وأشار لها بالدخول · وتقدمته ··

فى لحظة واحـــدة ، كانت قد تغلبت على خجلها ، وعاودها مرحها الطبيعى ، ومضت نحو الفراندة تمشى بخفة وثبات ،وفى يدها كتاب وكراسة · وكان يحيى يرقبها بابتسامة ، لا يدرى لماذا رحب بمجيئها من أول لحظة · اسمها « هالة » ووجودها فعلا يشع حولها هالة من الحيوية والمرح · طويلة · سمراء تميل الى الامتلاء ، وشعرها مقصوص · وعيناها السوداوان ضاحكتان · هذا النوع من الناس يحتاجه فعلا هذا البيت · يبدو ـ بل وبالتأكيد ـ هناك شىء بينها وبين شوقى · ولكنه شىء برىء ·مرحها يبدو من القلبوبسيط· وأنت يا عزة ؟ أليس لك فتى ؟ ألم تعثرى بعد على فارس الأحلام ؟

وقال شوقى يقدم له « هالة » :

ـ الآنسة هالة · خطيبتى · وطالبة بكلية الآداب ··

تغلب يحيى بسرعة على دهشته · أعتبرها مفاجأة سديدة ·· وفرح من أعماقه أن فتاة بكل هذه الحيوية والثقة فى نفسها ، وفى الجامعة أيضا ، خطيبة لدبلوم صنايع هو شوقى · وداخلته روح من التفاؤل ·

ـ أهلا وسهلا ·· تشرفنا ··

وشدت على يده بترحيب ودة ·

وأحس بها انسانة كريمة فى عواطفها · لماذا لا تتعلمين منها يا عزة · ورأى هالة تخاطب عزة مازحة ، فى الوقت الذى تسلم على الأم وتقبلها من خديها ··

– جرى ايه ياست عزة ·· أنت حضرتك قاعدة هنا تشربى شاى وسايبة المذاكرة قومى يالله نشوف شـــغلنا ·· ماعدش فيه وقت ··

قال شوقى ضاحكا : طيب سيبيها تشرب الشاى أولا · وأنت كمان · اقعدى اشربى الشاى ·

قالت هالة وهى تجلس : الشاى بقى يابنتى نشربه فى المعسكر· على المالح فى اسكندرية ··

قال شوقى بخشونة ، ولكن دون أن يفقد لحظة مرحة ·

– كده ببساطة · من غير اذن ولا حاجة ··

رفعت هالة كفها الى جانب وجهها بصورة التعظيم ··

– عايزين الاذن يا أفندم ·· ممكن ؟!

وضحكوا · ورأى يحيى عزة تبتسم · وتفتح قلبه ··

قال شوقى :

ممكن آه ·· بس بشرط · يا كلنا هناك فى النعيم · يانفضل كلنا مع بعض هنا فى الجحيم · جحيم القاهرة · والا ايه يا أستاذ يحيى ··

ووافق يحيى ضاحكا : أنا أفضل النعيم على الجحيم طبعا ··

وضحكوا ··

وخيل ليحيى أن وجه عزة بدأ يصفو .. ورأى نفسه يجرى معها على بلاج الاسكندرية ، على الرمال ، ويسبح معها فى الماء ويضحكان . وأحس بدماء السعادة تجرى فى عروقه . دماء جديدة لم يحس بها من زمن طويل . مثل انسان كان يحيا سنوات طويلة فى صحراء حارة جافة ، ثم انتقل فجأة الى منطقة هواء رخية . هذا العالم الجديد . عالم الشباب . لماذا يحيا الناس كالعواجيز . هذا هو العالم الذى أستطيع أن أحيا فيه . من هذه اللحظة يمكن أن نبدأ جميعا . أيها الأصدقاء . كلكم فى أول الطريق . فلنبدأ جميعا .. وأنا معكم . أمامكم .. يمكننا أن نصنع من هنا جزءا من المستقبل .. وستنضمين لنا ياعزة . ويكون الانتصار .. الانتصار ياكمال يا أدهم . ويومها يستريح القلب الجديد بين ضلوعك . ليتك تأتى الآن ، وتقف فى مكان خفى ، وترى المنظر .

وفوجىء بنور الفراندة يضاء . كانت عتمة الليل قد بدأت تهبط على المكان دون أن يحسوا ، فنهضت الأم وأضاءت النور . ثم دخلت الى الصالة فى هدوء .

كانت الصالة مظلمة . بل وبدت أشد اظلاما فى مقابل نور الفراندة .

وفى أحد الأركان . وقفت الأم فى الظلام ، ومضت تنظر الى المجموعة . كانوا دائما ثلاثة . أو اربعة فى وجود هالة الآن أصبحوا خمسة ..

ومضت تبكى .. فى هدوء .

الميت .. لم يمت .

وتعالت الضحكات .

- ٢٢ -

أحدثت الاضاءة المفاجئة ، أثرا حلوا على نفسية المجموعة ، ونظروا الى بعضهم البعض · لأول مرة فى النور · وبلا أى ارادة اختلس يحيى البدرى ، نظرة من « عزة » فوجىء بها هى الأخرى تخطف منه نظرة كأنما تريد هى الأخرى أن تراه فى النور ، أرخت نظرتها بسرعة ، وقد أحست بالحرج أنه ضبطها تختلس منه نظرة ، وابتسم فى نفسه : ربما ·· ربما يحل عهد الرضا ·

قال شوقى مواصلا لحظـــة حماسه وقد تذكر فجأة أنه لم يقل لـــ « هالة » شيئا عن موعده مع مصطفى سيف ··

ـ بالحق ياهالة · مش أنا عندى ميعاد مع الأستاذ مصطفى سيف الكاتب ·· يوم الخميس الجاى ·· الأستاذ يحيى جابهولى ·

صاحت هالة ، وقد أضاء وجهها بالفرح : ـ صحيح ؟ هايل ونظرت الى يحيى البدرى وقد رأت جانبا جديدا من شخصيته) هو الأستاذ يحيى يعرف الأستاذ مصطفى سيف ؟

قال شوقى مسرعا ، ومكرما من يحيى : ـ أمال · دول أصدقاء من زمان ··

ـ كده ·· عظيم ·· عظيم ··

فرح يحيى بتعبير وجه هالة · لكنه كان ينتظر من شوقى أن يكمل بقية الخبر · أن يقول لها ان « كمال أدهم » هو الذى اتفق له على الميعاد ، لكن شوقى لزم الصمت ، ولم يزد ··

هل يقصد تفادى اسم « كمال أدهم » أمام « عـــزة » حتى لا تشوب الجلسة التى بدأت تتفتح ، اى شائبة ؟

ربمــــا ··

لكنه أحس بالضيق · تلك بداية المعركة · يجب أن تكـــون الحقائق واضحة ، لا أحب أن آخذ لنفسى دور غيرى ··

قال مندفعا مخاطبا هالة ، الحقيقة مش انا اللى اتفقت على الميعاد · الأستاذ كمال أدهم هو اللى اتفق عليه ··

فاجاه وقع اسم كمال أدهم على البنتين · حتى انه أحس على الفور بلسعة ندم · رأى وجه عزة يضطرب ويصيبه نوع من التقلص الخفى · لكنها كانت تجاهد · بينما كانت هالة تقول بدهشة مرددة الاسم على مقاطع ، كأنما تريد أن تتذكر ··

ـ الأستاذ ·· كمال ·· أدهم ·· (وتذكرت) آه ·· اللى ·· (وأوشكت أن تقول لشوقى) اللى انتقل له قلب باباكم ·· لكنها أمسكت · أحست بقشعريرة · هدأت العاصفة ، أو أصبحت فى طريقها للهدوء ، لاداعى للدخول مرة أخرى فى الموضوع · وحانت منها نظرة الى « عزة » نظرة الصديقة التى لها عشم فيها ، ألا تفسدى اللحظة · نعم ياعزة · ومايحدث الآن شىء طيب ·· موقف

كريم من الرجل · وقد تكون بداية لشوقى · يخرج من تأزماته ويأسه وتنتهى مشاكلنا معا ياعزة ··

والواقع ان « هالة » كانت قد عاصرت ، بل وشاركت فى الأزمة التى ثارت فى هذا البيت ، بين عزة ، وأمها وأخيها ، بعد نقل القلب · وبعد زيارة الرجل الذى أخذ القلب ، كانت قد أصبحت الملاذ الوحيد لعزة تلقى اليها بأحزانها وثوراتها · تحاول أن تكون وصلة سـلام بين الجانبين · وساعد هذا على أن تعود المياه الى مجاريها بين « هالة » و « شوقى » · كانت علاقتهما أصـبح شعارها التأزمات والحساسية المريرة ، خصوصا من جانب شوقى ، فقد انطلقت الى الجامعة · وبدأت الأزمات تحول حب الطفولة البسيط الجميل ، الى حساسيات مريرة ، لا يمكن تجنبها الا بالابتعاد عن بعضهما · ثم جاءت عملية نقل القلب ، فوجدت نفسها ترتبط بهم من جديد · فليكن كل شىء من جديد ياعزة · ربما المستقبل يتفتح لأخيك ياعزة · منذ متى لم أر شوقى مبتهجا هكذا · يبدو وكأنه يمتلك العالم بين يديه · ومن أجل حبى أيضا ياعزة ··

قالت بانفعال ورجاء :

ـ ياريت فعلا يا أستاذ يحيى يساعده فى نشر انتاجه اللى مرمى جوه فى الدرج ، خسارة ·

قال يحيى مؤكدا وقد لمسه تعاطف هالة مع شوقى :

ـ أنا واثق أنه حيساعده · تختار كم حاجة تكون أنت راضى عنها ، وتعطيهم له ·

قالت هالة بحماس : خد له قصة « ضل الشمس » قصة جميلة جدا جدا · (وضحكت) فى رأيى أنا على الأقل · (ونظر الى عزة) وفى رأى عزة كمان انا فاكرة · مش كده ياعزة ؟

قالت عزة ، شبه منتفضة ، كأنما تخرج نفسها من بئر عميقة • وغمغمت :

ـ آه • فعلا • قصة حلوة •

قال شوقى وقد بدأت عيناه تشردان ••

ـ أنا باقول آخد معايا المسرحية الأخيرة •

قالت هالة :

ـ الجحيم فى الأرض ؟

ـ آه • ومش طويلة •• من فصل واحد •

ـ مفيش مانع • حلوة برضه المسرحية دى •

الجحيم فى الأرض ؟!

رن الاسم فى رأس « يحيى البدرى » عنوان مثير وجرىء •

ماذا يقصد هذا الفتى بالجحيم فى الأرض ؟! مانوع ايمان هذا الجيل الذى لم يدخل بعد فى تنظيمات ، ولم يتعذب فى سجون ، ولم يرتبط بأحزاب ولا بمعارك ••

وسأل مداريا فضوله بابتسامة :

ـ ايه الجحيم فى الأرض ؟

قال شوقى :

ـ اسم مسرحية أنا كاتبها ، من حوالى سنة ونص ••

ـ عنوانها غريب وجرىء •• ايه موضوعها ياترى ؟

ابتهج شوقى بالتعليق وبالسؤال ، ومع هذا بدا عليه التردد •

ـ الحقيقة موضوعها من الصعب أنه يتحكى · هو حوالين الحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ·

قال يحيى بهلجة جادة ، وقد أخفى دهشته :

ـ ياه ·· لكن ده موضوع خطير جدا ، وحساس ·· ايه وجهة نظرك فيه ياترى ؟

قال شوقى : الحقيقة أنا أفضل أقراها لك بعدين · فى أى وقت تكون فاضى فيه ··

قالت هالة : ياريت تكون فاضى الليلة يا أستاذ يحيى ، وتسمعها وتقول لنا رأيك ··

قال يحيى ضاحكا ـ أنا : رأيى قيمته ايه ؟! أنا راجل مش خبير فى الفن ··

ـ لا · مهما كان ·· رأيك ممكن يبقى مفيد جدا · خصوصا وأنى أنا وعزة حنسيبكم دلوقت ونطلع نذاكر · تقضوا الوقت مع بعض فى القراية ··

ونظرت الى عينيه تنتظر الجواب · فى عينيها رجاء بالبقاء ·· وارتبك · لو عليه يريد أن يبقى · فما الذى ينتظره الليلة ؟ المصنع الآن مغلق · وسيهيم على وجهه فى المدينة ، بحثا عن سهرة · نفس الوجوه التى سئمها · سواء من التجار أو من زملائه القدامى ·· وقد يجد نفسه فى جلسة خمر أو حشيش · والحديث عن الانتخابات يأخذ دورته · وهو لا موقع له فيها · الاحساس بالاختناق ، والغربة ، أينما جلس · يود أن يبقى هنا ، يبقى حتى يطلع الصباح · ولكن :

« بالرضا ياعزة » ·

قالت هالة مشجعة : واضح أن حضرتك تقدر تقعد كمان شوية ·

قال يحيى مستجيبا ، لطلبها ، وفى نفس الوقت لرغبته العميقة ٠

ـ ممكن آه ٠٠ الليلة بالذات ماعنديش حاجة مهمة ٠ مجرد مقابلات عادية مع أصدقاء ٠٠ (وضحك) نضيع الليلة ٠

قالت هالة بحماس :

ـ تبقوا اذن تقروها ٠ قوم ياشوقى هات المسرحية ٠ وأنا وعزة حنطلع على السطح نذاكر وأول ما تخلصوا ، تنادوا علينا فورا (ونبهت بأصبعها ضاحكة محذرة) اوعوا تتناقشوا فيها من غير ما نكون موجودين معاكم ٠

ـ وهو كذلك ٠٠

ونهضت هالة ٠٠ وأخذت عزة من ذراعها ٠ وصعدت الفتاتان الى السطح ٠ وبعد قليل كان شوقى ـ بتشجيع من يحيى ـ ينهض هو الآخر ليحضر المسرحية ٠

- ٢٣ -

بقى يحيى وحده فى الفراندة ، أمامه الحديقة والتكعيبة ، والشجرتان ، وفوقه مساحة كبيرة من السماء مكشوفة • وفوجىء بقرص القمر كبيرا مستديرا صاعدا من الشرق • البيوت معظمها هنا منخفضة • وتخيل سطح البيت ، وعزة وهالة ، تستذكران فوقه ، منهما للقمر وللسماء • ياليالى الصيف (وتنهد) فجأة أحس بغصة فى حلقه • الذكريات • كانت لنا ليال يانبيلة •• صيف أيضا ، وأيضا كانت مقمرة ذقنا فيها طعم الهناء • ارتعاشات الهناء • وكنا باسم الحب نستحل لنفسينا هذه الارتعاشات • نختلسها من الآخرين • •أكان خداعا ؟ • ورأى وجه عزة ، كما تخيله فى ضوء القمر • مهيبا وجليلا وحزينا • من النوع الذى لا يمسه الانسان الا برقة بالغة ، وبأطراف الأصابع • ملامحك أحيانا مثل القديسات • •

وتنبه على الأم قادمة من الصالة فى اتجاهه • انتفض واقفا لها مرة أخرى منحنيا باحترام ، وأســـرعت هى تطلب منه أن يجلس ويستريح ••

وجلسنا ••

ـ أهلا وسهلا ••

ـ أهلا بك يامدام ••

ولمح وهى تنظر اليه ، شعاعا خفيفا من الفرحة يترقرق فى عينيها • خامره احساس بالرضا ، أن يكون وجوده فى هذا البيت مقرونا بنوع من السعادة أو على الأقل : الارتياح • وفكر أن يقول لها أى شىء • أن يملأ الجلسة معها بأى كلام • غير أنه لم يعرف ماذا يقول • بل وداخله الاحساس بالغربة • بقى جالسا مطرقا فى صمت ••

أحست الأم بشروده ••

ـ ياريت الأستاذ يحيى يبقى يشرفنا هنا باستمرار ••

ـ ان شـــاء الله •• (وندت عنه زفرة لا ارادية) ولو أنى مسافر قريب ••

قالت بدهشة : (مسافر فين ؟!

ـ بره • حاشتغل بره •• (وابتسم) مفيش حاجة هنا ورايا اقعد لها •

سرحت عيناها لبرهة • ورأى فيهما نوعا من الأسف ، كأنما تريد أن تقول :

« ياخسارة » وأسعده هذا الشـــعور • كيف فكر أن يخبرها بحكاية السفر • ؟!

ليرى منها هذا الشعور الجميل !؟

قالت مبتسمة فى هدوء :

ـ على كل حال لغاية ما حضرنك تسافر · نبقى نشوفك مع شوقى ··

شكرها مهتزا ، وأراد أن يكافئها على عواطفها ··

ـ وأنا متفائل جدا للأستاذ شوقى ، فى موضوع الكتابة ··

قالت بتنهدة عميقة :

ـ ياريت ·· ياريت يا أستاذ يحيى ··

وأقبل شوقى ـ بجسمه الطويل ـ وهيكله العريض ، يكاد يهرول متحمسا بشكل جاد وخطير ، وكأنما هو داخل على معركة · سلاحه فيها هذه المسرحية التى يمسكها فى يده ·

ـ أهلا يا ماما ··

ـ أهلا بك يا ابنى ··

وقالت الأم وهى تنقل نظراتها بينه وبين يحيى البدرى :

ـ ياريت الأستاذ يحيى يبقى يشرفنا باستمرار ياشوقى ··

قال شوقى بحماس ، وقد أفرحه تعليق الأم :

ـ أمال يا ماما · طبعا · احنا خلاص بقينا أصدقاء · بصرف النظر عن أى شىء تانى · الأستاذ يحيى انسان ممتاز ·

ـ شكرا ياجماعة · شكرا ··

والتفت شوقى الى أمه بنظرات راجية ··

ـ شوفى بقى ياست ماما · احنا حنقرا المسرحية دى ·· من فصل واحد ·· مش طويلة · وعزة وهالة طلعوا على السطح يذاكروا

•• تسمحى تعملى لنا فنجانين قهوة من ايديك الحلوة دى ياست الكل أنت ••

ـ حاضر ياحبايبى ••

أحس يحيى بكيانه كله يهتز فرحا ••

حبايبى •• ؟!

قالتها بأمومة بالغة وحنان دافق ، ومضت ••

التقت عينا يحيى بعينى شوقى ، بلا أى كلام : أجل يايحيى • أنت مثل ابنها • لم لا • مثلى • مثل أخ لى •

وتنهد يحيى : والدتك دى انسانة عظيمة •• عظيمة •

ونظر اليه شاكرا • وحلت لحظة صمت • تذكر كمال أدهم ، والقلب الجديد • والعملية ، فأجفل ، لاداعى للخروج عن الموضوع • قال مشجعا شوقى يحثه على القراءة ••

ـ اتفضل اقرأ • (وضحك وقال) نولع سـيجارة أولا •

واشعلا سيجارتين ••

وبدأ شوقى يقرأ فى المسرحية : الجحيم فى الأرض !

من أول لحظة ، وصف شوقى فيها «الديكور» وجد يحيى البدرى نفسه (بنوع من الابتسامة) مشدودا لمتابعة المسرحية •• فالفتى جرىء فعلا : الأحداث تجرى فى العالم الآخر ••

والشخصيات : مجموعة من الملائكة مع اختلاف فى الدرجات ، هم هيئة المحكمة •

ومجموعة من البشر • مع اختلاف الفئات وفى الطبقـات (عامل ، ومثقف ، وشحاذ ، ومومس • وطفل • ومجموعات أخرى) •

اليوم يوم الحساب . والجو مرعب . بعض الناس ينهارون . يسلمون من أول كلمة بالجريمة والعقاب . ثم ينادى على « المثقف الشاب » ليدافع عن نفسه . واذا بالشاب يقذف فجأة بالقنبلة ..

ـ أنا معترض ..

وتذهل هيئة المحكمة .

ـ معترض ، معترض على ماذا ؟

ـ على المحاكمة !!

ـ ماذا .. ؟!

وتدق طبول الرعب التى تنخلع لها قلوب البشر ، لكن الشاب يظل واقفا بثبات ، لا تهتز منه خلجة ..

ـ نعم أيها السادة .. البشر لا يحاكمهم ملائكة .. البشر يحاكمهم بشر . هنا تتوفر العدالة ، ان كنتم حقا حريصين على العدل كما تقولون ..

وتزمجر الملائكة ..

ـ ولكننا ملائكة . وهذه مهمتنا . انت تعلم انها أوامر .

ـ أنتم تامرون . ولكن ما فائدة الأوامر ، ان لم يكن هناك احساس بالاقتناع ؟!

ـ ماذا تقصد ؟!

ـ لكى أقتنع بحكمكم ، وأنفذه وأنا فى منتهى السعادة ، مهما كانت قسوة الحكم ، لى رجاء واحد . طلب واحد ..

ـ رجاء من فضلك وليس طلبا ..

ـ سمعا وطاعة ، رجاء ، أن تتفضلوا وتتركوا مقاعدكم ·· قليلا ·· لو سمحتم ··

ـ نترك مقاعدنا ؟! الى أين نذهب ؟!

ـ تهبطون الى الأرض التى جئنا منها · تعيشون الحياة التى كنا نحياها ثم بعد هذا ، عودوا الى أماكنكم هذه ، وحاكمونا · سنقبل الحكم حينئذ بمنتهى الحب والاجلال والتعظيم ·

وبالطبع ، تستنكر الملائكـــة هذا الطلب الأحمق · ويتوعدون الشاب بالويل والثبور وعظائم الأمور ، الا أن أحد الملائكة يميل على أذن زميله بهمسة ، وتتقارب رءوس هيئة المحكمة ، ويتناقشون فى الطلب ، أو فى الرجاء : فترة مداولة ·

ثم يقرر الرئيس فجأة : قبلنا الطلب · أجل · فنحن يهمنا أحســـاس المتهم بالعدالة · وبالأمان ، وعلى هذا ، ســـنتقمص شخصياتكم وسنهبط الى أرضكم أيها البشر ، لنبطل حجتكم ··

ثم اظلام للمسرح ·

حين وصل شوقى الى هذه النقطة ، استأذن فى لحظة يشعل فيها سيجارته · أشعل يحيى هو الآخر سيجارة ، ومضى ينظر الى شوقى وهو يجذب أنفاسا عميقة من سيجارته ، كأنما هو فى غيبوبة ، مع أشخاص مسرحيته ·· ووجد « يحيى » نفسه يعقد مقابلة بين وجه شوقى ، ووجه مصطفى سيف · بين التلميذ وأستاذه لا يامصطفى يا سيف · لم تعودوا أساتذة ·· هذا هو الجيل الجديد الذى سيطلع لكم ويهزكم من على عروشكم التقليدية القديمة · هنا بذور حياة كامنة وحرارة ، وثورة تريد أن تتفجر · لابد أن تسمو على نفسك وعلى غيرتك يامصطفى وتتبناه · ويومها سيقول الناس : كاتب جديد ، اكتشفه مصطفى سيف (ومر أمامه وجه كمال أدهم هادئا مبتسما ،

لا يريد أى ضجيج • « لا ليس اكتشاف سيف • بل اكتشاف كمال أدهم فى الحقيقة • أجل ، صاحب القلب الجديد ، يكتشف كاتبا جديدا •• سيهز الوسط الأدبى وربما المجتمع كله • ولمعلعت الصورة فى خياله • وجرفه الحماس لمواصلة سماع بقية المسرحية • ماذا سيحدث للقضاة الملائكة ، بعد أن يهبطوا الى أرض البشر ويعيشوا حياة البشر ؟!

– كمل يا أستاذ شوقى • الحقيقة مسرحية مشوقة جدا ••

وواصل شوقى القراءة ••

ان المسرح يضىء على نفس المنظر • قاعة محكمة الآخرة •• والملائكة عائدون من الأرض ، منظـــرهم غريب حقا • لقد تغيروا كثيرا : كانوا قبل النزول ، بيضـــا ، موردى الوجنات ، مسبسى الشعور باسمى الوجوه • الآن ، شعورهم وملابسهم مشعثة • يبدو عليهم العجز والوهن • ووجناتهم كستها الصفرة ، والتجاعيد • ويجلس الرئيس فى مكانه ، ويصدر حكمه من أول لحظة ، يقول معلنا :

– براءة • براءة أيها الناس ، ايها البشر : براءة !

ويهلل المتهمون البشر ، ويصيحون فرحا ونشـــوة • العامل والفلاح والمثقف والمومس والشحاذ والطفل • الجميع يهتف بعدالة المحكمة •

– تحيا الملائكة •• تحيا الملائكة ••

لكن رئيس المحكمة يعترض فجأة على الهتاف ، بهتاف آخر •

– بل قولوا يحيا البشر ••

– تحيا الملائكة ••

ـ بل يحيا البشر · يحيا البشر ·

الجميع :

ـ يحيا البشر ·· يحيا ··

« ســـتار »

* * *

قال شوقى كلمة : « ستار » من هنا ، وهتف يحيى البدرى عليه من هنا ، بكل الانفعال ··

ـ رائع ·· رائع ·· أكثر من رائع كمان ·

وغمغم شوقى فى خجل سعيد ·

ـ ولا رائع ، ولا حاجة ··

بالعكس يا أستاذ شوقى · حقيقى عمل جميل جداً · فيه نغمة جديدة وجريئة · ولو أن لى ملحوظة واحدة لو سمحت ، يبقى العمل مفيش بعد كده ·

قال شوقى بقلق :

ـ اتفضل ··

ـ عنوان المسرحية · يبقى « يحيا البشر » · مايبقاش « الجحيم فى الأرض » · انقشع القلق من عينى شوقى ، وتذكر أن « هالة » هى التى ألهمته الجملة الأخيرة ، غير ان التردد بان عليه فجأة ··

ـ أنا أقصد جحيم الأرض هو اللى خلا الملايكة تحس باحساس البشر ، وتحكم بالعدل ··

قال يحيى مصرا على رأيه : وماله ماهو ده واضـــــح فى المسرحية ، انما العنوان · لازم يبقى جذاب · ومتفائل ، وله رنة : « يحيا البشر » مش « الجحيم فى الأرض » !

قال جملته الأخيرة بصوت مخيف اضحك شوقى ، وواصل ضاحكا أيضا :

– وما تخافش على الجحيم ياسيدى · الجحيم لسه فى الأرض ما راحش · اطمئن عليه ·

ضحك الاثنان ضحكة سعيدة بلغت « هالة » و « عزة » على السطح · أطلت هالة من على السور ·

– لازم خلصتوا المسرحية ··

– آه خلصـــناها ··

– صحيح · هايل · هايل · ياترى رأى الأستاذ يحيى فيها ايه ؟!

قال شوقى ضاحكا ومداعبا :

– لا مايبقاش كده · أنتم فوق واحنا تحت · يالله انزلوا تعالوا ··

قالت هالة مداعبة :

– وننزل احنا ليه · أنتم اللى تطلعوا ، الرجالة تطلع · على فكرة ياشوقى الجو هنا فى منتهى الجمال ·· والقمر طالع ··

استحسن شوقى الفكرة ·· صحيح · لم لا ·· يحيى لم يعد غريبا · وعزة ؟ اللحظة لحظة سعادة ·· فلنفرح ياعزة ··

والتفت الى يحيى ..

ـ ايه رأيك نطلع . أظن مفيش مانع . وتشوف منظر عين شمس من على السطوح ، فى القمر ! لم يعرف يحيى بماذا يرد.لكنه فى أعماقه كان يريد . يتمنى . وجذبه شوقى برفق من ذراعه مشجعا وهو يصيح على أمه فى الداخل ..

ـ احنا كلنا فوق ياماما ، على السـطح . ياريت تبقى تحصلينا ..

وصعد الاثنان فى خطوات سعيدة مرحة ..

لم يكن أحد على الاطلاق يتوقع هذا الذى حدث . فقد وقف الأربعة على السطح ، فى ضوء القمر ، يتحدثون فى المسرحية .. ومضى يحيى يشيد بها ، وبجرأة الفكر فيها ، وبتمجيدها العظيم للانسان ، وجرفه الحماس فقال مؤكدا رأيه بحكم عام ..

ـ شوقى الشريف حيكون كاتب كبير . وخليكوا فاكرين وقفتنا دى (وضحك) والقمر طالع ، واحنا الأربعة .

وبلا ارادة ، توجهت النظرات الى عزة . كانت شاردة ..

وقالت هالة مداعبة صديقتها :

ـ ايه ياعزة ، سرحانة فى أيه ؟!

ـ أبدا . (وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة . وغمغمت) بالعكس ، أنا فرحانة علشان شوقى .

انتفض شوقى فى وقفته . اندفع يشـكرها . ويربت على ظهرها ..

ـ متشكر أوى يا عزة ، طول عمرك بتشجعينى .

وغمغمت عزة بكلمات غير مسموعة · وأحس يحيى أن الموقف ربما يتعقد فجأة · فلنعد الى الموضوع ، قال مواصلا رأيه فى المسرحية ، وبابتسامة اعتذار لشوقى :

ـ بس أنا لى ملحوظة ، تسمحو لى بها ؟

وتنبهت البنتان ، ونظرتا اليه فى فضول وترقب ، وتحفز أيضا ·

ـ انه يغير الاسم · بدل « الجحيم فى الأرض » يبقى « يحيا البشر » · آخر كلمة فى المسرحية « ايه رأيكم » · هتفت هالة على الفور : اسم هايل · مدهش · فعلا أجمل من الجحيم فى الأرض ·· (ومضت وهى تنظر الى شوقى ، وتردد الاسم بموسيقية « يحيا البشر » ·· « يحيا البشر » حتى له ايقاع جميل ··

فرح يحيى البدرى برأى هالة · بقى رأى عزة · ترى : ما رأيها، أم أنها سارحة عن الموضوع ؟!

غير أنه فوجىء بها تقول ، وقد شدت من قامتها ، ونظرت الى الجميع فى ثبات :

ـ أنا باعترض ··

ـ بتعترضى ؟ ليه ؟

ـ لأن الجحيم فى الأرض فعلا ، زى ما هو فى المسرحية · ليه عايزين تهربوا من الحقيقة ، حتى على الورق ؟

أحس يحيى البدرى بكيانه يهتز ، ولـم يعـــرف على الفور بماذا يرد ··

كان يظن أن المعركة انتهت · فاذا بها هى التى تبدؤها · الطلقة الأولى هى التى أطلقتها :

« يحيا البشـــر » ··

أم « الجحيم فى الأرض » ؟!

كان الاعلان ببدء المعركة ·

- ٢٤ -

غير أن النفس الانسانية ، كما يقول المراكبية القدامى ، سكك ومسالك خفية تجرى متداخلة ومتشـــعبة تحت الســـطح الهادىء اللامع ٠٠

أو ، هى أربعون حجرة وحجرة ، كما تقول ألف ليلة وليلة ، ومهما انكشف سر الأربعين حجرة ، فان الحجرة الواحدة والأربعين تظل مجهولة !

لم يكن اعتراض عزة على التغيير ، مفاجأة ليحيى البدرى وحده كما كان يفكر ، ضربة هو وحده المقصود بها ، كان الاعتراض مفاجأة أيضا لهالة ٠ لأول مرة ، تعلن « عزة » اختلافها معها فى الرأى ، وأمام شاب غريب ، هو يحيى البدرى ٠

وبفعل المفاجأة ، أوشكت هالة أن تسألها : لماذا ؟ لماذا تفضلين عنوان « الجحيم فى الأرض » على « يحيا البشر » ؟!

غير أنها أحست أنها مكبلة ٠ لو دخلنا فى المناقشة ، فسوف يتفجر الموقف ، ويشتعل الحريق من جديد : أبى لم يمت ٠ أبى مات مقتولا ٠ كانت عملية الموت ٠ وهذا هو « الجحيم فى الأرض » ياست هالة ٠ أما أنت بأحلامك وهمساتك وارتعاشات نظراتك مع شوقى ٠ فهذا ما يدعوك لأن تقولى : يحيا البشر ٠

كانت « هالة » تحس أحيانا أن « عزة » تحسدها على لحظات سعادتها مع شوقى ٠ تلك اللحظات التى أصبحت نادرة ، وحينذاك تحس « هالة » نحوها بالنفور والضيق والرغبة فى الابتعاد ٠ وقد حدث ذلك كثيرا قبل « العملية » ، ثم عادت المياه الى مجاريها ، أو بدأت تعود ، فى جو المواساة ٠ وها هى أول مرة تتفتح لهما الحياة بجلسة مثل هذه فى ضوء القمر ، وبحلم جميل فى المستقبل ، تأتى عزة وتفسدها ، برغم أنها تعلم أن كلمة « يحيا البشر » من وحيها هى ـ هالة ـ لشوقى أيام أن كان يكتب المسرحية ٠ لابد أنها تذكر ٠

ومع هذا ابتسمت لها ابتسامة الغفران : لتأخذ المسألة ببساطة، مجرد اختلاف فى الرأى حول « عنوان مسرحية » ٠٠

لابد أن تخرج من هذه العزلة التى تضربها حول نفسها ، بسرعة ٠٠

ـ على كل حال العنوانين الاثنين كويسين (وضحكت ليحيى وشوقى وقد خطر لها خاطر) نسيب الأستاذ مصطفى سيف هو اللى يقرر ٠ أى العنوانين أحسن ٠ ايه رأيك ياشوقى ! تعرض عليه العنوانين ، وتاخد رأيه ٠٠

هزت عزة كتفها هزة خفية ، وبتحد ••

ـ ولو • حتى لو اختار مصطفى سيف « يحيا البشر » أنا رأيى العنوان الأول هو الأحسن ••

كانت عزة قد تبدلت ملامحها فجأة • لم تعد غاضبة ولا عصبية •• انما كانت تتكلم بهدوء وثبات • وفى وقفتها تحد واستعداد للنقاش • وبدت من نظراتها المتحفزة وكأنها على استعداد للحرب فى جبهتين : جبهة هالة ، وجبهة يحيى البدرى • أما شوقى فقد كانت حريصة على ابقائه على الحياد ••

بالنسبة لهالة •• كانت قد قررت أن « تسحب السجادة من تحت قدميها » هى التى استحوذت على الجلسة من أول لحظة دخلت فيها من الباب حتى الآن • ثرثرة • ثرثرة • تثرثرين كثيرا يا هالة •• تموتين فى حب الاستعراض ، تريدين اقناعنا بأنك الملهمة لشوقى أحسن كتاباته • تعالى اذن ناقشينى أمامهما • وأنت يا أستاذ يحيى البدرى • ما الذى تريده ؟ تخدر الجرح ؟! جعل منك « كمال أدهم » لعبة فى يده • فشل معى ويريد الآن أن يدخل عن طريق شوقى ، ويستخدمك فى هذا • كن موضوعيا أيها الشاب ، ولا تعمل هنا حسابا لكمال أدهم ••

أما انت ياشوقى (وخاطبته بنظرة ثابتة كأنما تمتحنه) •

ـ انا رأيى التغيير لازم يكون عن اقتناع شخصى • شوقى هو مؤلف المسرحية ، وهو وحده اللى يقرر ، يغير العنوان أولا •

استفز موقفها « هالة » • قالت بعصبية :

ـ بس أنت بالشكل ده ياعزة بتلغى راى الآخرين ، بتلغى حقهم فى المناقشة ••

قالت عزة على الفور ، وبثقة :

ـ مين قال · بالعكس ·· انا مستعدة للمناقشة ·

حلت لحظة صمت · التقت عيون الجميع فى توتر ·

من يبدأ النقاش ؟

وأحس « يحيى البدرى » أن المفروض ان يبدأ هو · انه صاحب الرأى فى تغيير العنوان · ولكن كيف · كيف يبدأ ؟

كان قد أربكه التغيير المفاجىء الذى حدث فى عزة ، فيها كلها ، فى لهجتها وشكلها · تبددت من أمام عينيه صورة الفتاة الهائمة الحالمة على السطح لحظة الغروب · كما تبددت أيضا صورة البنت الغاضبة النافرة الصموت · وحل محلها انسانة تتحدى ، وترفع راية الهجوم ··

لم يعرف بماذا يبدأ · انه يحس بحرج اللحظة · وحساسية الموضوع ··

قالت عزة منهية الصمت وقد رأت الكل يتراجع :

ـ يعنى ايه « يحيا البشر » ؟! أنا أهتف صحيح للبشر ، يوم ما البشر يحطوا نفسهم قدام بعض ، ويتحاسبوا على أخطائهم ، وعلى جرايمهم · مفيش حاجة اسمها البراءة للجميع · وأنا مع شوقى فعلا ، أن الملايكة مش هم اللى يحاكمونا ، لكن فى نفس الوقت ، لازم البشر يحاكموا بعض على اللى بيعملوه بشجاعة ··

ذهل الجميع لمنطقها ··

قال شوقى بانفعال وهو يكاد يرتجف :

ـ وأنا معاك ياعزة فى الرأى ده · انما ده موضوع تانى ، ممكن ينكتب مسرحية تانية ··

قال يحيى مسرعا :

ـ ومسرحية تانية ليه ؟ فى نفس المسرحية دى ممكن جدا ، تجيب البشر ، فى مواجهة ، بيحاكموا بعض ··

ورأى شوقى يشيح بوجهه بعيدا ، مستنكرا ورافضا حتى مناقشة الفكرة ·

أى محاكمة ؟ ما الذى تقوله يايحيى البدرى ؟ انت تتكلم وفى ذهنك المسرحية · أما هى فتتكلم وفى ذهنها الواقع ، العملية ، الموت ، وكمال أدهم ، والطبيب والذين سرقوا قلب أبيها ··

كف عن مناقشة هذا الموضوع · أرجوك · أنت لم تعرف بعد هذه البنت · سيدخل بنا النقاش الى المنطقة الخطرة ··

ورأى يحيى البدرى نفس المشاعر على وجه هالة ··

أجل أيها الخطيبان الحبيبان · لا يصح افساد اللحظة ·· سيندفع بنا النقاش الى منطقة الخطر · بل ان ما يحدث الآن ، ماهو الا جزء من المحاكمة تعقدها عزة لنا ، وتريد أن تفتتح الجلسة ·

وأوشك أن يقول لها محذرا بل ومتحديا : ولكن ، هل أنت واثقة من براءتك لو حوكمت أنت الأخرى ، ووضعت فى قفص الاتهام ؟

غير أنه أمسك نفسه بقوة · سوف يأتى الوقت للنقاش · بل الأفضل الا يتم النقاش · أن يبقى بينهما شىء معلق · يبرر لقاءه بها من جديد ·

لقد أعلنت استعدادك للدخول فى المعركة ·

هذا هو كل ما كنت أريد ..

كانت « عزة » لازالت واقفة فى شموخ وثقة . ورآها فجأة جميلة جدا ، فتاة رائعة ، بل ومقاتلة . كنت تصلحين ياعزة مناضلة سياسية خطيرة .. وتلقائيا .. رآها مكان « نبيلة » . لو كنت أنت خطيبتى ، ما كنت تركتنى ابدا أيام المحنة . هذا الاصرار منك على الوفاء لقضية أبيك . كنت ستقاتلين من أجلى ، كما تقاتلين الآن من أجل انسان لم يعد موجودا . آه ياعزة . أنا ملىء بالجراح لو تعلمين ..

فجأة ، انتبه على صوت طائرة . كان صوتها قريبا وضخما . وبدا غريبا فى صمت الليل . وشع وجهه بفرح طفلى ، وجرى بعينيه يبحث عن الطائرة فى الفضاء . ونظر له شوقى باسما . كان منظر الطائرات هنا ، فى هذه المنطقة ، شيئا طبيعيا بالنسبة لهم . أما يحيى فقد أخذه منظر الطائرة فى الليل وفى ضوء القمر ، وراح يتبعها بعينيه ..

قال بلهجة سارحة :

ـ واضح أنها مسافرة ..

قال شوقى :

ـ لسه قايمة من المطار دلوقت . (واشـــار بذراعه ناحية الشرق)

ـ واضح ان المطار قريب جدا من هنا .

ـ آه مطار القاهرة الدولى . حوالى كيلو ونص من هنا .

ونظر يحيى الى حيث أشار شوقى ..

مطار القاهرة الدولى ..

كم تخيل نفسه فيه بحقيبته ، مسافرا . مسافرا الى أين ، لم يكن قد حدد بعد . كلها بلاد الله .

الآن ينظر الى الطائرة ، وقد تلاشت من نفسه رغبة السفر . بدا منظر الطائرة من هنا وعزة بجواره تنظر اليها ، اجمل من ركوبها . يأخذ الواقع أحيانا طعم الأحلام . ورأى شوقى وهالة يتقاربان ، كأنما بلا وعى ، وينظران الى الطائرة فى ضوء القمر ، ويتهامسان . استيقظ حلم الاثنين بالمستقبل . وأنت ياعزة . وفوجىء بمنظرها وهى تقف وحيدة ، تراقب الطائرة . كان وجهها قد شحب وبدا عليها أنها تقاوم بشفتيها رعشة بكاء يريد أن ينبثق . ما الذى جرى ياعزة . ما الذى غيرك هكذا بسرعة . فى لحظة واحدة تتغيرين ؟

وتبع الطائرة معها بعينيه .

هل تذكرك الطائرات المسافرة بالحبيب الذى رحل ولم يعد ؟

هونى عليك ياعزة . كفاك حزنا . فالطائرات المسافرة من هنا لا نهاية لها . وحزنك هذا لابد أن يكون له نهاية . وكما أخذت منك الحياة ، لابد ستعطيك . فقط ثقى بالحياة . لنثق بالحياة . أجلياعزة ليس « الجحيم فى الأرض » بل « يحيا البشر » وسأقنعك . نعم ، لابد سأقنعك ..

قريبا جدا ، سيكون اللقاء .. والنقاش ..

وعاد ينظر مع الجميع ، الى الطائرة التى لم يعد لها دليل سوى ضوء أحمر يبرق من بعيد فى ضوء القمر .

- ٢٥ -

فى صباح اليوم التالى ، مبكرا جدا ، كان يحيى البدرى يستيقظ من نومه نشطا وسعيدا غاية السعادة • كأنما يرى الدنيا باحساس جديد • وأحس برغبة جارفة فى الذهاب الى المصنع • من زمن طويل لم يشعر بهذا الاحساس والحب للعمل • بل ورأى المصنع أرضا ثابتة يقف عليها • وقال فى نفسه وهو يرتدى ملابسه : كيف فكرت فى ترك المصنع ؟ كيف وصل الأمر بى الى أنى قلت لكمال أدهم : رتب نفسك على أنى سأترك المصنع • وأحس بالخجل ، وبالندم : الى أين كنت سأذهب ؟ يجب الا أتهور بمثل هذا التفكير مرة أخرى •

وكانت أطياف الليلة الماضية تعاوده ، بأحداثها الغريبة ، ووجه عزة ، والمناقشة التى ستكون بينهما : متى ؟ متى أناقشها : « الجحيم فى الأرض » أم « يحيا البشر » ؟

وضحك • كل شىء فى ذلك الصـــباح كان يريد أن يأخذه

بضحكة ، وهو يروح ويجيء فى البيت ويرتدى ملابسه ، ثم وهو ينطلق ، وعلى شفتيه أغنية مرحة جميلة الى المصنع • غير أنه حين وصل ، وجد أمامه مفاجأة : عرف من أحد العمال أن الأستاذ كمال ادهم ، فى المصنع من وقت مبكر • وصل قبل أن تبدأ وردية الثامنة صباحا ، واستغرب ما الذى حدث ؟ أم (وتذكر فجأة ، وقد هبط قلبه) أم أنه بدأ يرتب نفسه على أنى سأغادر المصـــنع كما طلبت منه ؟

وأحس بداور سرعان ما نشل نفسه منه ؟ لا • مستحيل كمال أدهم يفكر على هذا النحو ••

وصعد اليه فى حجرته • وجده جالسا الى مكتبه منكبا على حسابات المصنع يقرأ فيها ويؤشر ••

هل يستعد لاستلام الأمانة ؟

وأحس به كمال ادهم ، فرفع اليه عينيه بابتسامة شاردة :

ـ صباح الخير يايحيى ••

ـ صباح النور •

ـ اتفضل اقعد (ونظر اليه نظرة شاردة) أجيب لك قهوة ؟

ـ آه •• أشرب قهوة ••

وعاود انكبابه على الورق ••

هبط قلب يحيى • يعامله كضيف • بجمود • لم يسأله اذا كان كان قد أبلغ الميعاد لشوقى أم لا • هو ذاك • بدأ الرجل يتصرف على أساس انى سأترك المصنع • ولاحظ على وجه الرجل ثقة غريبة •• وثمة بريق غامض يشع ويخبو فى عينيه ثم يشع ويخبو • يريد أن

يثبت لك يايحيى أن رحيلك من هنا لا يهمه · حقق الرجل طلبك ··
ماذا تنتظر ؟ وعزت عليه نفسه · أنا الذى بدأت · أنا الذى طلبت ·

هل يتراجع ؟! وأحس بدماء ساخنة تفور فى أعصابه ، وتندفع فى شرايينه · لا · لن أتراجع يا أستاذ كمال أدهم · فعلاً سأمشى · وسأجدد الآن طلبى · وسأخرج من هنا · لميعد لى هنا بالفعل أى معنى ·· سأخرج من هنا حتى لو تشردت · لست جديداً على التشرد · لست جديداً على الجحيم الذى فى الأرض يا عزة · من قال « يحيا البشر » · كنت مخطئاً ياشوقى حين طلبت تغيير العنوان !

***

وانتفض من سرحته الكئيبة على جرس التليفون · ورأى كمال أدهم يرفع السماعة ، وسرعان ما انبسط وجهه ، وصاح بفرح :

ــ أهلا · أهلا حاج صلاح · ياصباح الخير · طبعا شباب أمال ·

عاودتك القوة ياكمال ياادهم · لم يعد لى هنا فعلا أى داع · أكبر تاجر فى الأزهر أصبح صديقك · يرسل اليك تحية الصباح ·

ــ لا ازاى يا أبو صلاح · والله لسه كنت بافكر فيك دلوقت ·· آه ·· لأن فيه قماش جاى لى بكره من المصبغة ، وعايز أعرضه عليك ·· لا ازاى · طبعا يا أخى ·· وبصرف النظر · لازم أشوفك ·· أجيلك النهاردة المحل ·· تمانية مساء ·· أوى أوى ·· مع السلامة · ألف سلامة ··

ألف سلامة لك وله يا كمال يا أدهم ·· هنيئا لكما ببعضكما ·

ووضع كمال السماعة فى هدوء ··

ـ قوللى يايحيى ٠٠ مش القماش جاى بكره برضه ؟

ـ آه ٠٠

ـ طيب كويس ٠٠

وعاود انكبابه مرة أخرى على الورق ٠٠

ما هذا الاهتمام الواضح من صلاح عبد الهادى بكمال أدهم ؟! آه (وأسرعت دقات قلبه) الانتخابات ٠٠ الانتخابات ياكمال ، والقلب الجديد ٠ احذر ياكمال ٠ احذر ٠٠ أم أنك تعرف اللعبة وتريد أنت الآخر أن تستغلها ؟ لو حدث هذا ، فسيكون شيئا فظيعا ٠٠ لا ٠٠ لا يصح أن يحدث ٠ يجب ألا يحدث ٠ القلب الجديد لا يصح منه ٠٠ يجب أن أمنعك ٠ يجب أن نمنعه ياعزة ٠ لن أترك المصنع ٠ تلك مسئولية ٠٠

ومع هذا ، يجب أن يتم ذلك بكرامة ٠٠

ونهض واقفا فجأة ٠٠

ـ طيب يا أستاذ كمال ٠٠ أستأذن أنا بقى ٠٠

ـ تستأذن ؟ ليه ٠٠ فيه مشوار وراك ؟

قال يحيى بلهجة جامدة :

ـ لا ماعنديش مشاوير ٠٠ الميعاد بتاع شوقى الشريف مع مصطفى سيف بلغتهوله ٠ وحيجيلك هنا يوم الخميس الساعة تمانية مساء ٠٠

ولمح لمعة فرح فى عينى كمال ٠٠

ـ أنا متشكر أوى يايحيى ٠٠ انما عايز تخرج تروح فين ؟!

ـ حامشى بقى ، زى ما اتفقنا · (وارتعشت شفتاه رغما عنه) أنا ماباقليش وجود فى المصنع خلاص ·

تراجع كمال أدهم قليلا فى جلسته ، وقد فوجىء بهذه الكلمات الأخيرة :

ـ ماعادلكش وجود فى المصنع ؟! ازاى ·· مش فاهم !؟

قال يحيى دون أن ينظر فى عينيه :

ـ البركة فيك أنت بقى ··

انفجر فجأة غضب كمال وقال :

ـ يعنى ايه البركة فى انا ؟ عايزنى أدخل المستشفى عشان يبقى لك وجود فى المصنع ؟!

جرحت كلماته يحيى البدرى · قال معترضا ··

ـ ازاى يا أستاذ كمال تقول كلام زى ده ؟

ـ وماأقولهوش ليه يا أستاذ يحيى · يعنى أيه البركة فى أنا ؟ حضرتك فاهم انى خفيت خلاص ، وبقيت راجل شمشون ؟ ياسيد يحيى · أنا اللى فى ماحدش يعرفه · أنا كان مكانى الطبيعى اليومين دول مش هنا ، وأنت عارف · مكانى هناك · بعيد · فى المصيف · وأستريح · وأفرح · وأحس انى فعلا رجعت للحياة · انما (وندت عنه زفرة حارة ، باسطا ذراعيه فى حركة ماساوية متألمة صابرة ، كأنما هو بطل احدى تراجيديات الأقدار) انما الحياة ما بترحمش · لازم من أول يوم أرجع للعمل ·· حياتى ما اصبحلهاش وجود ، ولا استمرار ، الا فى العمل · تقوم أنت تيجى تقوللى : عايز أمشى · عايز أسيب المصنع · تسيبه تروح فين وليه ؟! فهمنى !

وارتعشت كفاه :

مش معقول يايحيى · كفاية بقى اللى ضاع من عمرك · وأنت بنيت هنا ، فى المصنع ده · تسيب اللى بنيته ليه ؟ لا يايحيى · ده هروب · أيوه هروب من المسئولية ·

كان يحيى ينظر اليه مأخوذا · ورغم الفرحة العميقة التى اهتزت بها روحه لتصميم الرجل على بقائه ، الا أن منظر كمال أدهم ، وهو واقف بقامته الضخمة ، وثمة مسافة بين ساقيه فى هيئة هجومية متحدية ، ويداه تتحركان مع كلماته ، وانفعالاته ، جعل يحيى يتنبه فى جلسته : لم تعد المسألة مجرد جس نبض واعتزاز بالكرامة : الرجل فعلا يناقش موضوع تركه للمصنع مناقشة جادة :

الرجل يلوح بيده بقوة :

ـ واذا كنت واخد الحكاية على أن دورك انتهى بخروجى ، تبقى غلطان يايحيى · دورك ما انتهاش · بالعكس ، دورك الحقيقى بيبدأ من النهارده ··

أطلت من عينى يحيى البدرى نظرة فضول وتساؤل ·

طبعا يايحيى ، وده اللى زعلنى منك · فى الوقت اللى أنا جاى فيه المصنع بدرى ، ومتحمس ، وعندى أفكار جديدة عايز أقولها لك، تقوللى عايز أمشى ؟!

ـ افكار جديدة ؟ أفكار ايه ؟

قالها يحيى بلهفة لا واعية ، أسعدت كمال

ـ أفكار كنت عايز أعرضها عليك ، وأتناقش معاك فيها ··

غمغم يحيى ، وهو يقاوم فرحة يرقص بها قلبه ، بل وأحس برغبة

لطيفة فى البكاء فرحا ، أن يقفز ويقبله : وأنا مستعد أتناقش معاك فيها ..

التقت نظراتهما للحظة · أطرق يحيى حياء · اقترب منه كمال أدهم · نظر اليه نظرة طويلة وودودة ومحبة ، وأمسكه فجأة من ذراعه ، وبلا وعى ،وجد نفسه يحتضنه ، ويربت عليه ·

ـ هو أنا لى غيرك يايحيى ؟

وارتعشت شفتا يحيى ، يقاوم دموعا فى حلقه ·

ـ وأنا ماليش غيرك ياكمال ·

فى رفق شديد ، جذبه كمال أدهم من ذراعه ..

ـ تعال · تعال نقعد شوية (وتنهد) الحقيقة أنا كنت عايز القعدة دى معاك من يوم ما خرجت ..

جلس الاثنان · حلت لحظة صمت · أشـــعل يحيى الدرى سيجارة يدارى بها فرحته وانفعالاته · ومر به طيف عزة ، والعائلة ، وسهرة الأمس ، والواقع الذى يشبه الأحلام · وأحس بالأرض تثبت تحت قدميه · ترى : أى أفكار جديدة يريد أن يناقشها معه كمال أدهم ..

ـ انت مش فاكر يايحيى ، قبل الأزمة ، كنت باكلمك عن توسعات كنت عايز أعملها فى المصنع ؟

تحمس :

ـ توسعات ايه ؟ عايز تجيب أنوال جديدة ؟

ـ أنوال ايه ياجدع ، مش فاكر أجهزة الدوبى اللى كنا عايزين نجيبها عشان ننتج أقمشة نوفوتيه (أقمشة منقوشة) ·

ـ طبعا فاكر · وعلى فكرة ، أنا عثرت على واحد هايل ، يعمل لنا الأجهزة دى ·

ـ يعملها لنا ازاى ؟ قصدك يستوردها ؟

قال يحيى وقد اندمج فى الموضوع :

ـ لا يستوردها ايه ·· ده حيعملها عمايل ·· من الألف للياء ·· ومصرى كمان · عامل نفس الأجهزة · بس سيلندر واحد ·

برقت عينا كمال ، كأنما عثر على شىء كان يبحث عنه :

ـ ازاى ، احكيلى ده مهم جدا · أنت ماتعرفش من يوم أزمـة الكمبيالة وأنا مشغول بالحكاية دى قد ايه · هو ده الحل الوحيد يايحيى ، تطوير العمل فى المصنع · ده اللى حيغطينا ، وفى نفس الوقت حيفيد البلد ·· حنصدر ··

واعتدل يحيى فى جلسته :

ـ شوف ياسيدى · أنت فاكر محمود سامى الخراط ، اللى كان بيعمل لنا قطع الغيار فى الوايلى ··

ـ آه فاكر ·· ماله ·· ده ولد كويس ··

ـ من حوالى شهرين قابلته ، وكنت عايز شـوية حاجات للمصنع · والحقيقة كانت دقيقة جدا ، وأنت عارف مفيش قطع غيار مستوردة · عرضت عليه الموضـوع · وفعلا عملهـا لى · وأنا باستلمها منه ، لقيته بيصلح فى جهاز « دوبى » سألته :

ـ تعرفلناش كام جهاز من دول · لقيته قال لى ببساطة : طيب ما أعملهم لك أنا · الحقيقة أنا فوجئت ياكمال ، خصوصا لما ورانى جهاز عامله بس واحد سيلندر · قلت له لأ : احنا عايزين

اتنين · قال لى · بسيط أعملهولك ، والحقيقة ماشفت الدوبى اللى هو عامله ، ماصدقتش ان دى صناعة محلية ·

قال كمال مقررا وبشكل حاسم :

ـ خلاص · نروح نقابله ، ونشوف الموضوع ده معاه · ايه رأيك ؟

ـ وهو كذلك ··

قالها يحيى بحماس بالغ · غير أن حماسه لم يلبث أن فتر بعض الشىء · وقال مستدركا بابتسامة :

ـ بس الفلوس يا أستاذ كمال ، احنا داخلين على مشروع كبير ·· حنحتاج واحد وعشرين جهازا · الجهاز بيكلف حوالى ٢٥٠ جنيه · يعنى مش أقل من سبعة آلاف جنيه ، ويمكن أكثر ·· حنجيبهم منين دلوقت ؟!

شوح كمال بيده لا مباليا ··

ـ ولا يهمك · المهم أولا نلاقى الأجهزة · وبعدين ساعتها الفلوس تتدبر · أنا واثق أننا حنلاقى اللى حيعطينا · احنا يايحيى سمعتنا فى السوق كويسة · ماتنساش دى ·

قالها كمال أدهم بنوع من الثقة ، وارتفع ـ رغما عنه ـ صدره بعض الشىء · باحساس عميق من الاعتزاز بالنفس · واستقرت عينا يحيى على صدره ، على الجانب الأيسر من صدره ، مكان القلب، القلب الجديد · وأحس برعدة ·

هل بدأ القلب الجديد يشعر بقيمته فى قلب السوق ! وتذكر مكالمة صلاح عبد الهادى معه منذ قليل · كبير التجار يتقرب منه

ويتودد اليه · هل حدد صلاح عبد الهادى مع نفسه كيف سيستفيد من القلب الجديد · هل يحس القلب الجديد بهذا ويفهم اللعبة ؟ سوف يتقابلان الليلة · فيم سيكون الحديث · وتذكر الانتخابات · الاشاعات تتزايد أن صلاح عبد الهادى سيرشح نفسه عن حى الموسكى · لن يجد صلاح خيرا من القلب الجديد يقف معه فى المعركة ، ويدعو لفوزه ·

القلب الجديد داعية للرأسمالية الكبيرة ، وسأكون أنا الآخر معه بالتبعية · أيكون هذا آخر المطاف ؟ لا ·· لا يا كمال · وتذكر عزة ، لحظتها يكون الجحيم فعلا فى الأرض ياعزة · لا · لن أمكن صلاح عبد الهادى من أن يشترى القلب الجديد · نستطيع أن نتطور بدونه · أجل · وشعت رأسه بفكرة · قال بثقة تقابل ثقة كمال أدهم ·

ــ وليه نســـتلف من تجار ياكمال ، ونبقى تحت رحمتهم ، وانتاجنا يبقى محتكر لهم ؟ أنت مش بتقول عايزين نصدر ؟ أنا عندى فكرة · البنك دلوقت عامل قروض لتشجيع وتدعيم المصانع الصغيرة · نقدم على قرض · أعتقد أنهم مش حيرفضوا طلبك ·

شب كمال أدهم فجأة على أطراف أصابعه ، فبدا أطول بكثير من يحيى البدرى ، وابتسم له ثم خبطه على كتفه بود :

ــ بعدين · كل ده حنبحثه فى وقته يايحيى · ودى فكرة كويسة برضه · المهم أولا ندرس الموضوع مع محمود سامى ونشوف ميزانيته · ونحاول نقابله الليلة · أو بلاش الليلة ، عشان ميعادى مع صلاح عبد الهادى · نقابله بكره ·· ايه رأيك ؟!

ــ وهو كذلك ··

ــ اتفقنا ؟

ـ اتفقنا ..

التقت نظرات الاثنين فى ابتسامة ودودة . وبلا وعى ، مد كل مهما يده للآخر وتصافحا بحرارة . أى عهد هذا ؟ عهد بدء العمل . راح عهد الضياع والتمزق والبلبلة .

واتسعت ابتسامتهما . ورأى يحيى فجاة طيف حزن يرفرف على ابتسامة كمال ، وظل أسى عميق فى عينيه . ولمح أيضا هالة خفيفة سمراء بدأت تظهر أسفل الجفنين . وهبط قلبه من أجله .. ثمة نغمة حزن رقيقة سدرية أخذت تصبح جزءا من شخصية كمال أدهم .

لماذا .. ؟

وفكر أن يحتضنه فجاة . يحميه . يفديه .

هذا الرجل يجب أن يبقى . يجب أن يعيش ، وأنا معه ..

وأحس بفيض دافق من الحب والتقدير ، والاحترام . فى كل مرة يأتى هذاالرجل وينقذنى من نفسى ، ومن الضياع . وهذه المرة يقدم لى شيئا جديدا . لم يكن فى الحسبان . (وبلغ انفعاله قمته) هل يمكن (وتذكر ليلة الأمس الرائعة) . وهبتنى العمل ، فهل تهبنى الحب أيضا ؟

ودون أن يدرى . وجد نفسه يضمه الى صدره ، ويقبله ، ويبكى بصوت كالنشيج .

ودون أن يدرى كمال أيضا ، وجد نفسه يحتضنه ويعانقه ويقبله ويبكى هو الآخر .

كان الاثنان يبكيان وهما فى حضن بعضهما . غير أنهما افاقا

بسرعة من الموقف ، ربما يدخل عليهما واحد من العمال ويراهما على هذا المنظر الغريب ٠

مسح كل منهما دموعه بسرعة ٠ وهما يبتسمان ٠ والتقت مرة اخرى النظرات :

ـ معا يايحيى ؟

ـ معا يا كمال ٠٠

* * *

حلت لحظة صمت عميقة على الاثنين ٠ وندت عن كمال ادهم ـ فجأة ـ زفرة لا ارادية ، داراها بأن استدار بخطوات هادئة فى اتجاه النافذة المطلة على العنبر والأنوال والعمال ، ومضى يرقب جو العمل ٠ وأدرك يحيى من خطواته ونظراته أنه لا ينظر الى الأنوال، انما ينظر الى شىء آخر مجهول ، يشغل باله : ترى ما هو ٠ وما هو سر هذا الحزن الذى أصبح كثيرا ما يطل من عينيه ، حتى وهو فى لحظة الفرح والحماس للعمل ٠٠

ومر به طيف عزة ٠ أسرعت دقات قلبه ٠ أيمكن ان يكون الاتهام لايزال يلاحقه ، وأصبح الرجل يفضل المعاناة فى صمت ؟ ورأى يحيى المفارقة الكبيرة ، مفارقة أحس منها بالخجل من نفسه ، أن تكون السعادة التى يحس بها من ليلة الأمس ، نابعة من مأساة الرجل ٠ من عذاباته وآلامه ٠ واكتسحته رغبة هائلة فى أن يسعده ٠ أن يرفع عنه كل ظل من الأحزان ٠ من القلق ٠ من أعباء العمل ٠ أن يعطيه نغمة فرح ٠ وأن يأتى الفرح من موطن الحزن ٠ من هناك من عين شمس ، ومن عزة بالذات « لم أحك لك بعد شيئا عن سهرة الأمس » ٠٠

ـ على فكرة ياكمال • كان نفسى تبقـى معايا فى سـهرة امبارح •

ـ سـهرة ؟

آه •• وكانت سهرة فى منتهى الجمال • كانت عايزاك حقيقى •

اختلطت الدهشة على وجهه بالفرح •

ـ هى حصلت سهرة ؟ ازاى احكى لى •

وجلس الاثنان على مقعدين متقابلين • كان يحيى قد فرح جدا بشعور الانبساط الذى شع به وجه كمال ، وصمم على أن يقدم له المزيد •

ـ يا اخى قابلونى مقابلة عظيمة عظيمة • تصور الأم ، كانت عايزة تشيلنى من على الأرض شيل • والا شوقى ، والسعادة اللى كانت حتنط من عينيه ، ومن كل جزء فيه ، لما قلت له على الميعاد اللى أنت جبتهوله من مصطفى سيف • والا هالة خطيبته •

قال كمال بشغف وقلق :

ـ المهم عزة •• شفتها ؟

ـ طبعا شفتها • وقعدت معايا • واتكلمنا • واتناقشنا كمان ؟ (وابتسم) كنا كلنا فوق السطح • والقمر طالع ••

تموجات غريبة ومتناقضة كانت تتعاقب على وجه كمال أدهم وهو يسمع يحيى البدرى • استوقفته كلمة « وتناقشنا » ••

قال بقلق :

ـ واتناقشتم فى ايه ؟

ـ اتناقشنا • اتناقشنا ياسيدى (وتلعثم فجأة وضـــحك) اتناقشنا فى حاجات كثيرة مختلفة • وكنا كلنا سوا • عموما كانت الروح لطيفة • وعزة فى منتهى الوداعة والرقة • أنا فى اعتقادى يا كمال انها كانت أزمة ومرت ، والحمد لله •

شردت عيناه ••

ـ يعنى ماتكلمتوش فى الموضوع اياه ؟

ـ اطلاقا •• اطلاقا •• مالوش داعى ياكمال •• مادام مفيش احساس به • يبقى مفيش داعى لتقليبه •• البنت عموما شعورها نحوك كويس •

كان يحيى قد فطن الى ضرورة عدم الاشارة الى مسرحية شوقى ، والمناقشة التى جرت حول عنوانها •• ومطالبة عزة بعقد محاكمة للبشر فى المسرحية •• لا يصح الاشارة لهذا من قريب أو من بعيد • سيثور الاتهام من جديد ، وسيظن أنه المقصود بالمحاكمة • (ونفر يحيى من الصورة) لن أنقل له الا الجانب المفرح • أما الجانب الآخر ، فى عزة • فسأتكفل به انا • لم تعد المعركة بينها وبينه •• أصبحت بينى وبينها « الجحيم فى الأرض » أم « يحيا البشر » •

وما أجملها من معركة ••

وانتابته رغبة مفاجئة فى الضحك ، وفى أن يضحك كمال أيضا •

ـ على فكرة ياكمال • أنت ليه ماقلتليش قبل كده ان عزة حلوة بالشكل ده ؟!

وفعلا ضحك كمال • قال له بعينيه « آه ياشقى » • (وزفر) أيمكن أن يكون هذا هو العلاج • الشباب للشباب ؟ يا ما تخيل •

وواصل يحيى قائلا بروح متخففة مرحة ــ حقيقى بنت لطيفة ومهذبة وعقلها كويس · أنا شايف انك ضرورى تزورهم كمان مرة واثنين وثلاثة ·

قال أدهم · معترضا بكفه بحركة لا ارادية ، وقد مرت على وجهه نوع من الرعشة ·

ــ ازورهم · لا لا ·· (واســـتدرك نفسه) على الأقل مش اليومين دول يايحيى · يمكن بعد الانتخابات ما تخلص · يمكن أبقى أروح لهم · بعدين · بعدين · (وزفر زفرة طويلة) خلينا دلوقت فى المشروع الجديد اللى حندخل فيه ··

وعاودت عيناه الشرود ، وأيقن يحيى أن موضـــوع الاتهام لايزال له صدى فى نفسه · يجب أن يتبدد هذا الصدى · وسيتبدد شيئا فشيئا · تلك مهمتى · وعاودته روح التفاؤل ··

ــ على كل حال ياكمال · موقفك من شوقى موقف جميل ·· ما تتصورشى كلهم معلقين آمال كبيرة على مصطفى سيف · ياريت ينشر له ويشجعه · أنا حاسس أنه موهوب · تبقى عملت لهم عمل كبير ياكمال ·

ارتسمت ابتسامة ساخرة مريرة على شفتى كمال أدهم وقال :

ــ أبق دفعت له التمن ·· تمن قلب أبوه ·· مش حيقولوا كده ؟!

فزع يحيى من تصور كمال للموضوع ·

ــ مين هم اللى حيقولوا كده ؟!

ــ كتير (وهز رأسه) وأولهم عزة ·

ـ مش ممكن ياكمال · مش ممكن · مفيش مخلوق يقدر يفكر التفكير ده ·· أنت ··

وقاطعه كمال بهدوء :

ـ اسمع يايحيى · عايزك تعرف حاجة · أنا الموضوع ده قررت أنى ما افكرش فيه · أنا فكرت فيه بما فيه الكفاية · اللى بافكر فيه دلوقت بس ، هو المصنع ده · هو ده البداية ، وهو النهاية ، وهو ده اللى من غيره مانساويش حاجة · تمام ولا لأ ؟!

وأوشك يحيى أن يقول له : لا ·· ليس المصنع هو كل شىء فى الحياة · الحياة فيها أشياء أخرى ، هامة أيضا وجميلة ، ومصدر للسعادة · ولكن · مع الأسف · أن يكون مصدر السعادة ، هو هو نفسه مصدر التعاسة والأسى ·

عزة · غيرى موقفك بسرعة · لابد أن تغيريه · وستغيريه ·· كمال أدهم انسان طيب وعظيم · جميل منه أن يغرق نفسه فى المصنع بكل هذا الحماس · ولكن ، فلنرفع هذا الحزن عنه ·

مفيش شك يا كمال ان العمل هو أعظم سعادة فى الوجود ·· وأنا متفائل بالمشروع الجديد بتاعك ده · أنا عندى آمال كبيرة فيه ·

شوح كمال أدهم بأصبعه محذرا ، ومبتسما فى الوقت نفسه ·

ـ المشروع « بتاعنا » من فضلك ـ مش « بتاعى » أنا · ده بقى مشروعنا احنا الاتنين يايحيى · ومش احنا الاتنين بس ·· والعمال كمان معانا ·· ده حيأثر تأثير شامل على كل شىء فى المصنع · ده أملى فيه ان شاء الله ··

ـ ان شاء الله • ومن الليلة حاتفق مع محمود سامى على ميعاد بكره •• و ••

وقطع كلامه جرس التليفون ، رفع كمال ادهم السماعة •

ـ آلو •• مين ؟

ـ ••••••••

ـ أحمد زهران ؟ مش معقول •فينك يا احمد من زمان •

تنبه يحيى لسماع اسم احمد زهران • شرع أذنيه •

ـ الانتخابات ؟ آه •• طيب ياعم ، قلبى عندك •

ـ ••••••••

ـ (اضـــطرب وجه كمال فجاة • ولكنه انفرج مرة أخرى بالسرور) قلب الشعب ؟ آه (وضحك ضحكة قصيرة وارتســمت أمامه صورة ، اضطربت لها أعماقه ، وبلهجة متوترة) أنت لسه فاكر ؟

لا •• طبعا •• مقدر ظروفك يا أحمد • أجيلك فى النقابة ؟ (وضحك) ياراجل ، أنت عارف أنا بتاع الحاجات دى ، ولا حتى متفرج • ممكن •• ممكن آه • فى مكتبك • بس مش الليلة برضه • الليلة عندى ميعاد • آه ميعاد شغل •• أشوفك الليلة الجاية •• وهو كذلك • الله يسلمك يا أحمد • محافظين ياســيدى على قلب الشعب •

كان يحيى البدرى يسمع بانتباه • وأدرك فورا أن أحمد زهران لابد سيتحدث معه هو الآخر فى الانتخابات • وتراءت له صورة : الشيوعى القديم ، والتاجر الكبير ، يتنازعان على كمال أدهم • على القلب الجديد • وشملته ارتجافة •

ومع أنه أحس بميل ـ فى المقارنة ـ نحو زهران ، الا أنه تذكر الخلافات القديمة ، تلك التى وصلت بينهما ذات يوم الى حد الكراهية والنفور · أهى أوهام ؟ أم تلك هى لعبة السياسة التى اكتوى بنارها فترة ؟!

أيا كان الأمر ، ذلك يؤكد موقفى · لن أترك الرجل · لن أترك القلب الجديد ·· لن نتركه ياعزة ··

لابد أن تغيرى موقفك منه بسرعة ·· بسرعة ·· القلب الجديد مهما كان فهو قلب أبيك · فلتحافظى عليه فى هذا الجسد · أجل ياعزة · هذه هى المعركة الحقيقية · قلبى يحس بهذا · هذه هى المعركة القادمة · انها تقترب ياعزة ·

فلنستعد ·

- ٣٦ -

أكان يحيى البدرى « دون كيشوت » جديدا يبحث لنفسه ـ بالوهم ـ عن معارك ومزيد من المعارك ، يفجر بها كل المخزون ، ويملأ العالم بصوته المختنق منذ زمن طويل ؟ يعيد عهد الفروسية الذى ما كاد يزدهر ويشع بأضواء المجد والبطولة حتى وجد نفسه خارج الحلقة ، جالسا فى صفوف المتفرجين ، بل وفى آخر الصفوف ؟!

وسمع اسمه فجأة على لسان « كمال أدهم » وهو يكلم زهران فى التليفون ناظرا اليه بابتسامة ٠

ـ يحيى البدرى ؟ كويس ٠٠ قاعد جنبى أهه ٠٠ عايز تشوفه ؟ (واتسعت ابتسامته) وهو كمان عايز يشوفك ٠ أحمد زهران بيسلم عليك يايحيى ٠

بشعور من الاعتزاز ، والثقة بالنفس ، تناول يحيى السماعة من كمال ٠٠

ـ أهلا يا أحمد • ازيك ••

ـ ايه ياعم يحيى • خلاص ؟ ولا حتى صوتك ماعدش حد بيسمعه ••

ـ الشغل بقى ياعم أحمد (وضحك فى سـخرية) ذلك خير وأبقى •

ـ أبقى من ايه ؟

ـ هو عاد لنا غيره ياعم أحمد •• البركة فيكم أنتم بقى •

ـ ايد لوحدها ماتسقفش يايحيى • وبالذات اليومين دول •

ماذا يقصد ؟ اكشف عن أوراقك بوضوح يا أحمد •• التجمع الثورى هو ما تقصد • أليس كذلك ؟ وضربتكم ذات يوم لوحدتنا حتى أصبحنا شتاتا متناثرين ؟ انه التجمع الثورى ما تنادى به اليوم أنت ومصطفى سيف • تكفير عن الجريمة •• ؟ لا • بل استمرار لها !

أمسك نفسه ••

ـ على كل حال يا أحمد أحب أشوفك • أنت مش جاى بكرة تشوف كمال • حاكون موجود ان شاء الله • الى اللقاء •

ووضع السماعة • التقت عيناه بعينى كمال أدهم • كان الرجل شاردا ومبتسما فى الوقت نفسه •

ـ عجيب يا أخى أحمد زهران ده •

ـ عجيب فى ايه ؟

وضحك كمال أدهم فجأة ضحكة صغيرة لطيفة :

كل ما أشوفه أو أسمع صوته ، أفتكر كلمة قالها عنه مرة مصطفى سيف : أحمد زهران ده حيوان سياسى ، بياكل سياسة . بيشرب سياسة ، بيتفسح سياسة ، بينام ســياسة · (وضحك) بيتهيألى أنه بيمارس الجنس كمان مع مراته سياسة ·

وضحك يحيى البدرى عاليا للنكتة ، وقال ماضيا فى خلق جو سعيد ·

ـ عايز أعرف الجنس يبقى ازاى ، لما الراجل يمارسه بشكل سياسى ··

قال أدهم ضاحكا :

ـ تكتيك بقى واستراتيجية ·

ـ يعنى على مراحل · وجايز على ما يوصل للهدف النهائى ، يكون قلبه انقطع ·

ضحك الاثنان ، من القلب فى سعادة · غير أن كمال أدهم لم يلبث أن قال مستدركا ، كأنما ليمسح أى اهانة ربما تكون قد لحقت بصديقه الغائب ·

ـ انما على فكرة ، زهران ده لسه جامد · ولو أن الفترات اللى قضاها فى السجن تعبت صحته تمام (وهز رأسه) أجمل ما فيه اخلاصه لعقيدته ، وعشان كده الواحد بيحس نحوه بالاحترام ·

***

أحس يحيى البدرى ، كما لو أن كمال أدهم يطعنه · يقول له بشكل غير مباشر : أما أنت فغير مخلص لعقيدتك · كانت نزوة منك وانتهت · لست رجل الكفاح · وامتلأت نفسه بالرغبة فى الهجوم على زهران · يقول له الجريمة التى ارتكبها هذا المخلص لعقيدته ، والتى يريد أن يدارى عليها اليوم باسم التجمع الثورى : ألم يكن من

أول المنادين بحل الحزب ؟ نعم جريمة وتستحق المحاكمة · المحاكمة التى تطالبين بها ياعزة · هذا متهم جديد لمحكمتك التى تدعين اليها !

غير أنه قاوم انفعاله بشدة · وطيبت ذكرى « عزة » من خواطره ، ليس هذا هو وقت الهجوم ، فالرجل غير موجود · سوف يأتى الوقت · فضلا عن أن اللحظة سعيدة وجميلة · ويجب أن تبقى جميلة وسعيدة ·

ـ اسمع يا أبو كمال · احنا نسيينا من السياسة دلوقت · خلينا هنا (وأشار على النافذة المطلة على العنبر) فى الشغل ·

وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة لكمال ، وهب من جلسته واقفا وبحماس :

ـ حانزل شوية مع العمال · أمر · مش عايز إى حاجة ·

ـ لا · شكرا · (وامتدت يداه من جديد الى الأوراق)

ـ ويمكن أوصل لغاية المصبغة · أطمئن أن القماش جاى لنا بكرة فى ميعاده ·

ـ يبقى جميل جدا يا يحيى · عشان نسلمه لصلاح عبد الهادى فى نفس اليوم ، ان أمكن ·

ـ ضرورى ان شاء الله ··

ومرة أخرى ، التقيا فى نظرة ·· وابتسامة ·

لم يعد ، بعدما حدث ، ثمة كلام يقال ··

بدأت مرحلة العمل ·

* * *

فى ذلك اليوم ، بدأ المصنع كأنما أخذ كل شىء فيه شـــحنة جديدة من الحياة ·

كانت هذه أول مرة ـ بعد عام المحنة ـ يجتمع الاثنان معا فى المصنع ، كمال أدهم ويحيى البدرى ، فى مثل تلك الساعة المبكرة من الصباح ·

وكان وصول كمال أدهم بالذات ، مبكرا هكذا ، قد أحدث بين العمال جوا من الحماس والاستبشار ، وأخذ كل منهم موقعه ، على الفور ، أمام نوله ، يقظا لعمله ، آملا أن يراه كمال أدهم ، ويعرف كم هو مخلص فى العمل ·

وكان هناك ، بالنسبة للعمال أيضا ، شىء آخر يستحق الانتباه، كان لهم بعض مطالب قديمة ، غير أنهم أجلوها طوال عام المحنة ، وحتى بعد أن نجحت العملية ، قدروا أن الانسانية ، فضلا عن الواقع العملى ، تتطلب منهم ألا يتقدموا للرجل بأى مطالب ، حتى يخرج من جو المحنة ، ويلم شتات نفسه ، ويتعرف على السوق كيف يجرى ويبدأ فى ترتيب المصنع من جديد ·

لم يأن بعد أوان المطالبة !

أما يحيى البدرى ، فكان يجوب فى ممرات العنبر ، بين الأنوال، يوزع البسمات لكل العمال ، عازفا عن أى كلام · كان يتخيل المصنع على الصورة الجديدة : الأنوال وقد ركب عليها جميعا أجهزة الدوبى، والأقمشة السادة ، أصبحت منقوشة ، ومع النقوش ، رأى وجه عزة ، وتخيلها وقد ارتدت من أول « توب » منقوش ينتجه المصنع فى عهده الجديد ، وصفق قلبه بالفرح · وتذكر فستانها التيركواز الذى رآها به ليلة الأمس · أى نقشة تناسب اللون التيركواز ، وتناسبها هى بالذات · واسترجع وجهها الأبيض لحظة الغروب ،

وهى تفتح البوابة ، وفى ضوء الكهرباء حين أضاءت الأم النور ، وفى ضوء القمر على السطح ، لحظة النقاش حول المسرحية ٠

أى نقشة تناسب عزة ؟ واصطدم بعامل من العمال كان يمر ، فضحك له وقال متنبها لنفسه ، وهو يهز رأسه :

« ما الذى جرى لك يايحيى ٠ هل أنت داخل على مشروع حب » أم مشروع « دوبى » ؟؟ عيب يايحيى ٠ أعقل ٠ لا تترك الخيال يجرى بك ، كفاك ما جرى لك ، انتهى عهد العواطف ، وبدأ عهد العمل ٠ وتذكر أن أمامه مشوارا فى السوق بعد قليل ٠

واحس بالرغبة فى أن يكون فى هذه اللحظة خارج المصنع ، أحس بحنين لأن يكون فى قلب الشوارع ، (وحانت منه نظرة الى حجرة كمال أدهم ٠ وتخيله جالسا الى المكتب يعمل ، وأحس بالطمأنية ٠٠ من قال ان عودة الرجل الى المصنع تلغى وجودى ٠٠ بالعكس ٠٠ أستطيع الآن أن أتنفس ٠ أحيا ٠ أرى وجه الحياة ٠ وعاودته أطياف من سهرة الأمس ، فاختلج فرحا وأملا ٠٠

صعد بخطوات مسرعة الى كمال أدهم ، وأبلغه أنه خارج ٠

وخـــرج ٠٠

* * *

بعد نصف ساعة على الأكثر كان يحيى البدرى قد انتهى من مشواره ٠ اطمأن على أن القماش المصبوغ سيذهب الى المصنع غدا فى الموعد المحدد ٠ وفكر أن يعود الى المصنع ويطمئن كمال أدهم ، لكنه هز كتفيه وقال ، وعلام الاستعجال ؟ أتمشى بعض الوقت فى

الشوارع · أوحشنى المشى فى الشوارع · وبدأ يمشى (تنهد) منذ متى لم أحس بهذه الحرية والطمأنينة · عامان تقريبا ، وأنا فى سجن المصنع خوفا عليه من الانهيار · حتى أيام الاجازات ، كان المصنع فى رأسى وأنا ماشى وأنا نائم · الآن ، أستحق أن أستريح · امشى فى الشوارع وأقزقز لبا ، وأغنى ·· و ·· وأتفرج على هؤلاء البنات ·· والنساء الجميلات · (وندت عنه زفرة) الى متى يا يحيى ستظل هكذا وحيدا ، شريدا ، بلا زواج ؟ وارتسم له وجه « عزة » · وفى هذه المرة استسلم للطيف ·· ليس هناك رقباء ·

ما حكايتك يايحيى مع هذه البنت · ايمكن أن تكون حقا قد طببت فى الحب · من ليلة ؟ بل من سهرة ؟ (وعاودته بهجة الأمس) كانت ليلة ولا كل الليالى · لم أحكها بالكامل لكمال أدهم · كذبت عليه · كان لابد أن أكذب · يسمونه كذبا أبيض · والا هل كان بامكانى أن أحكى له عما دار من مناقشات حول المسرحية ؟!

وتذكر الصدمة التى رآها يحيى على وجهها ، لحظة نطقه باسم كمال أدهم أمامها · وبريق الثورة والتحـــدى فى عينيها ، حين اعترضت بشدة على تغيير العنوان ، ومطالبتها بعقد محاكمة بين البشر ·

ورآها يحيى البدرى لاتزال تسير نحو كمال أدهم خفيـــة فى خط الانتقام : اذن ما الذى فعلته فى مهمتك معك يايحيى البدرى من أجل الرجل ، لم تزد على أن فجرت المعركة · وأشعلت النار التى كادت توشك على الخمود ، لتاكل فى النفوس من جديد ·

وعاوده صوتها ، فى مواجهة « هالة » ، حاسما متحديا « أنا باعتراض على تغيير العنوان · أنا مستعدة للنقاش » ·

وخاطبها فى سره متحديا ، وهو يمشى بلا شعور : وأنا أيضا يا عزة ، مستعد للنقاش !

وتدفقت فى عروقه الدماء • واحس فى كيانه بطاقة تريد أن تتفجر ••

أين يمكن أن يجدها الانسان فى وقت كهذا ؟ (ونظر فى ساعة يده) الواحدة والنصف •

فى البيت ؟

وسطعت أمامه فجأة صورة • رأى عزة خارجة من الكلية ، وتمشى لتركب الأتوبيس ، ورأى نفسه يقابلها فى الطريق •

وسخنت الفكرة فى رأسه •

« نعم • لم لا • جائز • كل شىء فى هذا العالم جائز حدوثه • لن أخسر شيئا • أجرب حظى • ربما •

ولبسه شيطان الحماس ، انبثقت فيه روح المغامر القديم •• ركب تاكسيا ••

ـ كوبرى أبو العلا ياريس ، أول الزمالك •

وانطلق الى الكلية ••

* * *

على أقرب محطة أتوبيس ، وقف يحيى البدرى يرقب الطريق الجانبى الموصل الى الكلية • ومن حسن الحظ أن المحطة كانت دائبة الحركة باستمرار • موعد من مواعيد الزحام حول الأتوبيسات •• لا أحد يشعر بأحد • الكل همهم أن يخوضوا معركة الصعود ومعركة

النزول · هذا وقت طيب للقاء · لو يضرب القدر ضربته وتأتى ·· أو ربما أصبحت تلزم البيت تستذكر الأيام الباقية على الامتحان ؟ على كل حال ، لن أنتظر أكثر من ساعة ، ان لم تظهر خلالها ، أعود فورا الى المصنع « و لامن شاف ولا من درى » ·

غير أنه احس فجأة بقلبه يدق بسرعة ، وكانما ذهبت أنفاسه ·

القدر يضرب ضربته الجميلة · لا · ليست ضربة ، انما هى هدية ··

وغالب انفعاله ·

كانت عزة واقفة على الرصيف الآخر ، تنتظر مرور سيل من السيارات ، لتعبر الطريق ··

تحرك يايحيى بسرعة · اقفز الى الرصيف الأوسط · وامرق من بين العربات ·

لاتزال واقفة · لايزال سيل العربات · انها وحدها ، ليس معها غير حقيبتها ، ومسطرة رسم كبيرة · ياللحظ السعيد · ياللخطط الدقيقة المتقنة يايحيى البدرى ·

لا · بل قل هو الهام واحساس لا غير · يبدو أن لى قدرا مع هذه البنت ··

وما ان توقف سيل العربات ، حتى اسرع فى اتجاهها ، كانت عزة ، بالكاد تهبط بقدميها من على الرصيف لتعبر الشارع ، حين فوجئت بيحيى البدرى أمامها ، ومن وقع المفاجأة ، وجدت نفسها تتراجع نفس الخطوة ، لتقف ثابتة على الرصيف · هل هذا هو فعلا « يحيى البدرى » ذلك الفتى الذى لم تره فى حياتها غير مرة واحدة ، ليلة الأمس ، فى البيت ·· ؟!

وابتسم لها ، منحنيا برأسه ٠

ـ يحيى البدرى ٠ اذا كنت حضرتك لسه فاكرة ٠٠

وغمغمت فى حياء ٠ وارتسم على وجهها ظلال فرحة بعيدة ، تختلط بنظرة قلق الى حركة الشارع ، والناس ، والضجيج ٠

ـ آه طبعا ٠٠ طبعا ٠٠ فاكرة ٠ أهلا وسهلا ٠

قال مفسرا لها اللقاء ، راجيا منها ـ بعينيه ـ القبول ٠

ـ الحقيقة أنا كنت واقف على المحطة اللى هناك دى ، وبعدين فجأة شفتك ٠ ماصدقتش عينى للحظة ٠ وبعدين قلت فرصة ٠

ـ أهلا وسهلا ٠٠

ـ ممكن نسلم ؟

وضحك ، طالبا منها بعينيه المغفرة ٠

مدت له يدها باضطراب ٠٠ وسلمت ، ثم سحبت يدها بسرعة ، وحانت منها نظرة الى محطة الأتوبيس ٠

مامعنى هذا ٠ أيمكن ان ينتهى اللقاء عند هذا الحد ٠ مستحيل ٠

ماذا يقول اذن ؟

كيف يبدأ ؟!

ـ وازاى ماما ٠٠

ـ كويسة الحمد لله ٠٠

ـ والأستاذ شوقى ، والآنسة هالة ٠٠

ـ كويسين بخير ٠٠

وشهدت .. فتنهد هو الآخر ، رغما عنه . وضحك لصدور التنهيدتين فى وقت واحد . تشجع وبحركة مساعدة من كفيه :

ـ الحقيقة يا آنسة عزة ، أنا عايز أعترف لك بحاجة .

نظرت اليه بعينيها الواسعتين العسليتين فى فضول :

ـ المقابلة دى فى الحقيقة مش صدفة .. أنا اللى متعمدها . حسيت انى عايز لشوفك .. قلت أجرب حظى ..

تضاربت على وجهها المشاعر والمعانى .. قناع الجمود يكشف ـ للحظات خاطفة ـ عن حنين فى القلب عميق . القناع يعود .. عيناها تتساءلان : ولماذا تريد أن تراني .

وبابتسامة راجية :

ـ عايز أتكلم معاك فى موضوع مهم .. اذا سمحت .

يموج فى عينيها شعاع ...

شيء ما اضطرب فى أعماقها . مهما يكن الأمر فهى لاتزال فى سن العذارى . والقلب المثقل بالحزن يهفو للحظة فرح ، وأوحى لها حماسه ، ولهفة ورجاء نظراته ، بمنظر الفتى المحب الولهان الذى ما كاد أن يراها مرة واحدة ، حتى سقط صريع الحب . حبها .. كثيرا ما حلمت بهذا المنظر . فارس الأحلام الذى يقابلها فى الطريق ذات مرة ويقول لها : هى أنت . هى أنت ياعزة .

وكان يحيى لطيف الشكل . ومن أعماقه مرح بالطبع . وبدا واثقا أنها لن ترد له طلبه . لن يحدث شيء اذا سارت معه قليلا واستمعت اليه .. ما هو هذا الموضوع الهام . ؟

وغمغمت : اتفضل .

وقال مبتسما ، وهو يشير الى جنون الصـــخب الذى يملأ الشـــارع ··

ــ واحنا وافقين كده على الرصيف ؟ نمشى شوية اذا أمكن ، مش حاعطلك كتير ··

هزت رأسها موافقة · واتجهت بعينيها ناحية نهر النيل · على الكورنيش · الضفة الغربية القريبة · ضفة بطبيعتها هادئة الحركة ·

وتحركت خطواتها ، فتحرك بجوارها ، كانت دماؤه ترقص ·· يا أضواء العالم · ياصيف الأفراح · يا دنيا بهيجة ·

كانت تسير بجواره ، مطرقة الرأس حاملة أدواتها فى يدها ، ورآها رقيقة وادعة كالحمامة · وفكر أن يمد يده ويحمل عنهـــا الحقيبة · يخفف الحمل عنها ·· لكنه أحجم · كل شىء فى هذه اللحظة يجب أن يكون بحساب يايحيى · انها البداية ·· كيف ستدخل على الموضوع ؟ لوكان هذا اللقاء بلا مشاكل ولا قضايا · وتذكر كمال أدهم · والقلب الجديد · نقطة الانطلاق · قلب أبيها · تذكر الصراع · وانتابته رعدة · لا · ليس موضوع اللحظة · على الأقل ليس البداية · ما البداية · لابد من كلام وبسرعة يايحيى ، قبل أن تصلا الى الكورنيش ··

كان عبور الكورنيش فى تلك الساعة مشكلة · سيل العربات المجنون من الاتجاهين ينهمر · واختيار لحظة العبور تحتاج يقظة · والا فحوادث المرور فى المدينة كثيرة · واللحظة جميلة ، هناك هدف أمام الاثنين ، أن يعبرا الضفة الأخرى ، ويصلا الى الطريق المديد الهادىء ·

ــ هوب ، بسرعة يا آنسة عزة ، دى لحظة مناسبة · وبلا شعور ، أمسك بيدها ، خوفا عليها ، وقفز بها جريا وفى لحظة كانا

فى الجانب الآخر · وقفا لحظة فى ضمت · كان قلبها يدق : واحست بيدها فى يده · كيف حدث هذا · وسرت فى جسدها رجفة رقيقة ·

انفكت يداهما فى هدوء ، وقد بدت عليها الدهشة ، وحانت منها اليه نظرة ، كان وجهه يضحك سعيدا وقال :

ـ كان لازم كده ، والا كنا فضلنا واقفين فى الجنون ده ساعة ·

وابتسمت له ابتسامة شكر : فعلا ·

وانحرفت الى اليسار فى هدوء ، وبدأ السير على الكورنيش ·

عاد الصمت · وبدت خطواتها بطيئة · وأحس يحيى البدرى لابد من كلام · الموضـــوع الهام · جاءت معك يايحيى على هذا الأساس ، كن عمليا مع البنت · ولكن ، ماهو الموضوع الهام ، فليترك نفسه يتكلم · لابد أن يتكلم ، فليبدأ · من بعيد ، وندت ـ رغما عنه ـ زفرة باسمة :

ـ الحقيقة ليلة امبارح كانت فى غاية الجمال · انا متشكر جدا على المشاعر الطيبة اللى حسيت بها فى وسطكم ·

واضطربت فى حياء ، وبهزة من رأسها ·

ـ لا · أبدا · يعنى ·

ـ حقيقى يا آنسة عزة · صحيح دى كانت أول مرة أقعد فيها معاكم · انما كنت حاسس أنى قعدت معاكم قبل كده كتير ·

شع وجهها بابتسامة ود ··

وواصل متشجعا : تركت فى نفسى أثر كبير · خصوصا المفاجأة الكبيرة ·

ـ مفاجأة ‥ مفاجأة أيه ؟

وابتسم : انت ٠

ـ انا ؟

طبعا ٠ الحقيقة كنت فاكرك مجرد انسانة عادية ٠ زى أى بنت من البنات ٠ انما لقيتك بتاخدى المسائل بعمق ٠

نظرت فى عينيه : اية مسائل ؟

وارتبك لحظة أمام نظراتها ٠ وبدا انه غير قادر على الرد ٠ لا يايحيى ، حذار أن تهتز أمام البنت ٠ أن يفلت منك الخيط كما أفلت من كمال أدهم ٠ ادخل فورا فى الموضوع ، وابتسم :

ـ الجحيم فى الأرض ٠ أم « يحيا البشر » ؟ هو ده الموضوع اللى عايز اتناقش معاك فيه ٠

وفوجىء بملامح وجهها تربد ، وتشيح بوجهها عنه ٠

- ٢٧ -

وبرغم ان يحيى البدرى كان متوقعا لمرد الفعل هذا ، الا انه احس بقلبه يهبط ، اذ رأى الوجه الأبيض المتفتح الحالم ، والذى كان منذ لحظة يضحك حين كانت اليد فى اليد ، ويعبران جريا ، ينقلب هكذا بسرعة ، وتتصلب تعبيراته .

وبرق فى ذهنه على الفور ، منظرها فى الشرفة ليلة الأمس ، لحظة سماعها لاسم كمال ادهم ، وهو يبلغ شوقى بموعده مع مصطفى سيف . فهل يعنى هذا أن كلمة « الجحيم فى الأرض » أصبحت تعنى فى نفسها كمال ادهم ؟

شىء رهيب حقا .. يالها من بداية شائكة ومعقدة . فلنعد كما كنا ، لو امكن ..

اندفع قائلا بكل روحه ليمحو الأثر :

ـ أنا آسف جدا يا آنسة عزة آسف اذا كنت سببت لك أى ازعاج • انما (وبدا مرتبكا ، وابتسم) أنا • مش عارف ابتدى ازاى ••

هدأ تعبير وجهها قليلا ، ومضـــت ناظرة خلف ذلك الشيء المجهول عبر النيل •

وواصل ••

ـ أنا فى الحقيقة لما جيت عشان أشوفك ، واتكلم معاك ، كان فى ذهنى عزة بتاعة امبارح • اللى فاتحة قلبها لكل شيء ، وبنناقش الأمور ، بموضوعية وشجاعة •

استدأرت اليه فى هدوء ، ونظرت فى عينيه فى ثبات وشموخ ، كأنما تؤكد له أنها ـ رغما عنه ـ شجاعة ، ومتحدية • تتحداه هو نفسه ••

قال مبتسما ، معلنا انسحابه بشكل لطيف ـ انما الظاهر انى اخترت ميعاد مش مناسب • (وأشار الى قرص الشمس المتوهج فى صدر السماء ، ولامس الهواء بكفه كأنما يتحسس سخونته) وقال ضاحكا من نفسه : مش معقول صحيح ، فى الجو ده ، والحر ده ، آجى أكلمك عن الجحيم فى الأرض •

ونظر اليها ، ممنيا النفس أن ترد بشيء • ولو كلمة •

حل الصمت • كانت ضجة حركة المرور فى الخلف ، دائرة كالطنين • ظلت ماضية فى سيرها على مهل • فى اتجاه الحدائق • وبدا على خطواتها الرضا بأنها تسير ، وقال يحيى فى نفسه « يكفى هذا ، فلنظل سائرين • المهم أن يظل الرضا • وأن تكون بجانبى •• وأحس بنشوة لوجوده • وأخذ نظرة من الدنيا حوله : مجرى النهر والمراكب والنخيل والكبارى والناس والمبانى ، ووهج الظهيرة • منذ

متى ياقلب لم تتفتح لهذا الوجود · منذ متى لم تر هذا الضياء ·· كل ما فى الدنيا يدعو للعناق ··

أى جحيم فى الأرض هذا الذى جئت أتكلم معها فيه ؟ حقا أنا سخيف · أنا رجل قفل · (وتنهد) لو كان الأمر متروكا لى لحملتها حملا ، بحملها الخفيف ، وقبلتها بعنف : هذا الوجه · هذا الأنف · وهذا الشعر الأسود المتهدل على الكتفين ، أو ، لانطلقنا جريا الى الحديقة ، حديقة النهر،والقينا بجسدينا على العشب،نتمرغ ونتناغى، ونضحك ونضحك · نغسل الحزن ، نفجر المخزون ·· و ··

وانتبه من حلمه · لاحـظ فجاة ، أن خطواتها بدأت تضيق ، وتتباطأ · اعلان بقرب النهاية · اللحظة المتوهجة الجميلة توشك على الانطفاء ·· تكلم يايحيى وبسرعة ·· أى كلام ·· قم بأى تصـــرف ··

وبحركة لاارادية ، امتدت يده الى حقيبتها ومسطرتها الطويلة :

ـ تسمحيلى أشيل عنك شوية ··

تشبثت بأشيائها بطريقة حاسمة ، لكنها مهذبة ·

ـ مرسى (ونظرت فى ساعة يدها) أروح بقى ·

ـ تروحى ؟!

قالها كمن أصيب بصدمة كبرى ، مستنكرا :

ـ بسرعة كده · مش معقول · أنا لسه ماتكلمتش معاك · فى الموضوع اللى أنا جايلك علشانه ··

ـ موضوع ايه ؟!

قال مندفعا قاطعا دابر أى تردد في نفسه :

– كمال أدهم ·

توقفت عن السير · عيناها فى عينيه · كانت تجاهد لكى تبقى شامخة قوية ··

وأسرع يحيى : الحقيقة انا عايز أسألك سؤال · وأرجوك تجاوبينى عليه بصراحة · ليه أخدت الموقف ده من كمال أدهم ، يوم ما زاركم فى البيت ؟

– موقف ايه ؟

– الاتهام ··

وبهدوء شديد : أى اتهام ؟ أنا ما اتكلمتش معاه ولا كلمة ··

– وهو ده أفظع شكل من أشكال الاتهام يا آنسة عزة انك ترفضى انسان · وهو ده اللى شاعر به كمال أدهم · كمال أدهم مابينامش الليل ، من يوم ما كان عندكم · بيعانى معاناة فظيعة ، الاحساس بالذنب ماليه · لدرجة انه بيمسك قلبه ويقول : لو كنت أقدر أخرج القلب ده وأعطيه لعزة ، كنت عطيتولها ، فى سبيل انها تكون راضية · وأموت أنا مستريح ··

ورأى وجهها يشحب ، ونظرات عينيها تهتز وبدت كأنما تقاوم لكى تثبت قدميها فى الأرض ، كأنما أخذها دوار ، وتوشك على السقوط ·

وفزع · لكنها خطت الى الخلف خطوة ، واستندت على الكورنيش · ثم جلست · أغمضت عينيها للحظة وحين فتحتهما ، كانت تبكى · بلا صوت ··

اهتز لمنظرها · غير انه قاوم · فليمض فى الخطر ·

ــ شوفى يا آنسة عزة · أنا مقدر شعورك جدا · وباحترم جدا فيك هذا الوفاء · ومش باحترمه بس ، باحبه كمـــان ، وباطالبك بالاستمرار فيه · لكن عشان تفضلى مستمرة فى الوفاء لباباك ، لازم تفضلى وفية لقلبه · قلبه اللى بينبض ـ جزء جسم انسان تانى · اعتبرى كمال أدهم مجرد جسم · هيكل · كل وظيفته أنه يحافظ لك على قلب أبوك · ومع ذلك ، صدقينى ، كمال أدهم مش مجرد هيكل · الأستاذ كمال انسان طيب · وجنون · ونفسيته كبيرة · وعنده أمل كبير أنك تقبليه · أرجوك يا آنسة عزة !

قالت بما يشبه الصراخ ، أرجوك أنت · كفاية · مش عايزة كلام فى الموضوع ده (وازدادت نوبة بكائها) أنا باتعذب · باتعذب ·

قال بكل ذرات نفسه :

ــ وانا واثق من الحقيقة دى · وعشان كده باكلمك · لازم تنظرى للموضوع نظرة تانية خالص · اللى حصل ده معجزة يا آنسة عزة ·· يكفى أن العلم أنقذ أعظم حاجة فى أبوك ، أنقذها من الموت ، وفى نفس الوقت خلاها سبب فى حياة انسان تانى ··

دى معجزة فعلا يا عزة · ولازم تستمر المعجزة وأنت أول انسان مسئولة عنها · قلب أبوك فى خطر يا عزة ··

ــ خطر ؟ ·· خطر ايه ؟

ــ لو استمر كمال أدهم على الحالة اللى هو فيها دى ، على العذاب اللى بيتعذبه من جواه ، حيجراله حاجة · ممكن يموت ·· ويموت معاه القلب الجديد ·

وارتعش وجهها ، مستنكرة الصورة · وبدا أنها تتمزق ودموعها لا تكف · أما يحيى البدرى ، فكان يمارس سعادة وحشية · انه ماض فى الانتصار ··

ـ ومش بس كده ياعزة · فيه وحوش عايزين ياكلوه ··

ونظرت اليه ، باستغراب · منزعجة ·

ـ فيه قوى سياسية فى البلد عايزة تستولى عليه · تاخد المعجزة وتستغلها لمصلحتها الشخصية · دول فعلا بدءوا يتعاركوا عليه · ولازم نقف جنبه · نحميه · نحميه حتى من نفسه !

وبدا فى عينيها انه يتكلم الغازا · انها لا تفهم · وتريد ان تفهم ·

ـ أنت عارفة طبعا أن فيه انتخابات اليومين دول ، وفيه قوى سياسية بتتصارع · كل قوة منها عايزة تاخد كمال أدهم لنفسها · أيوه ياعزة · ماتستغربيش ·· لازم تعرفى القلب ده بيمثل ايه دلوقت · ده القلب الجديد · اللى بيمثل انتصارنا بعد النكسة ·· ده الانتصار الحقيقى لبلدنا · الانتصار فى العلم · مش الانتصار فى الحرب ·· المعجزة دى عايزة حماية يا عزة عشان تستمر · مش ممكن نسيبها تموت من الحزن أو تأكلها الوحوش ·

ورآها تضع كفها على جبهتها ، وتغمض عينيها ، وبدت من حركة جسمها أنها تشعر بدوار ، وأنها على وشك السقوط ، وفزع يحيى · استعد بذراعيه لكى يتلقاها لو حدث · لكنها كانت تقاوم وفجأة أجهشت مرة أخرى بالبكاء · وكل جسدها يهتز ، وبدت مسكينة وضعيفة ، وأنها لا تدرى من أمرها أى شىء · وكان احساس يحيى ، برغم الاهتزازة التى حدثت له من بكائها ، أنه أكد انتصاره ، وأنه نجح خير نجاح فى الدفاع عن قضيته ·

الى هـذا الحـد وكفى يايحيى · بعد هذا تصبح وحشـا من الوحوش ·

كانت لاتزال تبكى فى هدوء :

ورأى دموعها تنزل قطرات على خديها ، وتسيل ·

آه يا عزة ، لو تغسـليننى بهذه الدموع (وارتجف قلبه) لا تظننينى بالقوة التى اكلمك بها ، انما انا فى الحقيقة مسكين · ملىء بالحزن مثلك ، لو احكى لك أحزانى · لو تتركينى ابكى لك مثلما تبكين لى ، وبدموعى الحبيسة من زمن طويل أغسل حزنك ·

وتنبه الى أنه على وشك البكاء فعلا · لا · نحن فى الشارع · (وزفر) ·

ـ كفاية بقى يا آنسة عزة ، ارجوك : لازم تكون دى آخر دموع ، ونبتدى من جديد · كلنا نبتدى من جديد · ننسى الحزن شوية ، (وتقلص وجهه حزنا) العالم مش ناقص حزن ابدا ، العالم عايز يخف منه الحزن شوية · احنا حزنا كثير (وابتسم لها فى مرارة) انا لو أحكيلك عن الصـدمات اللى اخدتها فى حياتى ، حتقوليلى انت ازاى لسه عايش لغاية دلوقت ، صدمات لا تعد ولا تحصى ·

(ورأى فى عينيها تساؤل)

يعنى لو سألتينى أنا ايه دلوقت ، حاقول لك : انا ولا حاجة ، (وزفر) جامعة وسبتها وماكملتش · كفاح سياسى وانسجنت وخرجت ولا حاجة · خطيبتى ، وانا فى السجن ، سابتنى واتجوزت غيرى ·

كانت ابتسامته الساخرة المرة قد تلاشت · واكتسى وجهه بحزن عميق ، وبدا فجأة من وقفته أنه أصبح يخجل من نفسه أمامها ، بعد أن عرى نفسه ، ولم يبق شىء !

أجل · من انا ؟ حتى تحبيننى · (ونظر الى حقيبتها ومسطرتها) ويكون لى حق الأمل ؟

أطرق براسه فى اكتئاب ، وحين رفع عينيه اليها ، وجدها تنظر اليه ، تتأمله ، وخيل له أنها تبتسم له ف تعاطف ، انما عيناها كانتا مغطاتين بطبقة من الدموع · هاهى تنظر اليه وتبكى من جديد ، بكاؤها هذه المرة من نوع آخر ·· هل يمكن أن تكون قد مســـــتها أحزانى ؟

وعاودته الثقة بالنفس ، قال مواصلا كلامه :

— ومع هذا ، قاومت ياعزة ، وعايش ، وعندى أمل ·

والتقت نظراتهما ، تجمعت فى عينيها دمعتان كبيرتان سقطتا على خديها ، اندفع مادا يديه ، كأنما ليتلقى فى كفه الدمعتين ·· ويرتوى بهما ، هذه الدموع لا يصح أن تمسح · ليس هناك كنز فى الدنيا أجمل من قطرات الدموع ، لو أشرب هذه الدموع ··

ولكننا فى الطريق العام ياعزة · الناس يمرون بين الحين والحين ، وينظرون · يجب فعلا أن تكفى عن البكاء · البكاء من أجلى ومن أجلك ، اغتسل القلب بما فيه الكفاية · هات دموعك فى منديلى ·

وأخرج منديله من جيبه ، وقدمه لها فى هدوء ·

كانت يده ترتعش بالمنديل ، وتناولته فى هدوء ، ونظرت اليه ، من وراء الدموع · وفوجئت فى عينيه بدموع بعيدة · ولم تصدق : هل يبكى ؟

وفجأة ، وجدته يبكى فعلا ، وأصبحا ينظران الى بعضهما من خلال الدموع ·

ولم تقو على الانفعال ، لم تفعل الا أنها واصلت النسيج ، وقد ازداد بكاؤها ·

وسار بجوارها ، دموعه تسقط هو الآخر فى هدوء ·

الحزن يغسل « هذا النوع من الحزن جميل » ··

الجسد يخف ، والعالم يشف · لو اقفز · لو اضحك · لو أصرخ ، لو أبكى بكل ما أملك من صوت ، اشهد يا نهر النيل على هذا اليوم ، قد يكون الميلاد الجديد · قد نكون ولدنا معك يا كمال يا أدهم من جديد · ستكون هذه هى آخر الدموع ·

واستدار لها بابتسامة هادئة ، مادا لها يده بالمنديل ، كانت يده ترتجف · تناولته منه ، وراحت وهى تسير ، تجفف دموعها فى هدوء · ثم فى هدوء أيضا · مدت له يدها تعيد اليه المنديل · ونظرت اليه · كأنما تقول : ولماذا لم تمسح أنت أيضا دموعك ·· (وابتسم ·· مسح وجهه بأصابعه) ·

وابتسمت ··

كانت يدها لاتزال ممدودة بالمنديل · ومد يده ، لم يأخذ المنديل ، بل أمسك بكفها ، وعيناها تطلبان الغفران ·

عيناك تقولان لك : معك غفرانى ·

وتشابكت اليدان فى صمت وواصلا السير فى هدوء على الكورنيش ·

- ٢٨ -

كانت أنوار المدينة بدأت تضىء ، حين ركب كمال أدهم عربته ، متجها بها الى حى الأزهر ليقابل صلاح عبد الهادى فى محله ، كما اتفقا فى الصباح ٠

كانت تغمره حالة من الرضا عن النفس ، مخلوطة بسعادة ، بل ورغبة فى المرح ٠ وكان يضحك مع نفسه أحيانا بصوت عال وهو يقود العربة ، ويقول لنفسه بدهشة واستغراب : كيف حدث كل هذا من « يحيى » ؟ ياله من ولد شقى وبارع بل وساحر ٠ يقابلها فى الظهر ، ثم فى المساء يكون عندهم فى البيت ٠ الآن هو هناك يقضى سهرة أخرى فى ضوء القمر ٠

هل تتحقق الرؤيا التى رأيتها ذات مرة : يحيى وعزة معاً ؟ يصبح الحب بديلا للاتهام ، تنزاح الأثقال عن النفس ؟ أرى عينى « عزة » تضحكان ٠ أرى فيهما البراءة : تنسى وتبدأ الحياة ؟

أشكرك يايحيى ٠ أشكر شبابك وحيويتك وعبقريتك ٠ كنت تريد

أن تتركنى أيها الوغد اللطيف · أمض يايحيى فى مهمتك العظيمة ·· لا تهتم بغيرها · عليك انت الحب ، وعلى أنا العمل · صـــدقنى (ويضحك مع نفسه وعيناه يقظتان للطريق) ومرتبك محفوظ ، بل و « المهر » ايضا موجود · اليوم اذا كنت تريد · ولكن تذكر ياولد انك سوف تخطبها منى · منى أنا ·· آه ·· فانا أبوها · تاتينى وتقول وأنت تفرك كفيك فى رجاء وخجل :

ـ والله ياعمى ، أنا طالب القرب منك فى عزة ·

فأقول لك :

ـ مفيش مانع يايحيى · بس بشرط · انك تخليها أسعد انسانة فى الوجود · أنت عارف انا ماليش أولاد غيرها · طول عمرى من غير أولاد (وتنهد فى اكتئاب) · لكنه تمادى فى الخيال والعربة منطلقة به · ورأى بيت الحزن ينقلب الى بيت للأفراح ، وعزة ويحيى فى الكوشة · والزغاريد والأضواء الملونة تملأ الفراندة والصـــالة والحديقة ، والأم ، فى ركن بعيد ، تبكى فرحا ، وهو يضمها الى صدره · فى حنان : ماتعطيش · مش قلت لك من أول يوم · اعتبريه ما ماتش · اعتبريه لسه عايش · والأم رأسها على كتفه ، ماضية فى البكاء · غير أن زوجته سناء تطب عليه فجأة ، فى ركنهما البعيد، وترى المنظر فتجرى هاربة وقد روعها ما رأت · تخنق رغبتها فى الصراخ · أن تحول الفرح الى مأتم · فيجرى عليها : افهمينى ياسناء ·

ـ عايزنى أفهم ايه · عملت أب · عايز تعمل كمان زوج ·· (وتجرى منه لتغيب فى الزحام) ·

وتنبه كمال أدهم الى الصورة وارتعد للحظة · غير انه ضحك فجأة عاليا ومقهقها : كيف وصل به الخيال الى هذا الحد · تنتهى

من أزمتك مع البنت ، لتدخل فى أزمة أخرى حول الأم · لا يا كمال يا ادهم ، حرمان المرأة من رجلها ليس مسئوليتك · أم هى رغبتك الدفينة ولا تدرى ؟ لا · لا · والمرأة لا توحى بغير القداسة والاحترام ·· وكل سعادتها فى الدنيا سعادة أولادها · هذا هو كل شىء ·· (وعاوده التفتح) تذكر أن شوقى سيأتيه غدا فى المصنع ، ليذهب به الى مصطفى سيف : بالأمر يا مصطفى · الولد موهوب · واسأل يحيى البدرى الذى كان يقرأ لك قصصك وأنت فى السجن ، اسأله رأيه فيه · لابد أن تنشر له وبسرعة · لا تحتج بأنك مشغول فى الانتخابات ، وفى التجمع الثورى كما تكتب هذه الأيام ·

هذا هو العمل الانسانى ، والثورى أيضا فى نفس الوقت ·· أن تقدم للمجتمع كاتبا جديدا ·· (وتعاوده صورة الأم ، تبكى من فرط السعادة بولدها الكاتب) ذلك أعظم رد منا للجميل · أجمل ختام للأزمة · وأبدأ صفحة جديدة فى حياتى : الضمير المستريح · النوم الهادىء العميق · مواجهة نظرات الناس بثقة وشجاعة ·· لستبعاد فكرة أن يشترى نظارة غامقة يخفى بها جزءا من وجهه ، القلب الجديد يطمئن الى مكانه · شرعية الحياة والعمل · والضحك وللفرح ·

والواقع أن كل شىء فى ذلك اليوم ، من صباحه حتى مسائه ، كان يشير الى أن جو الاتهام بدأ يخف ويتلاشى بالتدريج ، وأنه بانتهاء الاتهام سوف يبدأ عهد السعادة · انتهت مرحلة التكفير عن الميلاد الجديد ، حتى ولم يكن هناك ، من الأصل ، داع لهذا · ولتبدأ الحياة بلا مشاكل ولا هموم · سحقا للهموم ·

ووقف بعربته أمام المحل · ودخل ··

كان صلاح عبد الهادى جالسا على مكتبه ، فى نهاية المحل

بجوار الخزينة ، شاخصا بعينيه الواسعتين وحاجبيه الكثيفين يرقب حركة المرور في الشارع من خلال فتحة الباب .

وحين دخل كمال أدهم ، بقامته الضخمة ، مبتسم الوجه ، خطواته نشطة ، خشى من أول لحظة أنه ربما تأخر على الرجل .. فقد كان وحيدا ، ليس معه غير « أمين المحل » . أما العمال جميعا فقد انصرفوا .

ـ مساء الخير ياحاج . أنا أتأخرت عليك والا ايه ؟

ـ لا ، ولا تأخير ولا حاجة . لسه العمال ماشيين دلوقت .

ونهض صلاح ، وسلم عليه بحرارة . ثم أشار له بالجلوس .

ورأى كمال في عينيه نوعا من الشرود ، والصوت فيه رنة حزن عميقة . أي مشاكل ياترى تواجه هذا الرجل الذى يملك عشرات بل مئات الألوف . تراه يحمل هما شخصيا في بيته . في أولاده . أو ربما في صحته . من يدرى . نحن لسنا أصحاب مصانع وتجارا فقط . نحن أيضا بشر .

ـ ايه ياحاج . باين عليك سرحان . سرحان في ايه ؟

ابتسم صلاح وقال :

ـ سرحان فيك !

ضحك كمال :

ـ سرحان في أنا ؟ مش معقول . في ايه تسرح فيه ؟

وتذكر كمال أدهم فجأة قلبه الجديد . أيمكن أن يكون هذا هو ما يفكر فيه صلاح ؟

على أى نحو يمكن أن يفكر فيه ؟

— أقعد ياكمال ٠٠ نشرب فنجان قهوة ، وبعدين نخرج نقعد فى أى حتة ٠٠ ٠

جلس كمال ٠ أما صلاح ، فقد ترك نهائيا مكتبه وجلس على المقعد المقابل لكمال ٠ جلسة ألفة وصداقة ٠ وطلب من أمين المحل أن يوصى لهما بفنجان من القهوة ٠ وخرجت منه تنهيدة ٠

— والله ياكمال أنا بافكر ، البلد دى رايحه على فين ؟ هل الوضع حيتجمد على كده ، والا فيه تأميمات تانية لسه جاية ٠ الواحد عايز يستقر على حال ٠ ما هو كده ياكده ٠

اعتدل كمال أدهم فى جلسته ٠ معطيا كل انتباهه ٠ الرجل يفتح موضوعا مهما وخطيرا ٠ وتذكر على الفور مشروعه الجديد الذى كان يتكلم فيه مع « يحيى » فى الصباح ٠ مشروع أجهزة الدوبى الذى استقر على البدء فيه ٠ حقا : ما مصير هذا المشروع ؟!

هل يقلع عن التفكير فيه ؟ هل أصبح الطريق مسدودا أمام أحلامه ، كواحد من القطاع الخاص ؟

— لكن بمناسبة ايه الكلام ده ياحاج ؟

قال وقد ارتفع احجباه الكثيفان بدهشة مستنكرا سؤاله :

بمناسبة ايه ؟ بمناسبة الانتخابات اللى البلد داخلة عليها ياكمال ٠٠ انت مش هنا ولا ايه ٠ دى فترة تقرير مصير ٠ ولو مادورناش على نفسنا من دلوقت ، اليساريين حيخطفوا كل حاجة ، واحنا نضيع فى الرجلين ٠ لازم ناخد احنا كمان موقف وبسرعة ٠

على الفور تذكر كمال انهماك صديقيه زهران ومصطفى سيف في تكوين « التجمع الثورى » ٠

هل بدأ الصراع فعلا ؟!

وتذكر أيضا أن زهران ، قادم اليه في الغد ، في مصنعه ، وبالتأكيد سيكلمه في الانتخابات ، على أى نحو سيتكلم معه ؟ لا يدرى ٠٠ وأحس بنفور تلقائى من أن يكون مرتبطا بشكل ما بهذا الصراع ٠ أن يكون على الحياد بقدر الامكان ٠ انه لا ينسى تحية مصطفى سيف له في الجريدة بمناسبة نجاح العملية ، ثم ربطه بين نجاح العملية ، ومولد جديد للبلاد ٠ أى ميلاد جديد يامصطفى لو كان الأمر سينتهى بتأميمات تقضى على أى حلم لنا في مشاريع جديدة ٠ لم يعد لى حلم في الحياة غير العمل ٠ أن يكون لى مشروعى الخاص العظيم ٠ ذلك نفس تفكير « يحيى البدرى » زميلك القديم ٠

ـ موقف ايه اللى ممكن ناخده ياصلاح ؟

ـ هو ده اللى أنا كنت سارح فيه وأنت داخل ٠ انت ممكن تقوم بدور كبير وعظيم ياكمال ٠٠

ـ أنا ؟! دور أيه ؟!

ـ ترشح نفسك في الانتخابات ٠٠

من وقع المفاجأة ، أوشك كمال أن يضحك ، لولا لهجة صلاح الجادة ٠

ـ أنا ؟ أرشح نفسى ؟

ـ ليه لأ ٠ ماتنساش أن اسمك دلوقت معروف ٠ حتاخد تأييد وعطف ٠ وأنت نفسك انسان كويس ٠ وممكن وجودك انت بالذات

فى قلب المجلس يوضح حاجات كتيرة للمسئولين · ويفهم المسئولين القضية على أصولها ·

داخل كمال ـ لا اراديا ـ نوع من الشعور بالزهو ·

ـ بس أنت عارف ياصلاح · أنا مابافهمش أوى فى السياسة ·

شوح صلاح بيده :

ـ يعنى ايه مابتفهمش فى السياسة · ما أنتش فاهم مصالحك فين ؟ مستقبل مصنعك ومصانع زمايلك فين ؟ هى دى السياسة ·· فاهم السياسة ايه يعنى · شوف ياكمال · نتكلم بصراحة أكثر ·· واحد زى حالاتك · هل حتفضل على ما أنت عليه ، محدود بمصنعك ده ومتجمد عليه ؟ مش معقول · لازم بتفكر أنك تكبر مصنعك وتنميه بمشاريع جديدة · الطاقة اللى عندك دى حتروح فين ، الا اذا كان عندك آمال كبيرة عايز تحققها ؟!

أسرع كمال متحمسا وقد تذكر على الفور مشروعه ·

ـ ده حقيقى فعلا · أنا النهارده الصبح بس كنت باتكلم مع يحيى البدرى على مشروع جديد عايزين ندخل فيه ·· ·

لمعت عينا صلاح وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ســــاخرة ومريرة ·

ـ ازاى بقى ياسيدى تدخل فى مشروع جديد وأنت مش مطمئن ·· وأن المسألة على كف عفريت ؟ عشان كده لازم يكون لنا موقف يا كمال · مش ممكن نسيبها للشــــيوعيين · وأديك بتقرا مقالات صاحبك مصطفى سيف عن التجمع الثورى · والناس بتروح ورا الصوت العالى · لازم احنا كمان يكون لنا صوتنا · والا حننتهى · مش كمستقبل بس ، وحاضر كمان ؟

أحس كمال بأنفاسه تتلاحق ، وبانقباضة تغشى روحه ٠

ـ افرض ان المسألة انتهت بتأميم كل المصانع والمحلات ، يكون مصير واحد زى حالاتك ايه ٠ مصنعك اللى أنت ضيعت حياتك عشان تبنيه من العدم ٠ واللى ما جاتلكش أزمة القلب الا من خوفك عليه أيام أزمة العدوان ٠

نسيت لما قفلتم حوالى أسبوعين ٠٠

واسرعت دقات قلب كمال بشـــكل ملحوظ ، حتى أنه خاف على نفسه من أن تتجدد الأزمة ٠ وأوشك أن يقول له : أرجوك ٠ كف عن هذا الموضوع ٠ هذه الأيام السوداء ٠ لا أحب أن يذكرنى بها أحد ٠ لكنه كان يجالد ٠ يجب أن يبقى رجل السوق المتعامل مع هذا القطب الكبير ٠ ثم انه عالم لم يدخل فيه منذ أن خرج من المستشفى واستغرقه الاتهام اياه ٠ وبدا اتهام عزة ، فى تلك اللحظة صغيراً ، بجوار هذا البحر الذى يبدو متلاطما ولابد أن يسبح فيه بمهارة ، ويصارع ٠٠

وهز راسه دلالة أنه منصت للحديث باهتمام ٠

وواصل صلاح ، يشحن الجندى الجديد فى المعركة القادمة ٠

ـ تعمل ايه يا كمال ، لو صبحت فى يوم ، ولقيتهم لهفوا منك المصنع ؟ مش جايز ؟ تشتغل موظف بعشرين جنيه ٠ ياخدوك ريس على عمال ، ويعطوك تلاتين جنيه ٠ وياريت على كده وبس ٠ مصنعك ده ، اللى كل طوبة ٠ وكل صامولة فيه معجونة بعرقك ودمك شهر أو شهرين حتلاقيه ياولداه ، راح وانتهى ٠ أنت عارف شوية المكن اللى عندك دول ، لو كانوا مع القطاع العام كان رماهم خردة ٠ حرام ولا مش حرام يا كمال ٠

وهز كمال راسه مؤمنا بشدة ٠

ـ ده حقيقى فعلا • لأن اللى ماسكين القطاع العام ، مش مؤمنين بالعملية •

قال صلاح وقد بدا على وجهه الامتعاض :

ـ مش حكاية مؤمنين أو مش مؤمنين • الحكاية أن ماعندهمش خبرة • واللى فيه هم اللى واكلينه • وده اللى تاعب اقتصاد البلد • مش وجودنا احنا اللى تاعبه • والا ايه ؟ • ما أنت فى السوق وعارف •

وهز كمال أدهم رأسه هزات متتابعة دون أن ينطق بكلمة • كان يفكر بشكل جاد وحاد • ماذا يحدث فعلا لو أن ما يقوله صـــلاح عبد الهادى تحقق • هل يستطيع الآن أن يحيا بدون مصنعه • بدون عربته • بدون شقته الجميلة • يعود مرة أخرى الى زحام الأتوبيسات •• يأتى « عيل » صغير بشهادة ، ويكون رئيسه فى العمل ••

الحقيقة أنا ضد التأميم ، بشكل قاطع • أنا باشوفه عملية غير انسانية • .

ـ لكن فيه غيرك بيشوفه قمة الانسانية • وهو ده الصراع الحقيقى اللى لازم ندخله دلوقت ياكمال • بمواقف فى قلب المجلس • لازم نكون موضوعيين • وماتجرفناش العواطف الشخصية • مصطفى سيف • وأحمد زهران أصدقاءك صحيح ، لكن أرجوك خليك حذر منهم • بالذات اليومين دول •

صديقك النهارده ، بتلاقيه عدوك بكره ، وبيضرب فيك !

أزعجه الكلام الأخير • ورأى الصورة واضحة بشكل مخيف • أحمد زهران ومصطفى سيف ينقلبان عليه ، ويطعنانه ثم يسلبانه المصنع ويسلمانه للقطاع العام •

هل هذا معقول ؟

واغمض عينيه يبعد الصورة · وواصل صلاح :

- اوع تجرى ورا كلامهم · الناس دول انا عارفهـم كويس · شعارات وبس · انما قول لهم طبقوا شعاراتكم دى على نفسكم ·· حيقولولك أنت ساذج · صحيح ياكمال ·

مصطفى اللى أخد مجده من الكتابة عن العمال وعن الفلاحين يقدر يعيش أسبوع واحد زى ما عامل أو فلاح عايش ؟ اقل من ١٥٠ جنيه فى الشهر مصطفى سيف مابيصرفش · لو يقولوله حنقص من ماهيتك ٥٠ جنيه ، ويفضل لك ١٠٠ شوفه حيعمل ايه · حيحارب بجنون · وأحمد زهران ، اللى طول عمره فى السجون والمعتقلات ، وواخد على البؤس · شوفه النهارده ساكن بكام وبيصرف كام ·· ومع ذلك يقول لك التأميم · والاشتراكية · كلام حافظينه · شغلة بيعيشوا منها · هى دى الحقيقة ·

قال كمال مسرعا ولكن بهدوء ، وبرغبة فى تخفيف الهجوم على صديقيه :

- عشان كده ياصلاح ، انا شايف أن مفيش منهم الخطورة اللى أنت متصورها ·· دول بقوا مجرد أفراد ·· حلوا حزبهم ·· وأصبحوا ناس عاديين فى وسط الناس ·

- هى دى خطورتهم ياكمال · أنهم فى وسط الناس · افكارهم حتى ولو مش مؤمنين بها ، دايرين بها على النـاس · والنـاس بيستهويها النوع ده من الأفكار · ومع هذا ، بيحاولوا النهارده يلموا نفسهم تحت شعار « التجمع الثورى » · يا أستاذ ده فى حقيقته حزب · حزب شيوعى · بس عايزين يقولوها بصراحة · وبعدين ياخدوا البلد · لو سكتنا فعلا يا كمال حياخدوها · حتصبح فى يوم

تلاقى مصنعك مش بتاعك • وحنلاقى نفسنا مشردين فى الشوارع • لا مستقبل ولا حاضر • دول مايعرفوش أبوهم •

انقبض كمال للصورة ، ومر بخاطره صور لثورات كان يسمع عنها أنها لا تبقى أمامها ولا تذر • هل يمكن أن يحدث هذا فى بلدنا الآن ؟ انه مستعد لأن يحارب من أجل مصنعه حتى آخر قطرة فى دمه • وأحس صلاح بانفعاله فواصل •

– عشان كده لازم احنا كمان ناخد موقف وبسرعة • أنا بصراحة بافكر فيك من زمان ياكمال • أنا باعتبرك أمل كبير لنا •• مش لنا احنا بس • للبلد كمان • أنت ممكن تبقى الصوت الحقيقى والصادق والشريف فى المجلس واللى ممكن يتلف حواليه عدد كبير من الأعضاء •

ورأى كمال الجدية على وجه صلاح • هذا الرجل ليس من النوع الثرثار • انه يضعه فى الموقف ، ويريد رأيه • وتذكر أنه هو بنفسه ، عقب قراءته لمقالة مصطفى سيف عن العملية ، قد تخيل وقد رشح نفسه • قال مبتسما بنوع من الخجل :

– والله ياحاج أنا فكرت فعلا • لكن لقيته موضوع كبير •• وبعدين ، هل حكاية قلبى دى حتساعدنى • دى معركة كبيرة وعايزة مجهود •

قال صلاح مندفعا بحماس :

– أؤكد لك انك مش حتبذل أى مجهود • ما عليك الا انك تعلن ترشيح نفسك :

كمال أدهم عرشح نفسه : .

انتابه نوع من الزهو ، جاهد أن يخفيه ..

ـ مش للدرجة دى ياصلاح .

ـ واكثر يا كمال . وحكاية القلب دى حتكون عنصر مساعد . القلب الجديد لازم يعمل حاجة ياكمال . حاجة كبيرة . دى نعمة وربنا وهبها لك .. يجب تستفيد بها ، ونستفيد بها إحنا كمان . والبلد كلها تستفيد . وماتحملش هم أى حاجة على الاطلاق ، كلنا حنكون معاك . بكل قوتنا ..

ورأى نفسه وقد التف حوله كل التجار . وأصحاب المصانع ورءوس الأموال . قوة رهيبة مع حكاية القلب الجديد . يمكن فعلا أن يكتسح فى الانتخابات . ويدخل المجلس ، ويقف ويقول . ماذا يقول ؟!

وخايله فجأة ، وجه عزة ويحيى البدرى ، وشوقى ، والثلاثة يتهامسون : ماذا سيقول ؟ ورأى عزة تنظر اليه بثبات : قلب أبى . ماذا سيقول ؟ ..

وقاوم اضطرابه .

ـ طيب افرض ياصلاح انى رشحت نفسى فعلا ووقفت فى وسط الناس أتكلم حاقول لهم ايه ؟ أنا المدافع عن العمال والفلاحين ، وأكذب عشان أنجح وفى الحقيقة أنا مش داخل عشان كده !

بدا الضيق على وجه صلاح . ومع هذا حاول ألا يكون عصبيا .

ـ اسمع يا كمال . حكاية العمل والفلاحين دى خرافة . ناس معينين بيروجوها عشان يفضلوا عايشين عليها . أضرب بنفسى المثل : هل أنا ضد العمال اللى بيشتغلوا عندى ؟ أنا عندى موظفين بياخدوا أربعين وخمسين جنيه . لو تقول لأى واحد منهم دلوقت :

روحوا القطاع العام ، حيرفضوا • مش عشان الماهية بس ، وعشان مؤمن لهم حياتهم كمـــان • وأنت ياكمال • لما بتنتج ، وبتدخل مع القطاع العام فى منافسة شريفة • مش ده بيطور الانتاج • مش فى مصلحة البلد • فى مصلحة المستهلكين : العمال والفلاحين •

فين التناقض • بالعكس • ده التحالف الطبيعى • احنا أصدق منهم • بنقول تحالف الطبقات فى اطار علاقة انسانية • تدفع البلد لقدام • لكن هم بيقولوا ايه ؟! « التجمع الثورى » فاهم يعنى ايه التجمع الثورى • يعنى اللى مش معاهم خائن وانتهازى ورجعى • ينطرد بره ، خارج الحلقة ويحاربوه • فين بقى الانســـانية اللى عندهم ؟! • دول خطر على البلد • مش خطر علينا احنا بس • لو وقفنا سلبيين حنضيع • وأنت اذا كان ربنا كتب لك عمر جديد •• فعلشان تعمل حاجة • أنا باعتبر ده واجب ياكمال ، أنت من نفسك لازم تقوم به •

كان كمال أدهم ، يدير كلمات الرجل فى ذهنه • وقد بدت له نظرية تحالف الطبقات معقولة الى حد كبير • ممكن أن يدخل بها فعلا فى الانتخابات • أليس هذا التحالف موجودا بالفعل فى مصنعه ، هو ويحيى • والعمال • ما معنى اذن هذا التجمع الثورى ؟ وتذكر انه غدا سيلتقى بالاثنين : زهران فى الصباح ، كما اتفقا بالتليفون • ومصطفى سيف فى الليل ليقدم له شوقى الشريف • ليساعده فى النشر •

سيناقشهما فى الموضوع • بل أن أحمد زهران قادم هذه المرة ليناقشه فى معركة الانتخابات • لقد شم الرائحة فى التليفون •

وفكر أن يقول لصلاح انه ســـيقابل الكتلة الأخرى غدا •• وسيدقنها بهذا المنطق • ولكنه أدرك أن هذا سيزعج صلاح • وصلاح

سند لا يصح أن يضيع • لقد أصبح يمثل جزءا كبيرا من احساسه بالأمان فى عالم السوق • ولو أراد تنفيذ مشروع « أجهزة الدوبى » غدا • فلن يلجأ الا له • وحينذاك سيقول له : ولماذا المشاريع الجديدة ياكمال • وكل شيء على كف عفريت • أجل • لاداعى لذكر شيء عن مقابلات الغد ، وهى قادمة بشكل طبيعى على أية حال • يجب أن يبقى الرجل صديقا •

ـ شوف ياحاج • أنا شايف أن كلامك اللى بتقوله ده معقول جدا •• (وابتسم) بس لازم الواحد ياخد فرصة ويفكر • ده موضوع مش بسيط •

بدا على وجه صلاح الانشراح ، وأنه انتصر • قال مؤكدا !

ـ طبعا ياكمال • لازم تفكر • انما المفـــروض التفكير ده مايطولش • المسألة واضحة جدا زى ما أنت شايف • والمعركة زاحفة والأسماء بدأت تنزل • يعنى (وتردد لحظة) يعنى مش عايز أقول لك أن فيه واحد امبارح جانى وعرض على أنه حيرشح نفسه عشان أقف جنبه قلت له مايستعجلش • ننتظر أما نشوف الجو • والحقيقة كنت أنت ساعتها فى بالى • وكنت حاقوله ان كمال أدهم حيرشح نفسه • قلت بلاش نعلن الخبر دلوقت •

ـ دى ثقة جميلة طبعا ، الواحد يعتز بها •

ـ عشان كده عايزك فى يومين تكون حزمت رأيك ياكمال ، وتتوكل على الله • وزى ما قلت لك • ماتحملش هم أى حاجة على الاطلاق •

ـ ان شاء الله ••

ونهض فجأة صلاح ، وقال وهو يجذبه من كفه ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة سعادة ورضا •

ـ قوم بقى نخرج ٠ نشم شوية هوا ٠

والتفت الى أمين المحل : اقفل أنت بقى المحل ياعبده ، واحنا خارجين ٠

وأخذ كمال من يده ٠ وخرج الاثنان الى الشارع ، يدا فى يد ، كصديقين حميمين ٠ كان وجه صلاح يبدو عليه البهجة ، بينما رأس كمال ، كان قد بدأ يدور ٠٠ ويدور ٠

- ٢٩ -

كان صلاح يقود عربته البلايموث الكبيرة على مهل ، يشـــق طريقه حذرا فى قلب الزحام ، فى اتجاه الأزهر ، ولم يسأله كمال الى أين هو ذاهب به · لقد خصص نفسه الليلة له · فليمض به كما يشاء ·· وكان الشارع التجارى الكبير يزغلل بالأضواء · وبين الحين والحين ، كان صلاح يرفع يده ويحنى رأســـه محييا ، أو يتقبل التحيات · وبدا كملك شاب متواضع يمشى بين رعيته ، أو شيخ صغير فى السن يمر بأفراد قبيلته ·· وأحس كمال بقوته · فعلا لو وقف صلاح وراءه فكل هذا العالم وراءه ، وسينجح بالتأكيد ··

وأفاق على صلاح يقول · كمن يقترح بداية جميلة لليلة :

ــ ايه رأيك ياكمال · حنصلى العشا فى الحسين وبعدين نسهر زى ما أنت عايز ·

وافق كمال : جدا جدا ··

نقطة ألقوة فى هذا الرجل ، لا تنبع فقط من أنه يملك فلوساً كثيرة • بل ومن سمعته الدينية والخلقية الطيبة • الرجل يتكلم بصوت فيه خشوع وحنو ، ورجاء •

ــ ياسلام يا كمال لو تصلى بانتظام حتشوف الدنيا حتتفتح قدامك ازاى ، وأنت بالذات يا كمال • اسمح لى اكلمك بصراحة •• انت مدين بدين كبير لله ، سبحانه وتعالى • أنت ربناوهبك نعمة ماوهبهاش لحد تانى فى البلد دى قبل كده ، لازم تعطيه انت كمان فرضه •

وأسرع كمال قائلا بانفعال ، وقد تولاه فجأة شعور بالذنب وبالخجل •

ــ والله ياحاج انا من شدة احساسى بالنعمة ، أصبحت باشوف الصلاة شىء بسيط جدا جدا • أنا نفسى أعمل له حاجة كبيرة •• انما •• انما ••

ربت صلاح على كتفه (برغم أنه يقود العربة) وقال متأثرا وفرحا :

ــ يكفيك الشعور ده • ومع ذلك عايز إطمئنك • ربنا مش عايز منك حاجة • سبحانه وتعالى ، لا يعطى فى مقابل • ده هو الغنى الأعظم العاطى المعطى ، واللى مفيش لعطائه حدود • انما الصلاة مطلوبة منا ! هى دليل الخشوع والاعتراف بوجوده جل جلاله ، فيه ناس ــ أستغفر الله العظيم ــ مش مؤمنين بوجوده • وأنت عارف بعضهم طبعا ــ تقول لهم تعالوا صلوا • يضحكولك ، أو يضحكوا عليك ••

وعلى الفور تذكر كمال أدهم « يحيى البدرى » يوم أن دخل معه الجامع عقب المظاهرة ، ونام بدلا من أن يصلى ، وأحمد

زهران أيضا لا يصلى ، ومصطفى سيف كذلك · هذه هى نقطة ضعفكم الشنيعة ياأولاد ·

صلاح يواصل ·

– أنا باعتبرهم مساكين · باحس بالشفقة عليهم ·

قال كمال مؤكدا ·

– جدا جدا · أنا اتكلمت معاهم كتير فى الموضوع ده ·

شوح صلاح بيده ·

– مفيش فايدة فيهم · سيبك من الكلام معاهم · شوف نفسك نفسك أنت ياكمال · خللى حسابك مع ربنا على طول · خمس مرات فى اليوم · غسيل للنفس خمس مرات كل يوم · مفيش أعظم من كده ··

وأحس كمال أدهم بالرغبة فى أن يتعرى ويغتسل ويغتسل · ثم يهجع وينام · وعمق فى نفسه هذا الشعور أنه رأى واجهة الجامع تشع بالأضواء · وأوقف صلاح العربة قريبا من الباب · ثم دخلا فى صمت وخشوع · واستسلم كمال ، وهو يرفع يديه بادئا الصلاة ، فى ابتهال لحالة روحانية شفافة · يريد بحرا من الأثير يسبح فيه ، يصعد الى الأعالى ويستطلع البهاء المضىء العظيم · يبكى · يصرخ : أرنى وجهك يا الهى · اصطفينى برؤيتك · أريد أن أراك ولو مرة ·· ولو فى السر ولن أبوح · أقسم يا الهى لن أبوح · مرة واحدة أراك · الذى أعطيته القلب الجديد ، أعطه طلعتك مرة ·

وأحس بحلقه يختنق بالدموع · واستحلى البكاء فبكى · وتنبه الى أنه بهذا خرج عن الصلاة المفروضة وانكمش خجلا ، لكنه كان منتشيا بالدموع ·

ـ انك أنت الغفور الرحيم · يارب العالمين · تعطى الجميل ولا تنتظر من العبد الضعيف · جلت قدرتك ياقدير · يامن قلبت الميت حيا ياعظيم · الآن أرشدنى فى أى طريق أسير · اهدنا الصراط المستقيم · صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، آمين ·

وأغمض عينيه : فى أى طريق أسير ؟!

- ٣٠ -

كانت وردية الصباح لم تبدأ بعد ، حين وصل « يحيى البدرى » الى المصنع • كان قد قرر مع نفسه الدخول فى سباق مع كمال : أينا الأكثر اخلاصا وجدية فى العمل ؟ لابد أن يكون أنا •

كان قد أصبح لبيت « عين شمس » • فى نفسه اثر السحر •• كلما ارتبط بأفراد هذه العائلة اكثر ، تملكته رغبة عارمة فى أن يعمق قدميه فى المصنع ويثبت مركزه فى الحياة وفى المجتمع • ومع أن « عزة » لمتجلس معه طويلا ولا قليلا فى هذه الزيارة ، فقد كانت مستغرقة على السطح فى المذاكرة ، الا أن طيفها ، أو شبحها كان دائم الحضور بحكم طبيعة الموضوع الذى تحدثا فيه • ياله من موضوع مفاجىء وغريب ، ذلك الذى تكلم فيه مع شوقى ، واستنفدا فيه سهرة الأمس •

كان شوقى قد أخبره بجدية ، وبنوع من الزهو أيضا ، بأنه سيبدأ فى كتابة مسرحية جديدة ، اسمها « المحاكمة » وحين سأله

ماذا يقصــــد بالمحاكمة ، قال : المحاكمة التى طالبت بها عزة فى الأمس ، ونحن نتناقش حول « الجحيم فى الأرض » ٠ من عينيه كان يطل بريق غريب ، التحدى والرغبة فى الصراع :

ـ أنا حسيت يا أستاذ يحيى أن موقفنا معاها كان مهين ٠٠ كلنا كنا خايفين منها ٠ بنداريها السكات ٠ لا ٠ نخلى المسألة على المكشوف ٠ أنا عارف قصدها الحقيقى من المحاكمة اللى هى بتطلبها ٠ قصدها محاكمتنا ٠ محاكمة كل اللى اشتركوا فى العملية ٠ عملية نقل القلب ٠ أنا قررت أكتب المحاكمة دى ٠ مسرحية ٠ وحاجيبها فيها متهمة ٠ أيوه ٠٠ حادخلها قفص الاتهام ٠ بس قبل ما تدخل هى ، حادخل أنا ٠ كل اللى اشترك فى العملية ، من قريب أو من بعيد ، لازم يدخل القفص ٠ ويتحاكم ٠

لاينسى يحيى الدوار الذى انتابه فى تلك اللحظة ٠ هل بعد أن بدأت عزة تهجع للسلام وننسى ، يأتى شوقى ويضرم النيران من جديد ؟ لا ٠ لا ٠ ياشوقى أرجوك ٠

وأوشك لحظتها أن يقول له انه قابل عزة وسارا معا على النيل واقنعها بالنسيان ٠ أن نبدأ من جديد ٠ نقف وراء القلب الجديد ونحميه ٠ لكنه أحس بأن جدية شوقى وهو يتكلم عن الفكرة ٠ أقوى من مثل هذه الحجة ٠ وقد يفسر مقابلته لها خلسة ، تفسيرا يؤذيه ٠ والفكرة خطيرة ورهيبة حقا ٠ يا لها من مسرحية لو تمت ٠ هذا الولد فيه شيطان رهيب من شياطين الفن ٠٠

وفوجىء به يشير اليه مواصلا كلامه ٠

ـ وأنت كمان ، لازم تتحاكم ٠

لايزال يحيى البدرى يذكر الارتعـــادة التى شملته فى تلك اللحظة ، والتى داراها بضحكة متهافتة ٠

ـ أنا ؟ مالى أنا والعملية ؟

ـ كل اللى له صلة بها ٠ كل اللى دخل فيها بشكل أو بآخر ، لازم يبقى متهم ، وتدور المحاكمة ٠٠

واستراحت نفسه قليلا : أن خيالاته بعزة ليست محل اتهام ٠ لا يجب أن يكون الاتهام الموجه له صغيرا وصبيانيا الى هذا الحد ، أجل ٠ أنا مستعد ياشوقى للمحاكمة ، ولكن باية تهمه ٠ انى جئت الى هذا البيت لادافع عن براءة كمال ، وانشر روح الحب والسلام ، والايمان بالعلم ٠ يا لها من محاكمة ستكون ٠

ـ ياسلام ياشوقى ٠ دى ممكن تبقى أعظم مسرحية انكتبت فى السنوات الأخيرة ٠ حتبقى مسرحية المرحلة ٠٠ وكل مرحلة ٠

ولحظتها بانت على وجه شوقى السعادة ، وازداد حماسه ٠

ـ عايز اخلصها بسرعة جدا ٠

هنا كان ليحيى حق رفع يده معلنا الاعتراض ٠

ـ هو ده العيب ياشوقى ٠ مسرحية زى دى مش عايزة سرعة ٠ عايزة دراسة طويلة لشخصياتها ، وأحداثها ، والظروف اللى تمت فيها ٠ ثم أنت متخيلها حتنتهى على ايه ؟ ماحدش يقدر يتنبأ ياشوقى بالنهاية ٠ والعملية لا يمكن الحكم عليها النهاردة ٠٠ بمجرد نجاحها ٠ انما من خلال استمرارها فى الحياة ٠ ماتحاكمش « كمال أدهم » على انه اتنقل له قلب جديد ٠ ده مش ممكن يكون اتهام ٠ الاتهام الحقيقى ، أو المحاكمة الحقيقية له :

عمل ايه كمال بالقلب الجديد !

يذكر يحيى هذه اللحظة بسعادة ، وشوقى يتلقف كلماته بنهم ، يشربها شربا . كانت هذه الكلمات تفتح أمام الكاتب الشاب أبعادا جديدة فى المسرحية . كانت أبعادا غامضـــة عليك ، ولكن تمهل ياشوقى فى الكتابة . لن تكون مسرحيتك هذه ، اذا تسرعت فيها ، أكثر من زوبعة وتنتهى . تمهل ياشوقى فى كتابتها . يمكن أن تكون أشهر كاتب بهذه المسرحية او امسكت بكل أبعادها بين يديك . ستكون مليئة بالجراح ، سينزف فيها دم كثير ، ولكنه النزف الذى تتطهر بعده الجراح يا « عزة » وتجف الى الأبد .

كان يحيى البدرى يسترجع كل هذا ، وهو يروح ويجىء فى صمت بين الأنوال . واحيانا يخرج الى باب المصنع ، ويقف مستندا عليه بظهره ، والشمس فى عينيه ، يرقب حركة اندفاع العربات فى الشارع . ناظرا الى بعيد . ربما يلمح « كمال أدهم » قادما بعربته فى أى لحظة ..

وتخيل وجهه . وأحس فجأة بشعور بالغ بالعطف عليه ، والرثاء أيضا .

وضحك مع نفسه ضحكة ساخرة اسيانة : من كان يتصور أن كل هذا فى انتظار القلب الجديد ؟

أيام العملية . تلك الأيام الرهيبة . كان كل همنا ان تنجح . تنجح وفقط . ويعود الى الحياة ..

وابتسم فى مرارة . ليس المهم ، هو العودة للحياة . المهم هو ما ينتظرنا . ما يواجهنا فى هذه الحياة .

وتنبه من سرحته على أحد العمال ينادى عليه ..

ـ تليفون يا أستاذ يحيى • الأستاذ أحمد زهران •

لم يرد يحيى بكلمة • انما هز للعامل رأسه بأنه قادم ، وفكر للحظة ، ولم يلبث أن ابتسم ، أحمد يازهران • لست قادما لى هذه المرة • أنت قادم للقلب الجديد •

لا يازهران ، ولا فى الخيال ستتمكن منه • سأقف لك بالمرصاد • لم تعد تمثل فى نظرى أى شىء • نعم وسأقولها لك بأعلى صوت • لست أنت الذى تأخذ « قلب الشعب » كما يحلو لك أن تصف القلب الجديد متملقا كمال أدهم • أنت تعرف أنه ليس قلب الشـــعب •• أنت تنظر اليه على أنه رجل برجوازى • صاحب مصنع ، يركب عربته من عرق عماله ، ولكن المعجزة العلمية تريد أن تنفرد بثمرتها لحسابك الخاص •

وأسرع الى التليفون ، متحفزا ••

ـ أيوه يا أحمد • صباح الخير ، تجيلنا شوية دلوقتى ؟ أهلا وسهلا طبعا • فى أى وقت • لا كمال لسه ماجاش • لكن زمانه فى الطريق • أهلا • فى انتظارك ••

بعد لحظات • رأى كمال أدهم يدخل عليه • ورغم أناقته ، الا أنه أحس من عينيه ومن بشرة وجهه انه لم يأخذ حظه الكافى من النوم ومع هذا كان يبتسم • هو مشغول بشىء • هل تأخر فى السهرة مع صلاح عبد الهادى ؟ •

ـ صباح الخير يايحيى ؟

ـ صباح النور ياكمال ••

وأخلى له مكتبه ، وسلم عليه ••

وجلس قبالته ٠ لحظات صمت ٠ وشرود ٠ ربما بدأ يفكر جديا فى مشاكل تنفيذ المشروع الجديد ٠ ثمن أجهزة الدوبى ، هل تكلم مع صلاح فى المشروع ؟

ـ عملت ايه امبارح مع الحاج صلاح ؟

ـ أبدا ٠ قعدنا مع بعض شوية فى المحل ٠ وبعدين صلينا مع بعض العشا فى الحسين (وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وعاود الشرود عينيه) انما بيعرض على عرض غريب يايحيى ٠

ـ عرض ايه ؟

ـ أرشح نفسى فى الانتخابات ٠٠

هب يحيى واقفا ٠٠

ـ هو ده اللى أنا قلته ٠ كنت واثق أن حساجة زى كده حتصل ٠٠

اعتدل كمال فى جلسته مستغربا ٠

ـ ايه اللى أنت قلته ٠٠ مش فاهم ٠٠

وتوجه يحيى اليه بكل عينيه ، فاردا صدره وبنيانه ، ثم بلهجة خطيرة وجادة :

ـ شوف ياكمال ٠ عايز اقول لك حاجة لازم تعرفها كويس عن نفسك ٠ انت أصبحت انسان مش عادى ٠ أنت فيك حاجة مش موجودة فى حد غيرك على الاطلاق ٠ القلب الجديد اللى جواك ده ياكمال لازم ينصان ٠ ماتسمحش لأى حد يستغله على الاطلاق ٠٠ فيه قوى سياسية بتحاول دلوقت تلعب به ، وتستغله لمصلحتها ٠٠

أرجوك ياكمال · تخلى بالك من نفسك · ومن قلبك · قلبك ما أصبحش ملكك انت بس · ده أصبح ملكنا كلنا ·

رغم أنه انفعل بلهجة يحيى ، الا أنه أحس تلقائيا بالضـــيق وبالنفور · لم يعد يقابل أحدا الا ويقول له هذا « أنت تملك مالا يملكه الآخرون » ·

وانتابته رعشة داخلية ·

لقد أصبح يضيق بهذه النغمة · والآن ، هى لاتبدو مجرد نغمة عطف وحسب ، بل هى تحمل فى أعماقها معنى « الوصاية » · تحت أى شعار لن يقبل الوصاية من أحد ·

ـ بلاش نبالغ فى تصوراتنا يايحيى ·

ودارى مشاعره بابتسامة صغيرة ، مرهقة :

ـ أنا قدامك أهه ·· رجل عادى ·· و ··

وقاطعه يحيى بشدة ، وبنفس لهجته الجادة بل والمتحدية

ـ لا يا أستاذ كمال · انا كتير بقيت أقول نفس كلامك ده ، وان دى أوهام · لكن طلعت حقيقة · أنا ماكنتش أعرف ان صلاح عبد الهادى كلمك · وبعد شوية صـــغيرين جايلك أحمد زهران · « وأشار على التليفون » وانت داخل كان بيتكلم فى التليفون ، بيقول انه جاى · تفتكر جاى لك ليه النهارده ؟

ـ ليه ؟

ـ عشان ياخدك فى « التجمع الثورى » ·· وأراهنك ان ما كلمكش فى الموضوع ده النهارده ·

ابتسم كمال لكلمة « الرهان » · وتنبه لشىء فجأة ، أن يحيى وزهران كانا زميلين فى الكفاح · ان تحذيره لى من « صـــلاح

عبد الهادى » هذا الحذر المبالغ فيه ، يمكن أن أفهم أساسه ٠٠ لكن ٠٠ تحذيره اياى من أحمد زهران : الكفاح المشترك القديم ٠ والسجن ٠٠ شىء غير مفهوم ٠ فليتعرف على مغاور هذا العالم الغريب ٠

– وافرض أن أحمد زهران طلب منى فعلا أروح معاه فى التجمع الثورى ٠ ايه العيب فى كده ؟

– العيب فى كده ٠ انه مش تجمع ثورى ٠ بالعكس ٠

كان يحيى يتكلم بحرارة ، وضراوة أيضا ٠ ورأى كمال أنه يفتحه على عالم متشابك معقد ليس عالمه ، وتقهقر ٠ مهلا يايحيى ٠ مهلا يا بنى ٠ لم يحدث شىء بعد ٠٠

لم يصل بعد أحمد زهران ، لكى نعرف على وجه اليقين ، ماذا يريد ؟

انت نفسك ، ماذا تريد ؟ ٠٠

وأخذ نظرة من وجهه الغاضب المكفهر ٠ وفكر : كيف ينقلب زملاء الكفاح على بعضهم البعض بهذا الشكل ٠ وبهذه الحدة القاسية المريرة ، حدة تصل الى حد التحطيم ان أمكن ٠ ماذا يحدث لو جاء أحمد زهران الآن ، فى هذه اللحظة بالذات ، ماذا سيكون موقف يحيى منه ٠ وجها لوجه ؟

وتخيل صداما عنيفا يحدث (ورمش بعينيه) أم نحقن الدماء ٠ ونؤثر السلام ؟

وضحك القدر ضحكته الساخرة المجلجلة الغريبة ٠ ففى تلك اللحظة ، سمع الاثنان رغم أصوات الأنوال المتتابعة العالية ، دقتين متتاليتين على الباب ٠ ولم ينتظر الواقف بالباب اذنا بالدخول ٠

وكان أحمد زهران ٠

- ٣١ -

بدا احمد زهران من أول لحظة ، بحقيبة المحاماة الكبيرة التى يحملها فى يده ، أنه قادم فى موضوع هام ، وكان شاحبا ومرهق الوجه كأنه لم ينم منذ أيام وأيام . ومع هذا كانت عيناه تتوثبان . وتشعان من حوله جوا من الثقة والمرح والحيوية • ذلك الجزء الذى يحبه فيه كمال •

ـ أهلا يا أحمد • مش معقول • كنت لســـه باتخيلك داخل دلوقت •

وضحك احمد وهو يضع حقيبته الثقيلة على الأرض بجوار الكنبة •

ـ ابن حلال • مكشوف عنك الحجاب •

وسلما بحرارة • واستدار أحمد الى يحيى مسلما بحماس •

واهتم كمال أدهم أن يراقب ملامح يحيى البدرى وهو يسلم

على زميله الذى كان يهاجمه منذ لحظات · هل يتراجع ؟ لكنه رأى يحيى يسلم بجمود ، بابتسامة صاحب بيت لابد أن يستقبل ويسلم ·

هل لاحظ زهران ؟

لاداعى يايحيى · أنتما ، مهما كان الأمر ، صديقان · أنا أوثر لهذه الجلسة السلام ·

وجلس زهران على الكنبة ، مادا ساقية الطويلتين امامه ، معطيا نفسه حق الراحة والاسترخاء : ياسلام · الراحـــة حلوة يا أولاد ··

قال كمال بدهشة :

– راحة ايه واحنا لسه الصبح ·

– مانمتش الليلة يمكن تلات ساعات ·

وحانت منه نظرة الى الحقيبة · ولاحظ كمال أنها منتفخة وثقيلة فقال مداعبا :

– أنت واخد قضايا البلد كلها فى شنطتك والا ايه ؟

فضحك زهران وقال وهو يربت على الحقيبة :

– تصور ان دى قضية واحدة · من صفحة ونص بس ؟

قال كمال باستغراب وفضول : قضية ايه الخطيرة دى ؟

– قضية الشعب ، ياحامل قلب الشعب ·

(قالها بضحكة لطيفة ، وواصل) كل ما القضـــية ازدادت وضوح ، كلما احتاجت كلام قليل ·

التقط كمال نظرة من يحيى ، كان يجلس فى جمود ، بلا رغبة فى الكلام · يسمع فقط ، وعيناه متحفزتان ·

وقال كمال متبسدا ، قاصدا شغل الوقت بالكلام :

ـ قضية ايه اللى واضحة بالشكل ده يا أحمد ؟

ـ التجمع الثورى ياكمال · دى قضية البلد النهارده · قضية المرحلة · أى شىء تانى يبقى من خلاله ·

وانحنى على الحقيبة يفتحها وليخرج منها نسختين · التقت نظرات يحيى البدرى بكمال أدهم · وبابتسامة خاطفة ساخرة : جاءك كلامى ياعم كمال ؟ انتظر المزيد ·

ونهض زهران واقفا بزهو ، وقدم لكل منهما نسخة :

ـ ده البرنامج ·

تلقى يحيى الورقة بفتور ، بينما راح كمال يقرأ فى تمعن وعلى مهل ، فوجىء زهران بيحيى يضع الورقة على منضدة صـــغيرة أمامه · ويطرق بلا أى كلام ·

وقال زهران فى قلق ، وقد اندفعت الدماء الى وجهه :

ـ ايه بايحيى · مابتكملش قرايه ليه ؟

ترك كمال هو الآخر الورقة ، ونظر بفضول وقلق : لايزال يحيى مصرا على موقفه · لم يتراجع · ماذا سيكون رده ·

ـ علشان شبعنا قراية ياعم أحمد ··

قالها بلهجة مستهينة ومتحدية · ورأى كمال الاثنين ـ يحيى وزهران ـ وقد اشتبكت نظراتهما وبديا كديكين نافشـــين متحفزين لبعضيوما ، مع الفارق فى السن وفى التجربة ، وحتى فى الهيكل الجسمانى · كان زهران واثقا من نفسه ثقة طبيعية لا اجهاد فيها ، أما يحيى فقد بدا مجاهدا لكي يتماسك ، ورغم أنه كان أقصر بعض

الشىء من زهران ، الا أنه بدا بصدره القوى البارز وحيوية شبابه ، وسنه ، أنه يملك ما لا يملكه زهران الذى تبدد جزء كبير من صحته ·

وقال زهران وعيناه فى عينيه :

أفهم من كدة انك ضد التجمع الثورى ··

قال يحيى ببساطة :

– انت بس اللى بتعتبره ثورى ·

اهتز عصب فى وجه أحمد زهران ، وبدا عليه أنه يقاوم غضبه بشدة · قال فى هدوء ظاهر :

– وحكمك ده بنيته على أى أساس ؟

قال يحيى مشوحا بيده ببساطة واستهانة ، بلهجة من يقرر أشياء بديهية لاتحتاج الى أبسط مناقشة :

– أساس ايه ياعم احمد · هى دى عايزه مناقشة · جايين النهارده تقولولى تجمع ؟ ما كان التجمع الثورى الحقيقى موجود . وأنتم نفسكم اللى ضربتوه · وأنت كنت أول واحد بتنادى بالحل ·· بعد ما تمت الجريمة وحسيتوا بها جايين النهارده تقولوا تجمع · فاكرين الناس لعبة فى ايديكم ؟

اندفعت الدماء الى وجه أحمد زهران · أرتج عليه للحظات · بدا لبرهة فى هيئة المتهم · غير أنه لم يلبث ان تماسك بسرعة ، وأطلت من عينيه نظرة تعال وثقة · قال بهدوء ساخرا يرد جزءا من الطعنة :

– ومع ذلك فضلنا نشتغل ياسى يحيى ، مابطلناش ·

أعرف قصده · التهمة التقليدية · انى ركنت من الكفاح ، تبرجزت ، لا · هو البرجوازى الكبير · المرتزق من الشعارات ·

– أنتم مابتشتغلوش لحساب البلد · بتشـــتغلوا لحســـاب نفسكم ·

هنا هب كمال ادهم من جلسته ، وقد رأى وجه زهران ينقلب وسيبدأ هجومه العاصف :

– ايه ياجماعة الكلام ده ؟ يحيى · مش معقول كده · الراجل ضيف عندنا ·

قال زهران محتجا باحساس من جرحته المجاملة :

– لا يا كمال · أنا مش ضيف · وما تخافش على احساساتى (وابتسم) أنا قادر على أنى أرد بنفس الطريقة وهو عارف · لكن وبعدين ؟ ايه النتيجة ؟ ولا حاجة · صراخ على صراخ · والأجدع هو اللى حسه يعلى ·· لا ·· ممكن نتناقش بهدوء وموضوعية (ونظر الى يحيى) قدام كمال أدهم · أنا يهمنى القضية دى بالذات توضح ، لكمال أدهم ·

قال يحيى بسخرية :

– واشمعنى النهارده انت مهتم بكمال أدهم ، كل هذا الاهتمام ؟

وبلهجة واثقة متحدية :

– لأن كمال أدهم النهارده أمل كبير · ولازم أنت تعرف كده · أنا جاى النهارده عشان كمال أدهم يدخل التجمع الثورى ·· رسمى ·

رغما عنه ، أو كنوع مباشر من الرد ، وجد يحيى نفسه يضحك عاليا ، لكنها ضحكة مهزوزة · وحانت منه نظرة خاطفة لـــكمال

ادهم : جاءك كلامى ياعم كمال ؟ وبدت ضحكته فى تلك اللحظة غير مستساغة ، حتى أن كمال نفسه تضايق منها ، أجل يايحيى البدرى ، تحقق كلامك · ولكن لا تتعامل مع الرجل بهذا الشكل ، مهما كان الأمر فهو ضيفى · وصديقى وابن بلدى أيضا لا تنس هذا · ولاحظ يحيى البدرى ضيق كمال أدهم بضحكته الساخرة ، فابتلعها بسرعة ، وخيل له أن الرجل مسه نوع من الزهو والاحساس بالسعادة لكلام زهران عنه · زهران الخبير بنقط الضعف فى النفوس · احذر ياكمال ·· وقدر مع نفسه أن دوره انتهى الى هذا الحد · وأن وجوده ربما لم يعد مرغوبا فيه بشدة · فليخرج ، وليتركه هو يقرر موقفه ·· و ·· لقد أعذر من أنذر ·

قال وهو يقف معلنا انسحابه ولكن لابد أن يؤكد كلمته قبل الخروج :

على كل حال انا كنت عارف أن ده حيحصل · ونصيحتى بقى لك يا أستاذ أحمد يازهران . انك تسيب الراجل فى حاله · القلب الجديد مش ممكن حيبقى لعبة فى ايديكم ·

قال كمال معترضا ومحتجا بشدة : لأبقى يايحيى كده ومالكش حق · دى مسألة خاصة بى ، وانا حر فيها ··

ـ آسف جدا يا استاذ كمال · (قالها يحيى وقد اكفهر وجهه) عن اذنكم · واستدار عنهما فى عصبية وخرج ·

حل صمت عميق للحظات · ولم يعد سوى صوت الأنوال الدائرة ·· ونهض زهران فى توتر · لكنه ظل واقفا كالمتسمر فى مكانه لحظات كان حاجباه مزمومين بشدة ، ووجهه فيه شبه رعشة ، وفكر كمال ان يجرى مقتربا منه ويربت عليه معتذرا · ويشكره على شعوره النبيل نحوه « سواء قبلت عرضك أو رفضته فجميل منك أنك تنظر لى هذه النظرة » ·

ـ أنا آسف جدا ياأحمد ان ده حصل دلوقت · انما « وضحك ضحكة صغيرة متهافتة » ·

يحيى برضه أخوك الصغير ·

ـ لا ياكمال · يحيى ده مش صغير · ده يخرب بلد لوحده اذا عاز · وده المؤسف ، ان انسان زيك ، مايلاقيش حواليه الا النوع ده · النهارده جاى يعايرنى قدامك بحل الحزب · وأيامها ، لما كنا بنناقش الموضوع واحنا فى السجن كان ساكت · مالوش رأى · كل همه كان يخرج من السجن بس · انما احنا كنا بنناقشها على مستوى مصلحة البلد كلها · على مستوى استمرار الفكرة الاشتراكية نفسها · حل الحزب كان واجب وطنى · احنا لو كنا فضلنا مصممين على تنظيمنا المستقل ، والمتصادم بالتالى مع الحكومة ، كانت حتكون ايه النتيجة ؟ الاستعمار والرجعية حيكسبوا · والصراع بدل ما يبقى بين الثوريين والرجعيين كان حيبقى بين الاشتراكيين وبعضهم · يعنى كارثة ؟ النهارده ايه اللى حصل بفضل قرار الحل اللى حضـــرته بيتريق عليه ، قوة الاشتراكية بتكبر وأنصار الاشـــتراكية العلمية بتتزايد بالألوف · ماعدتش الحكاية « دكانه » صـــغيرة قاعدين مستخبيين فيها ··

لا ·· واذا كان الاتحاد الاشتراكى لغاية دلوقت ماضمناش كلنا · فدى مش مسئوليتنا · ومع ذلك ، ماحدش يقدر ينكر أن نفوذ الاشتراكية العلمية فى بلدنا زادت أضعاف أضعاف ما كان فى أى وقت سابق ··

الناس اللى زى يحيى مش قادرين ولا عايزين يفهموا أن كل مرحلة ولها الشكل التنظيمى المناسب · النهارده البلد بتواجه ظرف جديد ·· مرحلة جديدة فى تاريخها · مرحلة عايزة التجمع والتجمع السريع ··

كل العناصر الثورية المتقدمة لازم تتجمع بسرعة · يد فى يد · بنيان مرصوص وأنت معانا ياكمال ·· أنت بالذات (وهز كفه فى وجهه بقوة) اخرج ياكمال من الدايرة الصغيرة اللى أنت عايش فيها · لازم يبقى لك دور أكبر من كده · مش ممكن تسيب حياتك ، حياتك اللى رجعت لك بمعجزة ، تضيع هدر فى وسط ناس عجزة ، كل مهمتهم يشدوك لورا · انت ممكن تقوم بدور كبير يا كمـــال ·· وأنا شايف ان ده واجب عليك · نحو البلد · زى ما البلد أعطتك ، لازم تعطيها وعلى نفس المستوى العظيم اللى أعطتك به لازم تعطيها · اخرج ياكمال · اخرج من نطاق الأزمات الشخصية والفردية · أنا عرفت مشكلتك مع العيلة بتاعة « عين شمس » والأزمة اللى أنت بتمر بها · حكى لى عنها مصطفى · وده موقف خاطىء منك يا كمـــال : انك تحول المحنة الكبيرة اللى أنت دخلتها الى نوع من الارهـــاف والحساسية الرومانتيكية ، ومهما أنت أعطيتها شكل الألم ، فهى فى صميمها نوع من المتعة ·

كان كمال أدهم ينظر اليه محدقا فى مخارج ألفاظه الغريبة وراه على غير ما يصور « يحيى » لا يداهنه أو يتملقه ، انما يصل معه الى حد التعرية والهجوم ·

أزمته العائلية نوع من الرومانتيكية ·· نوع من المتعة ؟

– أيوه يا كمال · القلب الجديد مش ممكن يعطى انانية ·· القلب اللى جواك ده لازم بفضل فاكر انه كان قلب مين ؟ كان قلب عامل فى العذابر · القلب ده كان عايز ايه ؟ آمال صاحبه كانت ايه ؟ أؤكد لك ماكانش عايز حاجة لنفسه ولأولاده وبس · كان عايز مصانع لكل الناس · مفيش نقطة زيت تضيع · مفيش حتة فحم تروح ·· السعادة ترفرف على الجميع · ده طريق القلب الجديد يا كمال · انه يبقى لكل الناس · من اجل كل الناس ·

كلماتك ساحرة يازهران · يا ابن بلدى · أريد أن أصدق هذه الكلمات · امض فى الكلام · أريد أن أسمع منك · تكلم · تكلم ·

ـ ده الطريق اللى أنت لازم تمشى فيه ياكمال · وده اللى حيخليك تنام بضمير مستريح ، وتعيش سعيد ، ومعتز أن اتنقل لك قلب جديد ، انما كده : بتعمل ايه بالقلب الجديد ؟ عملت ايه لغاية النهارده ؟ ولا حاجة · نفسك وبس · معلهش ياكمال ، اسمح لـى أكون صريح معاك · وأنا من اعتزازى بك ، وايمانى بأنك تقدر تقوم بعمل عظيم · تفضل الرمز الكبير لأعظم تطور علمى واجتماعى حصل فى بلدنا ، باقول لك الكلام ده · انما اللى زى يحيى ، يهمه انـك تفضل ضعيف · معذب ، وقلق · فرصة يثبت ذاته وقوته · لأنه مايقدرش يعيش جنب الأقوياء ·· ده قوة الجذب اللى بتشدك لورا · أنت اللى يجب تشفق على الناس دول ، مش هم اللى يشفقوا عليك · واذا كانوا بيتصرفوا معاك كده ، فمش لأن حياتك غالية عليهم ، لازم تستمر عشان تستر ضعفهم وتستر جبنهم ·

تخلص من عوامل الضعف ياكمال ، ارتبط بالجديد · ارتبط بالقوة · خد مكانك · اتكلم ·· لو كنت مت ، كنت حتموت مريض · النهارده لو تموت · ممكن تموت بطل · بطل شعبى عظيم ، ويقولوا الراجل اللى أخذ قلب الشعب عاش ومات من أجل الشعب · وده مايبقاش الموت · يبقى الخلود ياكمال ·

كان لكمال ادهم يسمع فى صمت · فى استسلام تام · وعيناه تموجان بألف معنى ومعنى · وكان بأحاسيسه وخيالاته يصعد الى قمم مضيئة عالية ، ثم يهبط متهاويا الى سفوح معتمة مخيفة ·

وطوال ما كان زهران يتكلم ، لم تبرح خياله صورة صلاح

عبد الهادى قطب السوق الكبير ، ناظرا اليه بعينيه السوداوين ·· الواسعتين ، كأنما يرقب موقفه · ومع صورة صلاح أيضا ، كانت صورة الرجل الذى أخذ قلبه تتراءى له ، والزوجة الواهبة ، وعزة وشوقى · وبدا الكلام عليه صعبا ·

شىء كدبيب النمل يشيع فى جبهته ويقبض عليها بقوة · ورفع يده يضغط بأصابعه على جبهته ·

ـ نواصل الكلام بعدين يازهران ·

··

- ٣٢ -

منذ صباح ذلك اليوم ، والأحداث تتتابع ، وتتدفق . كأنما تلوى أعناق بعضها البعض ، وتتلاحم مندفعة الى ما يسمى نقطة الانفجار ·

ولاحساس كمال أدهم الخفى بأن شيئا ما مجهولا مروعا قد يحدث فقد قرر مع نفسه أن يتجنب - ولو لفترة - أى لقاء مع زهران أو الحاج صلاح ، ويحيا فى هدوء وسلام · لكنه كان يحيا بشعور المطارد ، وبدأ ينحنى بكتفيه الى الأمام ، كأنما يحمى صدره · « لو ذهبت مع أى طرف ، فسيدمرنى الطرف الآخر » والذى زاد المشكلة حدة فى نفسه ، أنه وجد « يحيى » - هكذا فجأة أيضا - طرفا أصيلا فى الصراع · ونقطة القوة المخيفة فيه ، أنه أصبح يمثل هو الآخر قوة كبرى ، لم تكن على البال ، قوة عزة وشوقى وهالة ، قوة الشباب !

ما الذى تريده منى هذه القوة هى الأخرى ، بقيادة يحيى البدرى ؟

أنا أعرف بالضبط ماذا يريده الحاج صلاح ؟

وأعرف أيضا ماذا يريده أحمد زهران ؟

ولكن ما الذى يريده يحيى البدرى ؟ لم أعرف بعد ٠

وأحس فجأة بنوع من الدوار ٠ دوار الارهاق ، وابعد الأفكار بسرعة عن رأسه ٠ لا أريد أن أعرف ٠ لا أريد أن أعرف ٠

وجلس على الكنبة ، وتعالت فجأة أصوات الأنوال فى رأسه ٠٠

أريد أن أغفو بعض الوقت ٠ فالأنفاس تسرع هكذا ٠ لا ياكمال ٠٠ خذ الأمور ببساطة والا فقد ينتهى كل شىء فى غمضة عين ٠٠ استرح قليلا على الكنبة ٠

وبينما هو يتمدد ، رأى وجه الطبيب المهيب ، يقترب باسما منه ، وأحس بدقات قلبه تسرع وهو يستعيد صوته :

ـ القلب اللى جواك ده أمانة يا أستاذ كمال ٠ ده ثمرة كفاح السنين ٠ حافظ عليه ٠

وداهمته فجأة ، رغبة فى البكاء ٠ لماذا لا تسأل عنى أيها الطبيب ؟ رميت بى الى هذا العالم بمجرد أن نجحت العملية ٠ وتركتنى فى الخضم الكبير ٠

ـ لم اتركك الا بعد عام من نجاح العملية ياكمال ٠ بعد أن وقفت على قدميك ٠ أصبحت مسئوليتك أنت ٠ ومع ذلك ، انا معك ٠ هنا فى القاهرة ٠ تحت أمرك فى أى وقت ٠

وأحس كمال براحة شديدة ٠ وانتابه حنين دافق لأن يـــرى طبيبه ٠ مجرد الرؤية ٠ يعانقه ويقبله ، ويبارك وجوده وحياته ٠

« كيف نسيت أن أدعو لك بطول العمر ، ودوام الصحة ، وأنا

أصلى مع الحاج صلاح فى جامع الحسين (ويزفر بخجل) ومع هذا ، فلن أزعجك بمشاكلى الخاصة ٠ هذه مشاكل عاطفية وسياسية ، لا شأن لك بها ٠ يكفينى أنك موجود ٠ أنت فى النهاية صمام أمانى ٠ لن آتى اليك الا فيمـــا يمس القلب ٠ قلبك أنت ٠ كعضو مزروع (وتنتابه ارتعادة ، وهو ممدد على الكنبة ، مغمض العينين) سأحافظ عليه أيها الطبيب وأعدك بهذا ٠ اطمئن ٠ افكر جديا فى الذهاب الى المصيف ولو لأيام ، وأهرب ٠ وحيدا ٠ قد ينسانى الجميع ٠ تنسانى حتى سناء ٠ حتى زوجتى ياطبيب ، أصبحنا غريبين فى بيت واحد ٠ كان المفروض أن أذهب الآن الى البيت ٠ الى سريرى وأنام ولكن ٠٠

فلأنم فى أى مكان ٠٠

حيث يأتى النوم للانسان ، فلينم ٠٠

ينسى وينام ٠ ينام ٠ ينام ٠

وشحبت الرؤى أمام عينيه ٠

ــ فى حمايتك ، أنام ٠٠

ونام كمال أدهم ، رغم ضجيج الأنوال ٠٠

* * *

استيقظ كمال أدهم فجأة ، على صوت تليفون ، وبآثار غيبوبة النوم ، رفع السماعة ٠

ــ مين ؟! سناء !

ــ ماجيتش ليه الضهر ٠

وبدوار النوم ،

ـ آسف ياسناء معلهش · رحت من نفسى فى النوم ، وأنا قاعد فى أوضة المكتب ·

وبلهجة محتجة :

ـ والغدا يا كمال · تقعد من غير أكل لغاية دلوقت ازاى ؟

ـ لا ياحبيبتى ، بعت جبت أكل وأكلت ·

كان يجيب باقتضاب · وكان يود لو تنتهى المكالمة بسرعة حتى يفيق من النوم ، ويصحو تماما ··

ـ والليلة حتعمل أيه ؟

وهز رأسه ليفيق ··

ـ الليلة ؟! (وارتبك فجأة ، وطار كل أثر للنوم من رأسه · لقد تذكر) الليلة حيجينى شوقى الشريف ، عشان آخده وأروح بـه لمصطفى سيف ·

وبدا صوتها ، مستغربا وممتعضا ·

ـ شوقى الشريف مين ؟

ـ شوقى الشريف ·· ابن ·· ابن الراجل اللى ·· (وتلعثم) ابن الست اللى وهبتنى القلب ياسناء · عشان مصطفى سيف يساعده فى النشر ·

وسمع صوت السماعة يقفل ·

ـ سناء ·· سناء ·· آلو ·· آلو ··

لكنه لم يسمع غير صوته · وصمت الآلة السوداء ·

* * *

- ٣٣ -

ثمة طبول قدرية ، بايقاع خطى وحشية غامضـــة فى غابة استوائية • كانت تقترب وتقترب بالتدريج لتهز أرجاء الغابة • متى ستحدث الدقة الكبرى لا أحد يعلم ، وان كان الاحساس العام أنها لابد حادثة بالتأكيد ، وفى القريب •

فلقد بدا من ذلك اليوم ، أن هذا الظهور المفاجىء لسناء ، بعد اختفاء طويل عن مسرح الأحداث . أن دورة كاملة توشك أن تتم ، وأن القدر قد اتخذ قراره فجأة ، فحدد اليوم التالى ، ليكون هو التاريخ !

ففى مساء ذلك الخميس ، اصطحب « كمال أدهم » « شوقى الشريف » ، وقدمه الى صديقه الكاتب مصطفى سيف كما وعده •• وبدلا من أن يعود الى بيته فى تلك الليلة سعيدا وراضيا عن نفسه ، عاد وقد امتلأ بالقلق • وتجددت فى نفسه أزمة الاختيار العنيفة ••

كان « سيف » يعيش معركته التى كان يخوضها على صفحات الجرائد منذ أول يوم نجحت فيه العملية · ولكنه فى هذه الأيام كان يتحرك وينتقل أكثر مما يكتب لتكوين التجمع الثورى ، وقد بدت بالنسبة له مسألة موت أو حياة ·

وقد كان طبيعيا أن يلقى بالشعار ، شعار التجمع الثورى · خلال حديثه مع « شوقى » كاتبنا الفتى البازغ · وكانت مفاجأة طيبة – فى أول الأمر – لكمال أدهم أن يرى التجاوب ينشأ سريعا بين مصطفى سيف وشوقى الشريف ، فتفاءل واستبشر ، وخاطب « الأم » فى سره بسعادة وثقة :

الآن ، بدأ ضميرى يستريح · غير أنه فوجىء بنفسه داخل مزيد من الحصار ·

أن يكون لنا موقف · الموقف الحاسم الآن هو التجمع الثورى · ان كنا حقا نحب هذا الوطن · نؤمن بمستقبل هذا البلد ·كلنا ·يجب أن يكون لنا موقف · (ونظر فجأة الى كمال أدهم) وأنت يا كمال أدهم ، أنت بالذات ، يجب أن يكون لك موقف ، صاحب القلب الجديد لابد أن يكون له موقف واضح ومحدد · لم تعد مجرد صاحب مصنع · لن أكرر لك ما كتبته يا كمال عن القلب الجديد · (وينظر الى شوقى الشريف) وأين الرجل الذى عشت بقلبه ، يهمه ويسعده أن ترتفع بحياتك الى مستوى الرمز الذى أصبحت تمثله ··

هكذا بعد أن كان موقف مصطفى سيف الدفاع عن القلب الجديد وحمايته من الأزمات ، أصبح يطالبه بأشياء ، ويدفع به الى أعنف الدوامات ··

« حتى انت يا كاتب الانسانيات ؟

وعلى الفور رأى كمال أدهم مصطفى سيف واقفا مع أحمد زهران جبهة واحدة ·· جبهة يعاديها صلاح عبد الهادى ··

ويعاديها أيضا يحيى البدرى ·

ثم · ها هى مفاجأة جديدة : شوقى الشريف يتحمس لكلام مصطفى ســـيف · ينضم الى جبهته · أهو نفاق من الفتى للكاتب الكبير لكى ينشر له ؟ · يستغل قلب أبيه لمصلحة نفسه ؟ أم ·· هو احساسه الجديد البكر الذى لم يصب بعد بالتشويش ؟

أيا كان الأمر ، فهذا الموقف من شوقى ، يعتبر نذيرا لانقسام فى جبهة يحيى البدرى · وتخيل « هالة » التى لم يرها حتى الآن · تأخذ جانب « شوقى » · أما « عزة » فتأخذ جانب « يحيى » ·

وظلله شعور بالأسف ··

جبهتك يايحيى مكتوب عليها التفكك · لأنك نفسك لا تعرف من أنت ؟ الى من تنتمى ؟

وزفر بابتسامة ساخرة مرهقة : أليست هذه أزمتى أنا الآخر ؟!

بفارق كبير ياكمال · يحيى البدرى لم تتحقق معه المعجزة · أنت تعيش بقلب جديد · ايه يا قلب ؟ ما الذى تنويه ؟ نضحك أم نبكى · نهلل فرحا أم نصرخ رعبا ؟

فى تلك الليلة : عاد الى البيت مزحوم الفكر ·

النوم خير ملاذ ··

وهكذا تكررت مأساة الصمت مع سناء · ونام · وحين استيقظ كان دبيب طبول القدر فى الغابة الاستوائية الوحشية لايزال آخذا

فى الارتفاع ، وحين دوت الدقة الأولى ، كانت على شكل صرخة تخرج من أحشاء سناء ٠

* * *

كان اليوم يوم جمعة ٠ حارا ومضببا من أوله ٠ وحين استيقظ كمال أدهم ، وجد حماه « البدرى الكبير » جالسا فى الصالة مع ابنته سناء يشرب الشاى ٠ عاد الرجل اذن من الاسكندرية مدينة الزوجة الثانية ٠ ورأى وجهه الضخم اللطيف وقد لوحته الشمس وهواء المصيف ٠ فى عينيه نوع من الشرود ٠ « لابد أن مؤونتك مع الزوجة الثانية قد نفدت ٠ أنا تحت أمرك ياعمى ٠ دون حتى أن تلمح بأى شىء سأضع يدى فى جيبك ، بكل ما أستطيع من نقود ، دون أن تعلم حتى ابنتك سناء ٠ كرامتك فى هذه السن يجب أن تكون محفوظة ٠ ترى ٠ ما آخر أخبار اختراعاتك ؟ مهزلة أو مأساة اختراعاتك ؟!

وتعانق الاثنان ٠ ثم جلسا يتحدثان ٠

كان دوى الطبول السارى فى قلب الغابة الاستوائية يأخذ أحيانا شكل الضحكات ٠ لكنها ضحكات رهيبة تخلخل فى صمت جذوع الأشجار ٠ ولقد وجد كمال نفسه فجأة يقاوم ضحكة من هذا النوع وهو يفاجأ بالرجل ينفرد به ، ثم يتقدم اليه بطلب غريب ما كان أبدا يخطر له على بال :

الجهاز الجديد الذى وصل اليه الرجل ، لم يصل اليه انسان فى البلد ، ولكن ما قيمة أعظم اختراع ، مادام الذى وصل اليه رجل اسمه « البدرى حسين » ؟ من يكون هذا البدرى حسين ؟!

بلد لا تعترف الا بدوى الطبول يا كمال ٠ أما اذا قلنا أنه « اختراع كمال أدهم » « فكرة كمال أدهم » فسترى كيف يتدافع الناس

عليه : الرجل الذى نجحت معه عملية نقل القلب ، اكتشف اختراعا عجيبا • سيؤمن الناس من أول لحظة بعبقرية الاختراع يا كمال ، سيقبلون عليه بلهفة وسنكسب عشرات الألوف من الجنيهات • ما رأيك يا كمال • لماذا لا ترد • لا تتردد • أنت ابن سوق وتعرف •

لم يرد الا بابتسامة •

اما أنه يقترب من قمة المجد •• الى عرش الآلهة بصاروخ ، واما أنه ينحدر الى هوة السفح بأسرع من شعاع العين ويكون الدمار الرهيب •

• اسمعنى جيدا يا كمال • فكر فيما أقول • استخدام اسمك على هذا النحو ليس حراما • سيستفيد الناس قبل أن نستفيد نحن • احسب حساب الزمن الزمن يا كمال . تذكر ، أنت تعيش فترة لاتعوض •• لا تضيع الفرصة • لا تنتظر حتى تضيع دهشة الناس بنجاح العملية وتصبح رجلا عاديا • بعد فترة بسيطة . ستكثر القلوب الجديدة ، ولن يصبح قلبك المعجزة هذا . الا قلبا عاديا • قلبا من القلوب • أنت تعرف أن طبيبك يجرى الآن عملية جديدة • وكما نجح معك ، سينجح مع غيرك • أنت الآن فى عز أيامك الذهبية يا كمال • ان لم تؤمن مستقبلك هذه الأيام بالذات فمتى ستؤمنها • والزمن غدار يا كمال • ليس له أمان • أنت ابن سوق تعرف • خذ الجهاز واعرضه باسمك فى السوق •

ـ يا الهى • الهمنى كل الضحك الذى فى العالم لأحفظ توازنى •• حتى « البدرى الكبير العجوز » يريد لنفسه القلب الجديد •

ـ وأنا اللى حاقوم بالانتاج يا كمال • مش حتتعب انت فى أى شىء ••

ـ اضحك يا كمال يا أدهم · اضحك خفف عن نفسك ، لتعرف كيف تفكر · وجاء يضحك ، لكن ضحكته انقطعت فجأة :

رأى سناء تقبل عليهما بهيئة غريبة · كانت ترتعش · غضب واضح ورهيب يطل من عينيها · من كل ذرة فى جسدها ، وفى يدها احدى المجلات · أهناك صلة ؟!

وقال الرجلان فى نفس واحد بانزعاج :

ـ فيه ايه ياسناء ··

وفوجىء كمال بها تهز الجريدة فى وجهه وتصرخ بسخرية وقد احتقن وجهها بالدماء :

ـ حيبقى فيه ايه أكتر من كده يا أستاذ ·· ؟! اتفضل اقرأ ·· (وألقت اليه بالجريدة) وبصوت متشنج : عايزنى أفضل ساكتة لامتى ؟ لغاية ما الفضيحة بقت على صفحات الجرايد والمجـــلات (وانفجرت باكية) أنا خلاص يا بابا ، ماعدتش قادرة · مش ممكن أستمر فى العيشة دى أكتر من كده ··

ما الذى تقوله هذه المرأة ؟

الفضول الممتزج بالذهول والخوف والضباب · ماذا فى هذه المجلة ؟

وانكب يقرأ · وارتعد كل جسده : ما هذا ·· مستحيل ·· ما قصدهم · مؤامرة لتدميرى · الحق يا مصطفى سيف · انظر ماذا تكتبه مجلة « أضواء الليل » عنى وعن الزوجة التى وهبتنى القلب ؟

« شوهد كمال أدهم ، الرجل الذى نجحت معه أول عملية نقل قلب ، يسير فى الشوارع فى صحبة ابن الرجل الذى أخذ قلبه ·

كانا يمشيان فى حالة عاطفية شديدة ، كاب فى صحبة ابنه · والمعروف أن زيارة السيد كمال أدهم لعين شمس ، حيث البيت الذى تعيش فيه الزوجة التى وهبته القلب ، تكاد تكون يومية ، ويعود من هناك فى ساعة متأخرة من الليل ، ويقول بعض العلماء ، انه يذهب الى هناك مدفوعا بنفس العاطفة التى كان يعيش بها الرجل الذى مات ·

ان هذا يؤكد القضية الخطيرة ، أو وجهة النظر القائلة بأن القلب ليس مجرد عضلة أو مضخة ، انما هو مصـــدر العواطف والأحاسيس والانفعالات التى لا تموت بموت صاحبها ، بل تبقى ببقاء القلب ذاته ؟! »

ما هذا الجنون ؟ · بل ما هذا التوحش ؟ ثمة مؤامرة تحاك من حوله ، ومركزها هذه المجلة · سناء لاتزال تبكى · بماذا يرد ؟ الرد يكون هناك · سيرتدى فورا ملابسه ويذهب الى هذه المجلة ·· سيقلبها على أصحابها · لو يستطيع أن يقفلها سيقفلها · سناء تهدد بتركها لهذا البيت · أى عالم هذا الذى اصبح يعيش فيه · حتى سناء تصبح فى طـــرف آخر · معجزة الحياة · قوة الآلهة مطلوبة لك يا كمال لكى تستمر فى الحياة · وتتوازن من حولك الأشياء ·· ترى كل شىء فى مكانه الصحيح ··

دوى الطبول فى الغابة يزداد ويعلو ·

وأوشك أن يصرخ · وأحس بركس يلامسه ويلتصق به.الحقنى ياركس · ربما أنت الوحيد الذى أعرف بالضبط مكانك الصحيح · وتعرف أنت أيضا مكانى ومن أكون ·

نفكر سويا ياركس ·

التليفون يدق · ربما تليفون انقاذ · تليفون خلاص ·

وغمغم ·

ـ آلو ·· أهلا يا سطنى · صـــمت عميق مروع ، عينـــاه تتسعان فى رعب ، وجهه ينتفض وكل جسده يهتز · يصرخ فجأة كمن لدغه ألف عقرب فى لحظة واحدة :

مات ؟! فى حادثة ؟ ·· مستحيل ، مش ممكن · مش ممكن يا مصطفى انت بتكذب · مش ممكن · الدكتور بتاعى يموت ؟! لا ·· لا · مستحيل ·· مستحيل ·

وســـقطت السماعة من يده ، وترنح فى وقفته ، مستحيل ، مستحيل (يداه الاثنتان فوق قلبه) الدكتور بتاعى · الدكتور بتاعى ·

لأ · لأ · مش ممكن يموت · مش ممكن تمــوت · ماتسيبنيش لوحدى · ما أقدرش أعيش من غيرك ·

كان الفزع قد انتقل الى زوجته ، والى البدرى الكبير ، فجريا اليه ··

وأرعبهما منظره ، وقد فقدا القدرة على اى نطق ·

وكان كمال أدهم يدور مترنحا فى الصالة يصرخ وقد امسك بقلبه ، يترنح فى خطواته · وركس يتبعه مذعورا مذهولا · وكان وجهه قد شحب مرة واحدة ،حتى أصبح جلدا على عظم ، وكبر أنفه بشكل عظيم · الدنيا تدور به · ذراعا سناء وذراعا البدرى الكبير تمتد لتتلقاه ·

ـ لا ،لا · أبعد عنى ، قد أصبحت وحدى · وحدى · ما جدوى الأذرع التى تمتد ، الفجيعة فى القلب · وينحنى صارخا من الألم وهو يدور وبكل كفيه يريد أن يمسك بالقلب . كيف ستعيش أيها القلب؟ مات طبيبك ياقلب · الوحيد فى هذا العالم الذى يعرف سرك مات · كيف ستعيش بدونه · كيف · كيف ·· كيف · مات فى حادثة ؟ بكل

هذه البساطة يموت أعظم انسان فى هذا العالم ؟ كيف يارب ؟ وفيم اذن كان كل هذا الكفاح ؟ وسهر الليالى والنضال ٠

فى غمضة عين ٠ فى طرفة عين ، ينتهى كل شىء ٠ وفيم اذن نحيا ٠ فيم اذن تستمر دقاب القلب ٠ يا قلب ٠ الدوار ٠ الضباب ٠ الظلام ٠

وبكل هيكله سقط على الأرض ٠ بلا حراك ٠

* * *

فى دقائق كان بيت كمال أدهم يرى مشهدا غريبا : الوف من الناس تحيط ببيته ٠ كان قد حدث شىء غريب لم يفكر فيه أحد على الاطلاق فقد نسى الناس موت الطبيب ، واهتموا بأثر الخبر على القلب الجديد ٠ ليس مهما أن يموت الطبيب بعد أن قدم لهم القلب الجديد ٠ المهم أن يستمر ٠ هذه هى المعجزة ٠ أن يستمر القلب الجديد بلا طبيب ٠٠

وكانت أعدادهم تزداد دقيقة بعد دقيقة ٠ الشارع امتلأ ٠ وفناء البيت ٠ والسلالم ، حتى الشقة ٠

يجب أن تعيش ٠٠

أما فى حجرته ، حول سريره وهو ممدد بجســـده الطويل ، ضائعا فى الغيبوبة ٠ كانت وجوه قريبة وحبيبة تحيط به ، تبكى ٠٠ وترجوه : الزوجة الأم التى وهبته القلب ٠

زوجته سناء ٠٠

عزة ، ويحيى البدرى ٠

شوقى وهالة ..

أحمد زهران ومصطفى سيف . صلاح عبد الهادى . والبدرى الكبير . حماه . وحماته .

ـ اســـتيقظ ياكمال . استيقظ . نرجوك . (وينظرون الى بعضهم البعض من خلال الدموع) سيحل السلام . نعدك . سيحل السلام .

وهو غارق فى الغيبوبة ..

ما كل هذه الأصوات ؟

ما هذا الصوت . هذا الصوت بالذات ..

عزة تناجيه بالدموع . ترتجيه .

ـ اصحى يا بابا كمال . بابا كمال .. اصحى أرجوك . اصحى علشانى ..

والجميع يكون فى صمت . وفى رجاء وابتهال .

ـ علشان عزة لازم تصحى ..

جفناه يختلجان ..

شفتاه تتمتمان ..

ـ مين ؟! مين اللى بتتكلم .

ـ أنا عزة يا بابا . بنتك عزة يا بابا كمال هى اللى بتتكلم .

دموعها تسقط على وجهه ..

ابتسامة بعيدة بعيدة .. الأعناق تشرئب بالفرحة والأمل .. ان كانت الدموع تعيدك الينا . فهذه دموعنا . كلها من أجلك .

ـ وأنا شوقى يا بابا كمال ، لازم تقوم ، عشان تشوفنى كاتب كبير · زى ما كنت بتحلم ·

ـ وأنا « يحيى » يا أستاذ كمال · لازم تقوم · وترجع مصنعك تانى ، العمال بره واقفين · والمكن واقف · مش حيرجعوا يشتغلوا الا اذا شافوك واطمأنوا عليك ·

وأصوات الجميع · كأنما كل واحد من الموجودين يريد أن يسجل لنفسه كلمة يساهم بها فى بعث الرجل الى الحياة ·

ـ اصحى يا كمال · اصحى يا كمال ··

ـ لازم تقوم ··

ـ وتقف على رجليك من جديد ··

ـ أنت سليم · مفيكش حاجة ·

ـ وحنصلى الليلة مع بعض باذن الله فى الحسين ··

حتى ركس هو الآخر ، كان يزوم ويدور ··

تتسع الابتسامة · لكنها كالشعاع العابر تتلاشى · ويذهب الوعى الى القرار السحيق ، ثم تحمله الموجة من جديد الى حيث يرقد ، فى حجرته ، على السرير · وحوله هؤلاء · أطيافهم جميلة · كلها حبيبة ، هذه الأصوات التى تأتى من بعيد ··

ـ أنا سامع الأصوات ·

واندفع اليه زهران بلهفة ، باسطا له كفيه فى ابتهال ، والدموع منسابة على الخدين المتغضنين ·

ـ دول الناس يا كمال · ناس عاديين · الشعب الطيب اللى

باحكيلك عنه ، بيدعى لك • عايزك تقوم بالسلامة • قلب الشعب لازم يفضل عايش يا كمال •

وانفجر زهران فجأة فى البكاء • ومرة أخرى كان الكل يبكى ، مصطفى سيف يبكى ويقول :

ـ استمرارك فى الحياة ، هو استمرار للطبيب • طول ما أنت عايش يا كمال • كنت باقول لك مش مصدقنى ••

الدموع تنساب على الخدود ••

تعبير غريب يرف على وجه كمال • كأنه وجه طفل عمـــره ساعات أو عمره آلاف الأعوام يتمتم بصوت آت من بعيد • كلمة • كلمة •

ـ ما تعيطوش • أنا عايش • أنا صاحى • أنا بافوق •

ويتنفس بصوت مسموع •

عيناه تتحركان •

الأعناق تشرئب بلهفة •

عزة تصيح فرحا وهى تبكى • تناديه • تناجيه ••

ـ بابا كمال • اصح كمان يابابا كمال • خدنى فى صدرك ، بين ايديك يابابا كمال •

وبقدرة طيفية سحرية ، ارتعب لها الكل فرحا ، تحركت يدا الرجل ، ببطء شديد ، مد ذراعيه • اليها • وبدا صدره مفتوحا لها ، وارتمت عزة عليه وهى تجهش بالبكاء •

وبكى الكل ـ حتى سناء ، وهم يرون ذراعيه تحيطان بالبنت ،

وهو يحتضنها ، كأنما يستمد منها نبع الحياة · ودوت صيحة فرح كبرى هزت أرجاء الغابة الاستوائية ·

أعقبها صمت عميق · أشبه بالهمود · فقد توقفت طبول القدر لتستريح ، ولتعود الى مكامنها الخفية خلف بعض الأشجار ، لترقب من بعيد ، القلب الجديد الذى فقد طبيبه · وأصبح مكتوبا عليه أن يواجه الحياة ، بل ويواجه كل هؤلاء المحيطين به ، وحده ·

وبدا الكل وهم متجمعون حوله · بكل ما فيهم من تناقضات دفينة ، كأنما الدورة تبدأ من جديد ··

يالها من دورة ستكون ··

تستعد لها من الآن · طبول الأقدار ··

« اغسطس ١٩٦٨ »

الفهــــرس

رقم الايداع ١٠٤٦٦/١٩٩٣

I.S.B.N. 977 — 01 — 3591 — 7 الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

« ... وصمتُّ مأخوذًا بمنظر السطح الأبيض المترامي أمام شرفتها :
إنها متجمدة .. أول مرة أرى فيها بحيرة متجمدة !

قالت بحياء ابتسامة .. بملامح توحي بحيرة متجددة لكاتب !؟ .

قلت وقد أحببت سؤالها ، توحي بروعة رؤية تحدثتها غير معروفة بعد .. لكنها بالحجم للمعة .. ولكن الرغبة تتملكني الآن أن أنصب إليها ، وأمشي فوقها .. أن يمشي الإنسان فوق أرض من الثلج .. تجربة !! .

قالت منبهة : نعم .. ولكن يجب أن تأخذ حذرك .. إن السطح وحده هو المتجمد .. أما الأعمق فهي مليئة بالماء .. وفي بعض المناطق لا يغطي السطح سوى طبقة رقيقة هشة من الثلج .. تخدع السائر عليها ، فيسقط بغتة في المياه العميقة !

ورأيتني أسقط في بطن البحيرة .. في أحد المواقع المخادعة .. تغرقني المياه الثلجية .. ابتلعتني الأسطورية .

قلت : فلتكن التجربة بالخيال فقط .. !!

من رواية « امرأة فوق الثلج »

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

[illegible] قرشا